

للرحيق شميم.... وشمم
مقاربات للسيرة الذاتية "رحيق العمر"
للأستاذ عباس الجراري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

**إلى أستاذ الأجيال، عميد الأدب المغربي
الدكتور عباس الجراري
تُهدى هذه الأعمال، دونتها أقلام ذاكرة شاكرة،
آتية من أزمنة متباينة، وأجيال متعددة.**

للرحيق شَمِيم وشَمَم

مقاربات للسيرة الذاتية "رحيق العمر"

للأستاذ عباس الجراري

كتاب جماعي

تنسيق وتقديم :

د. محمد حميدة

منشورات النادي الجرائي -106-

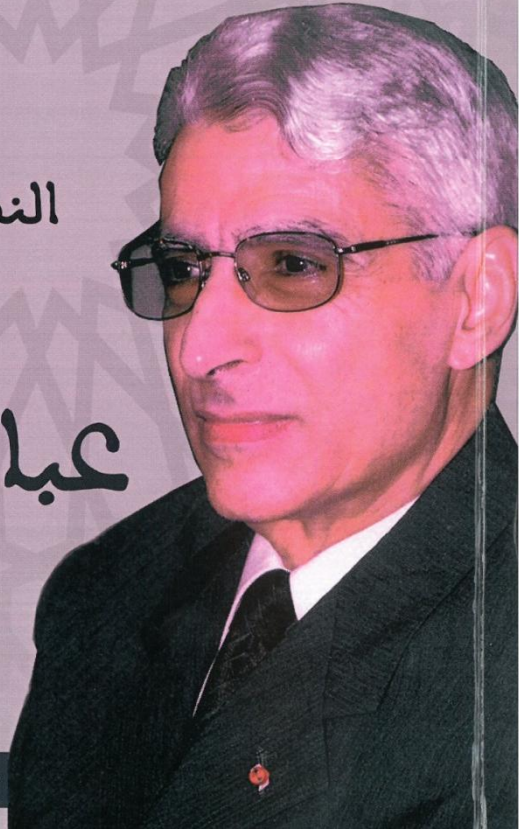
المؤلف	:	للرحيق شَمِيم وشَمَم
تنسيق وتقديم	:	مقاربات للسيرة الذاتية "رحيق العمر"
الناشر	:	للأستاذ عباس الجراري
لوحة الغلاف	:	كتاب جماعي
رقم الإيداع القانوني	:	د. محمد احميدة
ردمك	:	منشورات النادي الجراري
الطبعة الأولى	:	للفنان الروسي فاسيلي كاندينسكي
الطبع	:	Wassily kandinsly(1866-1944)
	:	2021MO3760
	:	978-9920-558-06-8
	:	شتنبر 2021
	:	Edition Dar Assalam

تخليداً للذكرى التسعين لتأسيس النادي الجراي 1930 - 2020

رحيق العمر موجز سيرتي الذاتية

ج. 1
النشأة والمشروع

عباس الجبراري



منشورات النادي الجراي رقم 101

تقديم

د. محمد حميدة*

إعلم - أعزك الله - أن البوح هبة، والقدرة على إخراجها من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، دونه حَدَد، وامتلاك زمام البوح ليس في كل يمين، وسبيل الامتلاك غير يسير.

ورحيق العمر في جزئه الأول شروع في تحقيق المأمول. بيد أن السؤال الذي قد ينبثق بداءة، قد يصاغ كالاتي:

لماذا قرر الأستاذ عباس الجراري نشر سيرته الذاتية اليوم، وهو في بداية سنوات الثمانين من عمره، مد الله في حياته وامتعه بتمام الجَمَام، ثم يقرن هذا الإصدار بتخليد الذكرى التسعين لتأسيس النادي الجراري؟

هل الهدف تقديم تجربة ذاتية عبر مسار طويل وغني، تكون مرجعاً للغير؟ أم أنه تحقيق رغبة من كان يلح من الباحثين وأصدقاء العميد لكتابة هذه السيرة؟ أم العبرة أساساً، تكمن في تحقيق ذلك التواصل بين الأجيال « المتطلعة إلى مزيد من التواصل فيما بينها ومع من سبقها، وإلى مزيد من معرفة تلك الحقائق وتأمل واقعها، في بعدها الممتد أزيد من ستة عقود، منذ انتهاء عهد الحجر والحماية وبزوغ فجر الاستقلال والحرية »⁽¹⁾؟ أميل إلى القول بتداخل كل هذه العناصر لكتابة هذه السيرة.

وأعلم أيها القاريء، أن الذي بين يديك من كتابات، لا تجيل النظر إلا في سيرة موجزة، وفي جزئها الأول ليس غير. ومن ثم تبقى آفاق الانتظار مفتوحة، خاصة وأن صاحب السيرة يعدنا بجزء ثانٍ، « الشهود الفاعل »، عنوانه المحتمل، يتناول فيه ما شاهده وما ساهم به -قدر الإمكان- في الشأن الوطني العام تحت ظل

* أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة (سابقاً).

⁽¹⁾ عباس الجراري، رحيق العمر، موجز سيرتي الذاتية، ج1، النشأة والمشروع، مقدمة، ص، 7.

ثلاثة ملوك عظام⁽¹⁾، وقد يضيف ثالثاً «يتضمن مجموعة من الصور الشخصية والعامة المواكبة لمراحل هذه السيرة»⁽²⁾.

أما اختيار زمن البوح وإخراجه مسطوراً إلى دائرة التلقي الواسع، مقروناً بالذكرى التسعين لتأسيس النادي الجرائي، فيستبطن التقدير الكبير والاعتراف الممتد في نهر الزمن، للوالد المرحوم عبد الله الجرائي، مؤسس النادي، والقودة والمثال للابن البار.

ضم «رحين العمر» في جزئه الأول جانباً من مسار الدكتور عباس الجرائي، قصره في ذلك السَّفر، على نشأته ومشروعه العلمي. ويوحى لفظ «الرحيق» بهمس تخاله يعبر بك إلى سبيل هاديء تنفياً ظلاله، وتشرب رحيقاً مختوماً ! لن يكون الأمر كذلك ! ما تلبث الكلمات - وأنت منغمس طي العبارة الجرائية- أن تتحول بين يديك إلى جمرات، ويغدو الرحيق حريقاً، متولداً مما تلفظه الألفاظ من لهيب المعاناة ! وقد يتساءل القاريء: أين شميم الرحيق الكامن في كَلِم القلم الجرائي ؟

إذا كان الرحيق في أحد معانيه ضرباً من الطيب الخالص الذي لا شوب فيه، فما كانت مسيرة العباس كذلك، بل شابتها أشياء آلمته، وإذا كان الرحيق شراباً لا غش فيه ولا كدر، فالرحيق/السيرة يحمل من الكدر قدراً غير يسير. غير أن المسار الجرائي، كان محفوظاً بسُّبُحات إلهية، فلم يكن الرحيق دوماً شراباً أجاجاً، بل غدا بمشيئة الله، شراباً مختوماً مصوناً، صفواً طيباً، فُراتاً نَميراً.

بين هذا وذاك، ماجت سنون العباس؛ ولما كان الرجل من أهل الإيمان، نقيّاً ورعاً، فقد كان «تسنيمه» من رحيق مختوم، ومن عين يشرب منها المقربون ارتوى. فَبِمَ ملئت الكأس الأولى من هذا «الرحيق»؟ وكيف قدمت ؟

تبسط السيرة الجرائية في جزئها الأول ملامح النشأة والمشروع العلمي لعميد الأدب المغربي، وتفرعت الكتابة إلى منحى ارتبط بالتنشئة التربوية والاجتماعية، وآخر انكتب من خلاله المسار العلمي، لينعطف في بعض الفصول إلى رسم ملامح من

(1) رحيق العمر، ص، 16.

(2) نفسه، ص، 17.

المسار السياسي الذي دونت السيرة في جزئها الأول ملامحه بشكل رقيق، قد يغدو توسيع الكلام عنه في الجزء الثاني، مجالاً أرحب وأنسب.

وخروج هذه الكتابة إلى دائرة التلقي الواسع، قد يفتق مجموعة من التساؤلات، سعيًا إلى استشمام خفايا النص، خاصة وأنها كتابة ترسم جانباً من عالم شخصية لها مكانتها العلمية ومركزها الاجتماعي، وحظوتها لدى الدوائر السياسية العليا، وتأثيرها في تاريخ الثقافة المغربية في مرحلتها المعاصرة، جلي وموشوم.

لتحقيق هذا المقصد، خاطبنا مجموعة من الباحثين الأكاديميين - الذين رحبوا مشكورين- لتقديم مقاربات لكتاب « رحيق العمر»، دون أن نشفع ذلك باقتراح محاور محددة، مفسحين المجال لكل باحث لتلمس المدخل الذي يرتضيه مَعبراً لتشبيد حوارهِ مع النص.

أنتج الحوار رؤى متعددة، وسَّعت آفاق النص، ليجد المتلقي نفسه أمام مرايا محدَّبة عكست أوجها عدَّدت ما خُطَّ لفظاً طي «رحيق العمر». أحد هذه الوجوه مشى يتغيا الكشف عن العلاقة بين السلطة العلمية والسلطة السياسية، بدءاً من رصد مقومات السلطة العلمية في «الرحيق» وانفتاحها على السلطة السياسية، وتبيان الدور الذي اضطلعت به في الدفاع عن المصالح العليا المغربية. وكان للرحيق شميم آخر نظر إلى هذه الكتابة باعتبارها حكياً عن الذات، يتراوح بين التوثيق والسرد الانتقائي؛ وتبادل وظائف الحواس في هذا السياق يقود القاريء إلى رصد مغاير يكشف عن تقاطع المحكي الذاتي والمحكي الجماعي، ما مهد لرؤية أخرى ترى أن الأستاذ عباس الجراري قد كتب سيرته بمنهجية جديدة، وأسلوب بسيط كان الهدف من ورائه، الوصول إلى المتلقي المتعدد.

ونُظر إلى «الرحيق» بعين رأت فيه نصاً حاملاً لقيمة معرفية، عزَّزتها رؤية أخرى اختارت مدخلاً أدّى إلى الوقوف على تجربة واقعية غير متخيلة وحاملة لوجهين: أحدهما ذاتي والآخر موضوعاتي. وخلصت إحدى المقاربات إلى أن سيرة عميد الأدب المغربي، هي جزء لا يتجزأ من سيرة الأدب المغربي الحديث، بل ما

يشكل ثقافة المغاربة عامة. وسيجد القاريء ضمن هذه المقاربات، ما جنح إلى كتابة هوامش على السيرة، مست عناصر متنوعة، بدءاً من الحديث عن السيرة والحقيقة، وانتهاء بـ « شذرات مما جاء في باب اللوم»، ودُيِلت هذه الهوامش باستخلاص يرى أن صدور السيرة الذاتية للدكتور عباس الجراري يعتبر حدثاً ثقافياً وأدبياً بامتياز. ولما كانت المرايا محدّبة، فقد سمحت بإغناء تعدد زوايا النظر، فوجدنا من شَيّد كتابة تتأمل ما حَبِلَ به « رحيق العمر» من معاناة، فتولد «اللسع المر». والذي يلفت النظر في حكي الألم خلل هذه المقاربة، ذلك التماهي الذي نضحت به صياغة ذلك الحوار الذي نسجه صاحب «اللسع المر» مع النص؛ ثم تفتح لك المرايا زاوية أخرى، سمحت بإطلاع القاريء على ذلك الحضور القوي للمكان، داخل فضاءات «الرحيق»، وهو ما انبرت إليه إحدى المقاربات، في محاولة لقراءة دلالاته في هذا النص. وأنت تغادر المكان الحاضن للحكي، تجذبك نظرة أخرى تذكرك أن البوح في «الرحيق»، ليس على عواهنه، بل تمت صياغته بإيقاع معقلن. ولما كان «صاحب الرحيق» حلو الكناية فقد حضرت عين بلاغية بصّرت أنّ «الرحيق»، باعتباره نصّاً أدبياً، يستبطن صياغة استعارية، إن لم يكن النص برمته استعارة كبرى. فحضرت استعارة «الحياة رحلة»، شُفّعت بأخرى رُصدت متخفية في العنوان الفرعي للسيرة.

والحق أن غنى الرؤى، وتعدد المداخل التي تبسط أمام المتلقي سبل الحوارية، آتٍ من غنى تجربة صاحب «الرحيق»، الممتدة عبر عقود من الزمن، ومراحل تاريخية شائكة، زادتها تشعبات مجالاتها خصوصية وثراء.

وما يحمله هذا السّفر من حوار مع «رحيق العمر»، يمكن أن يشكل عتبة أولى لحوارات أخرى. هذه العتبة الأس، شَيّدها ثلة من الباحثين الأكاديميين، الذين رَحّبوا بتقديم مقاربات لهذه السيرة الجراحية، ورغبت في نفس الآن أن يكون صوت الباحثين الجامعيين الشباب حاضراً، فسعيْتُ إلى أن يضم هذا الكتاب بصمة لهؤلاء الواعدين، ممن توسمنا أملاً في مستقبلهم العلمي، فأفسحنا لبعضهم مجال المشاركة. ركبنا هذا المسار استلهاماً للروح العلمي وأخلاق المدرسة الجراحية، التي

كان عميدها عباس الجراري، دوماً، محتضناً ومشجعاً لمن يأمل فيه نجابة علمية؛ واتخذ هذا الاحتضان والتشجيع تجليات مختلفة، بدت آنأ في « جائزة عبد الله الجراري»، المخصصة لهذه الفئة من الباحثين، تُشفع آنأ آخر، بنشر أعمالهم العلمية ضمن «منشورات النادي النادي»، أو خارجها. وحضور صوت الباحثين الشباب في هذا الكتاب، يضع بين يدي المتلقي المفترض، رؤى لأجيال جامعية مختلفة، في حوارها مع صورة من الزمن المغربي، في أبعاده المتعددة، عبر مرحلتين: المعاصرة والراهنة.

وما كان هذا السّفر ليستوي بالشكل الذي نضعه اليوم بين أيدي الباحثين والمهتمين، لولا أريحية هذه الأقلام التي سطرت ما شيد متناً نخاله نفيساً؛ وكنت أعلم أن ما طُلب إنجازه مُحاط بظروف صعبة، فالزمن، زمن كورونا Covid.19، وزاد الأمر صعوبة، تحديد السقف الزمني للإنجاز، بتاريخ مضبوط، دون أن يغيب عن البال ما ينشغل به كل باحث في إطار اهتماماته العلمية، داخل الجامعة أو خارجها. والحق أني حين خاطبت أهل هذا الكتاب - وجميعهم تعمّموا خُلقاً جميلاً وفضلاً- على رجاء وتأميل، وجدت صدوراً مأهولة محبة وتقديراً، لرجل حديثه ماثور.... وبنبل باذخ جاءت الاستجابة!

ومن ثم كان واجب الشكر ركناً من أركان هذا التقديم، ييسط لهذه الأقلام، وكلما قلت شكري أستوى، وجدت اللفظ بين يديّ قد ألتوى، عاجزاً عن الإيفاء بما رغبت في رفعه إلى كل من تشمّ الرحيق، وصاغ استشمامه كَلِماً طيّ هذا السّفر؛ أشفع كل ذلك، بالتنويه بروح التعاون التي صدر عنها الأستاذ محمد اليملاحي، أثناء تهيئتي لهذا العمل، باقتراحه لأسماء الباحثين الشباب، الذين حرصنا على إسهامهم في هذا الإنجاز، وإن تعذر على بعضهم تجسيد حضوره داخل الكتاب، لظروف لم تسعف على إكمال المأمول.

ويوحي «رحيق العمر»، بانفتاح مستأنف، تبقى معه السيرة نصّاً مرجوعاً إليه. ورشّك ما ملئت به الكأس الأولى، يغريك باحتساء ثانية، قد تكون أحلى وأغلى....!؟

وجماع القول.... الكلام عن السيرة العباسية، بساط لا يُطوى.....
وفي «الرحيق» شميم وشمم.....!

وحرر بالمحرسة «رباط الفتح»
يوم الثلاثاء 2 من ذي الحجة عام 1442هـ
الموافق لـ 13 يوليو 2021م
(زمن كورونا Covid.19)

* * *

ذ. محمد اليملاحي

- أستاذ البلاغة والمعجم بالمدرسة العليا للأساتذة بالرباط.
- نشر عدة مقالات في مجلات مغربية وعربية وكذا ببعض الملاحق الثقافية للجرائد المغربية (المحرر الثقافي، العلم الثقافي).
- ساهم في عدة أعمال جماعية منها:
- سمات التفكير العلمي في البحث الأدبي عند الدكتور عبد الحكيم راضي، ضمن كتاب: مسافر زاده الحب، أشرف عليه: عماد عبد اللطيف، محمد مشبال، هدى النبوي، مكتبة الآداب للطباعة والنشر، القاهرة 2014.
- أسئلة الفكر البلاغي في المغرب، مقارنة لمشروع محمد العمري، ضمن كتاب: البلاغة والخطاب، إعداد وتنسيق محمد مشبال، منشورات ضفاف، الاختلاف، دار الأمان، الرباط 2014.
- أسئلة الفكر البلاغي في المغرب، مقارنة أولية لمشروع محمد الولي، إعداد وتنسيق محمد مشبال، منشورات ضفاف، دار الأمان، الاختلاف، الرباط 2015.
- التواصل المعرفي والتعامل الأخلاقي بمجلس النادي الجرائي، ضمن جهود الأستاذ الدكتور عباس الجرائي في إثراء التنمية الثقافية المستديمة، تنسيق عبد الله بنصر العلمي، منشورات المركز الأكاديمي للثقافة والدراسات المغربية والشرق أوسطية والخليجية، فاس 2017.
- قضية الشعر لدى الأستاذ عباس الجرائي، من التصور إلى الإنجاز، ضمن: عباس الجرائي شاعراً، إعداد وتنسيق وتقديم محمد حميدة، منشورات النادي الجرائي، الرباط 2018.
- استعارات الحب في شعر الملحون، مقارنة معرفية، ضمن: الفن المكمول، نحو مقارنة جديدة للشعر الملحون، منشورات النادي الجرائي، الرباط 2020.

• اللغة الواصفة عند الأستاذ الجرامي، مقارنة لأسلوب الكتابة، ضمن:
الأدب المغربي الحديث والمعاصر، أسئلة وقضايا، جامعة ابن طفيل، النادي
الجرامي، الرباط 2020.

• اللغة والهوية عند الأستاذ عباس الجرامي (تصدير) من قضايا اللغة
العربية، عباس الجرامي، منشورات النادي الجرامي، الرباط 2020.

• خطاب الهوية والأخلاق، قراءة في كتاب: كلمات تقديم الأستاذ عباس
الجرامي ج 5، منشورات النادي الجرامي، الرباط 2016.

- كما يعد للنشر بعض الكتب المتعلقة بالبلاغة العربية قديماً وحديثاً.

* * *

السلطة العلمية والسلطة السياسية

تأملات في سيرة الأستاذ عباس الجراري¹

ذ. محمد اليملاحي

"وإني لأستسمح للاعتراف بأنني كنت منذ طفولتي الأولى..... على صلة -مباشرة وغير مباشرة- بالمحيط الملكي وفي رعايته، منذ عهد جلالة السلطان المجاهد سيدي محمد بن يوسف قدس الله روحه. ومع ذلك فإن ما لقينته من عناية فائقة وما اكتسبته من خبرة بجانب جلالة الحسن الثاني رحمه الله، ولا سيما مع جلالة الملك سيدي محمد السادس أيده الله ونصره، لا تكفي لإبراز أهميته وغناه بالنسبة لي إشارات عابرة في مسيرتي الموجزة، لتجاوز الجانب الشخصي من هذه السيرة، ولما له من ارتباط وثيق بالحياة العامة التي عشت جزئياتها وتفصيلها، سواء على مستوى السياسة أو غيرها من مجالات الدولة على مدى ستة عقود". رحيق العمر، (ص 136).

تعد العلاقة بين السلطتين العلمية والسياسية إحدى المواضيع الهامة في التاريخ العربي الإسلامي، كما أن لها امتدادات في التاريخ العربي المعاصر، وظلت منذ ذلك العهد موضع اهتمام الدارسين؛ بسبب دورها في الحياة السياسية والثقافية معاً وكذا الالتباس الحاصل بينهما قديماً وحديثاً.

سأتناول في هذا الموضوع العلاقة بين السلطتين العلمية والسياسية انطلاقاً من سيرة الأستاذ عباس الجراري، لأنها تنطوي، في نظري، على مادة خصبة تسعف الدارس على مقاربة الموضوع، من خلال حالة عباس الجراري، علماً بأن هناك

¹ رحيق العمر، موجز سيرتي الذاتية، ج 1، النشأة والمشروع، منشورات النادي الجراري رقم 101، الرباط 2020.

حالات أخرى جديرة بالاهتمام مثل حالة الأساتذة: عبد الله العروي، أحمد التوفيق، والمرحوم محمد عابد الجابري...

ومن شأن هذه الدراسات القطاعية المساعدة على إنجاز دراسة تركيبية تلقي مزيداً من الضوء على هذا الموضوع الحيوي الهام.

ومما يشجع على تناول السيرة من هذه الزاوية، البناء والأسلوب اللذان اختارهما المؤلف لسيرته، فجعلنا منها نصاً أقرب إلى التاريخ منه إلى السيرة الذاتية، لأنه يحكي ما وقع موثقاً في الزمان والمكان، مغيباً بذلك عنصر التخيل، وقد نص المؤلف على هذا بقوله: "أود أن أشير إلى أن قصدي من تسجيل هذه السيرة أن تكون خالصة صادقة، وصافية من كل تزيف أو تحريف أو مبالغة. وهو ما اجتهدت أن ألتزمه ولا أحيد عنه. ولو شعرت بأدنى ميل عن هذا الالتزام لأسرعت إلى تمزيق ما كتبت باعتباره سيكون غير ذي أهمية بالنسبة للأجيال الجديدة المتطلعة إلى مزيد من التواصل فيما بينها ومع من سبقها، وإلى مزيد من معرفة تلك الحقائق وتأمل واقعها، في بعدها الممتد أزيد من سنة عقود، منذ انتهاء عهد الحجر والحماية وبزوغ فجر الاستقلال والحرية"¹.

سأنطلق، في البداية، من تحديد دواعي الاهتمام بالموضوع، وبيان المقصود بالسلطة العلمية ومقوماتها، ثم أنتقل، بعد ذلك، لرصد تلك المقومات في سيرة الأستاذ الجراري، مركزاً، بالخصوص، على مشروعه الفكري ودوره في تشكيل سلطته العلمية والصراعات التي خاضها لتثبيت تلك السلطة في المجال الأكاديمي وكذا انفتاحها على السلطة السياسية وبيان الدور الذي اضطلعت به في الدفاع عن المصالح العليا للدولة المغربية، ثم أنهي الموضوع بخاتمة تستخلص النتائج التي انتهت إليها في الموضوع.

¹ رحيق العمر، ص: 17. لمزيد من إيضاح موقع السيرة الذاتية من التاريخ والرواية، تراجع الدراسة الهامة للأستاذ محمد العمري: بلاغة السيرة الذاتية، تداخل الواقع والخيال، ضمن كتاب: البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، صص: 139 - 159. أفريقيا الشرق، البيضاء 2005.

أولاً: دواعي الاهتمام بالموضوع: تتلخص تلك الدواعي في الكشف عن جانب مهم في شخصية الأستاذ الجراي ظل بمنأى عن اهتمام الدارسين الذين عنوا بمؤلفاته؛ إذ انحصرت جل تلك الدراسات في الجانب الأدبي بشقيه الفصيح والعامي، دون الانتباه إلى أن مجموع مؤلفات الأستاذ الجراي تدرج في مشروع أهل صاحبه لامتلاك سلطة ثقافية امتد "نفوذها" خارج أسوار الجامعة لتلج أعلى مراكز القرار بالدولة المغربية، كما نرى ذلك لاحقاً.

ويكشف الجزء الأول من السيرة عن معطيات هامة في هذا المجال، ليس فقط بالنظر إلى عدد الصفحات المخصصة لهذا الجانب، بل بالكشف عن بعض المعلومات التي لم يسبق للأستاذ الجراي أن أدلى بها في باقي مؤلفاته.

ومن المنتظر أن يلقي الجزء الثاني من السيرة مزيداً من الضوء على هذا الجانب الحيوي من حياة الأستاذ الجراي، علماً بأن المؤلف يشير في الصفحة 161 من السيرة إلى أن لديه كتاباً جاهزاً للنشر بعنوان: بين الثقافة والسلطة (تجربة ذاتية). ويعني هذا أن ما سأقدمه هنا مجرد مدخل لموضوع أمل أن يكتمل بقراءة هذين الكتابين واستخلاص ما يمكن استخلاصه من نتائج.

ثانياً: تحديد المقصود بالسلطة العلمية: يقصد بالسلطة العلمية ما "يتمتع به المثقفون من نفوذ وسلطة ... في المعرفة التي تتمثل في المهارات والخبرات العلمية والفكرية وغيرها من الملكات والقدرات التي يمتلكها المثقف أو جماعة المثقفين في مجتمع ما ... ويمنح النفوذ والسلطة أصحابهما موقعاً اجتماعياً خاصاً ومحددًا تحديداً دقيقاً وواضحاً، وذلك لما لهذه السلطة من خاصيات نسبية. إذ بفضل هذا الموقع يصنف هؤلاء إما تصنيفاً أفقياً ضمن الفئات المتعلمة الأخرى من أمثالهم، وإما تصنيفاً عمودياً ضمن مختلف الطبقات والشرائح الاجتماعية"¹.

وتعد الجامعة حالياً أحد أهم مصادر إنتاج السلطة العلمية، بسبب مناخها العلمي الذي يساهم في إنتاج الأفكار والنظريات وترويجها وسط الطلاب خاصة

¹ المعرفة والسلطة في المجتمع العربي، الأكاديميون العرب والسلطة، الدكتور امحمد صبور، ص 16، مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت 2001.

والمتقنين عامة¹؛ ما يؤدي إلى ظهور الفرد الأكاديمي الذي له تطلعات "إلى الامتياز بكل ما يحمله من مظاهر، كالامتياز في الوظيفة، والامتياز الناتج عن الصيت المعرفي، والامتياز الوجودي. وبعبارة أخرى يشكل الامتياز، بالنسبة للأكاديمي، نوعاً من الاحترام المتميز تحقيق موقع ينال فيه احترام الناس واعتبارهم، بينما يروم من وراء التفرد التأكيد على الخصوصيات التي لا يشاطره فيها أحد. ويمثل الامتياز، من جهة أخرى، تعبيراً ذاتياً عن ضرورة موضوعية للفرد الأكاديمي.²

ويستفاد من هذا أن السلطة العلمية (الأكاديمية) تمارس نفوذها داخل المؤسسة التي ينتمي إليها الأكاديمي، لكنها قد تتسع لتشمل فضاءات أخرى عن طريق إسناد مهام جديدة خارج المؤسسة التي يعمل بها الأكاديمي، غير أنه "مهما بلغت أهمية النفوذ وقوته وأبعاده، فإنه لا يمكن أن يصل إلى مستوى فعال نشيط إلا عبر اكتسابه شكلاً من أشكال السلطة التي تحدد مكوناته وامتيازاته ومجال عمله وتحدد درجة تقبل الناس له واستحسانه. وتحتاج السلطة بدورها في ممارستها وسريانها الرسمي، إلى نوع من الشرعية، بحيث تكون تلك السلطة معروفة ومعترفاً بها ومؤسسة، أي يتوافر لها كل ما يبنى عليه وجودها ... وتتلازم مع هذه الشرعية كفاءة الأكاديمي صاحب السلطة المشروعة بحيث تصبح سلطته قائمة بها ويصبح معروفاً كقائم بها، يتمتع بكل ما تمنحه إياه من حقوق ووجاهة واعتبار واستعمال أو استغلال لتلك السلطة، (ويتمثل هذا النفوذ مثلاً في ما يقوم به صاحب النفوذ الأكاديمي من تقويم لقدرات الآخرين وكفاءة تهم العلمية، إذ يكون مشروعاً في إطار سلطته إضفاء المشروعية على زملائه المتطلعين إلى السلطة العلمية أو إزاحتها عنهم)³.

¹ ذكر م، ع. الجابري رحمه الله أنه يتجه بخطابه في كافة كتبه إلى قطاع واسع من القراء معظمهم من الطلاب أو في حكم الطلاب، يراجع العقل السياسي العربي، ص: 52، المركز الثقافي العربي، البيضاء 1990.

² المعرفة والسلطة (م، س) ص: 42.

³ نفسه، ص: 116.

ثالثاً: مقومات السلطة العلمية: تقوم السلطة العلمية على مجموعة من المقومات منها على الخصوص: الوظيفة الأكاديمية، الرأسمال الاجتماعي، الرأسمال الثقافي، الشهرة العلمية، السلطة الأكاديمية، السلطة والوجاهة العلمية¹.

1. الوظيفة الأكاديمية:

وتتمثل في منصب الأستاذية الذي يشغله الفرد بإحدى المؤسسات الجامعية. وتتفاوت قيمة المنصب تبعاً لنوعية ومستوى الشهادة الجامعية: علوم إنسانية، علوم حقّة، تكنولوجيا ... ومدى حاجة المجتمع للتخصص الذي يعمل الأستاذ في إطاره.

وقد التحق الأستاذ عباس الجراري للتدريس بجامعة محمد الخامس (فرع فاس) ابتداء من سنة 1966، وهو تاريخ غير بعيد عن تاريخ تأسيس كلية الآداب بالرباط سنة 1957، ما يعني أن الجامعة المغربية، كانت في ذلك الوقت في حاجة كبيرة للمدرسين لأجل تكوين الطلاب الوافدين عليها من مختلف المدن المغربية².

كما كان لحصول الجراري على شهادتي الماجستير ودكتوراه الدولة من جامعة القاهرة سنتي 1965 و1969 قيمة علمية ومعنوية بالنظر إلى مكانة وإشعاع جامعة القاهرة في ذلك الوقت.

غير أن "عباس الجراري" لم يكن مجرد أستاذ يدرس بعض المواد لا غير، بل كان صاحب دعوى تبلورت لديه في مشروع أدبي - فكري ظل يدافع عنه طيلة مساره الأكاديمي. ويسجل، على سبيل المثال، أنه حين سعى "إلى تدريس مادة الأدب المغربي، كان الأمر بالنسبة للكثيرين، سواء من الزملاء الأساتذة أو من القائمين على شؤون الإدارة، لا يعدو أن يكون من قبيل الترف أو الطرافة؛ إما

¹ لمزيد من التوسع، يراجع كتاب: المعرفة والسلطة في المجتمع العربي، الأكاديميون العرب والسلطة للدكتور امحمد صبور، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2001. وقد أفتدت كثيراً من الكتاب في هذا الموضوع.

² يشير الأستاذ الجراري إلى أن عدد طلاب شعبة الأدب العربي بفرع فاس سنة 1966، كان يتجاوز في السنة الواحدة مائتين وألفاً من الطلاب، على نحو ما كان في السنة الأولى. تنتظر الصفحة 120 من السيرة.

لايمانهم بأن هذا الأدب غير موجود، أو لاعتقادهم بأنه حتى إن كان موجوداً فهو غير ذي قيمة، ولا يستحق أن يختلف الطلاب إلى فصول الجامعة لتلقيه وتدارسه. ولكن الأمر بالنسبة لي كان أكثر من ذلك، أي يتجاوز هذا الضرب من التفكير، إذ كان مسؤولية ما لبثت أن اتسعت آفاقها وتضخمت تبعاتها وانتهت إلى ما أصبحت عليه الآن مما هو معروف لدى الجميع¹.

2. الرأسمال الاجتماعي:

ويقصد به هنا الأصول الاجتماعية للأكاديمي، متمثلة في المكانة الاجتماعية التي كان يحظى بها بعض أفراد عائلته في القديم سواء على المستوى العلمي أو السياسي أو الاقتصادي، مما قد يدفع بالأكاديمي إلى الحرص على استمرار هذه المكانة في شخصه ونسله.

ويتبين لقارئ السيرة أن لدى الأستاذ الجراري اعتزازاً بنبل أصله العائلي، وقد ورث هذا الإحساس عن والده الذي خص النسب الجراري بتسع صفحات من مذكراته²، موثقاً ذلك بمجموعة من المصادر، كما خص الابن عباس ذلك الأصل بإحدى عشرة صفحة من سيرته³، وألف كتاباً في الموضوع (جاهز للطبع) بعنوان: الجرايون في التاريخ⁴.

ويستفاد من مذكرات عبد الله الجراري وسيرة ابنه عباس ما يلي:
- عروبة نسب بني جرار الذين قصدوا المغرب في أواخر القرن السابع الهجري لأجل "إنماء الحضارة، ورفع مستوى المدنية، والسعي في توحيد المغرب

¹ خطاب المنهج، ص: 74، منشورات النادي الجراري (8)، الرباط 1995.

² المذكرات في الأدب المغربي، هذه مذكراتي لعبد الله الجراري، ج 1، تحقيق ودراسة الأستاذ مصطفى

الجوهرى، صص: 9 - 17، منشورات النادي الجراري (60)، الرباط 2013.

³ رحيق العمر، صص: 23 - 33.

⁴ نفسه، ص: 160.

العربي ونشله من براثن الأجنبي الذي كان لا يفتأ يهتبل الغرة للانقضاض على ترابه وسلب أبنائه الأبوة ما أوتوا من مجد وسيادة"¹.

- اضطلاع الأسرة الجراحية بدور كبير على صعيد السياسة والفكر، مما "أتيح لفروعها أن تستقر في جهات كثيرة من المغرب، ولاسيما حيث كان يوجد مركز السلطة، وخاصة في مراكش وفاس ثم الرباط، وقبل ذلك في تلمسان يوم صار الملك إلى عثمان بن جرار إثر نكبة السلطان أبي الحسن المريني في القيروان"².

وقد أدى تأصيل النسب الجراحي عند الأب وابنه إلى الشعور بمسؤوليتهما معاً في متابعة ما أنجزه الأجداد سواء على المستوى العلمي أو السياسي.

3. الرأسمال الثقافي:

ويتمثل في ما يتوفر عليه الوالدان من مكتسبات علمية ومعنوية تكون لها آثار على تربية الأكاديمي ورسم مساره العلمي والاجتماعي.

وقد كان المرحوم عبد الله الجراحي يعلق آمالاً عريضة على ابنه عباس منذ ولادته؛ إذ كان يعتبره "وارث السر، وحافظ العرق، ومعيد المجد"³، ولذلك حظي دون سائر إخوانه بعناية خاصة بسبب الأمراض التي كان يعاني منها في طفولته وشبابه، لكن عبد الله الجراحي وظف ذلك الوضع في تكوين ابنه تكويناً يجمع "بين النمطين التقليدي والجديد، أي بين الكتاب القرآني وحلقة المسجد وبين أكثر المدارس حداثة، سواء كانت فرنسية صرفاً أم عربية حرة"⁴ لأنه كان يعتبر "أن من حقوق الأبناء على الآباء أن يسلكوا بهم سبيل السعادة الدنيوية والأخروية، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالعلم"⁵، ولهذا شجعه، وهو تلميذ دون العاشرة، على الدخول إلى

¹ هذه مذكراتي، (م. س) ص: 9.

² رحيق العمر (م. س) ص: 25 - 7.

³ هذه مذكراتي (م. س) ج 1 ص: 144.

⁴ رحيق العمر (م. س) ص: 75.

⁵ عبد الله الجراحي، حياة بطل التحرير محمد الخامس، ص 26، إعداد وتقديم الأستاذ مصطفى الجوهري، منشورات النادي الجراحي، الرباط 2006.

المحارب ليشفع في بعض ليالي رمضان بالزاوية الناصرية، كما قرأ معه كثيراً من الكتب التي كانت توصف بالصفراء، ودربه على الكتابة والخطابة منذ وقت مبكر¹.

وإلى جانب ذلك كان يحرص على اصطحابه في أسفاره أو غيرها ولعل أهم ما يلفت انتباه القارئ هنا هو مرافقة الطفل عباس لوالده لمقر عمله بدار المخزن حيث كان يشرف على سير الدروس بالمعهد المولوي ويدرس به ويفتش أساتذته، فكان ذلك مناسبة لحضور خروج محمد الخامس للصلاة يوم الجمعة بمسجد أهل فاس بالمشور وكذا حضور حفلات عيد العرش وإلقاء خطاب جلالته بالمناسبة². وفي هذا الإطار يحكي الأستاذ الجراري عن حدث بارز نوره بالكامل نظراً لأهميته في مسار الرجل.

يقول المؤلف: "وأذكر أنني في هذه المرحلة الأولى من طفولتي (لعلها 1943) ولم أكن قد التحقت بالمدرسة، كنت ذات صباح في طريقي مع الوالد - مشياً - إلى مقر عمله، وما إن دخلنا إلى المشور من الباب الذي أصبح فيما بعد يسمى "باب السفراء" حتى فوجئنا بسمو الأمير مولاي الحسن يتدرب على الفروسية في الملعب الذي كان خاصاً بذلك على يمين الداخل إلى المشور. فنزل من فرسه وهو بلباس الفرسان، وأقبل علينا مسلماً على الوالد الذي بادره بالسؤال عن دروسه بالمعهد الذي كان قد بدأ قبل نحو سنة أو أكثر، فكان رد سموه: "ألفقي را كل شي على عينيك فالمعهد"، ثم انحنى علي فأردت تقبيل يده، فسلم هو علي مقبلاً رأسي وداعياً لي بالصلاح. وهي لقطة ظلت ترافقني في مخيلتي باستمرار³.

وليس من المستبعد أن يكون لهذا الحدث تداعيات في نفسية الجراري - الطفل تضافرت مع أحداث أخرى ساهمت في بناء شخصيته. وكيفما كان الحال، فإن الدارس يستخلص من المعطيات السالفة أن الأستاذ الجراري كان واقعاً، منذ

¹ يتضمن كتاب "طفولة قلم" الصادر عن النادي الجراري سنة 2020 نماذج من تلك الكتابة.

² رحيق العمر (م. س)، ص: 82.

³ رحيق العمر (م. س)، ص: 82، وينظر أيضاً ما ورد بصفحة 136.

وقت مبكر، تحت تأثير إرث نسب عريق، وتربية مكثفة كانت تهيئه، منذ الصغر، لولوج المعرفة وامتلاك سلطتها.

ومن المرجح أن ذلك قد ساهم، إلى حد بعيد، في تشكيل قوة داخلية لدى الجاربي مكنته، ليس من تجاوز الأمراض التي ألمت به في مختلف مراحل عمره فحسب، بل في الرقي في مدارج المعرفة، فكان بذلك خير خلف لخير سلف.

وبما أن "رحيق العمر" سيرة فكرية تهتم بالمسار الفكري للمؤلف، ولا تعرض لما هو اجتماعي إلا لماماً، فقد تجنب الأستاذ الجاربي الحديث عن والدته "الزهراء" بالرغم مما لها من أثر على تربيته، كغيرها من الأمهات، واكتفى بتسجيل اقتران الوالد بها وكذا بنسبها من جهة الأب والأم، ما يبين أصالة نسبها كذلك.

ويلاحظ القارئ أن الصلة الفكرية للجاربي بوالده لم تنقطع حتى بعد حصوله على الدكتوراه وتعيينه أستاذاً بالجامعة؛ إذ استمر في توجيهه وتشجيعه ونصحه.

4. الشهرة العلمية:

وتكتسب من خلال ما راكمه الأكاديمي من بحوث ودراسات ودور في تكوين الطلبة والباحثين. وتعود الشهرة العلمية للأستاذ الجاربي إلى مشروعه الأدبي - الفكري الذي مكنه من اكتساب سلطة علمية سواء داخل الجامعة أو خارجها، وسأركز هنا على ما له صلة مباشرة بموضوع المقال، لأن دراسة مشروع الأستاذ الجاربي في شموليته موضوع قائم الذات لا يتناسب وهذا المقام، ولذا سأمهد، للحديث عن الموضوع، ببيان عوائق بناء مشروع الأستاذ الجاربي والجهود التي بذلها لتجاوز ذلك وكذا الدعوة إلى مشروعه، وخاصة في أوساط الطلبة والباحثين:

أ- عوائق بناء المشروع:

لم يكن بناء مشروع الأستاذ الجاربي عملية سهلة، إذ تعرضت لمجموعة من العوائق في كافة مراحل إنجازها، لكن الأستاذ الجاربي تمكن بفضل صبره ومثابرته بل وعناده من تذليل مختلف الصعاب إلى أن استقام بناء المشروع.

لقد كانت اللجنة الأساسية في المشروع هي الأطروحة التي سجلها بجامعة القاهرة حول موضوع: الزجل في المغرب، غير أن المؤلف فوجئ بعوائق تحول دون إنجازها.

ويمكن تقسيم تلك العوائق إلى قسمين: قسم يتعلق بمرحلة الإنجاز وقسم يتعلق بمرحلة ما بعد الإنجاز.

يتمثل القسم الأول في صعوبة الحصول على الوثائق التي تيسر البحث، ويسجل الأستاذ الجراي، بأسى شديد، عدم استجابة المرحوم محمد الفاسي لمدته بما قد يفيد في إنجاز أطروحته قائلاً: "وسألناه أكثر من مرة - بالاتصال الشخصي والوسائط والرسائل - ورجوانه وألحنا في الرجاء عساه يمدنا بما قد يفيد، ولكنه كان أبداً يردنا ويصدنا مهولاً لنا أمر هذا الأدب، بخيلاً علينا بما قد يكون جمع من نصوصه أو كتب عنه، وشيحاً حتى بالكلمة الطيبة، تنير لنا الطريق أو تبعث التشجيع في نفسنا على الأقل"¹.

وعاد الأستاذ الجراي لذكر هذه الصعوبة في مقدمة كتابه "الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها"، مسجلاً أن بناء التاريخ الثقافي والحضاري للمغرب سيتم "يوم يعاد إلى هذه المكتبة [المغربية] ما عبثت به يد مجرمي الثقافة ولصوصها الذين انعدم فيهم الضمير الوطني والمهني والعلمي، فاستغلوا مناصبهم واستبدوا بمصادر قيمة عجزوا عن الاستفادة منها وعز عليهم أن يستعملها غيرهم، فلجأوا إلى السرقة لامتلاكها والتصرف فيها والحيلولة دون وصولها إلى جمهور القراء والباحثين، وبالتالي تعطيل البحث العلمي ووضع الموانع والمصاعب في سبيله ... يومئذ سيعاد النظر كلياً في تاريخنا الثقافي والحضاري، وسيكتب هذا التاريخ من جديد في إطار يبرز الخصائص الحقيقية للذات المغربية"².

¹ القصيدة، ص 5، مكتبة الطالب، الرباط 1970.

² الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، ج 1، صص: 6-7، مكتبة المعارف، الرباط 1982.

ويدخل في هذا الإطار كذلك رفض كل من عميد كلية الآداب بالرباط ورئيس الجامعة آنذاك لطلب السماح للأستاذ الجراري عام 1968 - 1969، بسنة استידاع يتفرغ خلالها لإتمام أطروحته.

وبالرغم من الضغوط والمساومات التي تعرض لها من قبل المسؤولين المذكورين، فقد أصر الجراري على إكمال أطروحته، وسافر إلى القاهرة دون الموافقة على الطلب المذكور، فكانت النتيجة التشطيب عليه من أطر الجامعة، غير أن ذلك "التأديب" زاده إصراراً على الثبات والصمود والصبر، علماً بأن التزاماته العائلية كانت تتضاعف بعد أن ترك في المغرب زوجة وطفلتين صغيرتين، ما اقتضى منه ومن زوجته تقديم تضحيات جراء ذلك.

أما القسم المتعلق بمرحلة ما بعد الإنجاز، فيعود، في الحقيقة، إلى تاريخ تعيين الجراري أستاذاً بكلية الآداب في أكتوبر 1966، حيث حاول إدراج مادة الأدب المغربي في المقرر الدراسي "بمعاناة شديدة مع عمادة الكلية بالرباط ولا سيما بعد أن [ارتأى] اعتباره مادة أساسية تدرس في ثلاث سنوات بدءاً من الثانية حتى الرابعة. [وكان] قبل إحداث نظام السنوات [يلقي] دروساً في الأدب المغربي على طلبة "شهادة فقة اللغة"¹ وقد استمر هذا الوضع بعد مناقشة الجراري للدكتوراه سنة 1969، إذ ظل الأدب المغربي "يشكل عنصر ضيق وإزعاج للذين يرفضونه ويحاربونه متحججين بأنه لا يستحق أن يخصص بالدرس، أو بأنه حتى إذا كان منه ما هو حقيق بالتناول، فلا أكثر من أن تختار منه بعض النصوص تدمج في سياق الأدب العربي عامة و... أنه ما من مرة أثير اقتراح لتعديل البرامج وتوزيعها، إلا وحاول ذلك الموقف أن ينزل بكامل ثقله، عساه يلغي دراسة هذا الأدب أو يهمله على الأقل، وكان إقبال الطلبة عليه في الدراسات العليا يزيد حدة المضايقات التي بلغت أقصاها حين بدأت ثمار هذا الغرس وما تطلب من حرص وتعهد طويلين"².

¹ رحيق العمر (م.س) صص: 120 - 121.

² خطاب المنهج، ص: 137، منشورات النادي الجراري، الرباط 1995.

ب- الدعوة إلى المشروع:

أدرك الأستاذ الجراري أن مشروعه لن يكتمل إلا بتوسيع قاعدة متلقيه، فأنشأ بفرع كلية الآداب بفاس تخصصاً للدراسات المغربية سنة 1971، وأشرف هناك على نخبة من الطلبة في تهييء رسائل دبلوم الدراسات العليا وأطاريح الدكتوراه، كما بذل مجهوداً مضمياً في إعادة شعبة اللغة العربية وآدابها إلى كلية الآداب بالرباط، وذلك سنة 1973، فأصبح المجال أمامه واسعاً لنشر مشروعه في أوساط الطلبة بالكليتين المذكورتين.

واستطاع الأستاذ الجراري بفعل حيويته ونشاطه العلمي تكوين واستقطاب عدد من الطلبة لإعداد رسائل وأطاريح جامعية في الأدب المغربي بشقيه الفصيح والعامي، أهلت أصحابها للتدريس بمختلف الجامعات المغربية، فأصبح الأدب المغربي تخصصاً قائم الذات بالجامعة المغربية، ما أدى إلى تكون ما يشبه جماعة علمية تضم أفراداً "تجمعهم ثقافة واحدة أو متطابقة أو متجانسة، ويشتركون في مقاصد جامعة بينهم وتحكمهم رؤية فكرية، نظرية أو علمية، حسب المنحى الغالب عليها، من شأنها أن تضمن حدود تقاربهم، ودرجة اجتماعهم ونظامية ترابطهم، معرفياً ونفسياً وأخلاقياً ووجودياً، وأن تساعد على التنام حاصل معرفي، جماعي ومشارك، كثيراً ما يكون حاصل تحكيم علمي، أو ناتج سلطة مرجع أو مرجع سلطة، أو مصدر رؤية نظامية وسائدة"¹. وتستمد هذه الجماعة مكانتها العلمية من السلطة العلمية للأستاذ عباس الجراري الذي ظل متابعاً لأعمالها من خلال التقديم لما ينشره أعضاؤها من أبحاث.

وقد أورد الأستاذ الجراري في سيرته قائمة بأطروحات دكتوراه الدولة التي أشرف عليها ورسائل دبلوم الدراسات العليا (صص: 185 - 199) وكذا إجازته على الطريقة التقليدية لمن طلب منه ذلك من الباحثين (صص: 201 - 207) وذلك حرصاً على استمرار ذلك التقليد العلمي التراثي، غير أنه ينطوي، في نظري، على دلالة

¹ فرحات الدريسي، الجماعات العلمية: النشأة والخصائص والوظائف، صص: 8-9، مكتبة المتنبي،

الدمام (م.ع). السعودية 2013.

خاصة تتمثل في أن السلطة العلمية للأستاذ الجراي تستمد شرعيتها من المجالين العصري والتراثي في نفس الآن، كما أورد كذلك قائمة بالكتب التي قدم لها (صص: 173 - 183) سواء لطلبته القدماء أو غيرهم من الباحثين والمبدعين.

وتبين هذه المستندات مدى اتساع مشروع الأستاذ الجراي مما ساهم في تعزيز سلطته العلمية، وفي هذا السياق لقب بعميد الأدب المغربي قياساً على طه حسين الذي لقب بعميد الأدب العربي.

ويلاحظ أن أغلب الرسائل والأطروحات الجامعية التي أشرف عليها الأستاذ الجراي هي تنويع لطروحاته وتعميق للأسئلة التي طرحها خلال دراسته وتدريبه للأدب المغربي.

بناء المشروع وبناء السلطة العلمية عند الأستاذ الجراي: لقد كان للمناخ الأسري الذي نشأ فيه الأستاذ الجراي دور كبير في بناء ذلك المشروع على النحو الذي بني عليه. يقول الجراي: "وإني لأود منذ البدء ... أن أشير إلى أن نشأتي في بيت علم ودين ووطنية كان لها أكبر تأثير على مسيرة حياتي ..."¹ وأفترض أن أصول مشروع الجراي مستمدة من نشأته في بيت علم ودين ووطنية، لأن المشروع بكافة جوانبه لا يخرج عن السمات المذكورة.

لمشروع الأستاذ الجراي واجهتان متداخلتان؛ الأولى أدبية والثانية فكرية، وقد بدأ في بناء مشروعه، كما سبقت الإشارة، بعد حصوله على شهادتي الماجستير والدكتوراه من جامعة القاهرة للانخراط بسلك التدريس بالجامعة؛ الفضاء الملائم في نظره لبلورة وتنفيذ مشروعه عن طريق التدريس والتأليف، فبادر إلى نشر أطروحة الدكتوراه بعد أقل من عام على مناقشتها، كما نشر في السنة الموالية كتابي "من وحي التراث والحرية والأدب"، كما نشر سنة 1972 كتاب: "الثقافة في معركة التغيير" والجزء الأول من كتاب "الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها" سنة 1978، إلى جانب عدد من المؤلفات الأخرى، وخاصة ذات الطابع الفكري.

¹ رحيق العمر (م.س). ص: 8.

ويلاحظ الدارس لمشروع الأستاذ الجراري بمختلف تجلياته أنه يقوم على الدفاع عن دعوى وجود هوية مغربية خاصة لها أصول في التاريخ القديم وامتدادات في التاريخ الحديث والمعاصر.

وقد استدل على سلامة دعواه بنمطين من التأليف:

– الأول دراسة الأدب المغربي بشقيه الفصيح والعامي من خلال ظواهره وقضاياها لإثبات أمرين:

أ- وجود أدب مغربي لا يقل شأنًا عن صنوه المشرقي، رداً على من ينفي وجود هذا الأدب أو يقلل من شأنه في أحسن الأحوال؛

ب- ارتباط الأدب المغربي بمكونات الهوية المغربية من لغة وثقافة ودين.

– الثاني دراسة عدد من القضايا الفكرية مثل "وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ"، "الفكر والوحدة"، "الثقافة من الهوية إلى الحوار"، "صبابة أندلسية"، "هويتنا والعولمة"، "من قضايا الهوية الوطنية"، "الهوية الوطنية والجهوية"، "الهوية الوطنية واللغة" ¹...

ولعلَّ الخيط الناظم لمجموع هذه المؤلفات هو الاستدلال على نزوع الشخصية المغربية إلى الوحدة قديماً وحديثاً، وخاصة على المستويين المذهبي والسياسي، وهذا ما يفسر إهداء كتابه "صبابة أندلسية" إلى روح يوسف بن تاشفين للدور العظيم الذي قام به في الغرب الإسلامي، إذ مدّد الحضور العربي في الأندلس أربعة قرون أخرى، كما يفسر أيضاً دفاع المؤلف عن الدولة المرابطية لما لها من دور في تثبيت العقيدة وإرساء "وحدة المذهب [المالكي] التي كان لها أثر كبير في التئام المغاربة؛ ومعها أرسيت كذلك وحدة التراب هذه التي عمل خصوم المغرب وما زالوا يعملون بشتى الوسائل ومختلف الأساليب على المس بها، والتي أجمع المغاربة كلمتهم وأمرهم لصونها والدفاع عنها والاستماتة في سبيلها" ².

¹ تشكل كل قضية عنواناً لكتاب، وسنحيل على ذلك في قائمة المراجع.

² عباس الجراري، صبابة أندلسية، ص: 7، منشورات النادي الجراري، الرباط 1995.

وقد اعتبر الأستاذ الجراري ذلك النزوع ميلاً فطرياً لدى المغاربة حتى قبل الإسلام، مرجحاً، في أحد الدروس الحسنية، أن اختياريهم للإسلام "كان في بعض أسبابه أنه دين الوحدة، فالله واحد، والرسول واحد، والكتاب واحد، والقبلة واحدة، والأمة واحدة، واللسان واحد، ثم أمعنوا في الإلحاح على الوحدة فكان عندهم المذهب واحداً"¹، وخلص إلى أن الوحدة المذهبية هي إحدى الدعامات، إن لم تكن أهمها، لتثبيت وحدة المغرب باسترداد صحرائه وبقية أراضيها المغتصبة.

ومن المهم الإشارة إلى أن هذا الدرس جاء بعد الاجتماع الذي عقده الحسن الثاني رحمه الله في مكتبه بالديوان الملكي يوم 26 يوليوز 1975 لمناقشة موضوع وحدة المذهب الديني بين المغرب وصحرائه، حضره، إلى جانب المؤلف، بعض الباحثين ورجال الدولة.

وبعد أحد عشر يوماً من إلقاء الجراري لدرسه، دعا الحسن الثاني رحمه الله في مساء 16 أكتوبر 1975 إلى تنظيم المسيرة الخضراء التي انطلقت يوم 6 نونبر من نفس السنة.

وقد ألقى هذا الدرس، كما هو واضح، إلى جانب درس آخر ألقاه المؤلف بتاريخ 30 مايو 1985 بعنوان "أسباب انتشار المذهب المالكي بالمغرب"، في سياق الحملة الدبلوماسية التي كان يقودها المغرب للدفاع عن قضيتيه الوطنية الأولى، وقد سخر الأستاذ الجراري، من جهته، سلطته العلمية للدفاع عن المصالح العليا للدولة المغربية، خاصة وأن الدروس الحسنية كان يحضرها سفراء الدول العربية والإسلامية، وكذا بعض المشاركين في الدروس من تلك الدول.

ومن المرجح أن مشاركة الأستاذ الجراري في الدروس الحسنية كانت من بين عوامل تعيينه مكلفاً بمهمة بالديوان الملكي، كما سنرى ذلك لاحقاً.

¹ وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ (درس حسني) ص: 37، مطبوعات الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي، البيضاء 1976، وينظر الدرس أيضاً في دروس حسنية، جمع وتقديم حميدة الصانع الجراري، صص: 27 - 49، منشورات النادي الجراري، الرباط 2015.

5. السلطة الأكاديمية:

يقصد بالسلطة الأكاديمية هنا، لا ما راكمه الأكاديمي من بحوث كما سبقت الإشارة إلى ذلك في نقطة سابقة، بل في المناصب الإدارية المرتبطة بمجاله الأكاديمي: عميد، رئيس جامعة، مدير بحوث ... مما يساهم في توسيع نفوذ الأكاديمي وجعله أكثر تأثيراً.

ويلاحظ أن الأستاذ الجراري ظل يرفض باستمرار المناصب الإدارية التي تعرض عليه، باستثناء عمادة كلية الآداب بمراكش التي استقال منها قبل أن يمارس مهامه الفعلية بها (ص: 129) وكذا إدارة شعبة الأدب العربي بنظام الدراسات الجامعية العليا لتكوين أطر التدريس بالجامعة سنة 1982 - 1983.

ويعود سبب ذلك إلى أن الرجل ظل، في ما يبدو، حريصاً على أن تستمد سلطته العلمية قيمتها من معرفته العلمية الخاصة كما تشهد على ذلك مؤلفاته، لا من المسؤوليات الإدارية التي يعتبرها إلى زوال، وقد كان اختياره صائباً، إذ لو اختار سلك الوظائف الإدارية مهما ارتفع شأنها، لانتهى به الأمر إلى التقاعد وأصبح كغيره من المسؤولين نسياً منسياً، في حين أن "مشروعه العلمي" و"ذريته العلمية" الصالحة سيجعلانه يحيا حياة أخرى، وذلك بالإحالة على مؤلفاته وأبحاثه وأفكاره في البحوث التي لها صلة بمشروعه في كافة أرجاء المعمور.

6. السلطة والوجاهة العلمية:

وتكتسب من خلال المقومات السابقة وما ينتج عنها من انفتاح أنشطة الأكاديمي على المحيط العلمي سواء ببلده أو بالخارج: العضوية في بعض المجالس والمنظمات، المشاركة في المؤتمرات، التدريس بالخارج ... وتكشف السيرة عن مساهمات الجراري في عدة أنشطة أكاديمية وثقافية سواء بالمغرب أو خارجه (صص: 128، 129، 133، 134).

ولعل من أبرز أنشطة الأستاذ الجراري بالمغرب هي مساهمته في الدروس الحسنية التي بلغ مجموعها تسعة دروس، ألقى أولها سنة 1975 كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وآخرها سنة 1998، هذا إلى جانب تعيينه بالمعهد المولوي لتدريس ولي

العهد سمو الأمير سيدي محمد وعدد من الأمراء والأميرات، وذلك خلال سنوات 1980، 1981، 1985، 1986، 1995. وخلال هذه المرحلة عين الأستاذ الجراري، كما سنرى ذلك لاحقاً، خطيباً بمسجد للا سكيينة سنة 1989.

ويشير انتباه القارئ في المقابلة التي عين خلالها جلالته الأستاذ الجراري للتدريس بالمعهد المولوي، قول جلالته مخاطباً الجراري: "أنا لم يكتب لي أن أثنى ركبتني أمامك وأردت أن يكون لاسميت سيدي هذا الحظ"¹. وتنطوي هذه الجملة على عدة دلالات منها على الخصوص:

– البلاغة السامية للجملة، إذ كان بإمكان جلالته أن يقول: أنا لم يكتب لي أن أتعلم على يديك ... أو ...، ولكنه عدل عن هذا التعبير العادي واختار تعبيراً بلاغياً يوظف الصورة لإيصال المقصود.

– تواضع السلطة السياسية ممثلة في جلالته أمام السلطة العلمية التي يمثلها الأستاذ الجراري، وذلك بحضور عدد من المسؤولين (ص: 132)، ويدخل في هذا الإطار كذلك قرار جلالته أن يعتلي المحاضر في الدروس الحسنية كرسياً يرفع من جلسته بعد أن كان في الدروس الأولى يجلس على الأرض قبالة جلالة الملك، وقد أشاد الأستاذ الجراري في درسه الرابع بهذا القرار².

– تحسيس الأستاذ الجراري بثقل الأمانة التي عرضها عليه جلالته، وقد وفق الجراري في مهمته؛ إذ "ذكر أن الأستاذ عبد الجليل الحجمري مدير المدرسة المولوية، وكان ذهب في تلك الليلة³ لمقابلة جلالة الحسن الثاني وإخباره بنجاح سمو الأميرة للا حسناء في الباكلوريا، أن جلالته خاطبه بقوله: "أنا عاد اعرفت اعلاش للا حسناء والشرفا كلهم بما فيهم اسميت سيدي كتبوا وكانوا تيكتبوا فالفكر الإسلامي" يقصد جلالته أنهم كانوا يختارون في الاختبار أن يجيبوا على

¹ رحيق العمر، ص: 132.

² دروس حسنية، جمع وتقديم حميدة الصانغ الجراري، ص 20، 101، منشورات النادي الجراري، الرباط 2015.

³ نفسه، ص 17. وتحيل الليلة هنا على ليلة يوم إلقاء الجراري لدرسه يوم 30 مايو 1985.

أسئلة الفكر الإسلامي، وليس الفلسفة، إذ أن الجراي كان هو المكلف بدرس الفكر الإسلامي في المدرسة المولوية إلى جانب دروس أخرى¹.

وقد توجت هذه التكليفات بتعيينه من قبل الحسن الثاني طيب الله ثراه مكلفاً بمهمة بالديوان الملكي سنة 1999، وتعيينه سنة 2000 من قبل محمد السادس أطال الله عمره مستشاراً لجلالته، وبذلك جمع الأستاذ الجراي بين السلطتين العلمية والسياسية، مشكلاً، بذلك، امتداداً لأجداده الذين عرفوا بخدمة العلم والسلطان معاً.

ويلاحظ المتأمل للسيرة أن ذلك التعيين بنوعيه جاء بعد مراحل طويلة كلف خلالها الأستاذ الجراي بمهام كثيرة يبدو أنها كانت بمثابة اختبار لشخصيته، فكان نجاحه في أدائها عاملاً حاسماً في التعيين المذكور، هذا دون إغفال دور والده في ذلك، إذ كان يعمل بدار المخزن كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وألف كتاباً عن محمد الخامس بطل التحرير وأهداه لجلالته بمناسبة تدشينه لجامعة محمد الخامس سنة 1957 "وفي الحين، أمر ابن يوسف رحمه الله بطبع الكتاب مزداناً بما يصاحبه من صور، إلا أن الأمر ظل يتعثّر ويتعرض للتباطؤ والإهمال، إلى حد كان لجلالته يستفسر بنفسه عنه. وكذلك كان الشأن في عهد المغفور له مولانا الحسن الثاني الذي ألح على إعادة الكتاب إلى الخزنة الحسنية بعد أن كان أخرج منها لفترة طويلة، وأعيد ليُعطى رقماً تسجيلياً في هذه الخزنة هو (6912)، دون أن يعاد معه ملف الصور، ومن غير أن ينفذ الأمر الملكي بنشره"².

ويستفاد من هذا أن الرجل كان معروفاً بالقصر الملكي لدرجة أن المرحوم الحسن الثاني أثنى عليه خلال تعيين ابنه عباس بالمدرسة المولوية "وذكر باعتزاز أنه كان أستاذه ومفتش أساتذة المدرسة منذ إنشائها عام 1942"³.

¹ دروس حسنية، جمع وتقدير حميدة الصائغ الجراي، ص 20، 101، منشورات النادي الجراي، الرباط 2015.

² عباس الجراي، توطئة للكتاب (م، س)، ص: 10

³ رحيق العمر (م، س)، ص: 132.

غير أن علاقة الأستاذ الجراري بالسلطة السياسية لم تكن سلسلة دائماً، إذ اعترضتها بعض العوائق منذ وقت مبكر، وخاصة من بعض الجهات، كما توضح ذلك بعض الوقائع منها:

– العدول عن قرار الملك الراحل بتعيين الجراري بالديوان الملكي سنة 1965، إثر انتهاء زيارة جلالتة لمصر التي ساهم الأستاذ الجراري في إنجاحها، وحدث يوم توديع جلالتة بالطائرة أن نودي على الجراري للعود إلى الطائرة حيث كان الملك ما زال واقفاً عند مدخلها وبجانبه الحاج أحمد بلافريج والحاج امحمد باحنيني، وقال وهو يضع يده على كتفي الجراري: "لقد عينت السيد الجراري في الديوان وعلى وزير الخارجية السيد أحمد الطيب بنهيممة أن يعجل بإجراءات عودته إلى الرباط"¹، غير أن القرار لم ينفذ بالرغم من اتصال الجراري بالشخص المسؤول عن ذلك في بيته بحي التواركة، فافتنع الجراري بعدم جدوى الاهتمام بالموضوع.

– طلب وزارة الأوقاف من الأستاذ الجراري إلقاء تدريب على درس وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ وذلك "بضريح مولاي الحسن داخل المشور السعيد، على ما كانت عليه العادة بالنسبة لبعض المرشحين للدروس وخاصة منهم الجدد، فاعتذر بأنه لم يكن هو الذي طلب إلقاء الدرس حتى يكون مضطراً للتمرين عليه أمام لجنة من العلماء، وأن جلالتة هو من أمر بذلك"².

– استفسار مقدم الحي الذي يوجد به مسجد للا سكينة الأستاذ الجراري عن موضوع الخطبة التي سيلقيها في ذلك اليوم (الجمعة الثانية)، لكنه اعتذر عن ذلك ودعاه لحضور الصلاة وسماعها.

– نزول ثلاثة مدنيين من سيارة أمن سائلين الجراري عن موضوع الخطبة "وطالبين تسليمهم نسخة منها [لكنه] أجابهم بعدم توفره على مطلبهم، لأنه أولاً لا يكتب خطبته وإنما يرتجلها، وثانياً أنه ما عليهم لمعرفة موضوعها إلا دخول المسجد متابعتها، وثالثاً لأن الذي كلفه مباشرة بالخطبة واثق كل الوثوق مما سيقوله، ورابعاً أنه

¹ رحيق العمر (م. س) ص: 119.

² دروس حسنية (م. س) ص: 14.

سيعود لبيته في الحين إذا ما اعترضه أحد بمثل هذا السؤال ثانية ... وفعلًا كانت الأولى والأخيرة، فقد أجرى الأستاذ الاتصالات اللازمة التي أصدر على إثرها صاحب الجلالة المرحوم الحسن الثاني أمره لوزيره في الداخلية بالأيتكر مثل هذا الإزعاج¹. وقد أثار هذان الحدثان استياء وانزعاج الأستاذ الجراي لتجاهل تعيين الملك للجراي للخطبة بالمسجد المذكور من جهة، واعتبار الأستاذ الجراي، من جهة ثانية، كغيره من خطباء الجمعة يجب أن يخضع للمراقبة والمسطرة المتبعة في هذا الشأن. وتكشف هذه الوقائع وغيرها أن السلطة السياسية أو على الأقل بعض جهاتها، تنظر دائماً بعين الريبة والشك لمن يمتلكون السلطة العلمية، فلا محل للثقة هنا لأنها منعدمة أو على الأقل شبه منعدمة.

ويندرج في هذا الإطار كذلك سعي من سماه الجراي بأحد المفرضين لدى المرحوم الحسن الثاني بعد تعيينه للتدريس بالمدرسة المولوية مستغرباً تعيينه "لتعليم أصحاب السمو الأمراء والأميرات وهو شيوعي، وهذه كتاباته تؤكد ذلك، فكان رد جلالته: "إذا كانت أفكار الفقيه الجراي هي الشيوعية، فأنا أريد أن يكون كل المغاربة شيوعيين مثله"².

خاتمة:

حاولت في هذا الموضوع التركيز على موضوعة السلطة العلمية والسلطة السياسية من خلال دراسة المعطيات الواردة بسيرة الأستاذ عباس الجراي التي كشفت عن كيفية تكون السلطة العلمية لديه نتيجة لتضافر مجموعة من المقومات كالوظيفة الأكاديمية والرأسمال الاجتماعي والثقافي ... ما أدى إلى امتلاك الأستاذ الجراي لسلطة علمية تجاوزت أسوار الجامعة لتلج أعلى مراكز

¹ تقديم حميدة الصانغ الجراي لكتاب خطب منبرية ج 1، ص 11، منشورات النادي الجراي، الرباط 2012.

² رحيق العمر (م. س) ص: 133، والمقصود بالكتابات في النص كتاب: "الثقافة في معركة التغيير والحريّة والأدب".

القرار بالدولة المغربية للعمل بجانب العاهلين المغربيين؛ المرحوم الحسن الثاني ومحمد السادس أطال الله عمره.

كما بين الموضوع قيام السلطة العلمية لدى الأستاذ الجارري على مشروعه الفكري الذي سخره، بحذق، للدفاع عن المصالح العليا للدولة المغربية.

كما بين الموضوع كذلك أن السلطة العلمية للأستاذ الجارري لم تكن دائماً على وفاق مع السلطة السياسية، لكن الجارري نجح، رغم ذلك، في إقامة علاقة محترمة بينه وبين تلك السلطة.

وبالرغم من أن النتائج التي انتهت إليها ترتبط أساساً بشخص الأستاذ الجارري، فإنها قابلة لأن تعمم على باقي الأكاديميين الذين تمكنوا، بفضل معرفتهم، من امتلاك سلطة علمية تتجاوز نطاق فضاء عملهم (الجامعات، المعاهد، مراكز البحث ...) إلى فضاءات سياسية للعمل خبراء أو مستشارين أو مكلفين ببعض المهام السياسية.

* * *

المصادر والمراجع

المصدر

– عباس الجراري، رحيق العمر، موجز سيرتي الذاتية، ج 1، النشأة والمشروع، منشورات النادي الجراي رقم 101، الرباط 2020.

المراجع

– "طفولة قلم" الصادر عن النادي الجراي سنة 2020.
– الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، ج 1، مكتبة المعارف، الرباط 1982.

– خطاب المنهج، منشورات النادي الجراي (8)، الرباط 1995.
– دروس حسنية، جمع وتقديم حميدة الصائغ الجراي، منشورات النادي الجراي، الرباط 2015.

– عباس الجراري، الثقافة من الهوية إلى الحوار، منشورات النادي الجراي، الرباط 1993.

– عباس الجراري، الفكر والوحدة، مكتبة المعارف، الرباط 1984.
– عباس الجراري، الهوية الوطنية والجهوية، منشورات النادي الجراي، الرباط 2013.

– عباس الجراري، الهوية الوطنية واللغة، منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط 2005.

– عباس الجراري، صباة أندلسية، منشورات النادي الجراي، الرباط 1995.

– عباس الجراري، من قضايا الهوية الوطنية، منشورات النادي الجراي، الرباط 2013.

– عباس الجراري، هويتنا والعولمة، منشورات النادي الجراي، الرباط 2000.

- عبد الله الجراري، حياة بطل التحرير محمد الخامس، إعداد وتقديم الأستاذ مصطفى الجوهري، منشورات النادي الجراري، الرباط 2006.
- فرحات الدريسي، الجماعات العلمية: النشأة والخصائص والوظائف، مكتبة المتنبي، الدمام (م.ع). السعودية 2013.
- القصيدة، مكتبة الطالب، الرباط 1970.
- كتاب خطب منبرية ج 1، منشورات النادي الجراري، الرباط 2012.
- محمد العمري: بلاغة السيرة الذاتية، تداخل الواقع والخيال، ضمن كتاب: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، البيضاء 2005.
- محمد، ع. الجابري. العقل السياسي العربي، المركز الثقافي العربي، البيضاء 1990.
- المذكرات في الأدب المغربي، هذه مذكراتي لعبد الله الجراري، ج 1، تحقيق ودراسة الأستاذ مصطفى الجوهري، منشورات النادي منشورات النادي الجراري (60)، الرباط 2013.
- المعرفة والسلطة في المجتمع العربي، الأكاديميون العرب والسلطة، الدكتور امحمد صبور، مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت 2001.
- وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ (درس حسني) مطبوعات الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي، البيضاء 1976.

* * *

د. مصطفى الجوهري

- أستاذ جامعي، المدرسة العليا للأستاذة، جامعة محمد الخامس، الرباط.
- عضو اللجنة العلمية لفحص البحوث المقدمة لترقية الأساتذة.
- رئيس لجنة مباريات انتقاء أساتذة التعليم العالي بالمدرسة العليا للأساتذة، جامعة محمد الخامس، بالرباط.
- عضو مؤسس ومؤطر لماستر الكتابات الأدبية والتربوية بالمغرب.
- أشرف على العديد من الأبحاث الجامعية في مستوياتها المختلفة.
- عضو عدد من اللجان العلمية لفحص ومناقشة رسائل وأطاريح جامعية.
- عضو اللجنة العلمية الاستشارية بالمندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير بالرباط.
- عضو النادي الجراي منذ 1983.
- عضو مؤسس لجائزة عبد الله الجراي في الفكر والأدب.
- عضو المجلس الجهوي لثقافة بالرباط (دورات متعددة).
- عضو مؤسس لجمعية رباط الفتح (1986).
- نائب رئيس جمعية رباط الفتح.
- شارك الدكتور مصطفى الجوهري في العديد من الندوات العلمية واللقاءات الثقافية داخل المغرب وخارجه، منها:
- المنشورات: نشر العديد من الأبحاث والدراسات، منها:
- الكتب: 1- عبد الله بن العباس الجراي الأديب، منشورات النادي الجراي، رقم: 4، 1995.
- 2- المذكرات في الأدب المغربي : هذه مذكراتي، عبد الله الجراي: تحقيق ودراسة، (ثلاثة أجزاء) منشورات النادي الجراي، رقم: 60.

3- الرحلة السطاطية أو السكيرجية، عبد الله الجراري، تحقيق مع مقدمة وكتب الدكتور عباس الجراري، تقديماً لهذا العمل، منشورات النادي الجراري، رقم: 31، الرباط، 2005.

4- حياة بطل التحرير، عبد الله الجراري: إعداد وتقديم.

5- الخالصيات: ديوان شعر عبد اللطيف خالص، جمع وتقديم.

6- ثلاثون يوماً في الولايات المتحدة الأمريكية، عباس الجراري (رحلة)، إعداد وتقديم.

7- الحياة الثقافية والاجتماعية بمدينة الرباط خلال القرن العشرين: ملامح وتجليات مختصرة، منشورات جمعية رباط الفتح، الرباط، 2021.

ضمن كتاب جماعي: نشر الدكتور مصطفى الجوهري العديد من الدراسات والأبحاث ضمن كتب جماعية، منها:

1- كتابة تاريخ العدوتين (ندوة عبد الله الجراري)، 1987.

2- ظاهرة الأندية بالمغرب (ندوة عبد الله الجراري)، 1998.

3- المؤلفون الرباطيون بعد الاستقلال: تراجم مختصرة، ضمن كتاب «الرباط مدينة الثقافة والفنون، تقديم عباس الجراري»، (كلية الآداب بالرباط، 2014).

4- زهرة الآس في فضائل العباس: أبحاث مهداة إلى عميد الأدب المغربي د. عباس الجراري.

5- علي الصقلي شاعراً مسرحياً: مسرحية آسي الحي أنموذجاً، (ضمن كتاب «علي الصقلي أمير الشعراء»، تقديم عباس الجراري، منشورات النادي الجراري، رقم: 69، الرباط، 2016.

6- تراجم رجال الحركة الوطنية والمقاومة والفداء: ضمن موسوعة الحركة الوطنية والمقاومة وجيش التحرير بالمغرب (أكثر من 50 ترجمة).

* * *

مقاربة في سيرة إنسان بعقب الرحيق رحيق العمر موجز سيرتي الذاتية للدكتور عباس الجراري

د.مصطفى الجوهري

❖ السيرة : مقارنة المصطلح الجراري

لعلّي لست في حاجة إلى الخوض في اصطلاح السيرة الذاتية وتصنيفاتها المتعددة باعتبارها تمثل حمولة ذاتية وتجربة ثقافية وإنسانية مواكبة لمحطات الحياة في نشأتها وتطورها مع تركيز على الذات، وقد تأتي السيرة موجزة أو طويلة أو في أجزاء تلبية لرغبة كاتبها، فهي كما يرى فيليب لوجون أن "حد السيرة الذاتية : حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة"⁽¹⁾ فالسيرة كما يبدو ترتبط بذات الكاتب، وتركز على الإنسان (الشخص) باعتباره يعيد كتابة محطات حياته وذاكراته بكل تلويناتها وتحولاتها المعيشة.

إن الأدب العربي الحديث أولى عناية خاصة بأدب السيرة والتراجم، وتوسع الاهتمام والبحث في أشكاله المتباينة، وأنماطه المختلفة مما يمكن الرجوع إليه في مظانه المتعددة.

ونحن نتأمل سيرة الدكتور عباس الجراري تتبادر إلى ذهننا جملة أسئلة كمدخل لبلورة نموذج سير ذاتي جديد! ومدى تموقعه ضمن التعريفات المتداولة كجنس أدبي، وخاصة في مجال التنظير الاصطلاحي للسيرة الذاتية، فالسيرة أو الترجمة تتأسس عند الأستاذ الجراري على "التعريف الشخصي - الذي-أصبح اليوم مطلباً من كل فرد، بدءاً مما تتضمنه بطاقته الوطنية إلى ما يضطر للإضافة إليها من معلومات، لمزيد من التعريف بنفسه إذا أراد أن ينسلك في نظام دراسي

معين أو أن يلتحق بأي عمل إداري أو مهني، وهو ما شاع من خلال استعماله حرفي C.V. وبقدرة ما تكون هذه الحياة ممتدة في الزمن والعطاء، تكبر الحاجة إلى توسيع هذا التعريف⁽²⁾ فإنه يلجأ إلى كتابة ما يطلق عليه "سيرة ذاتية" "Autobiographie" يضمنها تفاصيل حياته⁽³⁾.

ويبدو هذا الطرح يحمل مقاربة جديدة تحتاج إلى تأمل ضمن التعاريف السير ذاتية عربيا وعالميا... طرح وظيفته بشكل ملموس في تحرير (رحيق العمر) معتمدا طريقة تبدو مقصودة تعززها فصول السيرة كما سنرى.

ولعل هذه الملحوظة تنسحب أيضا على باقي أعماله الإبداعية -شعرا ونثرا- في الرحلة وفي الشعر كما في السيرة، باعتبارها منبع إشعاع ينبعث منها صفاء الانفعال والتفاعل والعطاء ويربطها خيط حريري متين يبرز في كل عمل رغم التباين الأجاسي فيما بينها، وأقصد الجنس الأدبي.

وبعودة القارئ إلى رحلتي الأستاذ عباس الجراري :

(ثلاثون يوما في الولايات الأمريكية)⁽⁴⁾

(ونسيم البوسفور)⁽⁵⁾

(من ديوان عباس الجراري ج1 وج2)⁽⁶⁾

سيدرك إمكاناته الإبداعية بحمولتها الجديدة وبطريقتها المختلفة إذ عالج عناصر الحياة فيها بمنهجية حدائية مواكبة لاستقلاله الذاتي في الإحاطة بالناس والأشخاص والعلاقات والمواقف والأحداث والظواهر والقضايا... وهو ما يمكن استخلاصه من قراءة فصول سيرته الذاتية.

وإلى جانب هذه المقاربة أو المنهجية الجديدة، فإنه أضاف إليها شروطا ذاتية تبدو مخالفة لما هو متداول عند كتاب السيرة الذاتية، نقرأ بعض عناصرها في مقدمة الرحيق، وأخصها في :

(1) التواضع - (2) الوفاء - (3) إظهار نعم الله - (4) تبسيط العلاقة مع الناس - (5)

الحكمة في اتخاذ الرأي الصواب - (6) الشجاعة والجرأة في طرح قضايا الذات وأسرارها.

إن هذا الطرح المواكب لتطور الثقافة الحديثة واعتماد صاحبها في تجديد الكتابة الإبداعية، وخاصة كتابة السيرة في نكهتها الجديدة تحتاج إلى العناية بمقاربتها النقدية في تحديد وتنوع هوية السيرة في أنماط سياقاتها من قبيل (رحيق العمر) وهي ترحل بنا في جولة تواصلية مع الزمن بأحداثه وأشخاصه ومنجزاته وجماليات تشكله بالواقع والأحداث والمواقف التي أحكم الأستاذ الجاربي منحرجاتها المتعددة ومتغيراتها المفاجئة.

وتأكيدا لمقاربته لهوية السيرة حرص على تحرير سيرته بلغة متميزة منسجمة مع طرحه الجديد، فإذا كانت لغة محاضراته وكتابات من نوع "السهل الممتنع" فإنه في سيرته (رحيق العمر) اعتمد لغة البساطة والسلاسة خلافا لما ألفناه في دراساته الأكاديمية، هدفه من السيرة في صياغتها كأسلوب سهل في مفرداته وعباراته وتعابيره الكتابية أن لا تنحصر لدى قراء النخبة، بل أن تصل إلى أكبر عدد من شرائح المجتمع.

❖ سيرة بطعم الرحيق :

رحيق العمر : موجز سيرتي الذاتية⁽⁷⁾، سفر مهم كنا ننتظره بشوق إلى أن رأى النور في الذكرى التسعين لتأسيس النادي الجاربي سنة 2020، وهي سيرة مختصرة تهدف إلى الكشف عن حياة الدكتور عباس الجاربي، أنجزها بالحاح من بعض الدارسين، رغم التراجم التي عرفت به في أكثر من بحث أو مناسبة وخصص الجزء الأول لمحطات النشأة والتكوين والمشروع العلمي الذي رافقه على امتداد رحيق الحياة، منشغلا بالهم العلمي، في تجربة ثرية في تفاصيلها ومواقفها وقراراتها وإفاداتها وموسوعية ثقافة صاحبها.

انطلق في محاور السيرة الثمانية عشر بالحديث عن النسب الجاربي باعتباره أرضية التعريف ووصل قديم بالحديث، فقدم خلاصة مركزة حول نسب الأسرة الجاربية المتمثل في النسب الهاشمي الجعفري الزينبي وفروعها وأعلامها ونبغائها ممن برزوا في الفكر والسياسة والعلوم والتصوف والقضاء ورجال الدولة

والجيش والقيادة والتدريس ومختلف المسؤوليات والوظائف... متوقفا عند استقرار بعض أفرادها بمدينة الرباط وخاصة الجد عباس⁽⁸⁾.

وخصص الدكتور عباس الجراري المحور الثاني لمدينة الرباط -باعتبارها مدينة المولد والنشأة- بمستوياتها المختلفة، فهي (نبض وصال حي ونبع حب متدفق) بل هي "جيد الوطن واسطة عقدها النضيد"، تطورت عبر التاريخ، وحققت منجزات ازدهار مبهرة، من خلال الحركة العلمية ورجالها، وهي تتأهل لتصبح قاعدة الملك، ومركزا للنهضة والإصلاح، وازدهار التعليم بأصنافه وأشكاله، ونشاطا لحركة الكفاح الوطني على امتداد زمن الحماية وتحقيق الاستقلال وبناء النهضة الحديثة لتصبح الرباط حاضرة للثقافة والفنون وتحقق عالمية التراث وعاصمة الثقافة ومدينة الأنوار⁽⁹⁾.

❖ عبد الله الجراري: قدوتي والمثال

لست في حاجة إلى التأكيد بأن عبد الله الجراري يمثل بحق الأبوّة المثالية في نسقها وفكرها ومسؤولياتها ومشاركاتها ومهامها، أبوّة منفتحة في تواصلها وتوجيهها وعلاقاتها، تتأسس على مجموعة من المبادئ التي لقنها لأبنائه بوضع منهج تربوي محكم في مواده، وصدق رسالته بموازة مع التكوين المدرسي. وفي مقدمة من استفادوا من هذا المنهج إلى جانب إخوته الابن عباس الذي شكل عنده القدوة، حركه للتعريف بمحطات القدوة ومراحل المثال في ترجمة تتبععت معطياتها بما يفيد القارئ في عطائه الثقافي والاجتماعي والوطني والتربوي والجمعوي الغزير... بلورت الترجمة مؤلفاته التي تجاوزت الثمانين كتابا بين مطبوع ومخطوط ومرقون تبرز سعة فكره ومعرفته وتفردته في الكتابة والتدوين استحققت أن تطعم بعناية البحث الأكاديمي قراءة وتحليلا وتصنيفا ونقدا ساهمت في استكمال الصورة التي رسمها الابن البار بالأب القدوة والمثال⁽¹⁰⁾.

وإمعانا في هذه الصورة أرادها هذه المرة أن تكون جماعية مع أخواته وإخوانه بالبيت في حديث له خصوصيته وأبعاده ودلالته لاستكمال الرأي حول الوالد الذي ارتبط بأبنائه وتهيينهم لتحمل مسؤوليات حياتهم المستقبلية. فعني "بتكوين

أبنائه وتثقيفهم في توجيهه سلوكي مستمر كان يلح فيه على القيم الخلقية وعلى ربط مكارم الأخلاق بالكرامة..."(11).

انعكست ثمراته على الإخوة بالتعايش والتساكن والتعاون والحب والتعاطف والتماسك والحفاظ على القيم التي تلقوها جميعا من الوالد المربي، مع حظوة خاصة بصاحب السيرة الذي له معه تجارب خاصة وتوجيهات مستقلة، اكتفى بالإشارة إلى واحدة منها حين اختار الأستاذية بديلا للوظائف التي اقترحت عليه خاطبه "إذا كنت تريد أن تكون أستاذا ناجحا لا بد أن تراعي شرطين : الأول أن تجعل طلابك يعرفون جبينك، والثاني أن تخرج من بينهم من يتفوقون عليك"(12).

وتعتبر الأسرة مكونا أساسيا في السيرة الجديدة، وفي مقدمتها الزوجة باعتبارها بؤرة هذه الأسرة في بناء سعادتها ورعاية أبنائها، واستثمار مستقبلها وامتداد تساكنها وتلاحمها وتعايشها.. والأسرة العباسية الصغيرة حباها الله بامرأة فاضلة، ومربية أمينة، ومضحية نادرة، رافقت تفاصيل السيرة بحلوها ومرها وباليسير⁽¹³⁾ والعسير، شاء القدر أن يجتمعا بمدينة القاهرة، ويلتقيا بالصدفة بمصعد مكتب لجنة المغرب العربي فأسسا معا طريقا أنيقا للحب والعشق، وستكتمل خطواته بالزواج السعيد، ويتطبع بالتشارك في أسرار الحياة، وتختار الحبيبة والزوجة الابتعاد عن تجربة الوظيفة المهنية لتنهض بجميع مسؤوليات البيت، وتتفرغ لتربية الأولاد، وتظل إلى جانب الزوج مساعدة له في أشغاله العلمية والثقافية، فامتلكت تجربة ثقافية متفاعلة، احتلت من خلالها مكانة رفيعة بين رجال ونساء الثقافة. وبحضورها البيتي برزت مجتهدة في منهج تربية الأولاد الذين حققوا مسارا علميا وشهادات عليا. (ألف - علا رحمها الله - محمد - ريم) وطوعوا الأمل بإنجازاتهم العلمية والمهنية والاجتماعية والأسرية الناجحة، ولعل لتضحيات الأم والزوجة دورها الكبير في مساندة الزوج في محنته وأعماله ومغذية لأغراسها وأحفادها بأموئها الملتزمة النافعة.

أما عن مراحل تكوينه العلمي وتحولاته الدراسية التي اتسعت شعبها وفضاءاتها من الكتاب (المسيد) إلى التعليم العصري بمؤسساته الابتدائية والثانوية

والجامعية، وكوكبة من المعلمين والمربين والأساتذة الذين تلقى عنهم ورافقهم الدرس والمحاضرة، رغم بعض التعثرات التي واجهها بسبب بنيته الصحية التي عانى منها كثيرا إلى درجة كادت أن توقف مسيرته الدراسية، وتميزت مرحلة الدراسات الجامعية سواء بفرنسا أو مصر بجملة من الأحداث والمفاجآت والمواقف والاختبارات والإنفراجات والإقبال على المكتبات والمعاهد والمجالس الأدبية التي حملت إلينا تفاصيلها خفايا ذاتية ملتزمة بالتكوين والدراسة حظيت بالتنويه والتشجيع، وتوجت بالحصول على الشهادات العليا (الليسانس - الماجستير - الدكتوراه) وتخللتها لحظات مثيرة مع أساتذته سواء بباريز أو القاهرة وقبلهما عناية الوطني الحاج أحمد فلافريج الذي جذبته إلى جانبه بوزارة الخارجية، وسفارة المغرب بجمهورية مصر العربية.

وهذه الجاذبية سبقتها مجموعة من الاقتراحات الوظيفية والمناصب المتباينة التي عرضت عليه سواء قبل الالتحاق بالجامعة أو خلالها أو بعدها، وهي محطة تحكي جزءا من أسرار الذات في سلوكها ومعاناتها وصراحتها بدءا باقتراحه الالتحاق بالديوان الملكي في عهد الراحل الحسن الثاني الذي لم يتم، فالتحق بكلية الآداب والعودة إلى الأستاذية، وهي عودة ستؤثر على ذاتيته وأسرته، لأنها جرت عليه الحقد والمعاناة والمساومة والعرقلة كادت أن تعصف بمستقبله واستكمال مناقشة أطروحته (الدكتوراه) بعد أن سعت رئاسة الجامعة يومئذ إلى تشطيب اسمه من أطر الجامعة وتوقيف راتبه الشهري، بل معارضة عودته إلى منصبه... ومع ذلك تسنى له تحقيق إنجازات مهمة وطنيا ودوليا وقاريا، وأمطرت عليه مناصب سامية مغربيا وعربيا لكنه زهد فيها معتذرا بلطف، ومتفرغا لمشروعه الفكري كما سنرى، ومنصرفا أيضا إلى التدريس بالمعهد المولوي، ومنوها برعاية المغفور له الحسن الثاني ومكرماته، وعناية جلالة الملك محمد السادس الذي حظي عنده باهتمام خاص حين عينه مستشارا لجلالته.

ورغم الأزمة النفسية والمادية والمعنوية التي عانى منها الأستاذ عباس الجبراري مع معارضيه وخصومه وأصدقائه ممن أساءوا إليه في استهزاء وسخرية في

عرقلة مدروسة ومدسوسة كالدراسة والتدريس بالجامعة، واختياره وتعيينه خطيباً بمسجد للاسكينة، ومعارضة انتمائه إلى أكاديمية المملكة المغربية، ومعارضته تدريس الأمراء بالمعهد المولوي.

فهذه المواقف والأزمات بتجاربها القاسية عرف كيف يصرف بلاءها عنه بحكمة عقلية لا تتوفر إلا عند من خبروا الحياة في تجاربها المتباينة، واستوعبوا الدرس التربوي والأخلاقي للوالد القدوة والمثال، فصصح عنهم ودعا لمن فارقوا الحياة بالمغفرة والرحمة مقتنعاً بأن "الحمد عند الشدائد والمكاره بما يقتضى من صبر وثبات لا يكون إلا عن رضى بما هو مقدر في غير اعتراض عليه أو شك فيه، أي لا يكون إلا عن تفويض أساسه الثقة في الله والاطمئنان إليه وشكره والثناء عليه، مع اليقين أنه هو المانح والمانع" (14).

❖ السيرة: ثقافة التطوع

تطرح السيرة فصلاً مهماً يتعلق بالثقافة التطوعية وتجلياتها الجموعية وهي ثقافة تجسد حياة الإنسان في أبعادها الفلسفية وتطوراتها السلوكية وإنجازاتها التنموية. فإلى جانب الثقافة الأكاديمية المنتظمة التي تحدث عنها في الفصول السابقة تبرز ملامح بل مكونات العمل التطوعي الذي لا يلتفت إليه إلا قليلاً سواء من طرف الكاتب صاحب السيرة، أو من طرف الباحثين الذين عادة ما يركزون على العطاء العلمي، مما ساهم في تغييب الثقافة التطوعية، وهي من الأهمية بمكان لكونها تساهم في تطوير المجتمع المدني ونهضته لتحقيق تنمية ثقافة مستديمة، وهي بالنسبة لي تسعى لمنافسة الثقافة الأكاديمية التي تتأسس على التخصص المطلوب، ولكونها تشكل إثراء للهوية الوطنية، ولشخصية ممارسها استجابة لصناعة المستقبل وإغنائه، وهي أيضاً "ثقافة التطوع- جزء من مشروع الإنسان الثقافي ومنهجه في الحياة.

ورغم انشغال الدكتور عباس الجراري بمشروعه الثقافي : الدرس الجامعي، والبحث العلمي والتنظير الأدبي، والكتابة والتأليف، فإنه انصرف إلى العمل الاجتماعي الثقافي الذي حقق من خلاله تراكماً وتواصلاً ثقافياً واجتماعياً، زاده

إشعاعاً منذ انخراطه وهو يومئذ مازال في طفولته الأولى، لتتطور هذه الواجهة بمشاركاته الكثيرة في عدد من المنظمات والجمعيات والهيئات والمهرجانات والمؤتمرات والملتقيات الثقافية الوطنية والعربية والدولية⁽¹⁵⁾.

ويمكن الحديث عن الموضوع - على تعدد محاوره- في نقطتين أساسيتين
النادي الجراري - والشراكات والمشاركات المؤسساتية والجمعية.

• النادي الجراري : ففي عهد الدكتور عباس الجراري سيلاحظ المتتبع مدى تطور النادي الذي طعمه بخصائصه الذاتية، ومشاركاته الفعالة في إدارة حلقاته وجلساته وفق برمجة ثقافية منتظمة ومحكمة شجعت على المشاركة واستقبال باحثين وعلماء من المغرب وخارجه، بل إن النادي حقق إضافات كثيرة من بينها :

1) اهتمام النادي بالنشر والتدوين والتوثيق تعكس مدى عناية الدكتور عباس الجراري في تعميم النهوض بالثقافة المغربية من خلال منشورات النادي التي تجاوزت اليوم أكثر من مائة إصدار، وهو جهد ثقافي كبير لا يسع المرء إلا أن ينحني اعترافاً بهذه الخصوصية الفردية لرئيسه أمد الله في عمره⁽¹⁶⁾. وعرفت سنة 2020 التي صادفت الذكرى التسعين لتأسيس النادي برمجة خاصة للاحتفاء بهذه الذكرى (رغم الظروف الصعبة التي عرفها العالم بسبب وباء الكورونا، ومع ذلك تم تخليدها عن طريق الإصدارات التي بلغت عشرين مؤلفاً⁽¹⁷⁾).

2) إحداث جائزة عبد الله الجراري في الفكر والأدب سنة 2009، وهي محطة تشكل قفزة نوعية باعتبار أبعادها وأهدافها العلمية والتشجيعية وخصوصيتها الثقافية.

3) انفتاح النادي بعقد توأمة مع مؤسسات مختلفة وبتنظيم لقاءات علمية وثقافية خارج النادي مع منتديات ومؤسسات ومجالس وجمعيات ومراكز ومكتبات وأندية وجامعات وكليات، مما ساهم في إضاءة صوت النادي، وتعميق جسور الثقافة على امتداد جغرافية المملكة كما في خارجها، وساهم أيضاً في تعزيز خصوصياته الثقافية والاجتماعية والإنسانية. وتجديد قدرات الدكتور عباس

الجراري وخبرته في الشأن الثقافي المجتمعي في انسجام تام مع خصوصية مشروعه الثقافي بشكل عام.

وعزز هذا الانفتاح والاختيار الثقافي التطوعي بالانضمام عضوا في عدد من الاتحادات والجمعيات واللجن الوطنية والملكية، والمؤتمرات والملتقيات والمنظمات والمجمعات، والمجالس العلمية والمجامع اللغوية، ولجن التحكيم والهيئات الاستشارية والعلمية، والمراكز العلمية، ومجالس الجامعات وغيرها⁽¹⁸⁾.

ولعل الحديث عن النادي الجراري لا يمكن أن يستقيم إذا لم يتم النفوذ إلى فضائه، وهو فضاء جميل يشكل متحفا مستقلا وثريا بمحتوياته المتعددة والمختلفة تعزز في نظري ثقافة التطوع من خلال ممارسة هوايات ذاتية انطلقت مع مؤسس النادي سيدي عبد الله وتواصلت في عهد رئيسه سيدي العباس وزوجته الأستاذة حميدة، ومن جملتها اقتناء الكتب باستمرار كون مكتبة متنوعة ونادرة بمحتوياتها ووثائقها وملفاتها ومعرضاتها النادرة من مصاحف، وتسجيلات وعمليات وطوابع وسبحات وصور وأقلام ومحابر وخناجر وحلي وعرائس وألبومات ولوحات زيتية وأوسمة وصور مناسباتية وغيرها كثير. وفضاء النادي وحده يشهد تطور النادي مما يمكن قراءته من خلال ما يضمه من آثار من جهة، يعكس استمراره وتطويره في حرص شديد على تطعيمه بكل جديد، وفي تنسيق محكم لمواده، نتمنى الحفاظ على هذا العطاء التراثي صيانة لذاكرة النادي الجراري أولا، وصيانة لمن كان لهم فضل تأسيس هذه الذاكرة وتوسيع إشعاعها في واجهاتها المتعددة ومن بينها واجهة الثقافة التطوعية من خلال أحد مكوناتها الأساسية متمثلا في الانجذاب نحو ممارسة هوايات ثقافية ذاتية مستقلة لا يدرك قيمتها إلا عاشق هاو مختص.

وانسجاما مع مسارات العطاء، وحفريات الاهتمام، وسمو المراتب، كان لابد من الالتفات إلى سيرته الثقافية، تكريسا لفضيلة الاعتراف وتكريما لمشروعه الثقافي الإصلاحي والتنويري والتنموي، فحظي بحصاد رفيع المستوى من أوسمة ودروع وجوائز وميداليات ومفاتيح، وشهادات تقديرية، وتكريمات من طرف هيئات ومنظمات وجمعيات ومؤسسات وطنية ودولية⁽¹⁹⁾.

وتقديرًا لجهود الدكتور عباس الجراري واسهاماته في خدمة الفكر والأدب والثقافة والتراث والحضارة والإبداع... حركت الأقلام للاشتغال على هذه الجهود بدراساتها وتوثيقها في بحوث تساعد في قراءة سيرة الرجل العالمة، على غرار ما تطرحه السيرة الغيرية لتسافر بنا في قدراته الموسوعية وحصيلته السير ذاتية كل من منظور رؤيته وتخصصه ومنهجه ومصادره توجت كما هو معروف بعمادته للأدب المغربي⁽²⁰⁾.

وبتأملنا المدونة التأليف الجرارية المروية في السيرة، سنلاحظ ملامستها لأصناف المعرفة في كل اتجاهاتها وتقاطعاتها المتباينة، بعضها ظهر في أكثر من اثنين وتسعين مؤلفا مطبوعا، وأخرى في أكثر من ثمانية وثلاثين مؤلفا مخطوطا تنتظر أن تلتحق بقطار الطباعة.

ومبدع هذه المدونة اعتمد رؤيا منهجية متكاملة في تنظيراتها المعرفية تتضح ملامحها في افصاحه عن اتجاهه الثقافي باعتباره "نشاطا إنسانيا" يحرك الوجود في تفاعل يفضى إلى التنوع والتعدد وإلى التباين والاختلاف وفق معطيات بيئية وفكرية ونفسية وحتى جسمية، هي التي تتيح إنشاء ثقافة بخصوصيات معينة...⁽²¹⁾ وتأسيسا على هذا الاتجاه شدد في مشروعه ودعوته "إلى ضرورة تكوين ثقافة وطنية" وتحقيقها لا يستقيم إلا عن طريق "ثورة ثقافية" وهي الشهادة الموضوعية التي تؤكد كتاباته وأنشطته الثقافية منذ انتمائه إلى الجامعة رغم تلون الرحيق بألوان عكرت صفاءه، لكن عقبه ستفرزه بعض محطات أنشطته ومن نماذجها "الدروس الحسنية" التي قدم من خلالها عصارة متميزة في الشريعة والفكر الإسلامي وفلسفة الإصلاح برؤية وسطية متفتحة تستند على مرجعية إسلامية ومذهبية مفصلة ومحكمة تعكس حصافة ثقافته الدينية والفكرية.

إن هذه الشذرات المفيدة من سيرة الأستاذ عباس الجراري التي وثقت مكونات مراحلها وعناصر مشاركتها كشفت بصمات تجاربها عن وفاء صاحبها لكل مشهد من مشاهدها بتأثيرها وتأثرها بالواقع والوقائع التي أحاطت بالسيرة وحرص من خلالها تطوير الفكر بأصالته الحضارية والحدائية وتحصين الهوية

الثقافية بتجلياتها المختلفة، ظهرت من خلال استقرار أنشطته المتعددة التي تتبعناها منذ طفولته وشبابه لكنها تقوت في مرحلة الجامعة بانطلاق مشروعه الثقافي الذي مارسه لعقود بوضع ضوابط منهجية ونقدية للبحث العلمي، وبرسم مكونات التنمية الثقافية المتجددة، تبلورت اجتهاداته في أعمال كثيرة أهلتها ليصبح المنظر والمجدد في دراسة الأدب المغربي وتراثه الحضاري.

وقبل ذلك نستحضر جزءاً مهماً ومكملاً لمشروعه يتعلق بمهامه واقتراحاته واهتماماته سواء في تأسيس الدراسات العليا أو الإشراف والتأطير، أو المساهمة في الإصلاح، والمشاركة في نشر الثقافة وترشيد الخدمات العلمية.

وبنفس الروح والمواجهة عمد إلى دراسة الأدب المغربي في شقيه المدرسي والشعبي برؤية ثورية تعتمد تخطيطاً علمياً وتربوياً ذاتياً مسؤولاً مادياً ومعنوياً برزت في كتاباته ومحاضراته وتآليفه رصدت عناصر مهمة من معاناته في الملمة البحث العلمي بحضوره الدائم في بناء خطاب الأدب المغربي وخطاب الثقافة الوطنية في سياقها التراثي وبعدها الحداثي كما رسمتها السيرة في زوايا فصولها المختلفة.

لقد حفر الدكتور عباس الجراري في موجز سيرته الذاتية شهادة صريحة موضوعية في طروحاتها وتفاعلات واجهاتها الرشيدة وثبات اعترافاتها الملزمة، كان من بصماتها النقية سمة التواضع الكبير -تواضع العلماء- الذي طبع كل المعطيات الذاتية المروية من معلومات وأحداث وقضايا مختلفة، ومن بصمات هذا التواضع ذكره أسماء كل من حظي بالمساهمة في إغناء مشاهد السيرة في خصوصياتها العلمية والمنهجية والثقافية والاجتماعية، فقدمت عبقا بحثيا وشعريا كان له دور تجديد أدواره الذاتية الحصيصة خدمة لمشروعه الثقافي عامة.

وجمع التواضع خاصية ثانية تتمثل في الصدق والصراحة لأنه باعترافه يريد لسيرته "أن تكون خالصة صادقة، وصافية من كل تزيف أو تحريف أو مبالغة"⁽²²⁾ يؤكد لنا صوته الوطني الرفيع بهويته الأخلاقية والمعرفية السامقة مما تحتاجه السيرة الحديثة التي لا تحتل الزيف باعتبارها آلية تواصل في صناعة الإنسان.

الهوامش :

- (1) السيرة الذاتية : الميثاق والتاريخ الأدبي، فيليب لوجون، ترجمة عمر حلي ص 22.
- (2) رحيق العمر : موجز سيرتي الذاتية ص 7.
- (3) رحيق العمر : ص 8.
- (4) صدرت سنة 2018 من إعداد وتقديم د. مصطفى الجوهري.
- (5) صدرت سنة 2020 من إعداد وتقديم دة : بديعة الفضائلي.
- (6) صدر سنة 2017 من إعداد وتقديم د. محمد حميدة.
- (7) منشورات النادي الجراي رقم 101، مطبعة دار أبي رقرق للطباعة والنشر 2020.
- (8) رحيق العمر ص 21 وما بعدها.
- (9) رحيق العمر ص 35 وما بعدها.
- (10) انظر رحيق العمر ص 47 وما بعدها.
- (11) رحيق العمر ص 80.
- (12) رحيق العمر ص 120.
- (13) رحيق العمر ص 135.
- (14) رحيق العمر ص 16.
- (15) انظر رحيق ص 209.
- (16) رحيق العمر ص 218 وما بعدها.
- (17) رحيق العمر ص 219.
- (18) انظر رحيق العمر ص 309.
- (19) انظر رحيق العمر ص 227 وما بعدها.
- (20) رحيق العمر ص 243.
- (21) رحيق العمر ص 165.
- (22) رحيق العمر ص 27.

* * *

د. ابراهيم المزدلي

- أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط.

- خبير في جامعة محمد الخامس بالرباط.

- خبير بكلية الآداب، جامعة اليرموك، المملكة الأردنية الهاشمية.

- عضو لجنة معادلات الشهادات الجامعية العربية، مع الشهادات الجامعية المغربية.

- عضو في مجلس جامعة محمد الخامس بالرباط.

- عضو في مجلس كلية الآداب، جامعة محمد الخامس بالرباط.

- عضو اللجنة العلمية بكلية الآداب، جامعة محمد الخامس بالرباط.

- أشرف على العديد من الرسائل والأطاريح الجامعية.

- شارك في عدد من لجان فحص الأطاريح ومناقشتها.

- رئيس شعبة اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب بالرباط (سابقاً).

- عضو لجنة التحكيم في جائزة المغرب ورئيس لجنة النقد الأدبي والفني

لسنة 1998.

- شارك في العديد من اللقاءات والندوات العلمية الوطنية والدولية.

- المنشورات: الكتب:

1- إسراء الخلاص: تحليل طوبولوجي لقصيدة أسفار الرؤيا للشاعر عبد

العزیز محیی الدین خوجة، (الدار البيضاء، 2002).

2- واحات الضوء: مواقع الإنسان في ديوان «قناديل الريح» للشاعر عبد الله

باشراحيل، (بيروت، 2005).

3- شَهْدُ الوصال: تأمل أسلوبی فی مطولات من مختارات «إلى من أهواه»،

للشاعر عبد العزیز محیی الدین خوجة، (بيروت، 2007).

4- أطياف الماء (قصص)، الرباط، 2008.

- من أبحاثه المرقونة:

1- أدب الأزارقة.

2- أدب الصفرية والإباضية (من سنة 64هـ إلى نهاية القرن الثاني) تحليل النص القديم تحليلاً موضوعاتياً وسباقياً.

3- نثر الأزارقة: تحقيق ودراسة وتقديم.

4- نثر الصفرية: تحقيق ودراسة وتقديم.

وللأستاذ ابراهيم المزدلي دراسات منشورة في مجلات (الأطلس، أقلام المغربية)، المناهل، الثقافة المغربية، آفاق).

وهو أستاذ محكم ضمن هيئات المجالات التالية:

- مجلة كلية الآداب بالرباط.

- مجلة "دراسات" التابعة للجامعة الأردنية، (1995-2005).

- المجلة العربية للعلوم الانسانية، جامعة الكويت.

* * *

اللسع المر... في رحيق العمر الكشف عن الجراح

د. ابراهيم المزدلي

على عتبة المعاناة:

مدخل من لغتنا:

ورد في لسان العرب لابن منظور:

"اللسع لما ضرب بمؤخره، واللدغ لما كان بالفم (...). ورجل لسيح: ملسوع، وكذلك الأنثى، والجمع لسعى ولسعاء كقتيل وقتلى وقتلاء. ولسعه بلسانه: عابه وأذاه. ورجل لساع ولسعة: عيابة مؤذ قراصة للناس بلسانه، وهو من ذلك (...). وفي الحديث: لا يلسع المؤمن من جحر مرتين، وفي رواية لا يلدع، واللسع واللذع سواء، وهو استعارة هنا، أي لا يدهى المؤمن من جهة واحدة مرتين، فإنه بالأولى يعتبر "اللسان/السع".

عندما قدمت في النادي الجراي عرضا بعنوان: معجم الألم في شعر عبد الرحمن حجي، تحدثت في توطئة مطولة عن الألم، وكيف كان الشرارة التي لا تخبو في صدور عدد من المبدعين في العالم، في الأدب والموسيقى والرسم والنحت، في كل أقطار الدنيا، وجميع أرجاء المعمور.

ولو شئت اليوم بأن ألم بكل المعذبين من مشاهير المبدعين، اللذين تركوا ذخائر رائعة للإنسانية جمعاء، لاحترت الحيرة الكبرى، وبأية معاناة قاسية أفتتح قولي؟ وأين تكمن معالم البداية وحدود المنطلق، وإلى أين أنتهي، وبأية معاناة تحرق الفؤاد أبداً، وعند أي مرفأ مجروح تنزف جنباته، يتوقف مركبي المبحر في لجة الآلام؟ فكل المخترعين والمبدعين، في مجالات العلم والفن والأدب، واللذين ذاقوا من

أصناف الفواجع أمرها، وعاشوا البؤس في أسوأ ظروفه، وشربوا من شظف العيش من أكبر كاساته، وأخذوها من أيدي أكرم كرمائه، وكان حظهم من المارة ما يكفي العشرات، ومن الأسى ما يغطي حاجة مئات المعذبين في هذه الأرض، وما دام المشاهير البؤساء، لا يكاد يشملهم إحصاء شامل، لأن الألم نبض إنساني، لا لغة له ولا دين ولا لون، لا يغريه مال الأغنياء، ولا يبعده بؤس البؤساء، يضرب ضربات عشوائية، تصيب الناس كلهم، لا فرق بين أمير أو حقير: لا فضل لصغير أو كبير: لا يخاف مستوى اجتماعيا، ولا يتراجع لمكانة شخص، يحسب أنه فوق الناس، ولا يرحم أحدا لأنه دون الناس: تظن أنه عادل لا تهمه طبقة من الطبقات العليا، وتعجب عندما يخلط خلطا غريبا بين المالك لكل شيء، والفاقد لكل شيء، يتساوى تحت ظله المغمور والشهير، الآخذ والواهب ويعجز العقل عن ضربات التباريح، وهي تقطع بسيف لا يرى، ولكنه يقسم كل من يجده في طريقه، كأنه يضع قناعا على عينيه، لكي لا يرى من أمامه: يهاجم القصور الفارهة، يدخل إليها من أبوابها المقفلة كطيف عابر، ويدمر مدن الأكواخ، يتسلل من ثقب سقوفها المشققة، لا يحترم عجز كبير، ولا يعطف على براءة صغير.

الألم قضاء لا بد أن ننحني لعاصفته شننا أم أبينا: هو المنتصر قبل بداية كل معركة: كل مقاومة هي عجز أمام جبروته: وأي محاولة للإفلات من قبضته هي ضرب من الوهم، الذي لا يتحقق باليقظة، ولا مفر منه من بالحلم، لا بد أن نمثل لدعوة الكاتب الفرنسي جان دو لافونتين (1621م - 1695م) في حكاياته الاسطورية العجائبية، عن حقيقة ما يقع في وجودنا، ويستطيع أن يستفيد منه في حياته ووجوده. عندما يذكر لنا ما جرى من حوار جميل بين سنديانة عظيمة، تفتخر بشموخها وعظمتها، وقدرتها على مواجهة الرياح العاتية، وبين قصبة رقيقة، تميل مع كل نسمة، وكيف ذهبت عظمة السنديانة بها إلى الانهيار أمام قوة الرياح العنيفة، وهي تبذل كل قدراتها للصمود امام هجمات، وكيف نجت القصبة الرقيقة الواهية، وظلت في موقعها، على الرغم من هبوب الرياح العاتية، ولم تقاوم هجمات الريح وانحنت أمام كل هبة من هباته، ومالت بحسب اتجاه الهبوب

القوي الذي يضرب بعنف، ولكنه يتخطاها لأنها تنحني مع اتجاهاته المختلفة، فإذا مرت زوابعه، عادت للانتصاب بعودها الرقيق، الذي ينتمي في كل الاتجاهات، ولا يقاوم بسذاجته السنديانة الرياح في غضبتها العنيفة، وهي تكسر كل ما يصمد في طريقها، وكذلك كان حال السنديانة العظيمة، والتي تكسرت لأنها حاولت مقاومة الريح، ولم تركع امام هجماته إلى أن تمر بسلام.

وعندما تهل اللمسة الربانية، تضمد الجراح النازفة، ويتوقف سيل العذاب، وتجف سواقي الألم السيالة.

أتوقف في هذه اللحظة العابرة، عند جرح أخ عزيز على النفس، قريب من نبض القلب، وأمضي إلى هذه الزاوية الركينة، التي تخفي الجراح النازفة، لا أريد بذلك أن أفنق الكلوم الهامدة في الكبد الحرة، ولكنني أكشف عن صدق المشاركة، أهبها رداء محبة يغطي المحبوب، حين تعريه رياح الآلام وهي تهب بعنف، وقدرة كاسحة من كل حذب وصوب.

وأقول لصديقي عباس، واعتذر عن حجب الألقاب التي أنت لها مستحق، لأنك في رأيي فوق هذه الألقاب؛ لأحدثك بقلبي لا بد أن تكون قريباً من قلبي، أحسك تتحرك بين ضلوعي مع خفق الفؤاد.

أسميك باسم الصديق وهو مفتاح القلوب، أما التسميات الرسمية فهي طرقات على الضلوع، وأنا أحب أن أسمعك مع نبض الأغوار، وأذكرك بأنك بتواضعك غمرتني بمحبتك وجهلتي صديقا؛ بشهادتك المنشورة على الملأ، عندما حسبتني واحداً من المعاصرين الذين عرفتكم، وأكرمتني بما لم يكرمني به إلا القليل من الناس قبلك، وناديتني بقولك: "الصديق العزيز سيدي ابراهيم"¹، وقت مثل ذلك في عدد من مناقشات الأطروحات الجامعية، التي جمعتني بك في مدرج الشريف الإدريسي، بكلية الآداب بالرباط وأسعدني وتمتعت ببعض نفحاتك الطيبة. أقول لك أيها الصديق العزيز لا عليك من الشر الذي هب من كل ناحية،

¹ - "مع المعاصرين" عباس الجراري الجزء الثالث، منشورات النادي الجراي، مطبعة الأمنية محرم 1431هـ، دجنبر 2009م.

ليحرق بعض أحلامك، فقد دس بصبر وجلد معابر الجحيم، التي أجمع لعبها قوم يريدون امتطاء الأعناق، ودوس الذين يحبون أن يظهروا على السطح وهم يحفرون بمعاول المعانات والصبر في أرض الصخور المتحجرة، وتزداد إرادتهم قدرة وإصرارا، كلما هبت رياح السموم من مضارب الحاقدين والحاسدين، والذين يريدون وحدهم أن يطلوا على بقية الناس من أبراج زمردية، بناها خيالهم، وعجز جهدهم وعلمهم عن إدراكها، دون سحق الآخرين، ومحق المجتهدين، ومنع أصحاب الإرادة القوية، من الوصول إلى خط النهاية في صراع الأبطال الحقيقيين، في سباق نزيه، ومباراة صادقة، لا يصل فيها إلى خط النهاية، إلا من اعتصم بإرادة قوية، وعزيمة صلبة، وجعل لنفسه منهاجا واضحا، ليبليغ الغاية الكبرى التي ندر حياته كلها من أجلها، وجعل عون الله زاده الأول، وعصاميته رغيته وزاده الذي لا ينتهي، في مسيرة الإصرار على بلوغ الهدف المأمول، وعناق الغاية المرجوة.

المعاناة قدر المشاهير:

في العرض الشفوي الذي جعلته توطئة للحديث عن الألم في شعر عبد الرحمن حجي، في النادي الجراي، قدمت نماذج متعددة، لعدد من المشاهير الذين خرج إبداعهم من عباءة الفقر والحاجة، والمرض، وسوء الأحوال، وما أكثرهم في كل مجالات الإبداع، ودنيا الخلق والابتكار، وانتموا إلى عدد من شعوب الأرض، وتكلموا بكل اللغات، تعبد بعضهم في بيع اليهود، وغيرهم في كنائس النصارى، وصلى الكثير منهم في مساجد المسلمين، ورفض العديد منهم أن يخضع لأي دين، واختار له الفن ربا، والممارسة الفنية صلاة.

لو شئت أن أختار من هؤلاء بعض النماذج، لأرسل الضوء على جانب من معاناتها لاحترت من الذين أختارهم، ويعبرون بصدق بفنهم عن الآلام التي علقوا بحبلها، هل أبدأ بالمعذبين في الأرض العربية، وكانوا أساتذة القريض، وأمراء القوافي، هل أتحدث عن جماعة الصعاليك المنبوذين، اللذين حاربهم مجتمع السادة، وقتلوا من أجل المقهورين المعذبين مثل الشنفرى وتأبط شرا، والسليك بن السلكة، أو جماعة العبيد الذين عاشوا تحت القهر الدائم، وكان حظهم من الدنيا

الاستعباد والتحقير، والعيش تحت ضربات السياط، والشتائم الدائمة، والتضييق عليهم في اللقمة الجافة، التي تلقى إليهم كما تلقى للكلاب الضالة، في الشوارع المظلمة.

وقد كان من الوجوه الكبرى لهذا الذل الدائم، الذي يمارسه من أعطي فرصة ولو صغيرة ليتحكم في رقاب الناس، وكيف يكون الظلم ظلما عشر مرات وأكثر، عندما يمارسه والد ظالم على ولده، ويتفنن في اختراع أنواعه، لكي يبالغ في إذلال من وقع في قبضته التي لا ترحم، وأروع نموذج خالد لهؤلاء المحرومين، الفارس الجبار عنتر بن شداد، الذي سارت بذكره الركبان، وأصبح حكاية تتناقلها الأجيال، واختلط فيها الأمر بين الواقع المر، والحلم الرائع المخلق .. بين حال العبد المقهور، المغبون في حياته، المنبوذ في عيشه، والفارس الذي لا يستطيع مواجهته أعتى الفرسان، ويسقط تحت ضربات سيفه الصائبة، وطعنات رمحه الحاملة لمذاق الموت الزعاف أعتى الصناديد، وأقوى جبابرة المواجهة الميدانية، في كل حرب ضروس، خاضها بقدرة فائقة، وتجاوزها بالانتصارات المذهلة، التي كنا نسمعها ونحن أطفال، من الحكواتي المبدع مولاي احمد، في ساحة قرب مجزرة العكاري وسينما العنبراء، ثم في إحدى ساحات حي يعقوب المنصور بالرباط، والذي كان يعرف كيف يجعل الحقيقة أسطورة في خيال المستمعين، ويبعث في جسم المستحيل القدرة على التحقق في الواقع المسموع، باعتماد الطاقات المذهلة للمتخيل.

وكيف لنا أن ننسى أنبياء الله ورسله وصديقيه، الذين واجهوا الجحود والكران، من أقوامهم، وجعل من حاولوا انتشالهم من ضلالتهم، فذهب عدد منهم ضحية كفر الناس، واعتصامهم بالأباطيل، من أجل الاحتفاظ بنعم الدنيا الزائلة، وتكريس استبعادهم للخلق الذين أنشأهم الله أحرارا.. ماذا نقول في تضحيات نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ويعقوب، ويوسف، ومحمد، وغيرهم، عليهم جميعا أفضل صلاة وأزكى تسليم. إنهم فعلا النموذج الساطع لتضحية الفرد من الجماعة، والرغبة الجامحة من أجل إنقاذ أقوامهم من شر عذاب، وتجنبهم أسوأ خاتمة.

وتطول قائمة المعذبين، من كبار المبدعين في شتى العلوم والفنون، ومن هم الذين يقع عليهم الاختيار ليكونوا نماذج دالة، على أن الكثير من عظماء الخلق، وقعوا تحت طائلة الحاجة الماسة، وذاقوا من ويلات الفقر النصيب الأكبر، واحتاجوا فلم يجدوا من يسد حاجتهم، وبعد موتهم تركوا للناس كنوزا تغنيهم، بعد أن عاش مبتكروها، في بأس شديد، وفقر مدقع، ووقعوا تحت طائلة الحاجة الماسة، فاستعبدهم الإنسان، وضيق عليهم الزمان، وخنقهم المكان. إنهم أسماء لامعة، وواجهات كبرى في الادب والرسم والموسيقى، صنعت محطات كبرى ومركزية للألم الخانق، والعذاب الحادق، على امتداد الأرض كلها، شمالها وجنوبها، شرقها وغربها، وتكلم اللسع الحارق اللغات كلها، وأصاب المتميزين الكبار، في كل مواقعهم الاجتماعية والفنية والأدبية والسياسية، من أمثال: موزار وبتهوفن في الموسيقى وفان كوخ، وبول كوكان في الرسم، وأبو ذؤيب الهذلي، والجاحظ والمتنبي، وابن الروحي، والمعري، والرافعي، والسياب وجان جاك روسو، وتشارلز ديكنز، وغيرهم مما لا يحصى عد، ولا يجمعهم رقم، والذين نالوا نصيبا وافرا سخيا من مرارة الفقر، وشقاء الحاجة الماسة.

ولا أريد أن أقف بكثير من التفصيل، عند معاناتك المتعددة مع المرض، الذي أرغمك على عقد صلة وثيقة، مع قاعات العمليات في مستشفيات عديدة، في المغرب، ومصر، وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية؛ فقد أجريت لك عملية جراحية، بسبب قرحة المعدة التي كنت تعالجها في باريس، وكانت هذه المرة بالمستشفى الجامعي، التابع لكلية "قصر العيني" بالقاهرة، ولم تكد تفرح بنجاحها بعد هذا التدخل الجراحي، حتى عدت إلى الرقدة التي ألفتها وأفتك، ولم تعد تجد عنك فراقا أو بعدا، فكانت عملية أخرى في أعقاب الأولى وذلك في فبراير 1963م، واستمرت المكابدة أربعة أشهر، قضيتها في عطلة مرض مرهقة¹.

¹- رحيق العمر ص 140.

ولم تتوقف هذه الملاحظات التي تطاردك، ويصعب حصرها، والوقوف عندها بتفصيل، وقد تركت ولا شك بصماتها المرهقة على حياتك، ولوعدت من يحيطون بك، كعملية البواسير في غشت 1999م، واستئصال المرارة في شتنبر 2006م بالمغرب، وتبديل صمام القلب بمستشفى كليفلند بأمريكا سنة 2006م. وبعدها المراقبة المستمرة والدائمة، مما لم تسمح هذه المذكرات بذكره بتفصيل، فكيف الحديث عن المعاناة التي سببها كل داء ومحاولة علاجه، في مداومة لم يوضع لها ختم أو نهاية، ولم يرفع جنودها راية الاستسلام ابدا، وكان آخرها ما تعرضت له السنة الماضية، من تباريح مع قلبك المرهق، وانتهت الازمة إلى شفاء، أرخى سدول الرضى والهناء عليك، وعلى كل من يحبونك.

الموت: اللسع الأقهر:

أعتقد أن السهم النافذ الذي اخترق قلب الصديق عباس وكان الرمية النافذة التي حطمت ضلوعه ومزقت قلبه وفتنت كبده، كان هو النبلة المسمومة التي رمت بها المنية من قوسها المشدودة بعنف واخرقت صدره، كان ذلك في رأيي في موقفين شديدين على نفسه، ممزقين لأعماقه.

الطعنة الأولى:

عندما ضربت المنية ضربتها الموجعة النافذة، وأصابت أعز أب: ومزقت أرق قلب: وأوقفت عن الاستمرار في الخلق الأدبي، والمشاركة في إيجاد فرص متعددة للراغبين في مد أيديهم للنهوض بالثقافة المغربية الأصيلة، في كل جوانبها المشرقة، التي تخلق مجتمعا قويا، يتشبث بيد بالموروث في أجل صورته، ويمد اليد الثانية لما يمكن أن تنتج ثقافة العصر، وتدفع المجتمع وأهله إلى مزيد من التألق والسمو.

في مساء حزين، وفي السادس والعشرين من شهر يناير لسنة 1983. امتدت يد الموت لتفتك بغير رحمة بالرجل الفاضل والمربي الكبير، الأستاذ عبد الله الجاربي، في مشهد مأساوي ظالم لهذا العالم المتوهج. كانت بداية سنة 1983م معلنة لانطلاق مأساة كاسحة، فتحت الجراح لتنسب الدماء الحرة، يدفعها هذا الحب

الدافق الذي يكنه عباس لأبيه، ولا أحتاج إلى أن يعبر الرجل عن مدى هذا الحب، وقوة سريانه في عروقه، لأنني أعرف ذلك بإحساس العارف الذي كابد من مرارة مثل هذا الموقف. لا شك أن حزن أفراد أسرة الجراري كان كبيرا على الرجل الفاضل، الذي انتزع من بين أحضانهم بضربة قدر لا رحمة فيها ولا رفق، على الصغير أو الكبير، ولكنني مع ذلك أحسب أن ما لقيه الابن عباس، فاق به كل اللذين عذبتهم وفاة أبيه، فقد كان في رأيي الامتداد الطبيعي لوالده، في كثير من اهتماماته التي يأتي على رأسها انشغاله بالثقافة المغربية، في العديد من زواياها، والاهتمام بالكثير من القضايا التي كان والده قد اهتم بها، وقد يكون السبب عائد إلى الاختيارات المتباينة لإخوة عباس، والتي أبعدهم عن الاهتمامات المركزية لوالدهم، والتي جعلتهم ينصرفون إلى أعمالهم التي تبعد عن الاهتمامات الأصلية لوالدهم، وإن كان كل منهم يحمل في قلبه أجمل ذكرى عن والده، ويضم صدره على لوحة حارقة، لأن فقدان والد مثل عبد الله الجراري ليس سهلا، ويترك في قلوب محبيه لهيبا لا يخمد، فما بالك، بمن كانوا أقرب الناس إليه، أهل بيته الذين نالوا من حبه، وتمتعوا برعايته، وكانوا محضوضين بجميل توجيهاته، وسديد تربيته، وكانت لكل منهم الفرصة الكافية ليغرف من معين علمه الدافق.

وعلى الرغم من صدق ذلك كله، فإنني أعتقد جازما أن أقرب الناس إلى المرحوم عبد الله الجراري هو عباس، وهو الامتداد الصحيح لفكره، وكان أولى الناس بإتمام مشاريع بدأها والده، وسار على هديه فيها، وأضاف إلى بعضها، وانبثقت من بعض الإشارات في تدوينات والده أفكار ورؤى، تجسد الكثير منها في أعمال كاملة رأت النور في المطابع، ولا يزال بعضها ينتظر دوره، وتقع في زاوية ركنية من فكر الصديق عباس، بل إنني أكاد أصدق نفسي أنه عندما أجلس إليه وهو في زاويته، المفضلة في بيته بحي الرياض بالرباط، في هذه المجالس الندية بالعلم، المشرقة ببهاء المعرفة، أتصور أننا مع صاحب النادي المرحوم عبد الله الجراري، وأن صديقنا عباس يجلس مستأذنا والده في النيابة عنه، وقد كان في رأيي جديرا بهذه النيابة، التي لم يكن أحد يستطيع تحمل مسؤولياتها المتعددة، ويصبر بذلك السنوات

الطويلة، ويحافظ على هذا الجمع طيلة عقود من الزمان، تراخت فيها الهمم، وذلت الرقاب، وأقفلت عن العلم الأبواب، وظل عبد الله الجراري باني هذا الصرح الثقافي، يجلس بيننا، مستعيرا جلباب ابنه عباس، جالسا في ركنه الركين، موجها بثقافة رجلين فذيين في صرح الثقافة المغربية مجلسا من مجالس العلم، في العاصمة المغربية، ينثر أوراق الورد بكل ألوانه مسكا وعنبرا، وبكل روائح التخصصات المختلفة، الدالة على وجود علماء كبار في وطننا، قادرين على الجلوس إلى موائد الثقافات المختلفة، مساهمين بآرائهم، محاورين لكبار العلماء حين يقصدون هذا المجلس العلمي، ويرحب عبد الله الجراري بلسان ابنه عباس، وهو يزرکش الأفكار بأجمل الدرر من اللفظ المنتقى، وتنتصر الحياة على الموت، وتعترف المنايا بجولة عليها تفقد فيها السبق.

الطعنة الثانية:

بعد عشر سنوات من الطعنة الأولى التي انتزعت الحياة من صدر الأستاذ عبد الله الجراري، سدد الموت سهمه نحو صدر صديقنا عباس، وأصاب جوهرة من جواهره الغالية، بعد مرور عشر سنوات على وفاة الوالد، وما تركه من لوعة في القلب، وجرح في الكبد، هل خبر مفجع، يمزق الجرح الذي حسب أنه بدأ يندمل، وسقط النصل الجديد على النصل القديم، وغرزه في عمق الفؤاد ليمزق ما بقي منه، ويلقيه شظايا في فم الألم الأهوج، وهو يهب بأقصى قدرته، وأكبر طاقاته.

كيف يتألم أب مجروح الفؤاد وزهرة من زهراته الجميلة الفواحة في أحلى سنين عمرها، تودع الدنيا ولم تدخلها بعد، ولا سبيل إلى الهروب من لسع الجرح الغائر، إلا الاعتصام بالإيمان، والعودة إلى حياض الخالق الجليل، فلا منقذ من جحيم الهول إلا ما ينتظر هذه الزهرة من نعيم مقيم في جنات الخلد.

وأعود إلى هذه الساعة الرهيبة، التي سعت فيها إلى الصديق عباس، في سكناه الأولى بشاطئ الهرهورة، وأذكر جيدا أنني عانقته عنق الأخ الأعز، وقد كان الألم الدفين في مهجتي يجمعنا دون أن يدري هو بذلك، ووجدت بين يدي في تلك الساعة طيف رجل، اختفى عباس في جلبابه، وغدا خيالا يموج بين ذراعي، وقد

ضممته إلى صدري، أخفف عن لوعتي الممزوجة بلوعته، وأطلب له الصبر والسلوان، وأنا إذ ذاك خير من يحس بهذه اللحظة القاتلة.

بعد ذلك علمت بأن المرحومة علا توفيت بكندا، ونقل جثمانها بعناية من الملك الحسن الثاني، لتدفن بجوار جدها وجدتها، في مقبرة الشهداء في شهر يناير من سنة 1993م. رحمها الله وجعلها من المغمورين بعطفه وحده.

وعاد موكب الألم بكل معالمه الكبرى، وتفصيله الصغرى، وجزيئاته الدقيقة، يخترق صدري، ويندفع بين حنايايا بخيوله المدربة، وفرسانه المختارين، ليجمعني مع الصديق عباس، وأنا أتذكر تلك الساعة التي اجتمع في عينيها شؤم الدنيا بأسره، ورقة زرقاء شفافه، يسمونها برقية، لا زلت أذكرها، ولا أنسى أبدا ما صنعت به بأسرتنا الصغيرة، ووضعنا غصنا رطيبا في فم زوبعة ضارية. ماذا وقع ولماذا تنقلب الدنيا وتسير على رأسها؟ وماذا دهى الحياة وقد سدت دروبها، والدنيا ماذا وقع فيها، نزل الخبر كقنبلة وانفجرت بيننا، وألقتنا جميعا شتاتا، لا سبيل إلى جمع جزيئاته. وكيف يدبر أمره بعقل، من طار عقله، وهل يرى من زاغ بصره، ساعة مريرة، نزلت سيولها كالشلال الدافق فوق رؤوسنا، وأفقدتنا القدرة على امتلاك الوعي وإدراك الوجود حولنا.

مات أخي الشاب المرح الجميل، الضابط القوي المراس، لقطة دامية سجلت بكاميرا الموت، وأشرف على انجازها مخرج الفضائع، ولا سبيل إلى من يرد على الأسئلة التي ترد بعد: كيف؟ ولماذا؟ ولا تغادر هاتان الوحدتان منطقة المبهمة الغارقة في ظلام الغموض، ولا تستطيعان التحرك بجرأة إلى وضوح التعليل، وإرسال أضواء الكشف المقتنع المؤدي إلى راحة اليقين.

ورحل الوالدان في تلك الليلة ذات السواد الخاص، إلى نواحي مكناس حيث توجد المدرسة العسكرية لأهمومو، وبقينا نحن كالعصافير لا جناح نظير به، ولا عين نبصر بها، ولا رئة نتنفس منها لتستمر الحياة في عروقنا وقد تجمد الدم فيها، وبتنا ليلتنا نحترق بنار داخلية لا سبيل إلى إخمادها.

مات أخي، أحب أحابيبي، وأعز أصحابي، وأجمل بطل بشريط عمري، شاب في الخامسة والعشرين تدمره حادثة مأساوية، في طريق جبلي وعري، ومنعرج تتربص فيه المنايا لضحاياها الأبرياء، الذين كتب عليهم قدرهم أن يسلموا الروح الغالية للعلي القدير، في هذا الموقع القاتل، "وما تدري نفس بأي أرض تموت".

وضغطت القسوة علينا أكثر، وخنقنا الآلام الرهيبة، حينما عاد الوالدان من رحلة العذاب، وأخبرانا بتفاصيل الحادثة، لتختم بنهاية مأساوية أخرى، وهي دفن جثة أخي في هذه المنطقة النائية، بدون أن نراه، وبدون وداع، أو وقفة متألمة أمام جثمانه، وكم تبرد الجراح النازفة أن نتشارك في دفن العزيز، وتذرف الدموع الغزيرة على قبره، هي وقفة حزينة ولكنها تشفي النفس من بعض بلوائها؛ ونحن جميعا حرمانا من لحظة الفراق القاسية، والتي تنتهي بسكون النفس، وهدوء القلب. وبقيت أعماقنا في لهيب الحريق المشتعل الدائم، ولم يبرد لهيبه على الرغم من أن دفن جثة أخي، تم في مراسيم رسمية تشارك فيها ضباط وجنود الثكنة العسكرية بكاملهم، وقد كان أخي فتى مشرقا محبوبا لدى الجميع.

ودخلنا في منعرج جديد، عندما أصرت والدتي على ألا يهدأ لها بال براحة، أو يغمض لها جفن بهناء، إلا إذا أعادت ابنها إلى مدينة الرباط، لتدفنه قربها، وتتاح لها فرصة زيارة قبره باستمرار، لتدعو له وتصدق على قبره، وتستمتع إلى تلاوة أجزاء من القرآن، صدقة على روحه التي حلقت إلى ربها بضربة قدر قاسية عنيفة.

وباءت بالفشل التام المحاولات الجادة التي بذلها صاحب شركة معروفة في الرباط، تتولى نقل الأموات، ولها تجربة في هذا المجال الذي يستدعي حفر القبر واستخراج الجثة، بكل ما يتطلب ذلك من موافقة السلطات، واتخاذ الإجراءات الاحترازية الكاملة، للانتقال في ظروف قانونية سليمة من نواحي مكناس إلى الرباط.

ولم تيأس والدتي، واتجهت بإصرار الأم المجروحة وجهة أخرى، وجعلتني أنا طرفها الثاني، فقد كنت أكتب طلبات استعطاف إلى الملك الحسن الثاني، وهو الوحيد صاحب القدرة على حل هذه الأزمة التي سدت علينا المنافذ كلها، وكانت

تأخذ هذه الطلبات إلى القصر الملكي، وتضعها بين يدي المسئول عن الشكاوى، المرفوعة من المواطنين المتضررين بشتى صنوف المحن. وكنت أبحث عن طريق العبارة المؤثرة، إلى سبيل مفتوح إلى قلب قارئ الطلبات، إلى درجة أن المسئول عن هذا المكتب، سأل أمي مرة وقد أعجب بأحدى طلباتي، عمن يكتب لها هذه الرسائل، فأجابت إنه إبنني. فأكد لها: كوني على يقين أن هذا الطلب إذا وقع تحت نظر ملكنا، فإنه سيستجيب بإذن الله إلى رغبتك، لأننا لا نتلقى رسائل بهذا المستوى، وملكنا رجل علم وأدب، وتعجبه مثل هذه الصيغ الأدبية الشفافة. كنت أمجز فعلا بين رقة العبارة وحرقة مأساتنا، بما كان يفيض من قلبي صدقا، وأصبه ألما مجروحاً على الأوراق، وكنت أكتب بعاطفة مكلومة إلى درجة أن دموعي كانت باستمرار تبلل الأوراق بين يدي.

وفي يوم أشرقت مع شمس رحمة الله الغامرة، واتصلت بنا قيادة الجيش الملكي، وأخبرتنا أنه استجابة لأوامر جلالة الملك الحسن الثاني، فقد تقرر نقل جثمان أخي من منطقة أهرمومو إلى الرباط، وحددت اليوم وطلبت منا اختيار المقبرة التي نرغب في دفن جثمان أخي فيها، واختارنا مقبرة الشهداء بباب لعلو، كان ذلك في بداية شهر شتنبر 1965م، وكانت وفاة حبيبي المرحوم في 07 يوليوز سنة 1965م.

وفي اليوم الموعد قصدت عائلتنا الصغيرة باب لعلو، لاستقبال أخي وتوديعه في الآن نفسه، وشاهدنا مدهولين موكبا عسكريا، يتركب من مجموعة من السيارات العسكرية من نوع جيب وسيارات أكبر منها، وفي المقدمة سيارة عسكرية كبرى مكشوفة تحمل صندوقاً مغطى بالراية المغربية من جوانبه كلها. وتقدم منا ضابط برتبة عسكرية عالية وقال لأمي وأبي:

إن الهيئة العسكرية كلها تتقدم لكم بخالص العزاء، واستجابة لأوامر جلالة الملك، فقد أحضرنا الضابط مصطفى، في موكب عسكري بزيه العسكري الرسمي، لتوديع الراحل في مراسيم جنائزية كما تقام لأكبر ضباط الجيش.

ودارت الأرض بنا ونحن نسمع هذا الكلام، والموكب يملأ جنبات باب المقبرة، والناس يتجمعون ويتساءلون: ماذا يقع؟ ومن هو صاحب هذه المراسيم كلها، وفجأة رأيت أمي تتوجه إلى الضابط الكبير، الذي كان يهم بتوجيه أوامره، لبداية مراسيم نقل الصندوق الذي يضم جثة أعز الناس علي.

وبعد مدة، عادت أمي وأخبرتها أننا سنعود إلى البيت، وسرنا بسيارة أحد الأقارب وخلفنا موكب عسكري كامل، وعلمت بعد ذلك أن أمي طلبت من الضابط المسئول أن يتجه الموكب إلى بيتنا بزنتقة قريون، لقراءة جزء من القرآن على روحه، ويخرج إلى المقبرة من الدار التي ولد فيها، ورأت طفولته وجزءاً من شبابه، ويترحم عليه كل الذين يعرفونه ويحبونه، وجاوروه في السكن أو في المحبة.

في شارع سيدي محمد بن عبد الله، بين باب لعلو وحي العكاري، كان الناس يتوقفون ليتركوا الفرصة للموكب الرسمي الباهر ليمر بنظام وسلام، وعند وصولنا إلى زنتقة قريون خرج الناس جميعهم في رهبة متسائلة، وحمل الصندوق الملفوف بالراية المغربية، والجنود في نظام تام يؤدون التحية العسكرية، بشكل يثير الرهبة والإعجاب. وبعد أن قرأ عدد من حفاظ القرآن الذين يعرفون والدي، ورأوا المرحوم يلعب أمامهم ومع أبنائهم صغيراً انطلق الموكب في نظام تام من زنتقتنا وهي تودع فتاها وسرنا بمحادثات البحر الأطلسي الهادئ لعله هو أيضاً يودعه، فقد كان من أمهر من يسبح في مياهه الزرقاء. وعاد الموكب إلى مقبرة الشهداء ودفن أخي في مراسيم عسكرية تامة النظام والاحترام.

وأعود إليك يا صديقي، أمر إلى جرحك من بوابة جرحي العميق، وأرى أن الألم يخطط بمهارة عباءته القاتمة بعروقنا، لقد توقفت عند هذه الذكرى الأليمة في حياتي لأرمم خطوطها الكبرى، التي تشاهد بالعين المجردة العادية، وأخطط تفاصيلها الدقيقة الصغرى، والتي لا ترى إلا بواسطة مكبر دقيق أو مجهر متخصص. وجدتني أقترب منك في منطقة الأسى الجارف، فابنتك ماتت بعيدة عنك، وأخي مات بعيداً عني، في ظروف لا يعلمها إلا الله، وحده الذي يعرف ماذا جرى في هذه الحادثة التي روعت حياتي، وطحنت بطاحونتها المهولة كثيراً من

آمالي التي كنت أزين شريطها الجميل، لأعيشها مع الوحيد الذي كان يستحق فرحتي بها، وغاب بدون وداع. ماتت صبيتك في الغربة وحملت إليك في صندوق مقفول بإرادة رسمية، ومات أخي بعيدا عني في جبال الأطلس، لم يره أحد من أحبابه الخالص، ولم أنظر إلى وجهه الذي لم أتوقف أبدا عن مشاهدته وهو في الصورة العسكرية أمامي كل يوم، وتحجبه عني ستارة الدموع التي تسقط من عيني إلى اليوم، على الرغم من مرور ستة وخمسين عاما على هذا الوداع العلقي.

ماتت قطعة من فلذات كبدي، وسنها لم يتجاوز الخامسة والعشرين، وقتل أخي بطلقة قدرية، ولم يرحل بعد من محطة الخامسة والعشرون من عمره، حملت إليك ابنتك بأمر ملكي من الحسن الثاني، وحملت إلينا جثة أخي الصريع بعطف خاص متفرد من الحسن الثاني، وكان اللقاء بأخي وهو في صندوق مقفل. دفن أخي في مقبرة الشهداء بالرباط، ودفن بعده بسنوات أبي الحاج أحمد الشياظمي المزدلي سنة 1986م، وأمي الحاجة زهرة الابراهيمي سنة 2003م، ودفنت ابنتك في المقبرة نفسها قرب والديك الكريمين.

فأي اتفاق عجيب هذا الذي ألف بيننا في خيط عذاب واحد، وجمع قلوبنا في فجيعتينا الكاسحتين، وأنزل سكينته بما هيئه لنا من أنسام رقيقة زكية، تذيب بعض حرارة قلوبنا؟ وتأبى مرآة القلب الصافية بحب حبيبنا، إلا أن تعكس بعض معاناتنا المكرومة، على كل شيء في دنيانا، ولم يهزم ضجيج الحياة الصاخبة حولي صوت الكروان الصادح في كل ساعة في قلبي؛ ولا أحسبك إلا أنك تشرب من الكأس المريرة نفسها، سواء أحسست بحاجة إلى الشرب أم لم تحس، لأن الظمأ أصبح في نبضينا دعوة ملحة إلى الورد الجميل من عين الصبر، المفتوحة دوما للمتألمين ليغسلوا جراحهم، لعل لهيبها يخبو لحين من الزمان، أو يهدم ليوم أو بعض يوم، لساعة أو لجزء من الساعة في زمن الألم، الذي تمتد دقيقتاه لشهور طويلة.

شاءت أقدارنا يا صديقي الأعز، أن يجمعنا حزن واحد، وأن نطعم من مائدة واحدة، في ضيافة أكرم من عرفناه في حياتنا، إنه الحزن القاتل، صاحب الموائد المصفوفة باستمرار، لكل من تقودهم قوافل العذاب في رحلات أعمارهم الكئيبة،

لينالوا من صنوف أطعمته المرة، وليشربوا من أكوابه المغدقة بسخاء على المعذبين في جزيرة الحرمان.

وعلى الرغم من مرارة اللحظة وعلقمية الساعة فإن الله صب من عطفه في قلبي ما أعاد الكثير من الوعي بضرورة الرضى بالمقسوم، والانصياع للمكتوب المقدر، بعد رجوع أخي إلى أحضان المكان الذي يرقد فيه قريباً مني، أزوره متى شئت، وأحدثه بما بلغت في حياتي من نجاح، وقد كان أحرص الناس على أن أحقق أحسن الدرجات، في سلم التفوق العلمي، وأخبره وهو صديقي الأول دائماً، بما وصلت إليه في مسيرتي العلمية والعملية، وأشكر الله وأنا أتوهم أنني أشد على يده الرحمة بي دائماً، وأغادر المقبرة كالعصفور، أخلق بجناحين لا يراهما أحد في سماء الخالق العظيم، صاحب الرحمة المغدقة نسيانا رفيقا بمهجتي، المغموسة في رحيق الأسى المسكوب لحنا حزينا في عروقي، مشدود الوتر دوماً.

ثانياً: المرض: اللسع الأوعر

هدي اللغة:

نقرأ في لسان العرب: "المريض: معروف. والمرض: السقم نقيض الصحة، يكون للإنسان والبعير، وهو اسم للجنس (...). ومرض فلان مرضاً ومرضاً، فهو مريض ومرض ومريض، والأنثى مريضة (...). والممرض: الرجل المسقام، والتمارض: ما يري من نفسه المرض وليس به. وقال اللحياني: عد فلانا فإنه مريض، ولا تأكل هذا الطعام فإنك مريض إن أكلته أي تمرض، والجمع مرضى ومراضى ومراض قال جرير: وفي المراض لنا شجو وتعذيب. قال سيبويه: أمرض الرجل جعله مريضاً، ومرضه تمريضاً قام عليه ووليه في مرضه وداواه ليزول مرضه (...). وقال غيره: التمريض: حسن القيام على المريض (...). وريح مريضه: ضعيفة الهبوب، ويقال للشمس إذا لم تكن منجلية صافية حسنة: مريضة. وكل ما ضعف فقد مرض، وليلة مريضة إذا تغيمت السماء فلا يكون فيها ضوء. وقال أبو حبة:

وليلة مرضت من كل ناحية فلا يضيء لها نجم ولا قمر

ورأي مريض: فيه انحراف عن الصواب (...)) والمرض في القلب يصلح لكل ما خرج به الإنسان عن الصحة في الدين. ويقال: قلب مريض من العداوة، وهو النفاق. ابن الأعرابي: أصل المرض النقصان، وهو بدن مريض ناقص القوة، وقلب مريض ناقص الدين¹.

والمرض في أغلب التعاريف الحديثة، لا يكاد يخرج عن أنه "تلف الوظائف أو فساد في صحة الأجهزة الحية"².

فهو إذن حالة غير طبيعية تصيب الجسد أو العقل البشري محدثة انزعاجا، أو ضعفا في الوظائف، أو إرهاقا للشخص المصاب قد يدوم ساعة أو بعض ساعة، وقد يراوح جسم المريض ذهابا وإيابا، بدون تحديد لزمن الغياب أو ساعة الحضور، وقد يسكن جسم المبتلى فلا يغادره إلا ميتا.

نزيف العذاب:

لا أخفيك أيها الصديق العزيز، أنني فوجئت وأنا أنظر في مذكراتك، بهذا الكم الهائل من الإصابات التي استهدفتك بصورة متتابة، وكأن المرض جعلك في قائمة المقربين منه، والذين لا يجد راحته إلا إذا تذكروهم، ورماهم بساهمه التي لا تنفذ، وقوسه المشدودة الوتر دائما، في حالة استعداد متجدد لتقذف نبالها المسمومة، في اتجاه من اختارتهم والتي لا تطيش أبدا، ولا تخطئ أهدافها، وكنت رمية من الرمايا التي اختارها المرض، وجعلها في قائمة المقربين منه، الذين لا ينساهم أبدا.

لقد تعددت صنوف الأمراض التي أصابتك، والبلايا التي رافقتك حيثما اتجهت وأنى حللت، مما جعلك تفر بجسدك المنهك إلى البيت، وترتمي بين أحضان الكتب، تغترف من ينابيعها، وقد تهيا لك ذلك بصورة وافرة، مما وجدته بين يديك في مكتبة الوالد، من صنوف العلم الذي تعددت مشاربه، فأغلقت مرغما الباب الذي يقودك إلى الخارج، واكتفيت بصحبة الكتب ورفقة مؤلفيها،

¹- لسان العرب مادة مرض.

²- معجم لاروس ص 689 طبعة جوان 2013.

واستغثيت عن صحبة من هم في سنك، والذين يمرحون خارج منازلهم في الدريبة أو الصابة، أو يتجاوزون الحدود الأولى، فتصل بهم أقدامهم إلى مواقع أخرى في المدينة القديمة، مع أنها لا تفتح أمامهم هذه الفضاءات الشاسعة الموجودة خارج أسوار المدينة الرباطية القديمة، أما نحن خارج الأسوار فقد كانت المجالات المكانية الواسعة تحيط بنا من كل اتجاه، ونستطيع أن نلعب بحرية مطلقة، وقد كانت قطع أرضية أخرى خاصة بالفلاحة يزرع أصحابها أنواعا مختلفة من الزروع، مما أعطانا فرصة كبيرة لمعرفة الزرع والقمح في السنايل والذرة في أغصانها، وأنواعا أخرى من البقول والنباتات. ولعل هذا الحصار المكاني العنيف، هو الذي دفع سكان مدينتنا القديمة، إلى الخروج في مراسم معينة، للارتقاء في أحضان الطبيعة، والعيش بين ذراعيها لساعات وربما لأيام. وأذكر خروج الرياضيين في شهر شعبان، خارج السور العتيق، حين كان يقصد أغلبهم شالة، يقيمون فيها الأفراح يغنون ويمرحون، بين أحضان الطبيعة المعطاءة، في انتظار الشهر الكريم، شهر رمضان المعظم، وكما نبتهج ونحن صغار نطوف بين هذه الجماعات، من الأسر والصحب المجتمعين كالأخلاق الأدمية، في مشهد جميل محبوب، لعل شالة التي أصبحت خاوية على عروشها، تفتقده وتتمنى عودته، ورجوع كل أحبائها الذين خرجوا ذات يوم من بوابتها الكبيرة ولم يعودوا إليها. وقد سمعت مرة بعد أن منع الناس من التنزه في شالة رجلا جاء مع عائلته كلها، يحملون ما يحتاجونه من أكل وشرب، وما تعودوا على إحضاره في نزهتهم، عندما كانت شالة مفتوحة الأحضان، للذين ضاقت بهم الأزقة، وخنقتهم المنازل الضيقة، ورغبوا في فسحة نظيفة، ومنظر يبهج العين ويسر القلب. وعندما منع الرجل مع أسرته من الدخول إلى شالة. التفت إليها وهو أمام بابها الكبير وقال بمرارة وأسف: الله يهنيك اللاشالة، ويرحم أيامك.

والحقيقة أن الأطفال الذين يزرع الله في قلوبهم محبة العلم، واختيار الكتاب رفيقا دائما، يعوضهم عن الصديق الآدمي، لا يميلون هذا الميل الجارف إلى الفضاء الخارجي، يقضون فيه الساعات الطويلة، يلعبون ويمرحون ولا يفكرون في آخر

سوى في الفوز في لعبة كرة القدم أو الخدروف أو الكعاب، أو الدور الحديدي، أو السباق أو لعبة (صار) أو (دينيفري) وغيرها من الألعاب التي عرفناها في طفولتنا. كل هؤلاء الصبية الذين برعوا في أنواع اللعب، في فضاء زنقة قريون وأزقة حي العكاري، ممن يمكن أن نسميهم شطار الألعاب بكل صنوفها وأنا أعرف العشرات منهم، لم تكن علاقتهم بمجال العلم والمعرفة على أحسن حال، لأن أغلبيتهم العظمى، وأكثرهم لم يفلحوا في دراستهم، وغادروا مقاعد الدرس مبكرا، وأعظمهم لم يستطع تجاوز المرحلة الابتدائية... صحيح أن قليل منهم أصبح من مشاهير لاعبي كرة القدم، في وقت لم تكن هذه اللعبة تدر على أصحابها مالا كثيرا، وعدد آخر عمل في النجارة والحدادة والصناعات البسيطة التي كانت متاحة لأمثالهم، في ذلك الوقت، ولكنهم جميعا لم يدركوا إلا العيش البسيط والدرجة المتوسطة في طبقات المجتمع. وأذكر أنني كنت أشارك في عدد من الألعاب، ولكنني لا أستغرق فيها الوقت الطويل، كما يصنع رفاقي الذين يلعبون طيلة النهار، ولا يمنعهم الليل من اختراع ألعاب أخرى، تنسجم مع ستار الظلام المضروب، كانت لعبتي التي أحبها وأصر على ممارستها هي القراءة، التي استغرق فيها الساعات الطويلة، لا يقطع خيطها الممدود إلا حاجة أقضيها لأمي أو لأبي، وأعود بعدها إلى الكتاب الذي بين يدي، لقد كنت مغرما بالكتاب بشكل مهووس، وزادني حبا في الكتاب وهوسا بالمطالعة، أنها أعانتني في دراستي الابتدائية والثانوية، وأمدتني بوسيلة التفوق على كل أقراني وزملائي، وأتيحت لي فرصة ذهبية بواسطة صديق لوالدي، في زنقة قريون لأصبح صاحب بطاقة خاصة مع القراء الكبار، الذين لهم حق استعادة الكتب من الخزنة العامة بالرباط بالعربية وبالفرنسية، وقد كانت البطاقة باسم والدي رحمه الله، لأنني لم أكن قد بلغت السن القانونية، فلم أتجاوز قسم الرابع الابتدائي وأمامي سنة أخرى للحصول على شهادة الابتدائية.

ولذلك فإنني تخليت عن كثير مما هام به الأطفال في مثل سني من لعب متواصل، ووجود دائم خارج البيت، ولكنني لم أفرط أبدا في رياضة السباحة التي كنت بارعا بصنوفها ومغرما بها والتي تشدني إلى عالمها البهيج طيلة فصل الصيف. لقد كنت مثلك يا صديقي مغرما بالكتب، أعتبرها الصديق الصامت الذي يبرع في مخاطبتي، ويتفوق على صاحب الناطق، ولذلك اخترتها رفيقا دائما، يملأ قلبي بصنوف العواطف الإنسانية الجياشة، وينير أمامي سبل الانحراف التي تتاح للمخلوقات في كل زمان، وفي كل مكان، ولذلك تجنبتها كلها، ورسمت لحياتي خطا لا يتنافى أبدا مع الأخلاق والدين، وقد كان الكتاب أفضل موجه لعقلي في الاتجاه الصحيح، الذي لا يخيب صاحبه، على الرغم من هبوب العواصف أحيانا، وتقلب موجات الرياح العاتية، التي يقلل من عنقها الصبر الجميل، والإيمان بقدرة الخالق الهازمة لكل شدة، والمحولة لكل بلاء، والواهة للضعيف قوة خاصة، نواجه بها أعتى صنوف الابتلاء.

لقد ضيع المرض متعتك بالحياة، وأنت صغير حرمت من مغادرة البيت مرارا: "كنت أنا ملازم الدار بسبب المرض، وأثناء هذه الفترة وبعدها حين عوفيت وعدت إلى الدراسة"¹

وجعل الداء حياتك سلسلة من المتاعب، يشد بعضها بعضا، في حميمية قوية، وحب وصال بينهما متين، وكان ذلك مثار إزعاج دائم لك، ولأقرب الناس إليك، وأحنهم عليك والدك وهو يراك تقبل على سفر طويل، ومغادرة حبلا ممتد، لا يخيفه أمد أبدا، فهو مطمئن على سلوكك، واجتهادك، واهتمامك الأول بالعلم، لتدرك فيه الشأوى والأعلى، ولكن صحتك المعطوبة هي قلقه الدائم: "ولست أشك في أن هذه الدراسة المنزلية المتينة هي التي شجعتني في سنة 1956م فور إعلان استقلال المغرب، على أن أغير تعليمي من الفرنسية إلى العربية، وأنا يومئذ في قسم البكالوريا بالثانوية اليوسفية، وعلى أن أستسمح الوالد في أن أرحل إلى القاهرة

¹- رحيق العمر ص 77.

لإتمام دراستي العليا. وقد قبل على مضض ليس بسبب تحويل الاتجاه، ولكن بسبب ظروفِي الصحية التي كانت تثقله باستمرار¹.

أما الأم رحمها الله، ورحم أمهاتنا جميعا، فقد عانت معك، مما تلقى منه الأمهات مع المريض من أبنائهن، وربما انصرفت عن أعمال أخرى في البيت، أو تركتها لرب الأسرة، أو باقى أبنائها وبناتها، وأنت لا تنسى بعض فضلها عليك، ولا على الدادة التي تقودك إلى المستشفى، وعندما تنتقن الأم هذه المهمة تصبح هي الممرضة الخاصة التي ترعاها في البيت، وتقدم لك ما تحتاجه للحفاظ على صحتك المعتلة، بدون مغادرة البيت، أو الحاجة إلى زيارة دائمة إلى المستوصف، ولو كان لبعض ما يمكن أن تقوم به بإتقان، بعد أن استوعبت جيدا صنيع الممرضة:

"وعلى الرغم من الفائدة العظمى التي اكتسبتها من هذا الأسلوب التعليمي الجامع بين المدرسة والكتاب، فقد كان فيه شيء من الإرهاق يظهر علي في بعض الأحيان، إلى حد كان يقال عني إنني (معالل) أي مصاب ببعض العلل، ولعل ذلك ما كان يجعل الوالدة تحثني على الاحتياط من "البرد"، وحين كانت في بعض المرات تشعر بأثره علي كانت تلجئني إلى علاج "الكيسان"، وهو الذي كان معروفا (ventous). ويقتضي تسخين كؤوس طبية خاصة باشعال الكحول داخلها ثم وضعها في الظهر أو الصدر، فكأنها تمتص ما قد يكون فيهما من برد. وفي مرحلة الطفولة الأولى كانت تأخذني دادة مسعودة إلى مستوصف بسيدي فاتح لإجراء هذا العلاج على يد بعض الممرضات، وصرت فيما بعد أجريه بنفسي، إذ أخذ كؤوس الزبادي (دانون) التي كانت زجاجية ورطبة العاشية، فأشعل داخلها قطعة ورق صغيرة، ثم أضعها على جنبات صدري وأترك للوالدة أن تضع كؤوسا أخرى على ظهري"².

أما الرعاف، فقد كان ملازما لك في مرحلة من عمرك، وكان أكثر ما تشتد عليك أزمته مع الصيف وحرارته، وقد كانت لك معه كما قلت حكايات كثيرة، لا شك أنها تأخذ منك نعيم الراحة، ولحظات هدوء النفس، والحرمان مما يتمتع به

¹- نفسه، ص، 79.

²- حقيق العمر، ص، 87.

كل الناس، وخصوصا من هم في مثل سنك، يمرحون ويلعبون، وأنت تعاني من ضربات الرعاف، وصولته القاهرة، وأنت تغالبه فلا تسعفك صحة، ولا يرق لك حظ أو يبتسم إلا بعد أن يأخذ منك جزءا مهما من سعادة طفولتك، وبهجة صباح التي أصبحت في فم عاصفة البلوى، لهذا السيلان الذي لا يتوقف ويصيبك بالهلع، وهو يصب من أنفك، وكأن صنبورا فتح فيه، وكأن دمك سيغادر عروقك ليخرج من فتحة، جعلت لالتقاط نفس الحياة، وأصبحت سبيلا إلى مغادرة الوجود، لولا لطف اللطيف الخبير.

"ولست أنسى في هذا السياق الصحي ما كان ينتابني من رعاف غالبا ما كان يكثر في الصيف، ولي معه حكايات كثيرة، أذكر من بينها ذلك اليوم وأنا وأخي محمد مع الوالد في فاس، وقد أصابني رعاف شديد اضطرني إلى البقاء أمام فسقية (خصة) جامع القرويين، مدة غير قصيرة، والوالد يصب الماء على رأسي (...).

وللإشارة فقد كانت تقدم لنا في الأسرة نصائح كثيرة متعلقة بالرعاف وبإمكان علاجه، من بينها نصيحتان متعارضتان: الأولى تقول بالحلق الكلي لشعر الرأس، والثانية تدعو إلى الإبقاء على هذا الشعر مهما يكن كثيفا، وقد جربت الأمرين معا لفترات متعددة غير قصيرة، ولكن دون جدوى¹.

وأتصور المعاناة الرهيبة التي كنت تكابدها في هذه السن الصغيرة، التي يكون فيها المرء عاجزا عن تجاوز محنته، ويحتاج باستمرار إلى من يقف بجانبه يهون عليه مصابه، ويقوي عزمه لمواجهة المصاب، والتخفيف من بلواه، إن مجرد حلق الشعر لمدة طويلة، والعودة إلى تركه ينمو كما شاء الله له هو محنة، مع أن هذه الصورة الخارجية التي قد يكون فيها قليل أو كثير من الغرابة، عندك أو عند الصبية ممن يرافقونك في مواقع الدرس والتحصيل، هي أيضا جزء من المعاناة، بعنف يسير أو عسير.

¹- رحيق العمر عباس الجراري ص 87-88.

والرعارف في فصيحننا ومتداولنا اللغوي اليومي، هو هذا الدم الذي يتدفق من الأنف، وأخطر ما فيه أنه لا يتوقف سيلانه، ويصبح صاحبه في حالة صعبة، عندما لا تنفع الوسائل الأولية، التي يلجأ إليها من هم بجانبه، في محاولات متعددة لاييقاف نزيف السائل الأحمر القاني، مع ما يلقيه ذلك من رعب شديد في المصاب، وفي من يلتفون حوله ويحاولون إسعافه، وأذكر مرة ونحن صبية في مخيم رأس الماء قرب إفران، نzf أحد رفاقنا الدم من أنفه بغزارة، أصابتنا بالخوف والذهول، وحاول عدد من المسؤولين والمدربين في المخيم أن يوقفوا هذا الرعارف المبالغت، ومددوا الطفل على ظهره وأخذوا يصبون الماء على رأسه، وكان باردا من عيون رأس الماء الغنية، وكادوا يفقدون السيطرة على هذه الحالة التي أصابتنا برعب وخوف شديدين، وبعد جهد توقفت الدماء عن السيلان، بعد أن غرق صديقنا في اللون الأحمر المخيف.

لقد نجوت يا صديقي من هذه المحنة، وتجاوزتها بلطف من الله العلي القدير، والحمد لله كاشف الغمة، ودافع البلوى، وسائر العيب، وأحب أن أنظر معك في قصيدة للشاعر المغربي محمد بن ابراهيم، شاعر الحمراء، الذي أصيب بهذا النزيف اللعين، ولقي منه الأذى الكبير، ووضع فيه قصيدة طويلة، تقع في خمسين بيتا، وسأورد أغلبها، لأنها تذكر بالتفصيل الجراح، ما كان يتعرض له المرحوم محمد بن ابراهيم من معانات مرة مع هذا النزيف وعذابه، ومحنة التي لا تنتهي، وقد جعل الشاعر كلمة: الرعارف عنوانا لهذه القصيدة، ولا شك أنك أكثر الناس إحساسا بشقاء الشاعر، والبلاء يخنقه، والألم يعتصره، وعصارة وجوده تنساب من أنفه بغزارة كالسحابة الهتون، ولا سبيل إلى إيقاف هذا السائل المتمرد، وهو يغادر العروق، ويرتمي خارج الجسد، تاركا المصاب على عتبة فقدان الحياة، لأنه سبب استمرار النبض في الجسم، وسر بقاء الإنسان في الوجود، وانسيابه الكامل خارج المدار العجيب الذي تصنعه العروق، في تركيبها الربانية البديعة، تدق ناقوس النهاية العجلى، لولا لطف الله وساعة الوداع التي لم تحن بعد.

لننصت إلى شقوة شاعر الحمراء، والرفاع البغيض، يأخذ بتلابيبه، ويغرقه في مأساة حمراء، ينجو من رعبها لساعة، لتتسلمه يد رهبة أكبر لساعات، وتجعل لقبه دالا عليه صدقا، فقد كان شاعر مدينة مراکش الحمراء وشاعر الدماء النازفة الحمراء.

الرفاع

أمري إلى المولى العلي الشان
ضيف ثقيل ليس بالمرغوب ف
ضيف كرب الدار يدخل هاجما
فيزور أنفي رغم أنفي جاعلا
قد صرت لا أدري أفي وجهي أنا
يبقى أمامك لا يريم مكانه
لا يخدعك بالخروج إذا أتى
فذهابه أن لا يرى أثر له
مالي بليت به بغيضا أحمر
إن غاب عني برهة فلدورة
أنى وقفت تركت حولي من دم
حولي رشاش نجيعه متناثر
أو ساحة الندمان طاف بكأسهم
أم تلك أوراق الورود تناثرت
وكانني والأنف مني راعف
يأتونني بالطاس اصفر فاقعا
هل جاد بالإكسير عني جابر
فأصوغ مرجانا من الكبريت إذ
مصباح تنظيم المرور حكاه وجـ
من أجله قد صرت أكره كل لو

في شان ضيف لج في الغشيان
يه دائم السيلان والسريان
من دون إعلام ولا استيذان
منه لزورته حصين مكان
أم وجهه قد فتحت بابان
أيخاف أنه لا يرى بعيان
فلديه قلب حقائق الأعيان
أما خروجه فهو للإتيان
كالجذوة المحماة في نيران
سيدورها ويطل كالسجان
بقعا كأنني عنتر الفرسان
فأكنني في حلبة الميدان
مملوءة فيها رعيش بنان
في الروض زارته وجوه قيان
قطارة لشقائق النعمان
فيعود مصطبغا بأحمر قان
وعلى المحال غدوت ذا برهان
ما أبعد الكبريت من مرجان
هي فهو أحمر أصفر في آن
ن أحمر حاشا خدود حسان

جربته وعرفته وعرفت معه
أدركت سر هياجه وعذرتة
صباغ أثواب وماله غير لو
الأرض صاغت من دمي شفقا لها
من كل نعمان بعدت فما أنا
بحران يلتقيان في وجهي وبي
بحران لكن ليس يخرج منهما
من كان في العشاق تبكي مقتلنا
دوما أنا عند اقتسام للشقا
هذي الجيوش الحمر قد هجمت علي
سيعيني المولى على الباغي وذو الـ
لا يختفي حتى يعود لحينه
دهر كرية لا يريك سوى كرية
يلقاك بالتعنيق والتطويق والـ
وجميع من أحببت فيه نظرة
أواه من زمن تعاف حياته
حار الطبيب وطبه في علتني
هز لأكتاف وتقليب الشفا
حاروا جميعا في العلاج وإنني
وارتاح قلبي من صيادلة غدوا
فارقتهم إذ لست قارونا ولذ
الله جرد قلبهم من كل إشـ
لولا مروءة بعضهم وسماحه

نسى فعله لإثارة الهيجان
ثورا بساحة ملعب الإسبان
ن واحد مع كثرة الألوان
كالأفق غب العارض الهتان
حتى بفقه صاحب النعمان
نهما حجازا برزخ الإقتان
لي لؤلؤ بل ذائب المرجان
ه دما فهذي أربع لا اثنان
ء يصيني من بينهم سهمان
كأننا في كوريا خصمان
بغي الغشوم يبوء بالخسران
أخالني أخشى من الهجران؟
كالقذى تعشى به العينان
تحديق والتقبيل والتحنان
مثل السليك أراه حين يراني
فنعيمها وشقاؤها سيان
فجوابه إذ تلتقي العينان
ه وحاجباه منه مرتفعان
في تركهم ما كنت بالحيران
مرضى النفوس بعلقة الأثمان
ت ببائع الأعشاب في الدكان
فاق على مرضى بني الإنسان
ما عاش في الحمرا سقيم عان

وأنا رجائي في المهيمن وحده هو مبرئ الأرواح والأبدان¹
ولا ينسك المرض الذي أصبحت من أصدقائه المخلصين، لا يتحمل البعد
عنك طويلا، وها هو قلبك وهو البعيد بين الضلوع يصاب بضعف، وهو سر حياتك،
وساعة وجودك الذي يدق بين الحنايا، فعلنا عن بقائك في الدنيا، واستمرارك في
الحياة، ويلقي بك الأمر في متاهة الخوف، يستمر معك عمرك بكامله، بل إنه لولا
لطف الله، لحول حياتك، وغير اتجاهك رأسا على عقب:

"وكان ممن زرتهم الطبيب المرحوم لعجيمي، وهو تونسي ومتقدم في السن،
وكان أكد ما انتهى إليه الدكتور الشرفي وزاد فنصح والدتي بأن لا أخرج إلى أي
مكان إلا إذا كان يرافقني أحد أفراد الأسرة وهو يحمل كرسيًا حتى إذا ما أصابني
تعب أجلس لأستريح. وكانت جدتي الزهراء رحمها الله قد اقترحت أن أترك
الدراسة - ولو مؤقتا - وأن يخص لي متجر للثياب في "القيسارية" يكون فيه من
يشتغل وأكتفي أنا بالجلوس على كرسي بباب هذا المتجر لا أبذل أي جهد"².

والحمد لله لأن مقترح المرحومة جدتك، لم ينظر إليه بصورة عملية، وأخذ
على أنه عاطفة جدة مقهورة بمرض حفيدها، وتحاول أن تسهم برأي للتخفيف عنه
من شروخ بلواه. ولو حدث ذلك لأصبح السيد عباس الجراري صاحب متجر
للأثاث في قيسارية بين أسوار مدينة الرباط القديمة، لا يتحرك إلا في خط واحد
قصير، يربط بين سكنى العائلة ودكان البيع والشراء، الذي لا يصنع فيه شيئا ذا
بال، لأن الذي يتولى أمر المعاملات فيه، هو شخص آخر، له الدراية الكافية،
للإشراف على مثل هذه المحلات، والمعرفة التامة بتصريف جميع أمورها، بطريقة
تنمي رأس المال، وتضمن المكاسب المشروعة، زيادة على حسن التعامل مع الزبناء
ليزداد عددهم، لأن سوء التصرف كان سببا رئيسيا في إقفال عدد من هذه المحلات.

¹- روض الزيتون ديوان شاعر الحمراء 2 / 320 - 323. ضبط وتنسيق وتعليق: احمد شوقي بنين. الطبعة

الثانية مراكش 2002.

²- رحيق العمر ص 90.

ولكن الله سلم فقد خط للرجل بحكمته الربانية مسارا آخر، يمضي فيه بنجاح وتفوق، ويصعد سلمة مرقاة مرقاة، بكثير من الصبر، والعسير من المثابرة، والإصرار الكامل على بلوغ أعلى الدرجات، على الرغم من المقابل المتين الذي يدفعه من راحته، والاقتطاع الدائم الذي تقتطعه بنوك المرض والآلام والأذى، من صحته وعافيته كل شهر، وكل يوم، وكل ساعة.

ولو جلس الرجل أمام باب دكان جلسة صاحب رأس المال، لانطفأ قنديل من قناديل العلم، التي أضاءت في سماء الأدب المغربي، وساعدت على إشعال قناديل أخرى، في سماء العلم المتوهجة.

وأتساءل يا صديقي: ما أمر العمليات الجراحية معك؟ فقد كنت أحسب أنني عندما خضعت في حياتي لسبع عمليات جراحية، بين مصحات الرباط والدار البيضاء، وعمليات أخرى في العين اليمنى، والأذن اليسرى، وكلها أجريت لي في مصحات بالرباط. كنت أظن أنني من أصحاب الأرقام المحترمة، في عمل المشروط والمبضع وزيارة المصحات، ولكن الذي قرأته في بوحك المسموع، ولوعتك المكتومة، جعلني أراجع لأفسح الرتبة لمن يستحقونها قلبي؛ ووجدتك واحدا منهم، وقد زرتك مرارا في بيتك وفي مصحات بالعاصمة، ومنعني من زيارتك، قبل مدة قصيرة وباء كورونا الذي لا يريد أن يفارقنا، وكنت تشقى بالقلب المعنى، كما قاسيت من عثراته مرات عديدة.

والغريب أن كثيرا من هذه العمليات التي أجريت لك، كان خارج الوطن في فرنسا وفي مصر وفي أمريكا. وفي هذه الزيارات كان ينبغي أن تتمتع بمناظرة وجديد هذه الدول التي تسافر إليها لأول مرة، فأنت تقول عن العاصمة الفرنسية: " فباريز التي كانت آخر محطة. وفيها قضيت للأسف نحو أسبوع بمستشفى كوشان cochin حيث أجريت لي عملية جراحية على يدي اليمنى التي وقع فيها التهاب بأصل الإبهام أدى إلى انتفاخ الذراع. والسبب أنني أحببت من

أنشطة الفراغ لعبة (تنس الطاولة) أو "لعبة الطاولة (ping pong) وأكثرت منها إلى أن تكون هذا الالتها¹.

وترجع بي الذاكرة إلى زيارتي الأولى لعاصمة فرنسا، مدينة باريس الفاتنة، والتي لم أتوقف عن زيارتها مع أسرتي مرارا وتكرارا، إلى درجة أننا أصبحنا على علاقة مع سيدة فرنسية تكثري شقة تملكها، مجهزة بكل ما يحتاجه زائر العاصمة الفرنسية، وتتميز بموقعها الرائع، فهي على بعد مائة متر من الشارع الكبير (لي شانزليزي)، وقوس النصر، حيث تشتعل شعلة الجندي المجهول، وكانت باريس نقطة إقامة، أو مرحلة عبور، عندما كنا نقصد دولا أخرى كإيطاليا أو إنجلترا أو غيرهما.

ولا أنسى أبدا زيارتي الأولى لباريس، عندما كنت شابا في مقتبل العمر، وشاركت في رحلة إلى فرنسا، مع وفد من الشبان من الجنسين، أشرفت عليها وزارة الشبيبة والرياضة، وأذكر أن الأخ إبراهيم الخطيب، الذي فضل رحلة أخرى إلى موسكو كان يرغب في أن أختار مثله العاصمة الروسية ومدن أخرى في روسيا؛ وكان ذلك في بداية السبعينات، وأراني مع جماعة مشرقة داخل الحافلة التي نقلتنا من مطار أورلي، إلى مقر إقامتنا ننظر إلى هذه التحف الفنية الموثقة في مناطق شتى، وكانت جولة عجيبة وشيقة، وزرنا بعد ذلك المعالم السياحية الرائعة، وكانت باريس في هذا الوقت مدينة نظيفة جميلة رائعة. ولا أريد أن أذكر زيارة لها في سنة 2018م مع زوجتي وحفيدتي؛ لقد تغيرت باريس التي كنا نعرفها، وأصبحت مدينة أخرى، إن الشارع الكبير (لي شانزليزي)، الراقى النظيف، الذي كنا نتجول فيه بكثير من الفرحة والانفراج النفسي أصبح مزبلة، وعلى جنباته عشرات المتسولين والمتسولات، اللواتي يغطين رؤوسهن بأخمرة، ويرتدين عباءات متسخة ليظن الناس أنهم مسلمات، وهن من دول أوروبا الشرقية ومن رومانيا خاصة، ولأن

¹- رحيق العمر ص 95.

الشارع كان دائما محطة مركزية، بفنادقه المصنفة ومحلاته الراقية، لكبار أغنياء السعودية والخليج العربي، والمترفين من كل البلاد العربية والإسلامية.

تذكرت صلتى الوثيقة بباريس، وأسفت لأنك لم تتمتع بها كما ينبغي لشاب متحمس، يريد أن يطلع على صفحة مشرقة من الثقافة الإنسانية الكبرى، التي يتجلى جزء ناصح منها في العاصمة الفرنسية، والتي ساهم في بناء صروحها وطرقها ومبانيها الآلاف من العمال المغاربة؛ وبدل أن تتمتع بمدينة رائعة، يقصدها السواح من كل أقطار المعمورة، بدل البهجة الجميلة في باريس، قضيت أسبوعا كاملا في المستشفى، وكم كان ولا شك كئيبا هذا الأسبوع المؤلم، الذي حرمتك من التمتع بعدد كبير من مفاتن مدينة من مدن الأحلام التي لم تتكلم عنها شهرزاد، في حكاياتها ولعلها كانت ستحكي عن جمالها، في الليلة الثانية بعد الألف.

وها هو المرض يلاحقك في مرحلة أخرى من حياتك، ويختار ظرفا حرجا، ليقتحم بكل عنف جسدك المرهق، بعد أن حسبت أنك في كامل العافية، وقد نجوت من قبضة التباريح، ويمكنك أن تنصرف إلى دراستك، والاستعداد لامتحان الثانوية العامة المعادلة للباكالوريا المغربية، ولكن حالتك الصحية لم تسعفك لتنصرف إلى ما يتطلبه الاستعداد لهذه المرحلة الحرجة جدا، في حياة كل التلاميذ، في المغرب وخارجه، وها هو المرض يطرق أبواب ضلوعك، ويقتحم جسدك بدون استئذان "وبحكم التعب الذي كنت أحسه فقد اضطررت إلى زيارة أطباء ومستشفى العباسية الذي كان سبق للصديق بنمسعود في هذه الفترة المبكرة أن أجريت له فيه عملية "الزائدة". وبعد بعض الفحوص نصحني الأطباء وكان فيهم إيطاليون للابتعاد عن جو القاهرة والانتقال إن أمكن إلى الإسكندرية"¹.

وعلى الرغم من قدرتك على بلوغ أحسن المواقع في دراستك، فإن المرض اللعين لم يفكر أبدا في أن يمحو من مفكرته اسمك، الذي يظهر أنه أعجب به هو أيضا، وألف محاورته والعودة إلى حامله في زيارات متكررة، لا يفصل بينها زمن طويل،

¹- رحيق العمر ص 99.

وبدل الانصراف إلى ما تغربت من أجله، وهو العلم والحصول على أحسن الرتب بين أصدقائك من المغاربة، أو مع إخوتك المصريين، الذين كانوا جميعا بنفس طموحك، ولكنهم يتأخرون دوما عن ملاحقتك، ولكن اليأس من الشفاء الكامل كاد يدمر عزيمتك، وصلتك الدائمة بالمستشفى، والإقامة الطويلة به أوشك أن يهدم آمالك لولا لطف الله بك، وهو اللطيف الخبير، والذي كان يهيئك لتحمل أعباء كبرى في مجال البحث العلمي، والمساهمة في إنشاء جيل من الطلبة الراغبين في الوصول إلى أعلى مقامات العلم الجاد، عندما يرون صمودك أمام قوارح الزمان الذي لم يتخل عن قوسه الجيدة، وسهامه التي لا تخطئ هدفها، وكدت تتخلى عن مسيرتك العلمية الناجية، وتركت يائسا دراستك، وأنت في قسم الثانوية العامة، وأخذت تفكر في العودة إلى المغرب خاوي الوفاض، ولكن الأمل فتح أحضانه، وأعانك في مرحلة متأخرة لتؤمن بحماسك، وتتحدى بما بقي فيك من قدرة معطوبة، وتهيات في وقت وجيز، لاجتياز مرحلة صعبة في حياة كل التلاميذ، ما اجتزت امتحانات الثانوية العامة بتفوق، وحافظت على جانب مهم من أخلاقك، عندما التزمت بدفع ما عليك من نصيب، في كراء شقة قرب المدرسة بالقاهرة، على الرغم من أنك لا تقيم مع صديقين مغربيين لك فيها، لأنك كنت ملزما بالبقاء في المدينة الشاطئية الجميلة الإسكندرية؛ والتي أحسب أنك لم تتمتع ببهاؤها، ولم تنجول في كورنيشها الرائع في هذه المرحلة.

"ذلك أني في تلك المدينة الشاطئية الشمالية كنت أتردد على المستشفى الإيطالي، وحين أغادره أسكن في (بنسيون) على الشاطئ، مما جعل حالتي الصحية تتعافى بعض الشيء. أما الدراسة فلم اعد ألتفت إليها بحكم هذه الحالة التي كنت جعلتها همى الوحيد والتي كانت تجعلني أفكر في كيفية العودة إلى المغرب وما سيكون لذلك من وقع على الوالدين وجميع أفراد الأسرة. ثم حدث وأنا في غرفتي بالمستشفى الإيطالي أن فوجئت بالصديق بنمسعود يدخل علي، حاملا إلي - مشكورا - ملف التسجيل في الامتحان النهائي (الثانوية العامة) الذي كان سيحل بعد أسبوع

والذي كنت أليغيته من ذهني لا أفكر فيه، فعدت على الفور إلى القاهرة، وعكفت خلال الأسبوع المتبقي قبل الامتحان، على مراجعة المقررات¹.

وعاد لطف الله الجميل إليك، ليحتويك ويفرج عنك الهم الذي نزل بكلّك على صدرك، حينما حمل إليك صديقك بنمسعود، في ساعة مشرقة بالأمل ملف التسجيل في الامتحان الذي تودع فيه الثانوية، وأعاد إليك الحياة بكل قوتها وبعظيم بهائها؛ ونهضت من تقاعسك الذي لم تخلق له، وعلى الرغم من أن أسبوعاً واحداً لا يكفي أبداً للاستعداد لامتحان صعب، يؤهل الناجح للدخول في مرحلة خصبة في التعليم، فإن زادك الوفير من التحصيل، ساعدك على النجاح مع المرموقتين، وعدت بظفر حديد إلى والدك، لتضع بين يديه إنهاء هذا الفصل الصعب من تعليمك، بنجاح مرموق في مرحلة حرجة جداً، في مسيرة المتعلمين، لأنها تفتح الأبواب على مصراعيها، أمام المجدين، ليبلغوا أعلى درجات العلم في الكليات، التي أهلنتهم لها ميولهم وقدراتهم.

وقد بدا لي أنك لم تتمتع بالعاصمة المصرية، لأنك شغلت بمرضك، وانتقالك إلى الإسكندرية، ولزومك المستشفى بها حرمك من الطواف بمعالم القاهرة، وأهرامها، وآثارها، ومساجدها، والنزهة في نيلها الكبير؛ وزيارة مكتباتها العديدة؛ وقد تسنى لك شيء من ذلك في مرحلة أخرى من حياتك، وقد أحدثك في نهضة أخرى، عن أول زيارة لي إلى قلب مصر النابض القاهرة المعز، وكانت بدعوة من الشيخ عبد الله باسراحيل، أحد الشعراء اليمنيين المعروفين، وكنت برفقة الدكتور نصر العلوي، وأقمنا في أحد فنادق العاصمة الكبيرة (سوفيتيل الجزيرة) الذي يضع قدميه في ماء النيل، ثم انتقلت إلى بنسيون بحي الزمالك الذي تعرفه جيداً وتوجد به عدد من السفارات، ومنها سفارة المغرب؛ لأنني كنت أرغب في الوقوف على معالم القاهرة الزاخرة، وكانت حقاً فرصة رائعة، تؤكد بالواقع ما كان دائماً صورة زاهية في خيالي منذ طفولتي البعيدة.

¹- رحيق العمر ص 99-100.

عناية الله بلسم الجراح:

ولا أريد أن أختم هذه الصفحة الحزينة في حياتك يا صديقي، بالبحث عن بقايا دموع أستنزلها من سحابة آلامي، فلقد جنبك الله تعالى بجميل لطفه كثيرا من الشدائد، ومنحك القدرة الكافية لتجاوزها، وغادرت عددا من المستشفيات والمصحات بالمغرب وخارجه، وقد امتلكت مزيدا من الصبر على المحن، والعودة إلى نشاطك العلمي الزاخر، الذي كان لك دائما نافذة مكسوة بالزهور، منمقة بالآمال، ترى منها الحياة مشرقة بكل جميل، مزخرفة بكل بهي، ولذلك لم يهزمك المرض، ولم تحطمك العمليات الجراحية المتتابة؛ وغدوت في رأيي نموذجا للعالم الواعي بدوره، في مجتمعه وبين أهله وقومه، والذي لا تزيده الطعنات إلا دربة وتمكنا من فن المواجهة، والصبر على الابتلاء، وطلب الرحمة من مالکها الأوحد، خالق الوهب والعطاء، الرحمان الرحيم.

ثالثا: الإنسان: اللسع الأمكر

وأعتقد أن لسع الإنسان، هو أقصى درجات الأذى، وألعن صور البغض، وأعمق حالات الكراهية، التي تسكن قلوب بعض الناس، وتشعل فيها نيرانا، لا يخمد لهيبها إلا إذا أحرقوا بها غيرهم، من الذين يعاشرونهم، والغالب أن يكونوا أقرب الناس منهم، وقد تحركت هذه العقارب السامة، تبحث عن ضحاياها لتلدغهم، لا لشيء سوى أنهم استطاعوا أن يظهروا في مواقعهم العلمية أو العملية أو الوظيفية في درجات أحسن بمجهوداتهم، وتسلقوا الدرجات بقدراتهم التي أوقد الله شعلها في قلوبهم، واستطاعوا المحافظة على نورها بين ضلوعهم، وأنارت لهم سبل النجاح، وأظهرت لهم معالم التفوق، بفضل ما بذلوه من جهود متواصلة، وما كابدوه في مسيرتهم الشاقة من محن، صارعته بكل عنف فصرعوها. وتقف جماعة الحاقدين قبل خط الوصول النهائي، لمنع المجتهدين من تجاوزه، خوفا من ظهور عجزهم وانكشاف بؤسهم المعرفي، وقلة درايتهم بتدبير المجالات التي يهيمنون عليها، ويستفيدون من خيراتها بدون علم راسخ، أو استحقاق تفوق، أو تميز نبوغ.

إن المرض بضرباته الخفيفة أحيانا، والعنيفة والمدمرة أحيانا أخرى، لا يخرج عن مجال المقدر على الإنسان رؤيته، والذي يخرج في الغالب عن إرادة الغير، لأن الذي يتحكم فيه، ليس من طينة البشر، ولا تمسك بوصلته الموجهة له يد الإنسان، وإنما هو أمر مقدر، وحالة لا سبيل إلى مراوغتها، وأمرها متصل بالمكتوب الذي لا مفر منه، ولا يملك القدرة على توجيهه، أو إنزاله أو رفعه أحد من الناس تعلق الأمر بنفسه أو بغيره.

أما الموت فإن أمرها بيد خالق الحياة والموت، ولا قدرة لبشر على معرفة خباياها لأنها جزء من الأسرار العليا، والملكات الرفيعة، والتي لا يملك أحد من الناس رقما واحدا، في شفرتها المعقدة والمركبة من ملايين الأرقام، والمحاطة بأكثر الألغاز. ولا قدرة لقادر، أو لعارف، أو لغالب على الدنو من مجالات أسرارها الكبرى؛ لأنها بعض ضئيل من قدرات الخالق الرازق المتحكم في الموت والحياة.

إن الإنسان يعيش حياته بالشكل الذي قد يريده إلى حد كبير، ولكنه يموت كما أراد الخالق، وامتى أراد الذي وهبه الحياة، ولم يستطع أحد من جهابذة العلماء، وكبار الباحثين المتخصصين في علوم الدنيا بأسرها، أن يخطو خطوة واحدة في هذا الميدان، لأنه بعض من خافيات الخالق العظيم، فالموت نهاية كل حياة؛ لأن العودة في يوم موعود إلى الله، لا تتم إلا بالمرور من معبر الموت، وفي مجال وفضاء لا يمكن استيعابه أو تصوره، تبدأ حياة أخرى، بعد الفناء الكامل لكل حي في الوجود.

إن لسع الإنسان، يتصل اتصالا وثيقا بإرادة الإنسان، وينبثق من اختياره الفردي، الذي يدور في منظومة شاملة، هي مجرات الأذى والشر العظمى، التي لم تستطع النظريات الأخلاقية الفردية والجماعية، أن تكبح خيول الأذى عن العدو، في ميادين مزايدات كبرى، يقف وراءها ويشجعها أكبر المقامرين، والمساهمين في تلويث أخلاق الناس، والإبحار في مياه اللجج العكرة. ومع ذلك فإن السموم التي تنفثها الشعايب البشرية، حينما تحاول القضاء على بعض أصحاب الهمم العالية، قد تصل إلى شيء يسير أو عسير من مبتغاها، ولكنها لا تستطيع أن تحطم عزيمة الثابت على رأيه، والمصر على بلوغ مراده، مهما تكن الصعاب، وكيفما كانت قوة

المرارة التي يتجرعها، سلاحه في ذلك الصبر على البلوى، إلى أن يرفعها الله تعالى، وقد تكون الاستعانة بتجارب من اكتتوا بنار الجحود أفضل بلسم لجرح أحدثته يد القريب، وعمقته أحداث الدهر، فليس بعده من سبيل إلا أن تطرق باب الصبر، وتفتح لك مدخله العزيمية، وتدخل صرح الصادقين، الذين جعلهم الله من الفائزين برحمته ورضاه، والمتمتعين بمغفرته وعفوه، وقد بوأ القرآن الكريم الصابرين من عباد الله، بعزيمة صادقة، وثقة عظيمة بثواب الله وحسن كرمه مكانة عالية.

يقول الله تعالى: "إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ"¹.
وقال جل شأنه: "وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ"².

ويضيق المقام إذا حاولت أن اذكر ما قاله الشعراء في الصبر، وضرورة التحلي بخلقه، والتستر بردائه، إذا ألمت بالإنسان الملمات الجارحات، ما قوي من بلائها، وما ضعف من شرها.

يقول الشاعر الكبير أمية بن أبي الصلت³.

يقولون لي: صبرا، وإنني لصابر على نائبات الدهر وهي فواجع
سأصبر حتى يقضي الله ما قضى وإن أنا لم أصبر فما أنا صانع؟
ودعا أبو فراس الحمداني إلى التشبث بحبل الصبر عند الشدائد وحين
حلول الزوايا، فهو أفضل معين، حين تشتد هجمات النوائب:

احذر مقاربة اللئام فإنه ينبئك عنهم في الأمور مجرب
قوم إذا أيسرت كانوا إخوة وإذا تربت تفرقوا وتجنبوا
اصبر على ريب الزمان فإنه بالصبر تدرك كل ما تتطلب
ولعل احسن ما يعبر عن هذا الموقف الذي مر منه عدد من كبار الشعراء، ما
قاله شاعر الحكمة الأكبر زهير بن أبي سلمى في إحدى قصائده البديعة:
غدت عَدَّالتاي، فقلت: مهلا أفي وجد، بسلمى، تعذلاني؟

¹- سورة يوسف الآية 90.

²- سورة لقمان الآية 17.

³- انظر ترجمته في الأغاني 133-120/4 طبعة دار الكتب.

فقد أبقت صروف الدهر مني عَروَف العُرف، تَرَكَ الهوان
وقد جَرَّ بَتماني، في أمور يعاش بمثلها، لو تعقلان
محافظة على الجُلِّي، وعِرضي وبذلي المال، للخل، المداني
وصبري، حين جد الامر، نفسي إذا ما أرعدت رئة الجبان
وحفظي للأمانة، واصطباري على ما كان، من ريب الزمان

وكم تعجبني قوله للأديب البارع مصطفى صادق الرافعي، والتي تشبه المعادلة الرياضية، عندما تتحول بعد تأملها إلى حكمة بليغة في التعامل مع الصديق حينما يسيء التعامل، ولا تجد سوى الصبر تحتمي بهرجه المتين، لتحافظ على اتزانك في المواجهة، يقول الرافعي:

"واعلم أن أرفع منازل الصداقة منزلتان: الصبر على الصديق حين يغلبه طبعه فيسيء إليك، ثم صبرك على هذا الصبر، حين تغالب طبعك لكي لا تسيء إليه"

القفز على الحواجز الآدمية

وأعود يا صديقي عباس إلى صبرك على الناس، والذين نلت من شرهم ما زاد عن حاجة الجماعة من البأس الشديد، ولا أخفيك أنني عجبت لأمرك مع قوم، واستغربت كيف تتجاوز عن كل ما وضعوه من موانع في طريق نجاحك، على الرغم من أنك، تسير في المسار المتاح لكل مجتهد، صاحب العزيمة القوية، والراغب في الوصول إلى الهدف، وإن قضى دون ذلك، يقول المتنبي العظيم، جبار القوافي السارية في البلاد، والحية بين صفوة العباد:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن امانيا
تمنيتهما لما تمنيت أن ترى صديقا فأعيا أو عدوا مداجيا
إذا كنت ترضى أن تعيش بذلة فلا تستعدن الحسام اليمانيا

ولا أخفيك أنني استفزني تسامحك مع قوم، كانوا دوما يقفون في سبيلك، ويحطمون بعض آمالك، من ذلك هؤلاء الذين كانوا يعارضون عضويتك في أكاديمية المملكة، عند تأسيسها في أكتوبر سنة 1977م.

"وأرى واجبا من باب الاعتراف بفضل جلالته¹ وتوالي أياديهِ البيضاء علي، أن أشير إلى موقفه من الذين كانوا يعارضون عضويتي بأكاديمية المملكة لدى تأسيسها، على الرغم من اقتراحي في اللجنتين اللتين عينهما تباعا لاختيار الأعضاء، إلى حد أنه علق على الأمر بقوله وهو يبتسم عند تعييني: "أش عندهم معاك السي الجراي؟"²

وأتوقف قليلا معك عند محطة مررت بها مرورا كريما، وكنت أحد الذين لحقهم الأذى، لأن المهمة الموكولة إليك لم تكتمل بالشكل الذي كنا نريده، تلك هي تعيينك في منصب عمادة كلية آداب جامعة القاضي عياض بمراكش، عند أول تأسيسها، وتقديمك لاستقالتك من هذا المنصب.

"وفي يوم 13 ربيع الثاني 1400هـ الموافق فاتح مارس 1980م، عيني جلالة الملك المغفور له الحسن الثاني عميدا لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش لأول إنشائها، إلا أنني لظروف وأسباب ليس هذا مجال ذكرها قدمت استقالتني يوم خامس جمادى الثانية 1400هـ الموافق 21 أبريل 1980م.

والحقيقة أنه كان لي باستمرار موقف من مثل هذه المناصب الإدارية التي كنت أعتذر عنها"³، وعلى الرغم من أن الملك الحسن الثاني هو من عينك في هذا الموقع، فإنه علق على استقالتك منه بقوله: "ما عندي منسأوا، راجل"⁴، لأنه كان يعرف من كان وراء هذا الاقتراح والدافع الرئيسي المشبوه إليه.

ولا أخفيك أنني استغربت تعليق الملك الحسن الثاني، وقبوله استقالتك التي يعرف دوافعها ولكننا نحن عندما نقرأ هذا المقطع من المذكرات، لا ندري سببا واضحا للتعيين أولا، وطلب الإعفاء ثانيا، وموقف الحسن الثاني الرجل الذكي اللماح من هذا كله، وبقي أمر في الخفاء لم تبج به، ولم تشر إليه بأية إشارة،

¹- وأنت هنا تقصد الملك الحسن الثاني.

²- رحيق العمر ص 13.

³- المصدر السابق ص 129.

⁴- نفسه ص 14.

نفهم منها ما حدث في هذا الأمر الذي يهمني بصفة خاصة، وقد كنت من المنتظرين له، والذين سعدوا به، واشتاقوا إلى لقائك عميدا، لكلية الآداب بجامعة القاضي عياض المراكشية.

وقد أحسست بشيء من هذا الذي يدور في نفسي، وهو دائر فيما أعتقد في ضمير من يقرأ سيرتك، ولذلك جئت في الفقرة الموالية مباشرة بما يزيح عن أفكارنا بعض الغموض الذي كساها حينما قدمت تبريرا، أزال شيئا من اللبس.

"وقد يستغرب البعض لكل هذا الذي ذكرت، وكيف وصلتني أخباره. وهنا لا بد من الاعتراف بالفضل لذويه، فقد كان من الجلساء الخاصين لجلالة الحسن الثاني من كان يطمئن لما ينقلون إليه من أخبار كان يتابعها ويتطلع إلى معرفة حقيقتها، وكانوا يريدون أن يظلوا في الظل مما يجعلني لا أذكر أسمائهم وقد انتقلوا في غالبيتهم إلى رحمة الله؛ وإن كنت لا أخفى أنهم كانوا في معظمهم من تلاميذ الوالد أو أصدقائه - وأصدقائي كذلك - وكانوا يعرفون مدى اهتمام جلالته بما كانوا ينقلون إليه من أخبار"¹.

وأعود بك إلى سنة 1980م، عندما عينت عميدا لكلية الآداب بمراكش، وكنت مع جماعة من الأساتذة، اجتزنا بنجاح مباراة القبول للالتحاق كمساعدين، بكلية الآداب بمراكش. وقد كنت في لجنة المباراة مع المرحوم عزت حسن ومحمد مفتاح، وكان من حضي أن أمتحن في نص أدبي، يعرض لمحنة الأمير الشاعر المعتمد بن عباد، أسير أغمات ويورد قصيدة له ومطلعها:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميرا

وقد كانت أغلب الأسئلة موجهة منك، مما اعتقدت معه، أنك مقترح النص، زيادة على محاوراة طويلة بيني وبينك، أتحت لي فيها فرصة للكشف عن مخزوني الأدبي، عندما وجدتك تلقي بأسئلتك بمحبة، تشجع الممتحن أمامك على

¹ - نفسه ص 14.

التألق، ما دمت تدرك بحدسك وثباته واستعداده ليتجاوز ساعة الامتحان، أنه من المتفوقين وقد فاز فعلا بالنجاح، ونال الدرجة الأولى بين المرشحين. قد تكون نسيت هذا الموقف، لكثرة ما مر عليك من عشرات مثله، ولكنني لا أنساه أبدا ولا أنسى هذه الدمثة العارفة، التي تجلت لي فيك في ذلك اليوم الراسخ.

وكان من المقرر أن نلتحق بكلية الآداب بمراكش في السنة الجامعية 1980م - 1981م، وعندما سمعت بخبر تعيينك عميدا للكلية نفسها، أحسست بغبطة حقيقية، فهذا توفيق من الله بتجاوز المباراة بنجاح بين، وها هو الأستاذ الذي زكى ولا شك برأيه ذي القيمة في اللجنة نجاحي، وسأعمل في ظل تسييره الحكيم للكلية التي سأشد إليها الرحال بعد مدة وجيزة. ولكنني فوجئت بأمرين شديدين على نفسي: أولهما التماطل الغريب في إعلان النتائج، وإن كان أستاذي المرحوم عزت حسن قد لمح إلى نجاحي، دون أن يكشف عنه صراحة.

ثانيهما أنه وبعد مرور مدة طويلة على هذا الوضع الراكد، فوجئت بخبر استقالتك من منصب العميد، وتساقطت في أعماقي أوراق باقية ورد زاهية، كنت قد زينت بها هذه الرحلة إلى مدينة البهجة.

ولم نلتحق بكلية الآداب المراكشية سوى في السنة الموالية (1981م - 1982م)، وأشير إلى أن الأمور الإدارية لهذه الكلية، كان يشرف عليها عميد كلية العلوم بمراكش السيد الكندري، وكان رجلا متزن العقل، يؤدي عمله بدقة وإخلاص، ويتحمل بجدية مسؤولية الكليتين، ولكننا للأسف الشديد لم نعمل تحت توجيهه السديد، ولسوء حظنا التقينا بعميد لا علاقة له بالعلم ولا بالتربية، ويجعل الجهل الكامل حسن التسيير الإداري، ويخبط خبط عشواء في كل أمر يوضع بين يديه، وهو المدعو محمد بوغالي، ولقينا أساتذة وطلبة وإداريين من أميته، وسوء تدبيره ما أدى إلى تراجع الكلية، وقدرتها الأدائية إلى درجة غير مشرفة، وزاد في اصطدامي معه أنني اقترحت كاتباً عاماً للمكتب المحلي، التابع للنقابة الوطنية للتعليم العالي، وأذكر أنني عندما زرته في مكتبه لأخبره بصفتي النقابية، وبأعضاء المكتب في كليتنا، رأيت الرجل في حالة ارتباك غريبة، فبمجرد جلوسي أمامه، انتفض من

كرسيه بحركة بهلوانية، وقصد باب المكتب وفتحته مناديا على كاتبته، ومن بعيد سألني هل أشرب شيئا، وعندما أجبت بالنفي، طلب من الكاتبة أن تعود إلى مكتبها، وجلس قبالي في حالة رعب، كأنني مفتش مباحث، سأستجوبه حول قضية جنائية، هو المشتبه الأول فيها؛ ثم أخرج غليوناً من درجه وحشاه بالتبغ وأشعله، وعندما أخذت أكلمه عن دور المكتب النقابي في المؤسسات الجامعية، وقف على حين غفلة، وكأن عقرباً لسعته، وأخذ معطفه ولبسه، ثم أخرج علبة سجائر وأشعل سيجارة، ناسيا الغليون الموقد أمامه، وأنا أنظر إليه بهدوء وتعجب وأقول في نفسي: أهذا القرد الذي يقفز أمامي برعب وكأنني سأقدم له وثيقة إعدامه، هو نفسه المسئول عن كل ما يجري في هذه المؤسسة الجامعية، التي كان يقصدها الطلبة من كل الأرجاء، قبل أن تفتتح بقية الجامعات في البيضاء وأكادير وسطا وبني ملال وغيرها، وتستقطب آلاف الطلاب.

وتأكدت من شطحات الرجل أنه مخبل العقل، وأن الذي اقترحه لمنصبه لا بد أن يكون مجنوناً، والغريب أن هذا الرجل بقي في موقعه لا يتزحزح سنوات طويلة، وزاد في حمقه جرعات جنون اكبر.

وأذكر أنني كنت سأعود إلى الرباط، باقتراح من عمادة كلية الآداب في السنة الثانية من وجودي في مراكش، ولكن حماقة العميد ضيعت علي هذه العودة، وحرمتني من فرصة كان فيها الخير لي وللكلية، واستطاع هذا المختل وبتواطؤ مع شعبة اللغة العربية، أن يبعديني عن الاعتناق من وضع الأسر الذي وقعت فيه، واستمر لسنوات.

وفي كل مرة كنت أتألم من الحظ العاثر الذي حرمني من اللقاء الجميل مع العميد عباس الجراري، رجل العلم والأدب، الراجح العقل والمتزن الأخلاق، وقذفني بين يدي شخص مجهول الهوية المعرفية، لا علم له، ولا أدب فيه، بينه وبين إدارة مؤسسة جامعية مسافة سنوات ضوئية عديدة.

ويمكرون:

يقول الله تعالى: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ"¹.

وتشير الآية الكريمة إلى المحاولة الدنيئة التي تأمر فيها مشركو قريش، على رسول الإسلام، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليحبسوه، أو يخرجوه من مكة، أو يقتلوه، ووقاه الله العظيم شرهم، وجعل بأسهم في نحورهم، بعد أن اتفقوا على قتل الرسول، باعتماد رأي أبي جهل، الذي أشار بأن يضيع دمه بين القبائل، بعد أن يصيبه عدد من رجال القبائل المختلفة، بضربة رجل واحد. وضيع الله مكرهم الخبيث، وأنقذه من هذا التدبير الشيطاني، بأمر إلهي حكيم، كان فيه مكر الله تعالى أقوى من مكرهم وأنفذ منه.

والمكر في اللغة كما نقرأ في لسان العرب: "الليث: المكر احتيال في خفية (...)", قال أهل العلم بالتأويل: المكر من الله تعالى جزاء سمي باسم مكر المجازي كما قال تعالى: "وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا"، فالثانية ليست بسينة في الحقيقة ولكنها سميت سينة لازدواج الكلام، وكذلك قوله تعالى: "فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ" فالأول ظلم والثاني ليس بظلم ولكنه سمي باسم الذنب ليعلم أنه عقاب عليه وجزاء به، ويجري مجرى هذا القول قوله تعالى: "يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ" والله يستهزئ بهم، مما جاء في كتاب الله عز وجل².

إن الاستئناس بما وقع للأنبياء الكرام من شرور، لا أول لها ولا آخر، وما جدوه من أقوامهم، وعشائهم، وأهلهم، وأقرب الناس إليهم من مقاومة شرسة، وما وضعوه في طرقهم من عوائق منسفة، وما صنعوه من حواجز مدمرة، وما تفننوا في إبداعه من صنوف المكائد، التي تعجز الشياطين عن فك ألغازها، ويحار السحرة في معرفة طلاسمها، حاربوا بها رجالاً أتقياء، بعثهم الله لنشر أنواره العظيمة في البلاد، وتبديد ظلمات الجهل، وقهر جيوش الضلال، المجهزة بأعتى أسلحة الفساد، وأبرع

¹- سور الأنفال الآية 30.

²- لسان العرب مادة مكر.

حيل التفكير الجهنمي، المتفنن في استغلال الناس، وحرمانهم من حقوقهم في الحياة الكريمة، وفرصتهم التي منحهم الله في أرضه الواسعة، ليعيشوا بحرية وكرامة، دون نقص في زاد أو مال، والتمتع بما خوله الله لعباده من أرزاق، توهب للذي يسعى إليها السعي الحثيث، بدون فساد أو إفساد، وبدون منع لأي مخلوق يرجو التمتع بعطاء الله، مسخرا قوة جسده، أو قدرة فكره، لينعم بما أتاه الوهاب الكريم، من عطاءات وأرزاق لكل المجتهدين من عباده. ويستمر الشر في وضع أشراكه في طريق العابرين، للإيقاع بهم، ومنعهم من تحقيق أهدافهم النبيلة، ولو كان فيها خير الناس في الأرض كلها، وتيسير العيش الكريم لكل المخلوقين، والحياة في أرض الله، كما أراد خالقها العظيم، لا كما أرادت العقول الضالة، واختارت النفوس المريضة الحاقدة.

ويستمر غزل حبيكة الماكرين، بعزم وهمة أسودين، بدأ ذلك بعد مناقشتك رسالة الماجستير بتاريخ 08 ماي 1965م، وتسجيلك لموضوع الدكتوراه، حيث كشف الحاقدون عن أنيابهم، وحاولوا وضع الحواجز في طريقك، ليمنعوك من استمرار العمل في المجال الذي اخترته عن اقتناع، لأنه يتحرك في دائرة، يظن البعض أنها لم تخلق لغيرهم، وأنهم وحدهم أصحاب الكلمة الأخيرة قبل الأولى، في ملكية مفاتيح خزانته، والتجول في ربوعه، والكشف عن ذخائره.

"ثم كان بعد ذلك مباشرة أن سجلت موضوعا لأطروحة الدكتوراه تحت عنوان: "الزجل في المغرب: القصيدة" تحت إشراف الدكتور عبد العزيز الأهواني، وهو موضوع بكر، كان يتطلب الرجوع إلى بعض المصادر المخطوطة، ولا سيما كنانيش الملحون التي كان بعضها يسحب من الخزنة العامة، حتى لا أطلع عليه. ثم إنه موضوع يستلزم الاتصال المباشر بأعلامه، من منشدین وشعراء وحفاظ، ومن لهم اهتمام به، مع استنساخ نص من هنا وآخر من هناك"¹.

¹- رحيق العمر ص 110.

لقد أدى تدافع الناس لبلوغ أماكن متميزة، في الميادين التي تدر الأموال الكثيرة، وتسابق المتسابقون المتعجلون إلى إدراك الواجهات الظاهرة، واحتكار المراكز الأمامية، في التجارة والسياسة ومشاريع التجهيز والبناء، وكل المجالات التي تدر على أصحابها الأموال الكثيرة، التي تتهاطل على البعض، كما تتساقط السيول في الأيام الممطرة السخية، عندما تفتح السماوات خيراتها الربانية على الأرض، وعلى البشر في مواسم العطاء الرباني، الذي لا ينقطع مدده، ولا ينتهي رفده.

ولكن الأمر يختلف اختلافاً بينا، عندما نأتي إلى مجال العلم، الذي هو أحد أبواب الرب العظيم، والأجدر بالناس أن يقفوا في الصيف الذي يقود إليه، وقد امتلأت قلوبهم بالأمل في عطاء الله الكريم، وابتعدوا عن كل مطامع الدنيا الزائلة، وصدوا أنفسهم عن كل مغريات الحياة الزائفة، وتركوا الميل إلى كل أنواع الاخلاق الفاسدة، ومالوا عن جميع مغريات الحياة الباطلة. غير أن الناس، ومن يعتبرون أنفسهم العصاة المنتقاة للمجتمعات، والذين أدركوا أنصبة جيدة من العلم، وتعلموا بواسطتها، كيف يواجهون الظروف المختلفة للحياة، ويعلمون الأسرار الكثيرة وراء تقلبات وجوه الزمن، وظهوره بألوان متباينة، وكيف تكشف الأيام عن أنيابها الحادة، بعد أن أسقطت في الفراغ بسماتها المؤنسة، وضحكاتها الموسمية. والغريب أن الكثيرين من هؤلاء الذين يدعون المعرفة بالأشياء، والذين يصدق فيهم قول أبي نواس:

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة حفظت شيئا وغابت عنك أشياء
يتصرفون مع الناس، وفي الكثير من أحوال الدنيا، وعديد من تقلبات صروف الدهر، بصورة تبعدهم عن مجال المعرفة، وتلقي بهم في أحضان الجهل، وليته كان بسيطاً، بل هو الصنف المركب والمعقد، والذي يصاب صاحبه بلوثة دماغية، ينسى فيها ما جمع من علوم شتى، ويتصرف بأمية مركبة، يستحيل فك عقدها.

ولعل الذي حدث لك أيها الأخ الكريم، عندما أصررت على اختيارك لموضوع أطروحتك، ألقى بك بين أيدي هؤلاء القوم، الذين لا يهتمني من هم، ولا مكانتهم العلمية، لأن الذين يتصرفون مثل تصرفاتهم، ويسلكون شبه هذه الطريق المتتوية،

التي تروم إقفال الأبواب دون طموحك، وسد الأبواب أمام رغبتك، التي لم يكن يتحكم فيها سوى الطموح العلمي، الذي لا ينال صاحبه الدرجة التي يسعى إليها، سوى بجهد المتفاني، وصبره العنيد، ومعاناته المريرة، التي لا يجد في مقارعة هولها، سوى رغبته الأكيدة في الوصول إلى المبتغى، ورجاء عون الله الكريم لبلوغ الغاية المرجوة.

وأعتقد أن الذين حاولوا تكسير مجدافك وأنت بين الأمواج، في محيط العلم القاهر، تصرفوا بصورة لا علاقة لها مطلقاً، بالمسؤولية العلمية النظيفة، التي كان ينبغي أن يعتمد على معطياتها، ويستند إلى مطلقاتها المرتكزة على مساعدة المتفوقين، ومدهم بكل ما يحتاجونه من وسائل، لإتمام انجازاتهم العلمية، بصورة ممتازة ومتفوقة. ولا أحب أن اذكر بعض هؤلاء الذين اعتمدوا على مراكزهم، لتعطيل عجلة البحث العلمي، ودفع المخلصين للعلم إلى جزيرة اليأس، ليؤذوا طموحاتهم وينسوا اختياراتهم على ما فيها من جهد وبأس ومشقة، ويقنعوا بما يلقي إليهم من يسير قشور العلم، أو يوضع بين أيديهم من فتات المعرفة الهزيلة.

وبقيت متشبثاً باختيار موضوعك الذي ستنال به درجة الدكتوراه، مهما كلفك ذلك من ثمن غال، على الرغم من الظروف الصعبة التي كنت تجتازها، والمواجهة العنيفة التي أجبرت عليها، والخصمان العنيدان اللذان يحاولان ردك عن سبيلك، التي اخترت السير فيها إلى النهاية، على الرغم من العراقير الناسفة التي وضعت في طريقك، راهنت منذ البدايه على الفرس الجامعة، لتكسب السباق، على الرغم من صعوبة المسالك، وغربة الوحدة، وصلف المسؤولين، ومحاولة تدميرهم لتطلعاتك، بدون وجه حق علمي، أو سند قانوني غير مجحف. ولذلك عانيت في طلب سنة تتفرغ فيها لإتمام عملك في أطروحتك، وإكمال متطلباتها، واجتمع عليك اللذان كان يسعيان لتكسير مجدافك، وأنت في وسط اللجة العميقة، والموج حوالبك قاهر غلاب.

"ونظراً لأنني كنت بصدد تهيبء أطروحة الدكتوراه (...) فقد طلبت أن يسمح لي عام 1968م - 1969م بسنة (استيداع) أنفرغ فيها لإتمام متعلقات

الأطروحة، إلا أنني كنت أواجه بالرغد او بالمساومة بسبب موقف كل من المرحومين عميد الكلية ورئيس الجامعة الذي كان ضد اشتغالي بموضوع "الملحون"، إذ كان يعتبره موضوعا خاصا به وفي ملكيته لاحقا لأحد في تناوله. وقد اتخذ مني هذا الموقف على الرغم من علاقته بالوالد، ولاسيما يوم كنت في سفارة القاهرة وكان هو كثير التردد على مصر، استقبله وأرحب به في بيتي وأقدم له من العناية ما هو به حقيق، ومع ذلك فقد ظل يلح علي بنفسه في تغيير الموضوع، وأحيانا عن طريق مساعديه الذين كان يبعثهم لإقناعي بهذا التغيير.

وأمام إصراري على ما أنا بصده وفشل كل تدخلاته ووسطائه، دعاني الرئيس ذات جمعة بعد الظهر لزيارته في مكتبه برئاسة الجامعة ليطلع على المراحل التي قطعتها في البحث، وكان مقر مكتبه بالطابق العلوي لكلية العلوم بالرباط. وبعد أن أبرزت له ما وصلت إليه أخذ يسألني عن بعض القضايا الفنية والتاريخية المتصلة بالملحون وكأنه باحث يري أن يعرف مدى ما وصلت إليه معرفتي بهذا الفن، اقترح علي أن ننجز - أنا وهو - دراسة مشتركة في الملحون، مما اعتبرته تشريفا لي، فوافقته، على أن يتم هذا التعاون بعد أن أناقش الأطروحة؛ فلم يرقه ذلك. وبعد مدة بعث لي مع العميد يطلب مني أن أقدم هذه الأطروحة بموضوعها في كليه آداب الرباط، وأن يكون هو المشرف علي فأجبت العميد بأني اعتبر ذلك عنوان فخار لي واعتزاز، لو أن وضعية الرئيس الجامعية تسمح له بمثل هذا الإشراف¹.

ولعلي أطلت قليلا بإيرادي لهذا المقتطف من رحيق العمر، وقصدت بذلك إلى أن أكشف، ولو بسرعة على هذا الحيف الذي تعرضت له، والمساومة الرخيصة التي واجهتها، من مسؤولين كبيرين، لن اذكر اسمهما أنا ايضا، واعتقد أن كل من يعرف ملابسات الموضوع، ويرد الأحداث إلى زمان وقوعها، سيدرك من هما هذان الشخصان، اللذان توليا عدة مسؤوليات، واحتلا مواقع كبيرة الحساسية في المجال الثقافي في بلادنا، ويعلم بعد ذلك كيف كانت بعض العقول تسير أمر هذه البلاد، في

¹- رحيق العمر 121-122.

جانبيها العلمي والفكري، بدون سند معرفي أو قانوني، والأسوء من كل ذلك، والأمر منه أن تعطى لمثل هؤلاء الفرص لعرقلة المسيرة العلمية، إذا تعارضت مع مصالحهم الشخصية، التي تحكمها الأنانية، والنفخ في الذات المعجبة بذاتها، وتكسير مجداف الراغبين في دخول لجنة العلم بكفاءة وتمرس، وإصرار على كسب الرهان، وإن طالّت المسافات، في حلبة السباق الصعب، الذي لا يقدر عليه إلا صاحب الإصرار الكبير، وأخو الصبر الطويل، ومن يحمل في وعائه الزاد الكافي، لطريق يمتد أكثر من غيره، ولا يقدر على مقارعة شكوته إلا القلة من أصحاب العزم الصادق، والإرادة المتينة، والرغبة القوية في البلوغ إلى الهدف، مهما تكن الصعاب التي لا تزيد الراغب في أن يبلغ النهاية الجميلة المرجوة، إلا إصراراً على الاستمرار في الهجير، ليحقق نجاحاً علمياً حقيقياً ومستحقاً، لا ورقة تافهة، تباع في أسواق المتاجرين بالعلم، في المزادات الرخيصة، وتكشف أول مجابهة مع الطلبة عن تفاهتهم، وإنكار الثقافة الحقيقية لما استبضعوه من رخيص المتاع، بعد أن رحل رجال وهبوا وجودهم وحياتهم للعلم النافع، والتضحية الحقيقية للمساهمة المثابرة، في تكوين جيل من العلماء الحقيقيين، يحملون المشعل لإنارة الدروب المظلمة، بما يفيد الإنسان، ويعمر المكان ويخلده الزمان.

وأذكر حكاية عجيبة في هذا المقام، تثير السخرية مما يقع في شأن الجامعة المغربية، ومن يتولون أمور تسييرها، والإشراف على بعض دواليبها؛ ذلك أن أحد رؤساء الشعب، والذي لا حق له في هذه التسمية قانوناً، لأنه لم يتجاوز درجة استكمال الدروس، والواجب أن يسمى منسقا، لأن رئيس الشعبة لابد أن يكون حاصلاً على دكتوراه الدولة، هذا المنسق الذي ظل منسقاً لسنوات عديدة، دون أن يحصل على أية شهادة جامعية أخرى. لقد وهب هذا الشخص بكل أريحية، وبدون مسؤولية علمية أو إدارية، ثلاث سنوات تفرغ لأربعة من أصحابه ومريديه، والذين يطبلون لتفاهته ويزمرون لجهله، في الوقت الذي كانت فيه الكلية، في أمس الحاجة إلى وجودهم، وقد عاد هؤلاء بعد هذه السنوات، بدون تحقيق أية نتيجة علمية مرجوة، تنتظرها شعبتهم وكليتهم. وأنت أخي عباس، تطلب سنة واحدة، لإتمام

إجراءات دكتوراه الدولة، وتُحارب بكل الأسلحة الدنيئة لكي لا تحصل عليها. فما نقول؟ وأي احتجاج يشفي غلة الصدور، ويطفئ نيران القلوب المظلومة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فهو المنتقم الجبار، والمنصف الكريم لكل مناضل مثابر مثلك، وعدك نافذ ولو بعد حين.

وقد استغربت من هذا الموقف الذي سلكه معك عميد الكلية، حينما أراد مساومتك بحقك الذي تطالب به، بباطل يدافع عنه، ليستمر في رئاسة اتحاد الكتاب.

"وأذكر أن السيد العميد الرئيس كان بين الجلسات يأخذني إلى مكتبه ويبرز لي الملف الخاص بي، ويؤكد أنه سيوقع أمامي بالموافقة على طلبي شريطة أن أوافق على مخططه، وأن أتخلّى عن فكرة مراجعة اللوائح، ولكني واجهت هذه المساومة برفض قاطع دفعت ثمنه غاليا كما سأوضح بعد"¹.

ودفعت ثمنا باهضا نتيجة هذا الموقف الشجاع، من راحتك واستقرار أحوالك، وهناء أسرتك الصغيرة، ولن تكون أبدا هذا الرجل الشجاع، الذي دافع عن الحق، وإن أصابه الغبن من الذين لم يرضخ لرغبتهم المائلة عن الاختيار الصائب، ولكنه يظل إنسانا قويا، لا تلهيه عن طلب السلوك السليم، وإن تعارض مع مصلحته، وراحة أهله وأسرته، وعندما تدور عجلة الزمان، يحمّد هذا الموقف، ويعتز بهذا الاختيار، وإن أبعد عنه بلوغ حاجة طالما تمنّاها لفترة من الزمان، بسبب مواقف لمن جعلهم الحظ في موقع المسؤولية لحين من الدهر، ولم يكن ذلك ليثني من عزم من خرج إلى الواجهة بعزم الرجال، وإباء المقتدرين، وإصرار المحاربين.

ولم يقنع المتآمرون بهذه الرجة التي هزت أركان حياتك وعائلتك، بل استمر مكرهم، وتمادى حقدهم، ومدوا أيديهم ليقفوا رزقك، وما يقيم أودك، ويغطي حاجتك، ويفي بطلبات أسرتك الصغيرة، وقصدوا إلى تدميرك، ودفعك إلى الرضوخ

¹- رحيق العمر ص 122 - 123.

لرغبتهم، والركوع عند أعتابهم، فبحلول السنة الجامعية الجديدة، وبمؤامرة محبوكة الجوانب، وباتفاق تام بين الإدارة المعنية بالتعليم العالي بالوزارة وعميد كلية الآداب بالرباط، أسقط اسمك من بين أطر الجامعة، وما يتبع ذلك من حرمان من الراتب.

"ولا أخفي أن هذا الموقف - التأديبي - زادني إصرارا على الثبات والصمود والصبر، مع أن التزاماتي العائلية كانت تتضاعف بعد أن تركت في المغرب زوجة وطفلتين صغيرتين، مما يطول الحديث عنه وما قدمت وقدمت زوجتي من توضيحات جراء ذلك"¹.

وامتد هذا الحقد من جذوره في المغرب، إلى فروعه في مصر، عندما أصر المسئولون في الكلية على اعتبار أن المدة القانونية المفروضة، والتي يجب أن تكون قضيتها في مصر، لا خارجها لم تكتمل بعد، مما يعرض مناقشتك لأطروحتك غير ممكنة، وتحتاج إلى تغيير في المواعيد كلها، والتي يمكن أن تطول أكثر من اللازم.

وعندما استنجدت بالسفارة المغربية، لتنفذك من هذه الورطة، وعلى الرغم من شهادة كل العاملين في السفارة، وأقرب مساعدي السفير، بوجودك الدائم، ومشاركتك في العمل المطلوب منكم، ومساهماتك في أنشطة السفارة كلها، فإن ذلك لم يشفع لك أمام السيد السفير، الذي أصر على أنه لا يتحمل مسؤولية التصريح لك بالحضور الدائم، ووقع بذلك في خطأ إنكار ما هو مثبت في جواز سفره، ورمى بشهادة كل العاملين بالسفارة، والذين شهدوا لك بالحضور الدائم والمشاركة المستمرة، واعتمد في ذلك على حجة عرجاء، تثير السخرية، وتكشف إلى أي حد يستهتر بعض المسئولين، بأقرب العاملين معهم، والذين يؤدون واجباتهم بصورة جيدة. وأحسب أن الذين يحركون هذه الكراكيز الآدمية، يختفون وراء ستار بعيد، يسدل عليهم وهم في مدينة الرباط، ليكسروا مجدافك الوحيد الذي تبحر به في نهر النيل العظيم.

¹- رحيق العمر 124.

أما حجة السيد السفير في هذا الأمر، والتي أدلى بها أمام عدد من أعضاء السفارة، فإنها تعبر عن تفاهة عدد من الذين توضع المسؤوليات الجسام بين أيديهم، ويقفون في وجه الحق الظاهر، لإرضاء أمر الباطل المختفي.

ثالثة الأثافي:

وهي الأثفية الثالثة التي تنصب تحت القدر، ليستقيم وضعها على النار، ولذلك تعتبر مركزية في عملية الطهو، وبدونها لا وجود لا لأكل ولا لآكل. وقد كانت المكيدة الثالثة التي دبرها المتآمرون ضدك، أخي عباس، هي هذه الحجرة الثالثة التي يتم وضع المكيدة عليها، لتحظر على نار هادئة، وتكون أكلة حقد ناجحة ووجبة لؤم وانتقام محبوكة.

وأقرأ معك هذا المقطع، الذي يحكي عن هذه القنبلة التي هيئت باستعجال لتنفجر في معسكرك، ولكن قدرة الله ردت كيد الكائدين، وضاعت حيلتهم التي حبكوها بمباركة وتدبير من الشيطان.

"ومن غريب ما صادف تعييني في المدرسة المولوية أنه ما أن سمع به أحد المغرضين حتى حمل إلى جلالة الحسن الثاني طيب الله ثراه كتابين كانا قد صدرا هما:

- الثقافة في معركة التغيير.

- الحرية والأدب

وقال لجلالته مستغرباً: كيف تعلم الجارري لتعليم أصحاب السمو الأمراء والأميرات وهو شيوعي وهذه كتاباته تؤكد ذلك " فكان رد جلالته: "إذا كانت أفكار الفقيه الجارري هي الشيوعية فأنا أريد أن يكون كل المغاربة شيوعيين مثله"¹.

وقد كانت هذه التهمة التي رميت بها زورا، وألصقت بك عدوانا مبينا، سببا في تدمير عدد كبير من القادة، في الميادين العلمية والسياسية والفكرية، وعلق عدد كبير

¹- رحيق العمر ص 133.

منهم في حبال المشانق، ظلما وترهيبا، لرميهم بتهمة باطلة هي أنهم شيوعيون، وحكم على زمرة من خيرة المفكرين بأحكام قاسية، وكانت التهمة الجاهزة، هي أنهم يدافعون عن الفكر الماركسي، أو أنهم ملحدون يحاربون العقائد، ويتنكرون لما أراده الخالق لخلقه، وأمضى كثير من خيرة عملاء الدول، في العالم بأسره السنوات الطوال، في المعتقلات الرهيبة، والسجون التي لا تحترم فيها آدمية الإنسان.

واعتقد أن هذا الاتهام المنكر الذي رماك به هذا الفاسد المضلل، وحمل معها ما يظن جازما أنه وسيلة إثبات، لا يمكن أن ترد مزاعمه، وترفض ادعاءه، لو وقعت في يد غير الملك الحسن الثاني، لكانت نتيجتها سيئة، ولذهبت بك إلى اتجاه آخر، يفقد فيه العلم، أحد رواده الذين أضافوا إلى ما وجدوه ناقصا بعزيمة صادقة، ورمموا ما كان في حاجة إلى إصلاح وتقويم، في الثقافة المغربية، وتاريخ العلم والفكر في المغرب وما أنجز في هذا المجال خير حكم، وأروع منصف، وليشرب الحاقدون من البحر، لعل ملوحته تذهب بعض صدئ قلوبهم المعفنة بالكراهية، ويغسلها من دنس الغيرة الفاسدة، والشر القاتل الذي يغمسون فيه أفئدتهم، المشحونة بالغل الأسود، لكل الناجحين بإرادتهم الصلبة، والمعتمدين على قدرة الله العلي، في توجيه مراكبهم إلى شاطئ الأمان، على الرغم من الرياح الهوجاء التي ينفثها الحاسدون والفاشلون، لتتخطم قلاعها قبل أن تعانق السلامة في مرافئ الأمان.

ويمكر الله:

"قال ابن الأثير: مكر الله إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه"¹.

وقد مكر الله لك أخي، ولم يمكر بك، كما في حديث الدعاء، فأنجأك من شر رئيس الجامعة وعميد الكلية، على الرغم من محاولات الرئيس المدمرة والمتعددة، ليسد كل المنافذ أمامك في المغرب، وامتدت يده الطويلة عبر الحدود، ساعيا إلى نسف مجهوداتك في مصر ليصيبك اليأس، وتترك ميدان البحث، أو تغيير كما أراد هو موضوع أطروحتك، وتترك أرضه التي هي في ملكيته الشرعية دون سواه.

¹- اللسان / مكر.

والحقيقة أن انتصارك عليه وعلى من ساعده، وحاول تكسير مجدافك، وأنت في وسط النهر الصاخب، أراده الله نصرا مبينا لجزء من التراث المغربي، لإغنائه بمجهوداتك والإضافة إلى ما سبقك به الباحثون قبلك.

أنصفك الله تعالى من حقد الحاقدين في المغرب، لأنك كنت مصرا على اختيار لا يملك أحد مهما تكن سطوته، وقدرته التي كان ينبغي أن يسخرها في خدمة العلم، وتمهيد الطريق أمام المجتهدين من الباحثين، وتعبيد الطريق أمامهم، بدل مساومتهم وإغلاق المنافذ كلها، واعتبار إصرارهم على اختيار موضوعاتهم، والتركيز على مجال دون آخر، هو ضرب من العناد، ومطاوله أصحاب الأمر والنهي فيه. وقد امتدت سمومهم إلى أنياب خلفائهم وزبائنتهم في مصر، فمكنك الله من النصر عليهم، بفضل مؤازرة عدد من خيرة العلماء في أرض مصر، رحمهم الله جميعا، وأفاض عليهم الرضا والرضوان.

وعدت إلى موقعك في الجامعة المغربية، بين آداب فاس والرباط، وقد نلت كامل حقوقك التي حارب المعتدون لحرمانك منها، بإظهار وجه من وجوه الحق، وإخفاء وجوه للباطن.

وبدأ كفاحك لإعطاء الفرصة للآداب المغربي، وصارعت ليتبوأ شعر الملحون مكانته في البحث الجامعي، وقد ظهرت نتائج ذلك ثمارا يانعة، في العدد الكبير من الرسائل الجامعية، والأطروحات، التي اهتمت بهذه التركيبة الأدبية المغربية الرفيعة.

ونال شيوخ الملحون منزلتهم التي يستحقونها، بعد أن دخلت أعمالهم إلى أكاديمية المملكة المغربية، من بابها الرئيسي، وظهرت أشعارهم بمقدماتك الوافية، في حلل زاهية، وتيسر الاطلاع عليها، في ظروف مريحة، وفي أحسن صورة وأجمل إخراج، فهل أنجز الذين حاربوك بعض ما تيسر لك بتوفيق من الله تعالى، وجميل تيسيره؟!!

وجنبك الله الواقعة المدمرة، التي أراد الوشاة بها القضاء عليك، باتهامك بالشيوعية، ولولا الرد الحصيف للملك الحسن الثاني، لعدمت وضعك العلمي

الجيد، ومكانتك الرفيعة من أولي الأمر والنهي. وإن استمرارك في إشعال قنديل العلم في كل جمعة بحي الرياض بالرباط، سيرا على خطى والدك المرحوم، واقتداء بفعله الحميد، ومراعاة لاختياره الحكيم، وهو فعل يحتاج إلى همة عالية، وإصرار كبير على السير في الخط المستقيم، الذي يقود إلى خدمة العلم، وجمع العقول حول مائدة العطاء الفكري بكل مشاركته، وهو فعل حميد يستدر الرحمة على منشئ النادي، وعلى كل العقول التي ساهمت في إشعال شمعة في موكب شموعه، وسقت وردة في باقات وروده الياض.

وأعتقد أخيرا أن هذا الكم الذي أوردته في مذكراتك من المناصب العالية التي عرضت عليك، واعتذرت عن كثير منها، وفضلت جهاد القلم المغموس في طاقات الروح، هو أيضا واجهة نصر أخرى، تنسيك ما لاقيت في مسيرتك العلمية والعملية، من محاولات منحطة، وعانيت من مؤامرات دنيئة، كان الصبر الجميل، والإيمان بالله، والثقة بالنفس، هو زاد الطريق الطويل، المليء من بالأشواق، بعضها فعل طبيعي، مما تنبت الأرض، مع بقولها وخضرها وزروعها، ويحتاج إلى تنقية واعية، وتنظيف لمواقع الأقدام؛ وبعضه من فعل الإنسان، وهو الغام قاتلة، تقبع تحت التراب، وتنتظر الخطوة الغافلة، لتدمر صاحبها ومن معه، وتلقي بهم جميعا في فوهة الجحيم المستمر.

وأعود في النهاية إلى إشارة سبقت، في هذا اللقاء الجميل معك، والذي لم يتحدث فيه القلم، ولكن القلب هو الذي استبد بالخطاب من أول كلمة، ولذلك تدفقت المشاعر بليونتها وصعوبتها، في لحظة واحدة، ولم يكبح جماحها لجام قاهر، أو إشارة عبور مانعة.

لقد اخترت أيها الصديق الليونة القصوى، في التعامل مع اللذين كرهوك، وحفروا في طريقك الحفر العميقة الغائرة، وسرت بذلك في طريق أنبياء الله المرسلين، الذين تحلوا بالسماحة، وغفروا لمن ظلموهم، وعفوا عن قهرهم، بل إن بعضهم لم يعاتب من رام قتله من إخوته، والواجب أن يكونوا أقرب الناس إليه، وأحنهم عليه، كما فعل عليه يوسف عليه السلام، والذي عفا عن إخوته لأنهم

اعتذروا بجملة واحدة: "قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ"¹. فأجابهم على التو: " قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۚ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ"².

ونبي الله عيسى بن مريم، بعد كل ما لقي من قومه يعفو ويصفح، ويكل الأمر لله تعالى:

"إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدَاكَ ۚ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"³.

ولو قدر لي ذات يوم أن أكتب مذكراتي، لما تهاونت مع الذين ظلموني، وإن كانوا أقرب الناس إلي، وربما من يجاورونني في كناش الحالة المدنية، وأترك رحمتهم أو عذابهم لصاحب الحق الأعظم، ولذكرتهم بأسمائهم وأفعالهم، خاتما قولي بدعاء نبي الله نوح عليه السلام، الذي لقي من قومه الشر المستطير، واختاروا الضلالة وعبادة الأصنام، ولم يسمعوا لرشده الذي استمر عقودا طويلة، ولم يؤمن منهم إلا القليل، فدعا ربه دعوة حق، سمعها رب الحق: "وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِرًا كَفَّارًا (27) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا"⁴.

ولعلنا أنت وأنا عندما يفيض بنا الكيل، ويضيق صدرنا عن تحمل أذى الخلق، نجأ إلى الله بالشكوى، لينصفنا من الذين ظلمونا، وبالغوا في قهرنا، وداسوا بنعالهم على رقابنا، إننا عندما نبوح بحقنا في إزالة الأقنعة عن وجوه الظالمين، وتعرية زيف المنافقين، إنما نعتصم بالله تعالى، في ممارسة هذا الحق المشروع، عندما نستظل بقوله الحكيم: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم"⁵.

¹- سورة يوسف الآية 91.

²- سورة يوسف الآية 92.

³- المائدة الآية 118.

⁴- سورة نوح الآيات 26 - 28.

⁵- سورة النساء الآية 148.

ختم الكلام:

لقد اخترت أن ألقاك، أخي عباس في زاوية مؤلمة من حياتك، وكان باستطاعتي أن أجلس إليك في أحضان فيء ظليل، وأن أختار من مذكراتك، ما يبعث على البسمة تتألق على الشفاه، ويدعو إلى الفرحة تهز القلب الكئيب، ولكنني اخترت الاختيار الصعب، سرت إليك على حد السنان الحاد، أخطوا على الشفرة القاطعة المسنونة، لأنني أومن أننا عندما نمضي بشجاعة وثبات إلى جراحنا، ونكشف عنها بألم قادر، نتعرف على دواتنا ونقترب منها، ونندمج معها؛ وإذ داك نعرف من نحن، ونعلم من هو الآخر، الذي مررنا إلى عذابه، من بوابة مؤسساتنا. ولأنني أعتقد أن الألم الصادق، هو وسيلة وحدة وتجمع دولية، يلتقي في ساحتها المعذبون في الأرض، وهو بذلك يشبه اللغة والدين والوطن، لأنه بصمة إنسانية متفردة، لغتها الكلوم النازفة، والمعانات البشرية، بكل ألوانها وصنوفها.

وبعون من الله حل وعلا، تغلبت بإرادة صلبة، وعزيمة ثابتة، على أكبر اللساعين في حياتك: المرض، والموت، والإنسان؛ وهي المحاطات التي وقفت عندها ببعض التفصيل، ووجدت ألم مشاركتي، يعانق ألم معاناتك، وتسربلت بأساي، وأنا أتأمل بقلبي سيلان أحزانك، ولملممت أجزاء جسمي، وقفزت من قطار التباريح، قبل أن يغادر محطة الفرح والانتصار، والتي يبرحها سريعا، ووجدتك في انتظاري ببهاء صامد، وبهجة فارهة الشنايا، ونصر غامر بهي القسمات.

* * *

د. نورة لغزاري

- أستاذة جامعية، كلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن طفيل، القنيطرة.
- عضو اللجنة العلمية بكلية اللغات والآداب والفنون.
- عضو لجن فحص ملفات التأهيل الجامعي.
- عضو مجموعة البحث في الأشكال الأدبية (أرخبيل)، كلية اللغات والآداب والفنون.
- عضو مختبر المسرح والمدينة ومختبر المسرح وفنون العرض، كلية اللغات والآداب والفنون، القنيطرة.
- عضو مختبر الديداكتيك واللغات والوسائط والدراماتورجيا، كلية اللغات والآداب والفنون، القنيطرة.
- أشرفت وتشرف على رسائل وأطاريح لنيل شهادة الماستر وشهادة الدكتوراه.
- شاركت في العديد من الندوات العلمية واللقاءات الثقافية، وطنياً ودولياً، منها:

1- الندوات الوطنية:

- ندوة الدرس المقارن بالجامعة المغربية: الحصيلة والآفاق، كلية الآداب، المحمدية.
- ندوة التراث الشعبي وتلاقح الثقافات، كلية اللغات والآداب والفنون، القنيطرة.
- ندوة حول منهجية إعداد الرسائل والأطاريح الجامعية، كلية اللغات والآداب والفنون، القنيطرة.

2- الندوات الدولية:

- نظريات المسرح العربي: ماذا تبقى منها؟
- تنظيم مختبر المسرح والمدينة، جامعة ابن طفيل، القنيطرة.
- المصطلح في العلوم الانسانية والدقيقة. تنظيم مختبر إعداد اللغة العربي، جامعة ابن طفيل، القنيطرة.
- المنشورات: الكتب:

1- الخطاب المسرحي، مفاهيمه وآليات اشتغاله: عماد الدين خليل نموذجاً،

دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط، 1، 2018.

2- طه حسين والتشاقف العربي الأوروبي، دار القصبة للنشر، ألكادير، ط، 1،
2019.

ومن الدراسات المنشورة في كتب جماعية:

1- المسرح، التسامح والاختلاف. ضمن كتاب « المسرح والتسامح »، إعداد
عصام أبو القاسم، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة،
2015.

2- مسالك الكتابة وآفاق التلقي في الخطاب المسرحي - ضمن كتاب «
مسالك الكتابة وآفاق التلقي في اللغة والأدب والحضارة »، عالم الكتب الحديث
للنشر والتوزيع، 2016.

3- الثقافة الشعبية والإشكال المنهجي - ضمن كتاب « الثقافة الشعبية
المغربية في النصوص والدراسات الوطنية والأجنبية »، دار أبي رقراق للطباعة
والنشر، 2016.

4- محمد حميدة: المقارن الصورلوجي.... بامتياز ! ضمن كتاب « الأدب
المغربي الحديث والمعاصر: التاريخ والخطاب ». أبحاث وشهادات مهداة إلى
الأستاذ الدكتور محمد حميدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة
ابن طفيل، القنيطرة، 2014.

- رحلة العبور من الأدب نحو الفن والمسرح نموذجاً. ضمن كتاب « التفاعل
بين الأدب والفنون الأخرى »، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع.

* * *

الحكي عن الذات بين التوثيق والسرد الانتقائي في "رحيق العمر"

د. نورة لغزاري

"لكنه لا يعرف كيف حفظ القرآن ولا يذكر كيف بدأه ولا كيف أعاده، وإن كان يذكر من حياته في الكتاب مواقف كثيرة، منها ما يضحكه الآن ومنها ما يحزنه: يذكر أوقاتا كان يذهب فيها إلى الكتاب محمولا على كتف أحد إخوته، لأن الكتاب كان بعيدا، ولأنه كان أضعف من أن يقطع ماشيا تلك المسافة، ثم لا يذكر متى بدأ يسعى إلى الكتاب، ويرى نفسه في ضحى يوم جالسا على الأرض بين يدي 'سيدنا' ومن حوله طائفة من النعال كان يعبث ببعضها، وهو يذكر ما كان قد ألصق بها من الرقع" (1)

"لقد علمتني الحياة أن أكون حيا، وعلمتني التاريخ أن أكون إنسانا، وعلمتني الطبيعة أن أكون عاشقا، وعلمتني الحرية أن أكون متمردا، وعلمتني المسافات أن أكون مسافرا، وعلمتني الحروف أن أكون قارئاً، وعلمتني الطيور أن أكون محلقة، وعلمتني المشاهد أن أكون شاهدا وشهيدا، وعلمتني الأيام أن أكون معيدا، وعلمتني الأعراس أن أكون عريسا" (2).

جدوى التصدير:

عودنا البحث الأكاديمي والعلمي على إيراد مبرر، والبحث عن مسوغ لكلماتنا، لاختياراتنا، لتصديراتنا، كي لا تصبح الكتابة عبثا يصرف المتلقي عن قراءاتها، لأنها لا تحتكم إلى قواعد صياغة محكمة تحفظ المعنى من الابتذال والغموض، وتجعل القارئ يغوص في عمق القول بانسيابية تحبب إليه النص، وتساعد على فتح أبواب قرائية لا حصر لها، يصبح معها مبدعا ثانيا للنص الذي تلقاه.

في البداية -لكل شيء بداية- عندما أسند إلي الدكتور محمد احميدة مهمة قراءة كتاب "رحيق العمر" (3) للدكتور عباس الجراري، شعرت بفخر وشكرت الأستاذ على هذا التشريف الذي وضعني أمام تكليف ينبغي أن أراعي شروطه وقواعده ومتطلباته، ولم أعرف كيف فكرت تلقائيا في "الأيام" لطفه حسين، و"الحكواتي الأخير" لعبد الكريم برشيد.

أخرجت الكتابين ووضعتهما إلى جانب "رحيق العمر" وبدأت أتساءل عن سبب إلحاح المؤلفين في حضور طقس / طقوس قراءة "الرحيق"، لقد تصدرت قائمة مرجعياتي التي تحكم المقياس العلمي في اختيارها، بينما قاد الانطباع الفوري استحضارهما.

بعد زمن من التأمل، توصلت إلى أن الحضور الفوري للأيام لا يعني بالضرورة تطابقا بينها وبين "الرحيق"، لكنها تضع صاحبي السيرتين في مصاف الذين أثاروا الجدل العلمي والأدبي والفني والسياسي، وكانت بصمتهما حاضرة في تاريخ الفكر والأدب العربيين، في حين جاء "الحكواتي" بسيرة "الرحيق"، التي تكشف عن خبايا طالما اشرب تفكير المهتمين لمعرفتها، وقرر المؤلف / الحكواتي أنه جاء الوقت للإعلان عنها من أجل ملء "الفراغات" و"الثغرات" التي جاءت في كتابات الدارسين عن شخصية عباس الجراري.

مقدمة منهجية:

بعد محاولة مقاربتنا للتصديرين اللذين وضعناهما لهذه الدراسة، والمأخوذتين من "الأيام" لطفه حسين و"الحكواتي الأخير" لعبد الكريم برشيد، نرى ضرورة وضع خطة لقراءة "رحيق العمر"، فالسيرة تنفتح على قراءات لا حصر لها، ويمكن أن يتناولها متدخلون من جوانب تلقي الكثير من الضوء على محطات من حياة الدكتور عباس الجراري، لم تستطع الدراسات التي تناولته الوصول إليها.

قررنا أن نبدأ بالطرح الإشكالي للسيرة الذاتية فيما يخص انتماءها الأجناسي، لأن السيرة جنس سردي متفرد، أثارت جدلا كبيرا فيما يخص تحديد مواصفاتها الفنية والبنائية، ومن أجل تعريفها لا بد من مقارنتها بأشكال أدبية

أخرى تتقاطع معها، لكنها تختلف عنها في هيكلتها ومنطق تسجيل معلوماتها، ومستوى حضور التخيل فيها، ومدى صحة المعلومات الواردة بين ثناياها، وفي بنيتها السردية وبنائها التعبيري والوصفي والتاريخي والتوثيقي.

السيرة الذاتية اعتراف بما يجهله الآخر عن الذات مهما اجتهد في النقاط صورة لها، لأن هذه الصورة إذا أطرتها دوافع معينة تصبح سرابا واستيهاما قد يبتعد كثيرا عن الذات الموصوفة، حتى وإن غابت الدوافع المغرضة، فالذات لا تفصح عن نفسها بسهولة لذلك يلتقط المهتم معلوماته من مؤلفاتها ولقاءاتها، ومن التقائه بها شخصا إن أتيح له ذلك، وأحيانا مما يقوله الناس عنها...

وقد يلعب التخيل دوره في رسم ملامح الشخصية موضوع القول، وحينما يدخل التخيل مجال الكتابة والتأليف تصعب المحاسبة وإن وجدت، ولنا في الواقع أمثلة كثيرة نذكر منها السينما مثلا، فقد اهتم المخرجون بشخصيات فنية وأدبية وسياسية ودينية... نقلوها إلى شاشتهم بعد أن قاموا بتمريرها عبر قناة التخيل التي تغير ملامحها، فأثار ذلك زوابع من الانتقادات يمكن أن تكون موضوعا للبحث الصورولوجي الذي يحلل ويصح ويؤول، لكن الأمر يطول فيه الجدل والخصام، وأحيانا يرفع إلى القضاء ليبت فيه.

فهل تتجنب السيرة الذاتية كل هذه التعقيدات؟ هل يرغب صاحبها في ملء فراغات واردة لدى من كتبوا عنه أو تصحيح معلومات تخصه، أم أنها لذة الحكي تنصدر الرغبة في الكتابة والتأليف.

قبل الخوض في بعض هذه القضايا، وقبل قراءة "الرحيق" سندرج في مقاربتنا قراءة لا غنى عنها لعنوانين أساسيين:

- عنوان المداخلة.

- عنوان المؤلف.

لن ندعي قراءة مفصلة وتفصيلية لكتاب "رحيق العمر" في جزئه الأول، فهو أكبر من أن تضمه صفحات مقال، لأنه يفتح باب التخمين في أكثر من سؤال، ويقدم معلومات دقيقة عن سيرة مؤلفه، ومن خلالها نتعرف على المغرب سياسيا

وثقافيا وفكريا وتربويا، لأجل هذا نرى أن المؤلف ينفتح على قراءات عديدة تعطي كل قراءة منها الكتاب طابعا خاصا ورؤية جديدة ومتجددة ترتبط باهتمامات القارئ السياسية والفكرية والتربوية.

1. السيرة الذاتية والإشكال الأجناسي:

إن أول ما نلاحظه في "رحيق العمر" وعي مؤلفه بإشكالية تحديد انتماء السيرة الذاتية أجناسيا في ظل كتابات مشابهة، يقول: " لا يخفى أن التعريف الشخصي أصبح اليوم مطلبا من كل فرد، بدءا مما تتضمنه بطاقته الوطنية إلى ما يضطر لإضافته إليها من معلومات..

وبقدر ما تكون الحياة ممتدة في الزمن والعطاء، تكبر الحاجة إلى توسيع هذا التعريف، على نحو ما يلاحظ عند بعض المؤلفين حين يترجم لهم أو حين يكتبون -هم- ترجمة قصيرة لأنفسهم يختمون بها مؤلفاتهم، أو يسطرونها على ظهر أغلفتها... وليس هذا بغريب ولا طارئ على ثقافتنا التي بدأت تظهر فيها أنماط من مثل هذه الكتابات كالمذكرات واليوميات، فقد كان معروفا في تراثنا العربي الإسلامي أن غير قليل من العلماء -مشارقة وأندلسيين ومغاربة- كانوا يترجمون لأنفسهم في مؤلفاتهم. فالسيوطي فعل ذلك في كتابه 'حسن المحاضرة' ومثله ياقوت الحموي في "معجم الأدباء"، ولسان الدين بن الخطيب في "تاريخ غرناطة"...

وعلى الرغم من وجود مثل هذه الترجمات، فإن الذين يعنون بها ويتابعونها، غالبا ما يلاحظون فيها بعض الغموض والشغرات، مما يكون قد أغفله أصحابها، أو تعمدوا عدم ذكره لسبب من الأسباب، قاصدين إخفاءها أو تأجيلها إلى وقت لاحق يرونه أنسب لإثارتها. وإن لم يفعلوا، تبقى بعض تلك الجوانب قابلة للتخمين والتأويل، إن لم تتعرض للتحريف والتزييف، وربما للسطو الذي بدأت تظهر آثاره حتى على ما هو منشور ومعروف. وإذا شعر أحد المؤلفين أن مثل ذلك التعريف القصير- في أي شكل من أشكاله - لم يعد كافيا في نظره أو في نظر قرائه، فإنه يلجأ إلى كتابة ما يطلق عليه 'سيرة ذاتية' (Autobiographie) يضمنها

تفاصيل مراحل حياته وما عاش فيها من تجارب خاصة، مما صادف من وقائع وأحداث عامة، وما خلف كل ذلك في ذهنه ونفسه وفكره من ذكريات"(4).

اخترت هذا النص الطويل لأنه دال ينبئ عن كون المؤلف يدرك صعوبة تحديد جنس كتابته، إنها تذكر - دون أن تكون كذلك - بالتعريف الشخصي، وبمسيرة الحياة، لكنها تختلف عنهما في كونها تهتم بحياة "ممتدة في الزمن والعطاء"، قد يكتب عنها الآخرون، لكن كتابة الآخرين عن الذات لا تكون دائما أمينة، إما عن قصد أو عن حسن نية، مما يلحق الضرر بالترجمة، ومما يدفع الذات إلى الكتابة عن نفسها لأنها أدرى من غيرها بتفاصيل حياتها، وهي الأكثر قدرة على معرفة ملابسات هذه الحياة، وتعقيداتها ومساراتها ونجاحاتها وإخفاقاتها وصعوباتها وأفراحها وأحزانها...

1.1 السيرة الذاتية وتحديات السهل الممتنع:

ليس بإمكان أي أحد يعرف الكتابة والقراءة أن يكتب سيرته الذاتية، لأنها أصعب وأسهل ما يمكن أن يكتبه فرد عن نفسه، وتلك إحدى المفارقات العجيبة التي ينطوي عليها هذا الشكل من الكتابة:

«إن أعجز العجز كتابة المرء نفسه" الأصفهاني "الأغاني".

"ثمة رغبة كامنة في كل قلب لكتابة سجل لما قد حدث بالفعل بشكل نهائي" جوزيف كونراد.

"أضع اسمي على رأس هذا العمل، حتى أرغم نفسي على اجتناب تقليص أو تضخيم الحقيقة". الكاردينال دي ريتز

"كتابات الذات هي تمارين الذات في شكل كتابة" جورج كوسدروف
"لكتابتك سيرتك الذاتية، يجب أن يكون لك الحق في ذلك" ميرنا فيلسيك-

كافينيز

"يمكننا أن نعزو وصعوبة تحديد ماهية جنس السيرة الذاتية إلى سببين: الأول يتعلق بطبيعة هذا الجنس الزئبقية، والثاني يتعلق بتنوع المقاربات التي طبّقها عليه الدارسون والنقاد". صالح معيض الغامدي. «(5).

وليس من السهل أيضا تصنيف السيرة الذاتية وتحديد جنسها وخصائصها، لأنها تتقاطع مع أنواع "أدبية أخرى" جعلها بعض النقاد ملحقا "للأنواع الأدبية الكبرى":

"وترجمة الحياة هي الكتابة عن أحد الأشخاص البارزين لجلاء شخصيته، والكشف عن عناصر العظمة فيها" (6).

لا تقتصر البيوغرافيا على رصد محطات العظمة لدى الشخصية التي تشكل موضوعا لها، ولكنها تطال حتى المحطات السوداء في حياتها إن وجدت.

"ولكي نفهم عملية التحليل التي تتم في ترجمة الحياة ينبغي أن تفهم عملية التحليل التي تتم في ترجمة الحياة، ينبغي أن نفهم معنى الشخصية، وكتب علم النفس تمدنا بكثير من المعرفة الخاصة بالشخصية...

وترجمة الحياة عملية فنية تجمع بين عمل المؤرخ من جهة ارتباطها بسيرة إنسان عاش في بيئة بعينها وزمن بعينه، وبين عمل المصور الفنان الذي يتخصص في رسم الصور النصفية للأشخاص" (7).

الكتابة عن الآخرين موضوع يتضمن الكثير من الإثارة لأنها في كثير من الأحيان لا تكون نهائية "فإذا كانت الشخصية قد سبق أن ترجم لها آخرون في أزمان مختلفة فهناك المبررات التي تجعل من حق الكاتب الترجمة لها من جديد فكثيرا ما يكون ظهور الوثائق والشواهد والأدلة الجديدة مغيرا لما انتهت إليه التراجم السابقة كليا أو جزئيا، وهذا مبرر لإعادة الترجمة، وحتى عندما لا تظهر الوثائق الجديدة فإن المبرر يظل دائما في أن الشخصية الواحدة قد تعني بالنسبة لعصر خلاف ما تعنيه بالنسبة للآخر" (8).

يجب على كاتب الترجمة أن يتوفر على عدة معرفية تتجلى في الكتب التي ألقت في الموضوع نفسه، وعلى وثائق رسمية كالسجلات، وذكريات المعاصرين...

بعد جمع المادة التي تشكل عدة الباحث، ينبغي تصنيفها بعد التحقق من صدقها ومصداقيتها، ومحاولة تبرير التناقضات الموجودة بين مكوناتها بدل بترها رغبة من الكاتب في خلق صورة منسجمة عن الشخصية التي يكتب عنها، وقد

يبالغ في رصد التناقضات من أجل إلحاق التشويش على الصورة المقدمة للشخص الذي تسجل سيرته على لسان آخر هو الكاتب، لكن الجدل يقود إلى الخلاصة التالية: "يمكن أن يقال إن أصدق حياة يمكن أن يكتبها الإنسان هي ترجمته لحياته الخاصة، فهو أعرف الناس بها"(9).

وهي النتيجة التي خلص إليها الدكتور عباس الجراري: "وعلى الرغم من وجود مثل هذه الترجمات، فإن الذين يعنون بها ويتابعونها، غالباً ما يلاحظون فيها بعض الغموض أو الثغرات.. وذلك ما جعل بعض الأصدقاء الدارسين -على كثرة ما كتبوا عني مشكورين - يلحون علي- لحسن الظن بي- أن أكتب ترجمة شخصية تكون موسعة بعض الشيء، ومستوفية كذلك بموضوعية وإنصاف لتلك الفراغات والثغرات، وإن بإيجاز"(10).

فالسيرة الذاتية هي: "الحكاية الاستدبارية النثرية التي يقص فيها أحدهم وجوده الخاص، عندما تنصب عنايته على حياته الفردية خاصة، ولا سيما على تاريخ شخصيته"(11).

تتأسس السيرة الذاتية جمالياً من منظور إيف ستالوني على هيمنة الصيغة النثرية مع إمكانية ورود النظم. تروي السيرة الذاتية محطات حياة تفرض وجود ميثاق يلتزم بموجبه المؤلف في مناصات السيرة، بحكاية حياته بصدق، وهو ميثاق يتوحد فيه المؤلف والراوي والشخصية، وتتوزع فيه العلاقة بين شعور بالطمأنينة لما تحمله السيرة، وبين الغضب والثورة على بعض تفاصيلها أحياناً، وهو أمر يثير حيرة المهتمين بهذا النوع من الكتابة الذي يفرض في كاتبه الصدق، ولكن بأي مدلول؟ هل الصدق نفس للتخييل والمتخيل؟ إذا كان الأمر كذلك لم وصفت الكثير من الأعمال الإبداعية المغرقة في التخييل بأنها كانت صادقة؟ هل معنى الصدق انسجام القول؟

متى كانت حياة الإنسان مسارا من العلاقات المنطقية التي لا يتسرب إليها التناقض من أمامها ولا من خلفها؟

هل الصدق التزام بقول كل الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة؟ متى كان الأدب إذن، محكمة تحاسب الأديب على صفحات أمتع بها الآلاف، إن لم نقل الملايين؟ إنها تساؤلات تعيد الاعتبار للأديب عامة، ولكاتب السيرة الذاتية على وجه الخصوص، لذلك يتساءل إيف ستالوني قائلا: "هل ينبغي لصاحب السيرة الذاتية أن يقول كل شيء، وهل يريد ذلك، وهل يستطيع ذلك؟ أليست المطالبة بالصراحة خدعة؟ أليست الحقيقة التي يزعم نقلها وهما وغشا؟" (12).

يصعب الحسم في طبيعة السيرة التي تتوزع بين الشعري وبين التوثيقي، فأسلوبها السردى وشاعريتها، وأحيانا كثيرة اشتغال المتخيل فيها، يجعلها قريبة من الحقل الأدبي بينما يقربها أسلوبها التقريرى، وتحديداتها الزمنية، وحديثها عن وقائع موجودة بالحجة والدليل، إضافة إلى أن شخصياتها تتربع على عرش الواقع، من الوثيقة لأنها تؤرخ وتخبر وتقدم الوثائق الدالة، وتتناول أحداثا ومناسبات تتجاوز أحيانا محيط المقربين كي تصبح أحداثا معروفة.

تتقاطع السيرة الذاتية مع أشكال أدبية أخرى، إضافة إلى ما ذكر، ويتعلق الأمر باليوميات التي يسجل صاحبها وقائع حياته يوميا، دون أن توجد مسافة زمنية بين المعيش وبين المحكى، عكس السيرة الذاتية.

تكتسي اليوميات في كثير من الأحيان طابعا شاعريا حالما، بخلاف السيرة التي تحرص على الموضوعية قدر الإمكان. فاليوميات لا تضبطها أسس جمالية معينة واردة في كتب نظرية / نظريات الأدب، فهي "رياضة روحية" و"رياضة عقلية" و"بوح حميمي" لا يمكن تحديد وجهته التي سينجز فيها فعل القراءة، لأنه نادرا ما تنفلت اليوميات من أسر كاتبها إلى القراء. فهو يعتبرها شيئا يخصه وحده، وإن سجل التاريخ تسرب هذه اليوميات، وهو تسرب تلزمه دراسات متخصصة ومستفيضة، لأن هذه اليوميات أحيانا تكون قنابل خامدة طالما هي في حوزة صاحبها: "اليوميات الحميمية جنس عنقاء (قد تكون اليوميات فلسفية أو يوميات محادثة، أو يوميات عمل برمته، أو مرض...) وجنس ملتبس (نوع مختلط

لا يدري أن يقع محله في التصنيفات الأدبية) إنها (وعاء أنماط الكتابة كافة، بلا حدود أو يكاد)"(13).

بالإضافة إلى اليوميات توجد المذكرات، ويمكن أن تتقاطع هي الأخرى مع السيرة الذاتية، وهي تحكي الحوادث التي عاشتها الذات، يغلب عليها الطابع التأريخي، وتميل كثيرا إلى التوثيق، وترتبط بالمذكرات الذكريات التي يلجأ كاتبها إلى انتقاء ما يود كتابته منها، وتحضر في هذا الباب أيضا المراسلة. "يبدو أن المراسلة أبعد من المذكرات الحميمية انتسابا إلى الأدب وقصارى ما يعترف لها به وضع ملتبس"(14).

يتجلى الالتباس في تجنيس المراسلة في كونها تطرح إشكالا أجناسيا، فهي تتوزع بين المراسلات العادية والمراسلات بين شخصيات معروفة، فيلقي هذا التراسل ضوءا جديدا على حياتها قد لا تتضمنه مؤلفاتها، وهذا النوع من المراسلات تتوفر فيه صفات الأدبية، لهذا يمكن القول: "تستحق الرسالة إذا باتت غرضا جماليا أن تخضع للتحليل النظري من قبيل علم الاجتماع أو الشرعيات:

- لمن تكتب الرسالة؟

- ما المتوقع من الرسالة؟

- هل ينبغي نشر نص المراسلة الأصلي؟

- هل الرسائل جزء من أعمال المؤلف؟

- ماذا عن الرسائل الجوابية؟

هل في تلك الأسئلة ما يكفي لإضفاء الشرعية الأدبية على الرسالة؟"(15).

لا يتسع المجال للبحث عن أصناف أخرى من الكتابة تشبه /تختلف عن السيرة الذاتية، أردنا فقط أن نقدم دليلا على أن المقارنة تصنع المعرفة، لأنه كلما ابتعدنا عن موضوع بحثنا من أجل التقصي كلما استطعنا أن نكون أكثر معرفة به لوجوب الإيمان العميق بأن نظريات الصفاء قد حاربتها الدراسات المعادية للفكر المركزي، فالإبداع البشري من سماته الكبرى التقاطع الموجود بين مكوناته، مع

الاستفادة من كل التجارب الفكرية والفلسفية والإبداعية، أو على الأصح من جزء لا يستهان به منها، من أجل الوصول إلى مرحلة التلقي المنتج.

2.1 محكي الذات والبعد الاسترجاعي للمرجعية الواقعية:

يشير جنس السيرة الذاتية نقاشا مستفيضا حول انتمائه الأجناسي ومواصفاته، وما يميزه عن أشكال كتابية أخرى يتقاطع معها، لكنه حتما يختلف عنها، لأنه يواجه إشكاليات تتعلق بطبيعة مرجعيته: "تواجه كاتب السيرة في عمله مشكلات تقديم معلومات بحسب التسلسل التاريخي، والاصطفاء، واعتماد التلميح أو التصريح، إن الجهود التي انصبت على علم السيرة كنوع من أنواع الأدب تعالج مثل هذه المشكلات" (16).

أهم ما نلاحظ في تعريف نظرية الأدب "للسيرة" أنها تقصد السيرة الغيرية وليس السيرة الذاتية التي اختارت بعض التعريفات - من أجل الخروج من مأزق التعريف والتمييز - تبني مصطلح "الأوتوبيوغرافيا":

■ "تتحدد (الأوتوبيوغرافيا) بالعقد الذي يربطها بالقارئ أكثر مما تعرف بعناصرها الشكلية.

■ من هنا كانت فكرة (الميثاق الأوتوبيوغرافي)، و(المشروع الأوتوبيوغرافي) عند (فيليب لوجون) مركزة على:

أ- تحليل أنساق الميثاق.

ب- تحليل أنماط سرد المتكلم.

ت- تحليل مظاهر النص الأوتوبيوغرافي

■ وتتحدد (الأوتوبيوغرافيا) بكونها سردا إحاليا، يركز فيه على تأريخه الشخصي، لهذا وجب التفريق بين هذا النوع، و(المذكرات / اليوميات / الرواية الشخصية / المفكرات...)

■ ولا يعارض (فيليب لوجون) وجود تطابق بين الراوي والبطل في الأوتوبيوغرافيا، حتى في حالة استعمال ضمير الغائب" (17).

تقوم السيرة الذاتية بالتأريخ للذات، وهي تتميز حتما عن الحكى عن النفس الذي يعتبر ظاهرة إنسانية قديمة جدا. ويمكن القول إنه حالة غريزية رافقت الإنسان منذ أقدم العصور، لكن السيرة الذاتية باعتبارها جنسا أدبيا له خصائصه الحالية تختلف عن الحكى العامي.

لذلك تصبح مسألة تعريف هذا الجنس أولوية لا غنى عنها من أجل تمييزها عن باقي الأشكال الكتابية التي تتقاطع معها، لكنها تختلف عنها، ولا يمكن التمييز إلا عن طريق بلورة طرح نظري منسجم ومتماسك يسطر حدودها الجمالية وشروطها البنيوية، والميثاق الذي يعقده صاحبها مع المتلقي، في إطار تعريف معياري يحدد مساحتها ويسطر قواعد وجودها، وهذا ما جعلها "نمطا لجنس أدبي يتعارض مع باقي الأجناس الأخرى ويمكن اعتبار هذا التعارض مع أجناس الأدب الأخرى عامل تميز وقوة وتغيير يدفع مباشرة إلى الحديث عما أسماه الشكلائي رومان ياكسون بـ "القيمة المهيمنة" للنوع، أي عبارة عن خصائص نصية في مقابل خصائص أو عناصر ثانوية، والحديث عن القيم المهيمنة داخل السيرة الذاتية يقودها مباشرة إلى تبين مجموعة من العناصر النصية، مثل مظهر الزمن الذي يتخذ في السيرة الذاتية طابعا استعداديا، وما يثيره هذا الطابع من قضايا تقف في مقدمتها الحساسية التي يعالج بها، أو يؤول بها السارد حياة مضت بحساسية ووعي ينتميان إلى الحاضر.

ومن القضايا الأخرى المهيمنة في السيرة الذاتية، نجد قضية التطابق، أي تلك الوحدة المطلقة بين المؤلف والسارد والشخصية الرئيسية، سواء في حالة السرد بضمير المتكلم أو بضمير الغائب، وما يتصل بذلك من قضايا علاقة الذات باللغة، وعلاقة مستوى الملفوظ الواقعي بالملفوظ التخيلي (18).

إن السيرة الذاتية تحكي عن حياة وتمارس مهمة التأويل لهذه الحياة، ورغم وجود التطابق بين السارد والمؤلف، لا يمكن الحسم في قضية واقعية المحكي التي تبقى نسبية لأن التخيل يتخلل كل مكونات الملفوظ الواقعي، لأنه لا يمكن بتر دعامة من دعامات الحكى الأساسية، وإلا انهار البناء، علما بأن نسبة التطابق بين

الواقع والحكي ينبغي أن تكون أعلى مما هو موجود في باقي الكتابات السردية. وتبرز أثناء تحليل السيرة الذاتية إشكالية الانتقاء أثناء الحكي: "يتساءل القارئ وهو يقرأ العديد من السير الذاتية التي اعتمدت أسلوب الانتقاء، أي الكتابة عن مراحل وترك أخرى، دون الإشارة إليها أو ذكرها، الكتابة عن حدث ونسيان آخر، فهناك من الكتاب من تحدث عن سنين طفولته دون الانتقال إلى الحديث عن مراحل العمر الأخرى. وهناك من تجنب الحديث عن الطفولة، قافزا مباشرة إلى سن المراهقة أو النضج، وهناك من ظن أن مجرد ذكر الوالدين واسمهما ومولدهما والبيت الذي فيه ينوب عن الحديث المطول عن الطفولة. وهناك من أحجم عن الحديث عن تلك المرحلة لأنه لا يتذكر أو لا يذكر شيئا عنها. بل إن هناك من يعتبر أن اضطرار كتاب السير الذاتية للابتداء بالغوص في ذكرياتهم المبكرة تقليد غير ضروري" (19).

إن الانتقاء قدر الإبداع بصفة عامة، وقدر الحكي عن الذات على وجه الخصوص. فسوفوكليس حينما ألف رائعته عن الملك أوديب لم يتناول حياته بكل تفاصيلها، وإنما انتقى من محطاتها - في إطار ما أسماه الفعل التام - ما يوجب النفس التراجيدي، بل إن المحاكاة في حد ذاتها باعتبارها مفهوما فلسفيا وفنيا ووجوديا، هي إعادة لخلق الواقع عبر انتقاء بعض من مكوناته وإعادة تركيبها. لذلك لا نستغرب لجوء كاتب السيرة إلى الانتقاء في الحكي عن ذاته، لأنه يعيد تأسيس وتأويل حياته بمنظور زمن القول الذي يكسب الكاتب بعدا معرفيا وفلسفيا يجعله ينظر إلى ما مضى من حياته بعين مختلفة عن لحظة عيش تلك الوقائع التي يحكي عنها، وهذا الانتقاء "ينشأ بشكل طبيعي، داخل الأدب عموما، وداخل السيرة الذاتية على الخصوص، وهي مسألة واردة أيضا في اليوميات الخاصة. والجانب الشعري في الانتقاء كامن في كون رسم صورة دقيقة عن ذاتنا ليست دائما ممكنة، بل هي فوق ذلك عديمة الجدوى. إن التحول إلى السرد يمر عبر عمل اللغة، أو عبر عملية إبداع على مستوى الشكل الذي يحول أو يعدد طرح إشكالية الهوية.

ولعل حصر الأحداث في مرحلة معينة من الوجود دليل على استحالة إعطاء بعد شمولي لسرد الذات. وسرد الأحداث، أو انتقاء أحداث بعينها، يؤثر على حجم السيرة الذاتية. فقد يكون للطول في السيرة الذاتية معنى، كما قد يكون للقصر معنى. فبدءاً من العنوان يكون الكاتب قد حدد استراتيجية كتابته، كما يكون قد حدد حجم سرده الذاتي "(20)".

أثار جنس السيرة الذاتية جدلاً واسعاً حول الكثير من القضايا التي تدخل في باب تمييزه عن باقي الأجناس الأدبية الأخرى، مثل إشكالية الضمير النحوي الذي تكتب به السيرة، فهو من مكوناتها المركزية التي تحسم أمر اختلافها وتمييزها عن باقي الأشكال الأدبية، بل هناك من النقاد من جعل هذا المكون البنائي شرطاً لوجود هذا الجنس الأدبي الذي تتحدد هويته باستعمال ضمير المتكلم، بل إنه أمر بديهي لأن استعمال ضمير الغائب قد يشكك في أمر انتماء المكتوب إلى السيرة الذاتية، وقد يخلق لبساً لدى القارئ في تحديد نوعية النص المقروء، لأن ضمير الغائب قد يضعف حضور الذاتية التي تعتبر هوية وكيانا للسيرة الذاتية، لكن هذه التقريرية لا تثبت أمام كل المهتمين والمنظرين لهذا الجنس الأدبي: "هذا طرح نظري يتطلب مراجعة شاملة وحذراً منهجياً، لأنه يولد العديد من الطروحات والمواقف من خلالها يصبح السرد بضمير المتكلم مرتبطاً بالسيرة الذاتية وباللاتخييل والسرد بضمير الغائب معبراً عن التخييل. فالنص يصبح وثيقة تاريخية بمجرد أن ينقل حياته المعيشية بواسطة ضمير المتكلم ومن ثم يرتبط هذا النص مباشرة بالشكل السيرذاتي "(21)".

لذلك يمكن القول إن الضمير النحوي لا يتحكم في أمر الحسم في الإشكال الأجناسي الذي تطرحه بعض الأجناس الأدبية، وذلك لوجود سير كتبت بضمير الغائب، دون إمكانية عزل السيرة الذاتية عن باقي الأجناس الأدبية التي تتقاطع معها، بل وتستفيد منها، مراعية حدودها التي لا تسمح لها كثيراً بالغوص في التخييلي والحرية في تركيب الوقائع والأفكار والأحداث، لكنها في نفس الآن تتمتع بقابلية التطور والانفتاح على كل المستجدات من أجل تنقيح عدتها الفكرية

والفنية ومسايرة منطق التغيير والتحول الذي يرفض أن يقبّع الأدب في حوض المياه الآسنة.

2- التوثيق والسرد الانتقائي في السيرة الذاتية "رحيق العمر":

إذا كانت الكتابة عن الذات من أصعب الأمور، فإن قراءتها على الرغم مما تحققه من لذة، لا تخلو هي الأخرى من معاناة، لأنه إذا كان الكاتب يجهد نفسه في تذكر حياته، عبر انتقاء / تذكر / نسيان / إسقاط / تأويل... محطات دون أخرى، فإن مهمة القارئ تَمَثِّلُ هذا المكتوب في حلته، ومن خلال أفكار ومعلومات لا حصر لها، لا يفصح عنها الكاتب، ولكن تتخفى بين السطور، وتستدعي مرجعية وازنة من أجل الإلمام بالظاهر في الخطاب السيرذاتي، ومحاولة الكشف عن المخبوء المستتر وراء رغبة صاحب السيرة، أو لأن صفحات السيرة لا تتسع لكل تفاصيله، وقد كان المؤلف واعيا بهذا الإشكال انطلاقا من العنوان، إلى مقدمة السيرة وباقي تفاصيل الكتاب. لذلك وجدنا من الضروري تحليل العنوانين: عنوان المقال، وعنوان السيرة، لأن هذه القراءة ستبرز الاختيارات التحليلية، والرؤية المنهجية، والخطة المنطقية التي أبانت عنها كتابة السيرة، وينبغي أن تتبناها مقاربتها.

يعتبر العنوان: "أبرز الرسائل الماضية المصاحبة للنص والمسيجة له، وتقوم أهميته من كونه يمنح بعدا دلاليا يؤسس افتتاحية النص، ويقدم للقارئ فرضيات قرائية تساعد على فك شيفرات المتن المتلقى، ويوجه فكره نحو بؤرة دلالية معينة. فالعنوان ببساطة يحدد أرضية بدئية للعلاقة التي ستأسس بين القارئ والنص" (22).

العنوان ركيزة أساسية في بلورة المعنى، وفي توجيه فعل التلقي قبل قراءة النص، فهو من المناصات التي شغلت اهتمام القراء والنقاد، إنه أقصر تلخيص مركز للنص، ويشكل مفتاحا لولوجه، يفتح باب التأويل والتصور والترقب والاستباق على مصراعيه، إنه بقدر ما يوجه القارئ، يثير فضوله وتساولاته ويؤجج شوقه لمعرفة ما يخفيه بين دفتي المكتوب، لا يخضع العنوان دائما لمنطق التأويل، وأهم أعدائه التفسير السريع الذي لا يتخذ الحيطة والحذر من مزالق الشرح الذي

لا يستند إلى معرفة عميقة تعطي العنوان الأهمية التي يستحقها، فهو مرجع يحتاج إلى مرجعية لمقاربتة، دون تأمل الوصول إلى حل اللغز الذي يكمن في أعماقه، ويمكن اعتباره سرا من أسرار خلود الكثير من الأعمال الفكرية والفلسفية والثقافية والفنية والأدبية...

1-2 العنوان وتحديد مواصفات ولوج العتبات الكبرى للسيرة:

نبداً بمحاولة تقديم قراءة لعنوان المداخلة:

"الحكي عن الذات بين التوثيق والسرد الانتقائي في رحيق العمر"

لا يتعلق الانتقاء بالسيرة الذاتية فقط، كما سنوضح ذلك في التحليل، ولكنه يخص القراءة/القراءات المنجزة/المحتملة التي ستقدم للكتاب، والتي ستخضع حتما لمنطق الانتقاء أثناء التحليل، لأن أي تأليف كيفما كان نوعه وجنسه وانتماؤه ولغته ومكوناته... لا يخضع، ولا يمكن أن يخضع للقراءة النهائية، وللمقاربة الجامعة المانعة.

كان اختيار عنوان لهذه القراءة من أصعب ما صادفناه أثناء إنجازها، لأن السيرة تنفتح على فضاءات معرفية كثيرة، ولكل منها ظروفه وملابساته وأحداثه التي يصعب على مقال مثل هذا استيعابها، بل يتعذر الإمام بكل خفاياها لأن جاذبية النصوص تكمن فيما تخفيه السطور، وفيما توشر إليه الكلمات دون الغوص فيه، وفي الإشارات التي يتعذر في كثير من الأحيان إخضاعها لسلطة التفسير.

لذلك، قبل الخوض في دراسة اعتماد السيرة على الانتقاء، اعتمدنا نحن أيضا انتقاء محطات معينة من المؤلف دون ادعاء الإمام بكل قضاياها، لأنه يستعصي على الدراسة الواحدة، ويفتح شهية القراءة على قراءات لا حصر لها.

استعملنا في العنوان عبارة الحكي عن الذات، فصاحب السيرة يعتبر راويا ساردا لا يشبه من يطلقون لمخيلتهم العنان، لأنه يشغل في إطار ميثاق يملي عليه قول الوقائع. لا يمكن لأحد أن يجبر آخر على الحكي عن ذاته، لكنها رغبة غريزية تكمن في قلوب كل بني البشر، إلا أن الذين تتحقق لهم لذة الحكي عن الذات هم

قلة من المحظوظين الذين تمكنوا من الإمساك بناصية القلم المتمرد على الأنامل، والذي لا تروضه إلا عذوبة الحكي ورجاحة العقل والتمكن من اللغة ومن أسرارها، فتحوله إلى أداة للتطريز حسب الوظيفة التي تسند إليه، تماما مثل الإبرة: "استعمالات الإبرة تختلف حسب المنتج الذي نرغب في إنتاجه / إنجازه، إننا نستعمل الإبرة للخياطة، ولكن نستعملها أيضا للتطريز، وبين هذين الفنين: الخياطة والتطريز، مساحة شاسعة من الاختلاف وإن كانا يشتركان في أداة واحدة: خيط وإبرة.

مما لا شك فيه أن التطريز من خلال ألوانه القزحية يحتل مساحة شاسعة، بل إنه يستوطن الأمكنة الحميمية في البيوت والقصور ويستقبل الأعياد والمناسبات.

الكتابة كإبداع تكون خياطة، للممة لأجزاء من معيشنا اليومي، لكنها أيضا مطرزة بألوان من المعاناة، والإحباط نخفيها مرة وتفضحنا مرات عديدة" (23).

حينما قمنا بالقراءة الأولية "للرحيق"، استوقفتنا محطات في السيرة: الأولى أن المؤلف حتما لا يعكس تفاصيل حياة الدكتور عباس الجراري التي يستعصي على كتاب واحد احتواؤها، وقد أشار إلى ذلك في العنوان، وفي مقدمة السيرة: "وبعد، فهذا جزء أول من موجز سيرتي الذاتية التي سميتها "رحيق العمر" على أن أتبعه بجزء ثان قد يكون عنوانه "الشهود الفاعل" وقد أضيف إلى الجزأين الأول والثاني جزءا ثالثا يتضمن مجموعة من الصور الشخصية والعامة المواكبة لمراحل هذه السيرة" (24).

"الرحيق" انتقاء لمرحلة من حياة المؤلف، نعرف كل المعرفة أن ما خفي منها أكبر حجما دون أن يقل أهمية عما ورد في السيرة، ولكن قدر الكتابة الانتقاء لأسباب قسرية تحكمها قدرة الذاكرة على التخزين، وأخرى إرادية تكمن وراءها عوامل تحتاج إلى درس مستفيض.

تتجلى المحطة الثانية في كون الكتاب توثيقا مهما لمجموعة من الأحداث، وبتفصيل ليس من السهل الحصول عليه، بل يمكن الذهاب إلى حد القول بأن

السيرة تتضمن وثائق نادرة، ذيل بها الكاتب سيرته، إضافة إلى التوثيق لمراحل مهمة من حياة المؤلف، وجد أنها غابت في التراجم التي كتبت عنه، وكانت حافزا له للكتابة عن ذاته في إطار "ترجمة شخصية تكون موسعة بعض الشيء ومستوفية كذلك بموضوعية وإنصاف لتلك الفراغات والشغرات وإن بإيجاز" (25).

وهو إيجاز يفرض الكتابة بالانتقاء، لأن حياة الفرد أكثر شساعة من دفني كتاب، خاصة إذا كان موضوع السيرة شخصية فذة تحتاج إلى أكثر من تعريف: "وبقدر ما تكون هذه الحياة ممتدة في الزمن والعطاء، تكبر الحاجة إلى توسيع هذا التعريف" (26).

ثم إن الانتقاء قدر الإبداع بصفة عامة لاستحالة التمثل الكلي للوجود وللموجودات، لكن هذا المفهوم يفرض طرحا إيجابيا له، رغم ما قد يوحي به معناه الظاهر من بتر وإسقاط وإخلال بالحقيقة وخيانة للواقع... فإلى أي حد تنجح الذات المبدعة في انتقاء مكونات عملها جماليا وفكريا وفلسفيا وموضوعيا؟

2-2 مقارنة العتبة الأولى لـ "رحيق العمر":

يعتبر عنوان الكتاب العتبة الأولى لولوج مضامينه، لذلك لا يمكن تجاوزه دون وقفة تعطي لهذه العتبة ولو بعضا من الاهتمام، فكل عنوان فضاء تخيلي يفتح باب التلقي على قراءات عديدة، قد يستجيب لتوقعات المتلقي، وقد يربكه لأنه يزعزع المقاييس التي يعتمدها في قراءة اللغة وتخريجاتها التركيبية والدلالية والنحوية.

لا يمكن أن نحدد سبب اختيار الكاتب لعنوان كتابه إلا إذا أفصح هو نفسه عن ذلك، أو التمسنا تفسيرا مما كتب، لكن العنوان يبقى دائما لغزا يحير القراء، ويحرك رغبتهم في اكتشاف أسرار وعوالم هذا المكتوب الذي يحمل العنوان شرف التأشير إليه ويتصدر غلافه، ونحن نعرف أن ما ينظر إليه قارئ الكتاب غلافه، فلننظر إذن إلى هذا الغلاف: نجد في أعلى الصفحة: "تخليدا للذكرى التسعين لتأسيس النادي الجراي 1930-2020".

تبدأ العبارة بكلمة "تخليدا"، وهي تدل على أن المؤلف الذي يوجد بين أيدينا هو لبنة في مشروع كبير هدفه الوفاء لما بذله الأجداد من أجل الحفاظ على إرث فكري وثقافي تشهد بثرائه وغناه أقلام الباحثين، والمشعل الآن في يد الخلف الذي عرف كيف يحافظ على هذا الإرث العلمي، ولا نحتاج إلى بحث جانبي لإثبات ذلك، فالغلاف يسجل في الأسفل عبارة : "منشورات النادي الجراي" الذي أسأل الكثير من مداد أقلام الباحثين الذين اختصوا في دراسة أعمال هذا النادي الذي يرجى له "الخلود"، وفي هذا التمني رسالة ضمنية موجهة إلى الجيل الجديد من أجل مواصلة العمل والاجتهاد في سبيل الحفاظ على الموروث الضخم الذي ساهم في إنجازه عباس الجراي، وأوفياء النادي والكثير من المهتمين إضافة إلى الطلبة والطلبة الباحثين.

يأتي بعد ذلك عنوان المؤلف:

رحيق العمر

موجز سيرتي الذاتية

كتبت "رحيق العمر" بخط أسود غليظ يجعل العنوان يرتسم في عيون المتلقين، ويقفز مباشرة إلى فكرهم، فيحسون بدغدغة يمتزج فيها الفرح بالتأثر، لأن الأزهار حينما تهب رحيقها فهي تعطي بأريحية أغلى ما يمكن أن يقدم من أجل أن يكون بلسما وشفاء للعالمين، أو عطرا تنتشي به الروح، وهو ما نشعر به حين تأمل لون غلاف الكتاب الفاتح الذي يعبر عن لون الطبيعة في فصل الربيع، وهو اختيار يدل على تفاؤل وإقبال كبيرين على الحياة التي يشير العنوان إلى أنها كانت ربيعا مزهرا رغم عواصف الأيام، وإلا لما أفرزت رحيقا، والرحيق لا يمكنه إلا أن يكون طيبا!

بعد الرحيق يأتي العمر، والعمر زمن، والزمن لغز لا تحدده الساعات والأيام والشهور والأعوام على دقتها، فالعمر هو الحياة التي عاشها ويعيشها الفرد دون إمكانية وجود الاستباق لتقرير المستقبل، فالعمر يوظره الماضي والحاضر، ولذلك

فالسيرة الذاتية تدور في فلك هذين الزمنين إلا إذا كان المستقبل الذي كانت تتنبأ به قد أصبح ماضيا، أو حاضرا معيشا!

تبقى عبارة "رحيق العمر" غامضة من نواحي عدة:

أ- حينما تقرأ العبارة لا تستطيع تحديد جنس المكتوب من خلالها، قد يكون شعرا، وقد يكون رواية أو قصة أو مسرحية أو غيرها.

ب- "رحيق العمر" لا تجيب عن سؤال: عمر من؟ ولو تركت بمفردها لبقيت قابلة للكثير من التأويلات، لكننا نعرف المؤلف وعشقه للوضوح حتى في كتاباته التي يتخلل تفاصيلها التخيل والبوح والشاعرية، ولكيلا يفسد الغموض رحيق عمره جاء التوضيح التالي تحت العنوان الكبير: "موجز من سيرتي الذاتية".

وهو توضيح في غاية الأهمية لأنه يطرد كل لبس أو ارتباك قد يصيب القارئ قبل قراءة الكتاب، إنه إفصاح عن الانتماء الأجاسي للمؤلف، مع استعمال ضمير المتكلم زيادة في الدقة والتحديد وتأکید أن ما سيقدمه خلال هذه السيرة هو موجز ليس إلا، ونقرأ خلف العبارة أن عمر الكاتب أضخم من أن تسرده صفحات معدودات، والحقيقة أن الرحيق كان بالإمكان أن ينوب عن كلمة موجز التي تصبح تحصيل حاصل لأنه من أجل الحصول على الرحيق نحتاج إلى كم هائل جدا من الورد والأزهار، وهي الأحداث التي عاشها المؤلف واستخلص منها العبر، ولا تفوتنا الإشارة إلى حسن ظن الكاتب بالقارئ في استعمال كلمة رحيق، وكأنه يشير إلى أن الذي سيقبل على قراءة السيرة واستيعابها، لا يمكن إلا أن يكون مقدرا لقيمة الرحيق، مدركا لكونه ثمينا لا يقدره إلا من عرف قيمته.

ثم يأتي استشراف مستقبلي موجه إلى القارئ يخبره أن الكتاب هو الجزء الأول من السيرة الذاتية للدكتور عباس الجراري، ومعناه فتح انتظار المتلقي على توقع صدور جزء / أجزاء أخرى، مع تحديد موضوع الجزء الأول: النشأة والمشروع.

لا ينبغي أن ننسى الوقوف أيضا عند دلالة الصورة التي تم اختيارها للمؤلف، وهو اختيار موفق يتناسب مع العنوان المختار، ومع لون الغلاف، لأنها صورة مفعمة بتفاؤل وطمأنينة، ونظرة واثقة إلى المستقبل، لأن الكاتب ينظر فيها

إلى تفاصيل حياته، ويأمل خيرا في الذين سيتسلمون المشعل للحفاظ على إرث
تفانى في إنجازه هو وأسلافه.

3-2 الخطاب المقدماتي والسياق التأويلي للنص:

يعتبر النص الأدبي كائنا متمردا على القوانين والقواعد وإن كان المسؤول عن
تسطيرها، لذلك فقددر الدراسات التي تنجز حوله أن لا تعرف إلى الاستقرار طريقا،
لأن النص الأدبي يتميز بالانفتاح على الكثير من الخطابات والتقاطع معها، مما
يجعل النقد والمناهج في حيرة أبدية من أمرهما، لأنهما كلما ظنا فتح مغاليق نص
أفرز جدرانا من التأويل ينبغي تسلفها، الشيء الذي يجعل الدراسات المهمة
بالشعرية في حيرة أبدية من أمرها!

النص بنية منفتحة على ما لا حصر له من المقاربات، ومن المفاهيم التي تترك
باب التأويل مفتوحا أمام الكثير من القراءات التي أصبحت تجد نفسها مجبرة -
قبل أن تقرأ النص- على دراسة الخطاب المناصي الذي يرصد علاقة النص موضوع
التحليل بما يحيط به من مرافقات نصية؛ فالعنوان وتحديد الانتماء الأجناسي
والألوان/ الصور/ اللوحات الموظفة، والمعلومات الخارج نصية، والمقدمة،
والهوامش... تأتي لخدمة النص قبل كل شيء.

نحتاج إلى المناصات لأنها تعيننا على وضع النص داخل سياق معين، وترسم
أمامنا أفقا لتلقيه، توجد المقدمة ضمن لائحة هذه المناصات، ومقدمة البحث
مشكاته التي تنير طريق القراءة، وتحدد توجه الكاتب وترسم ملامح مقوله ومنهج
ومنهجية تسطير هذا المنجز.

يبدأ الكاتب بمحاولة تحديد ملامح كتابته عبر حس مقارني مدرك لتقاطع
السيرة الذاتية مع أشكال كتابة أخرى تشبهها، ومن خلال التحديد تبرز معرفة
الكاتب الموسوعية: "فقد كان معروفا في تراثنا العربي الإسلامي أن غير قليل من
العلماء، مشاركة وأندلسيين ومغاربة، ولا سيما المحدثين والمؤرخين وأصحاب
الفهرسات، كانوا يترجمون لأنفسهم في مؤلفاتهم. فالسيوطي فعل ذلك في كتابه
'حسن المحاضرة'، ومثله ياقوت الحموي في 'معجم الأدباء'، ولسان الدين بن

الخطيب في "تاريخ غرناطة"، وابن حجر في "قضاة مصر"، وأبو شامة في "الروضتين"، وأبو الربيع الحوات في "ثمرة أنسي"، وفتح الله بناني في "المجد الشامخ"، ومحمد بوجندار في "مبتدأ خبري" (27).

ندرك من خلال هذه الموسوعية أن المؤلف يؤكد أن السيرة الذاتية ليست فناً جديداً، بل هي متجذرة في الثقافة العربية، وهي المسألة التي انتبه إليها مجموعة من الدارسين الذين لاحظوا إلى أن السيرة الذاتية أنجزت من قبل: "فلاسفة وأطباء وعلماء ومؤرخين وشعراء سبق أن صنفوا كتباً مثل ابن الهيثم وابن سينا وابن خلدون وأبي حيان التوحيدي والغزالي وابن حزم وابن العربي، فأضافوا إلى تأليفاتهم وكتبهم السابقة مشروعاً آخر تمثل في الكتابة عن ذاتهم بضمير 'أنا' وهذا مشروع اضطرهم إلى خلق كتابة أخرى جديدة جدة مشروعهم، وفريدة فرادة ذاتهم وتجاربهم.

تَبَرَّزُ السيرة الذاتية باعتبارها تعلماً للكتابة الذاتية وتَمَرَّنَا عليها، فمن لم يسبق أن وجه خطاباً بضمير 'أنا' تكون الكتابة الذاتية بالنسبة إليه تمريناً يمارسه للمرة الأولى، غير أن الملاحظ في الثقافة العربية القديمة أن الذين انكبوا على كتابة سيرهم الذاتية هم كتاب ومؤلفون وعلماء مكروسون" (28).

يقدم الدكتور عباس الجراري مسوغ كتابته لسيرته الذاتية في قوله: "وذلكم ما جعل بعض الأصدقاء الدارسين، على كثرة ما كتبوا عني مشكورين - يلحون علي- لحسن الظن بي- أن أكتب ترجمة شخصية تكون موسعة بعض الشيء، ومستوفية كذلك بموضوعية وإنصاف لتلك الفراغات والشغرات وإن بإيجاز" (29).

أستأذن القارئ في الوقوف عند هذا النص هنيئة: تسهل قراءة هذا الكلام إن نحن استسهلناه، ووقعنا في فخ السهل ونسينا الممتنع!

إنه نص يحمل من الرسائل ما لا يقدر على فك شفراتها إلا قارئ مهووس بالكشف عما تخفيه السطور. فالنص أعلاه غني بلاغياً ودبلوماسياً وأخلاقياً يؤطره ذكاء لا يتوفر إلا لدى علامة ذي بديهة متمرسية بمعرفة خبايا الأمور، تختلق جواً من حسن المعاملة قل نظيره، وهو ما ستوضحه تفاصيل هذه المقدمة التي انخرطت

بالفعل في إطار الخطاب المقدماتي الثري بموجهاته، والغني بالمؤشرات القرائية لنص السيرة.

أشار الكاتب في الكلام الذي سبق هذا النص إلى أن سيرة الشخص المكتوبة بقلم الآخرين قد يطالها الخطأ إن لم "تتعرض للتحريف والتزييف"، بقي الكلام عاما حينما أشار إلى أن الخوف من هذا التحريف أو من إسقاط مراحل مهمة من السيرة يجعل المعني بالأمر يختار الكتابة عن نفسه.

لكن المؤلف - حسب ما تعبر عنه ثنايا السطور- لا يريد أن يتهم أحدا، بل يجعل مبرر كتابة سيرته مرتبطا بالحاح بعض أصدقائه الدارسين الذين يرغبون في أن يملأ فراغات قد تركوها، ربما فيما كتبوا عنه: المنطلق واضح وحسن النية متضمن في المباشر من الكلام. يستمر المؤلف في تبرير كتابة سيرته برغبته في الاستجابة لأصدقائه الذين أرادوا أن تكون سيرته "موسعة"، وإغراقا في التواضع واحترام الأصدقاء يضيف "بعض الشيء" تكريما لمن كتبوا عنه، وتقديرا لمجهوداتهم وتأكيذا للاستجابة لرغبتهم في ملء ثغرات ما كتب عنه. تتضمن الفقرة التي تحمل مسوغا علميا وذاتيا لكتابة السيرة، كلمات أخرى مثل "إنصاف"، "موضوعية"، "إيجاز"، وكلها حسب قول الكاتب كلمات جاءت على لسان أصدقائه ومحبيه، لكن ذلك لا يمنع أبدا تماهي الكاتب مع المقصود بهذه الكلمات!

بعد هذه الإشارات المليئة بالدلالات، يستمر الخطاب المقدماتي في إعطاء إشارات سوف يعود إليها الكاتب بتفصيل في أجزاء السيرة، من ذلك الحديث عن طفولة الكاتب التي عاشها في بيت "علم ودين ووطنية"، مؤكدا دعم والده الدائم له، ومن خلال الحديث عن دعم الوالد ومساندته، نكتشف مستواه العلمي والمعرفي فهو يستشهد - من أجل أن يهون عليه - بالأبيات الشعرية، وبتجارب العلماء الذين لم يمنعهم مرضهم من التألق. تتخلل هذا الخطاب إشارات دينية واضحة من خلال العودة إلى "النص القرآني"، و"أما بنعمة ربك فحدث"، وإلى أقوال الأئمة عن العلم بأنه "نور يقذفه الله في القلب"، و"نور يهدي به من يشاء"، أو عن التواضع

"يحب الصالحين وليس منهم"، "رفيق القوم يلحق بالجماعة"، إضافة إلى استحضاره للحكمة الشعبية: "كن محني واسكن فالسفلي"، مع تعقيب على التأويل الذي قد يعطى لمفهوم التواضع: "وإن كان التواضع الحق هو ما يتصف به الشخص الذي يكون في تواضعه ممتلكا لما قد يستطيع به ألا يكون متواضعا"(30).

يصر المؤلف في خطابه المقدماتي على إعطاء صورة عن شخصيته مؤطرا المتلقي قبل البدء في قراءة التفاصيل، فبعد توضيح المقصود بالتواضع يواصل: "ولكن يجعلني اتخذ مواقف علمية وإدارية وسياسية قد يستغرب لها غيري، كالاعتذار عن عدم قبول مناصب كان آخرون يسعون إليها بمختلف الوسائل"(31). يتسم الكلام بالتشويق وجلب القارئ إلى مواصلة تتبع تفاصيل السيرة التي تبدو مثيرة وملينة بالمفاجآت، خاصة وأن المقدمة توسلت بأسلوب موجز مكثف يعرض قضايا كبرى عبر إشارات إيحائية تجلب فضول المتلقي لمعرفة المزيد، وهو أسلوب لا يملكه إلا إنسان خبر أساليب الإقناع من أجل أن يمرر رسائله المليئة بالإيحاءات إلى نخبة من القراء لها مرجعية وازنة فيما يخص سيرة الكاتب العلمية والوظيفية، حيث غلب الهم العلمي كل انشغال دبلوماسي.

لقد جاءت السيرة ملء فراغات تركها الآخرون حين كتبوا عن صاحب الرحيق ما كتبوه، لكن ترك البياضات أحيانا يحرك مخيلة القارئ ويجعل للإشارة بعدا جماليا قد يحمل تأويلات فكرية أو سياسية أو اجتماعية، لعل أبرز ما تشجع المتلقي عليه: القراءة والتقصي والبحث عن التفاصيل، وهو ما يسعى إليه كل مفكر" وفي إطار هذه الرؤية كنت خططت لمشروع علمي، بدأت وضع لبناته التنفيذية الأولى منذ قدمت استقالتني من العمل الدبلوماسي وانتقلت إلى التدريس الجامعي، بكل ما كان لذلك من عواقب كانت في غالبها تبدو لغيري 'غبنا' ودون ما أستحق. وقد بينت في مبحث مسيرتي الوظيفية كيف كانت هذه نقطة أولى في هذه المسيرة، أتاحت لي التفرغ لإقامة مشروع وبنائه، ولم يلبث ذلك الشعور 'الغيري' أن تضخم بعد أن أسند إلي جلالته الحسن الثاني طيب الله ثراه- بإلحاح منه وتكرر اعتذاري له- مهمة الخطابة في مسجد للا سكينة أول افتتاحه، إذ تردد يومئذ في

مختلف الأوساط ولا سيما بين زملاء الجامعة وغيرهم من المثقفين أن غاية ما وصلتة في جهادي العلمي وتجربتي الطويلة في الحياة، أن سلمني جلالته عصا أقف بها على منبر جامع كما هو في الظاهر" (32).

تصدّمتنا في النص كلمات وعبارات مثل "عواقب"، "غبنا"، "الغيري"، "مختلف الأوساط"، "كما هو في الظاهر"... وتحشنا على التقصي والبحث لمعرفة المزيد، وهذا المزيد حتما لن تجيب عنه السيرة في جزئها الأول فقط، بل يتطلب الأمر تطلعا إلى قراءة الجزء / الأجزاء التي نرجو أن تعرف طريقها إلى منتظري صدورها، لأنها حتما ستكشف للمتلقي الغطاء عن أجوبة طال وضع التساؤل بخصوصها، ولن يكفي ذلك لأنه لا بد من الرجوع إلى "طفولة قلم"، وإلى كل المجهود العلمي الجبار الذي بذله الدكتور عباس الجراري من أجل تشييد صرح علمي تتحدث عنه الأجيال، لأنه يحمل بصمة الأسلاف ومجهود الأبناء ويتوجه بالرسائل الدالة إلى الخلف، إضافة إلى الكم الهائل من إصدارات النادي الجراري، لأنها جميعا تشكل ذلك المشروع العلمي الذي وضع الكاتب لبنته الأولى منذ استقالته من العمل الديبلوماسي من أجل التدريس بالجامعة.

يعكس النص ليس فقط إمساكا بناصية اللغة، بل تحكما في منطق الأفكار ودفاعا فيه اقتناع -يمارس أيضا إقناعا- بما قد يعتبره "البعض" "تنقيصا" أو "غبنا": "ما كنت لأضيق بما أسمع عن تعييني في الخطبة فضلا عن اعتباره غبنا، فقد كنت في مشروعني العلمي والثقافي أستكمل مختلف أدواته، فمع الخطبة وانفتاحي على عوالم أخرى تبدو بعيدة عن المهام الجامعية وما إليها مما كنت أنهض به في الساحة الثقافية، كنت أشعر بمشروعي ينمو ويتسع ليشمل آفاق تراث المغرب وإبداعه في مختلف أنماطه ومجالاته، وكيفية تحديثه وتبليغه للجماهير العريضة، مع احترام لها وتقدير كبيرين، وفق منظور قائم على منهج يتجاوز -قدر الإمكان- مجرد الوعظ والإرشاد إلى معرفة حقيقة وجود المغرب ومكانته وأهمية دوره، انطلاقا من هويته الإسلامية بجميع ثوابتها ومكوناتها والتعريف

بهذه الحقيقة، مما وصلت به في الجامعة إلى تكوين أجيال من الباحثين والدارسين" (33).

يواصل المؤلف رحلة الإقناع باقتناعه بما يقوم به لأن العبرة بالنتائج، وبذلك يمكن للقارئ أن يستخرج ملاحظة هامة تتعلق بوظيفة من أهم وظائف الخطاب المقدماتي، وهي النجاح في وضع المتلقي في قلب الحدث، وجعل التأويلات حقيقة واحدة ينبغي إطلاع القارئ عليها كي تستقيم قراءته لتفاصيل السيرة دون تشويش أو غموض. يصر المؤلف على مواصلة وضع الإشارات التي ستتحول إلى عدة قرائية لمشروع يريد له صاحبه أن يتسم بالانسجام الذي تشوش عليه بعض المواقف أحيانا، يرد عليها صاحب السيرة بثقة من خبر النفس البشرية، وخبر التاريخ والأفكار وعرف أن دواء السوء والإساءة دعاء بالهداية وبالغفران، "أما الذين كانوا يعارضون ويتخذون مني موقف الخصومة والعداء، بقصد الإساءة إلي أو بقصد حماية مصالحهم الشخصية، فقد أصبحوا جميعا في ذمة الله تعالى ولا أملك إلا أن أدعو لهم بالرحمة والمغفرة، وأن يتجاوز عن إساءتهم لي" (34).

يواصل صاحب السيرة عبر إشارات تثير الفضول مهمة جلب القارئ إلى معرفة التفاصيل، وذلك باختيار مقاطع إخبارية إشارية تجلب اهتمام القراء: "وهو ما كان يتضح لي أثناء مسيرتي في الحياة عبر الأيادي الملكية البيضاء التي كانت تتوالى علي وتزيدني تشجيعا للمواصلة، وإن كانت تزعج كل من في نفسه شيء، وذلك ما حكيت بعض تفاصيله في مباحث هذه السيرة، مما لا أحتاج إلى ذكره في هذه المقدمة إلا من خلال بعض الإشارات" (35).

ثم يختم إشاراته بالإعلان عن أن ما سيوجد بين دفتي هذا الكتاب هو جزء أول من السيرة الذاتية للدكتور عباس الجراري أسماها "رحيق العمر" دون تعليق، فقد ترك للقارئ مهمة التنفنن في مقارنة البعد الذاتي والإيحائي للعنوان المختار، ذكر فقط أنه سيخصص هذا الجزء لمرحلة النشأة وما كان يشغله فيها من مشروع علمي، مقدما وعدا بإصدار جزء ثان قد يحمل عنوان "الشهود الفاعل"، يتناول فيه مساهماته في الشأن الوطني في ظل ثلاثة ملوك: محمد الخامس والحسن الثاني

ومحمد السادس، ثم يتوقع إنجازه لجزء ثالث يتضمن صورا مواكبة لمحطات السيرة.

يختم المؤلف مقدمته بالتذكير بميثاق الثقة الموجود بينه وبين القراء، وهو ميثاق قوامه الصدق والصفاء: "هذا وأود أن أشير إلى أن قصدي من تسجيل هذه السيرة أن تكون خالصة صادقة، وصافية من كل تزيف أو تحريف أو مبالغة. وهو ما اجتهدت أن ألتزمه ولا أحيد عنه. ولو شعرت بأدنى ميل عن هذا الالتزام لأسرعت إلى تمزيق ما كتبت باعتباره سيكون غير ذي أهمية بالنسبة للأجيال الجديدة المتطلعة إلى مزيد من التواصل فيما بينها ومع من سبقها، وإلى مزيد من معرفة تلك الحقائق وتأمل واقعها في بعدها الممتد أزيد من ستة عقود، منذ انتهاء الحجر والحماية وبزوغ الاستقلال والحرية"(36).

لا ينسى الكاتب التطرق إلى المستجد الذي صاحب مشروعه، وكاد يشل تحركات الناس ويقضي على حرياتهم، بل وعلى سبيل الحصول على لقمة عيشهم، ويتعلق الأمر بوباء كورونا العالمي الذي غير وجه العالم اقتصاديا وسياسيا وفكريا وثقافيا وفنيا واجتماعيا وصحيا، وكأننا نعيش مخاض ميلاد كون جديد!

4-2 مسيرة ومسار:

يفتح الدكتور عباس الجراري سيرته الذاتية بالحديث عن نسب الأسرة الجرارية، محددًا منذ البداية مصدري تناوله لهذا النسب، وهما مصدران يرتبطان بهذه الأسرة إذ يتعلق الأمر بـ: "هذه مذكراتي" لعبد الله الجراري، وكتاب "العالم المجاهد عبد الله بن العباس الجراري" كتبه المؤلف عن والده.

يتميز هذا المبحث بالطابع التوثيقي، وقد جاء ذلك على لسان الكاتب إذ يقول: "وفي الكتابين إحالات كثيرة على المصادر والمراجع المعتمدة لم أشر إليها إلا في حدود على أن يعود إليها من أراد التوسع والتوثيق"(37).

فالمؤلف ينتقي من المصادر أهمها وأغناها من أجل إثبات عراقة نسبه والعناية التي حظي بها لدى المؤرخين، ويقدمها باعتبارها وثائق دالة دون الخوض في التفاصيل، مادًا جسر تواصل دقيق بين الانتقاء والتوثيق في إطار صياغة سهلة

ممتنعة غنية بالمرجعيات التي يؤشر إليها المؤلف دون أن يغوص فيها، فهو يعرف إلى من يوجه إشارات ويعرف أن المهتمين بعلم التاريخ وعلم الأنساب سيعودون حتما إلى هذه المصادر من أجل التوسع فيما لم يطل فيه الكاتب كثيرا، لأن سيرته مليئة بالأحداث مما يجعله يلتجئ إلى الإيجاز الدال، موقنا أنه مرر أعم ما يمكن تمريره عبر هذه الصفحات التي تبدو قليلة حجما، ولكنها غنية من حيث سردها وتعريفها بالكثير من المصادر التاريخية المهمة.

يخصص الكاتب المبحث الثاني من السيرة للحديث عن الرباط، وإذا نحن فصلنا هذا المبحث عن السيرة ظننا أنه مأخوذ من مصدر تاريخي مع إشارات جغرافية، وقد ورد هذا المبحث منفصلا عن الخطاب السيري كي يذكرنا بالمتن الرحلي الذي يتوقف فيه الرحالة عن الحديث بضمير المتكلم، كي يحول كلامه إلى وثيقة تاريخية أو جغرافية أو سياسية أو دينية أو فنية، قبل أن يعود إلى ضمير المتكلم ويواصل الحديث.

تضع مثل هذه المباحث السيرة الذاتية أمام إشكالية التحديد الأجناسي وتجعلنا نبحت عن مسوغات لوجودها، وهو السؤال الذي وضعناه على السيرة ونحن نقرأ هذا المبحث الذي يبدو في الظاهر منفصلا عن المبحث الأول والثالث، لكننا سرعان ما نجد الجواب في المبحث السابق، يقول الكاتب: " ويبدو أن استقرار فئة غير قليلة من الجراربيين في الرباط يرجع إلى فترات متباعدة لعل آخرها عهد المولى عبد الرحمن بعد أحداث تكلفت بذكرها كتب التاريخ، وكان في ذلك قد بعث رسالة استشارية للقائد إدريس الجراوي نشرها الناصري، علما بأن الدولة كانت قد أقطعت رجال المخزن منهم وقواد الجيش أراضي في ضواحي الرباط" (38).

يخصص الكاتب المبحثين الثالث والرابع للحديث عن أفراد الأسرة وعلى رأسهم عبد الله الجراوي، وفي حديثه يختلط الإيجاز بالتكثيف دائما، وذلك لغزارة المعلومات المتعلقة بالمتحدث عنهم، فلكل منهم سيرته ومساره، ولكن الذين يجمعهم خصال تأسس عليها النسب الجراوي.

يعتبر المبحث الخامس من المباحث المهمة جدا في هذه السيرة، فعلى الرغم من معرفة المتلقي بأن تفاصيل التفاصيل لا يمكن عدّها ولا حصرها، ولا يمكن لدفتي كتاب استيعابها، فهو يشعر بهذه الدقة - المصحوبة بقوة في الذاكرة قل نظيرها- في سرد مراحل تكوين الكاتب وتحولاته الدراسية التي كان فيها متميزا بشهادة الذين أشرفوا على تكوينه، فقد ابتدأ التعلم بالكتاب القرآني، وبتأطير الوالد، ثم واصل رحلته الدراسية في المغرب، ومنه إلى مصر، ثم إلى فرنسا.

كانت رحلة دراسية موفقة تحدى فيها الكاتب ظروفه الصحية، واستطاع من خلالها الدراسة على يد مجموعة من الأسماء اللامعة في الفكر والأدب، حصل على شهادته وأضاف إليها تكوينات في اللغات الأجنبية...

لن نقف عند كل المحطات فهي غنية تعطي صورة واضحة عن اتسام تكوين الدكتور عباس الجراري بالموسوعية والتعدد، ولكننا سنقف قليلا عند بعض ملامح الدقة في "التذكر"، لأن من لا يملك هذه الصفة لا يستطيع أن يكتب سيرة ذاتية:

- التمكن من ناصية الزمن عبر تحديد اليوم والشهر والسنة...

- تذكر الأمكنة والفضاءات بمواقعها وأسمائها: الكتاب القرآني (الزاوية الرحمانية)، مدرسة جسوس، مدرسة أبناء الأعيان (لعلو)، المدرسة الصناعية (زنقة أبواتيه خارج السور)، كتاب المكي بربيش (زنقة جامع عطية)، إعدادية الليمون، مدارس محمد الخامس، عيادة (شقة عليا بمبنى القناصل) ... ويلى ذلك تفاصيل عن الإقامة بمصر وفرنسا...

- تذكر الأسماء بدقة لا مثيل لها، ولن نسرد نماذج لها لكثرتها، وتعدد مهامها وانتماءاتها، وقد لعبت دورا مهما في تكوين الكاتب، أو مساعدته على التكوين...

- تذكر الأحداث: وثيقة المطالبة بالاستقلال، اجتماعات "الشبيبة الاستقلالية"، التعرض لمجلس تأديبي عقابا على قراءة جريدة العلم، نفي السلطان محمد الخامس مع ما صاحب النفي من إجراءات قام بها المستعمر، العدوان الثلاثي، وما كان له من تأثير على سير الدراسة وانصراف الطلاب إلى التدريب على حمل السلاح، وإشعار الناس بالخطر وقت اقترابه....

تتخلل هذه الذكريات الكثيرة تفاصيل دقيقة تجعل القارئ يشعر بأن حياة الكاتب كانت حافلة وغنية لدرجة أننا نتصور أنه حتى في حالة مرضه لا يترك المرض يمضي دون إحراز النتائج، وفي الوقت نفسه يبدو لنا جلياً أن ما تخفي السطور أكثر مما تظهره، ونسجل في هذا المضمار محطة تميز لهذه السيرة التي تكاد تعطي انطباعاً بأنها اعتمدت مذكرات ووثائق أعطتها صفة التوثيق الموجز، أو الإيجاز المكثف، وهو ما أكدّه محمد أملح بخصوص طبيعة الكتابة عند عباس الجراري: "ولا شك في أن ما نشرناه بين دفتي هذا الكتاب من محررات الأستاذ عباس الجراري، هي كتابات قليلة جداً من كثرة كتبها في تلك المرحلة العمرية المبكرة، فقد أفادنا الكاتب بأنه كان مواظباً على الكتابة والتدوين، ولعل حسه التوثيقي الكبير الذي اتسم به يجعلنا نعتقد أنه ما مرق أو رمى من كتاباته الأولى كما هو شأن الكتاب والعلماء والأدباء في طور نشأتهم، لذلك فإن الكتابات المقدمة في هذا العمل ما هي إلا منتخبات مما حرره الكاتب في طفولته وشبابه، أثرها لما رأى فيها من منفعة علمية وأدبية وثقافية" (39).

وهي منفعة امتدت لتشمل مشروعه / مشاريعه العلمية المستقبلية، فالانتقاء لديه لم يكن اعتباطياً، بل كان توثيقياً يختار من المحطات ما يثير الرغبة لدى المتلقي في البحث والتقصي واكتشاف المضمرة التي تتوزع بين مؤلفاته، أو توجد فيما كتب عنه، أو أنها تنتظر دورها من أجل الوصول إلى القراء.

لم يغفل كاتب "الرحيق" الحديث عن أسرته الصغيرة بحب وشغف لم ينسه ميثاق الإيجاز المكثف الذي ميز سيرته، حيث يقول عن أولاده أنهم: "في طليعة نعم الله علينا، وهي أكثر من أن تعد، ويدعوننا وقد قررت أعيننا بهم إلى الافتخار والاعتزاز بذكرهم، وإن باختصار تقتضيه هذه السيرة الموجزة" (40).

يختم الكاتب حديثه عن أسرته بفخر تتخلله بعض المراتة بسبب الصعوبات التي مرت بها الأسرة لأسباب خارجية، ولكن المؤلف لم يرد أن تبقى هذه المراتة عالقة بنهاية المبحث السابع، فجاء المبحث الثامن دليلاً على تجاوز الصعاب، ورداً واضحاً - لم يتم الإفصاح عنه - على من أراد أن يخلق في طريقه العقبات، فوضع

لائحة بمؤلفاته التي تنم عن موسوعية معرفية وغزارة في الإنتاج، وكأن لسان حاله يقول: كيدوا ما شئتم، فقايلة التآلق لا تأبه لكيدكم وسوف تمضي في حال سبيلها. وعلى الرغم من بلاغة الإيجاز، كنا نود لو أن هذه اللائحة من المؤلفات توسلت بتأطير ببليوغرافي يقدم هذه الكتب والمقالات في حلة تفسيرية تعد تقديمًا للمؤلف، يعين المقلب الجديد على "العباسيات" على تأسيس منظور أول للقراءة، تساعد عليه بعض العنابات التوضيحية.

يعطي المؤلف في المبحث الموالي تصورا موجزا عن منهجه في البحث واتجاهه الثقافي، وهو منظور عبر عنه في صفحات قليلة جدا.. ولكنها تحمل بين طياتها مرجعية / مرجعيات كثيرة إن لم يكن القارئ متسلحا بها، بقي رهين القراءة السطحية التي لا تنفذ إلى عمق تلك الكلمات.

لا نستطيع فهم كلام الدكتور عباس الجراري عن "الدراسة الإقليمية"، وعن "التراث" وعن "الدراسات الشعبية" إن لم نكن متسلحين بأفكار نظريات ما بعد الاستعمار التي حاولت أن ترد الاعتبار إلى كل أشكال التعبير الإنساني التي عانت لسنوات من التهميش، وقد حان الوقت لإعادة الاعتبار إليها في ظل محاربة كل أنواع الفكر المركزي التي تروم الدعوة إلى الصفاء، وهو ما يتضح في دعوة الكاتب إلى الحوار الحضاري: "بنيت اتجاهي الثقافي من مفهوم الثقافة باعتبارها ظاهرة طبيعية تتضمن مجموع العناصر التي تشكل فكر الإنسان وسلوكه، وتضبط علاقاته مع غيره، أي مع الكون والحياة والإنسان، وهي عناصر تكتسب بالتربية والتعلم والممارسة، إلى جانب ما يتوارثه بالفطرة والغريزة، في تمايز بين المجتمعات وقابليتها للتواصل والاحتكاك والحوار بقصد تبادل التأثير والتأثير"(41).

يعبر الكاتب عن إيمانه العميق بالتنوع والتعدد والتباين والاختلاف، وهي أفكار ما بعد حداثة مؤسسة لمنظور فكري ينبذ التنميط، ويرغب في تصحيح صولوجي يعيد قراءة الصور التي تدور في فلك ترسيخ التقسيم الشائلي للعالم إلى مركز وهامش، فالمركز له كل الصلاحيات، والهامش مجرد من القدرة على الإمساك بناصية المبادرة، في أي مجال كيفما كان نوعه.

يؤمن المؤلف بالتفاعل بين الثقافات والحضارات مع الحرص الشديد على كل ما هو محلي، وعلى رسم ملامح ثقافة وطنية تجمع بين الحداثة والأصالة التي يجسدها الفكر الإسلامي القادر على التحدي، ورسم ملامح هوية وطنية خالصة لا تنبذ الانفتاح على العالمية.

تتعدد الأنشطة الثقافية للدكتور عباس الجراري لدرجة أن المتتبع يعجز بمفرده عن العودة إلى تفاصيل كل منها، فالجهود ينبغي أن يكون جماعيا من أجل تفصيل القول في موجز المقول المكثف الوارد في هذه السيرة، ويمكن أن نمثل لذلك - من أجل بعض التوضيح - بنموذج وارد في الصفحة 167 عن حضور الكاتب الثقافي والفكري، فهو يتحدث في نقط عن الأنشطة التي زاولها، وكل نقطة تحتاج إلى مرجعية إن لم نقل مرجعيات من أجل الاطلاع على تفاصيلها. ففي النقطة الأولى يشير - دون أن يفصل - إلى تقديم أحاديث إذاعية ولقاءات وندوات تلفزيونية، والقارئ/ الباحث لا يمكن أن يكتفي، ولا يرضيه الاكتفاء بسرد محتويات السيرة، بل يجب وضعها في سياقاتها الفكرية والأدبية والنقدية، ولهذا فإن كل جزء من أجزاء السيرة يفرض دراسة/ دراسات موازية تفصل القول فيها، وتكشف عن الكم الهائل من المعلومات الذي تخفيه سطور السيرة التي ما لبث الكاتب يؤكد في كل مرحلة من مراحلها أنها موجزة، وهو أمر أكدته المهتمون بكتابات عباس الجراري أيضا.

لم يكتف الكاتب بالتأليف، بل إنه اعتنى بوضع مقدمات لمجموعة من الكتب، ويكون بذلك قد أعطاها قيمة إضافية، ويمكن بدورها أن تكون موضوع دراسات مستفيضة عن الخطاب المقدماتي المؤطر من قبل الكاتب، لأن الدارس ملزم بالرجوع إلى تلك الكتب لقراءتها ولقراءة التقديم الذي وضع لها من أجل التحليل والتقصي، وتنبغي الإشارة - بالحاح - إلى الجهد القيم الذي قامت به الأستاذة "حميدة الصائغ" في عملها الضخم الذي خصته لجمع وتقديم المقدمات التي وضعها الدكتور عباس الجراري لمجموعة من التأليفات، ويحمل العمل عنوان "كلمات تقديم" في ستة أجزاء. وقد أنجزت "فاطمة بن حامي الدناي" قراءة لهذا

العمل في كتابها: "قراءة في كتاب 'كلمات تقديم للدكتور عباس الجراري'"، وهو من منشورات النادي الجراري أيضا. وما يزال باب القراءات مفتوحا على مصراعيه لغنى الموضوع.

والشيء نفسه يمكن أن يقال عن البحوث الجامعية التي أشرف عليها الكاتب، إضافة إلى الإجازات التي كان يمنحها لطالبيها على الطريقة التقليدية التي لا تخلو من انفتاح على الثقافات الأجنبية، ومن تواضع لمسانه في كل أجزاء سيرته: "فاعتذرت إليه إذ لا أرى نفسي من أهل هذا الفن الذي لم أطمع في يوم أن أكون به مجازا، فكيف أن أصبح فيه مجيزا. ولكنني تحت إلحاحه المبني على حسن ظنه وكبير ثقته، لم أجد بدا من تلبية رغبته والاستجابة لطلبه فأجزته -بعد الاتكال على الله- بكل ما سمعه مني وقرأه علي، وبجميع ما دريت وما رويت وبسائر ما تعلمت من أشياء في الرباط والقاهرة وباريس" (42).

يتسم المجهود الجبار الذي بذله الدكتور عباس الجراري في مجال الفكر والثقافة، والذي تناولته السيرة في جزئها الأول، بإيجاز أقل ما يمكن أن يوصف به أنه مكثف لدرجة أن كل جزء من أجزاء السيرة يحتاج إلى دراسة / دراسات مستفيضة، ويتوج بثمرات طيبة هي التي قال بخصوصها الكاتب في صفحات سابقة أنها عوضته خيرا عن الصعوبات التي صادفته في حياته، فهذه عضوياته تتحدث عن صيته المحمود داخل المغرب وخارجه، إضافة إلى الصرح العتيد الذي يفوح منه عبق التاريخ، والذي استطاع الكاتب الحفاظ عليه بعد الارتقاء به، وجعله قبة علم يتشرف بولوجها المهتمون والمفكرون والأدباء ورجال العلم ممن لهم غيرة على الوطن، ويستفيدون من مكتبته التي حرص أصحابها على أن تضم كل ما له علاقة بالفكر والثقافة والأدب، إضافة إلى معروضات هي نقطة من رحيق عمر الأسرة الجرارية، وباقي القطرات موزع على الكم الهائل من المنجزات العلمية الأخرى.

فهل تكفي الأوسمة والدروع والتكريمات والأشعار والكتابات للتعبير عن الشكر والامتنان لصاحب "الرحيق"؟!

5-2 الملحق ودليل التوثيق:

يختم الدكتور عباس الجراري سيرته الذاتية بملحق يقدم فيه مجموعة من الوثائق الدراسية والإدارية الخاصة، وحينما نتصفح صفحات هذا الملحق ينتابنا شعور نوستالجي غريب يجعلنا نتوقف عند مسألتين أساسيتين:

■ قلة هم الناس الذين يستطيعون الحفاظ على كل وثائقهم، هؤلاء الأفراد مستقبليون يحملون بعد النظر الذي يوطره الأهل أولاً، لأن الأسرة هي من يحافظ على وثائق الأبناء، وتوطرها فطنة الطفل الذي يحب وثائقه فيحملها معه أينما حل وارتحل، ولو في غياب الأهل والأحباب. تصبح الورقة الحاملة للمعلومات - كيفما كان نوعها- وثيقة نادرة مع مضي الزمن، لأن الأهمية الكبرى تعطى للأشياء النادرة التي أتى الإهمال على مثيلاتها لدى بني البشر، لم يعرّها اهتماماً فذهبت أدراج الرياح وتحللت بفعل عوامل النسيان، وكم من حقائق غابت أو غيبتها التفريط في تلك الأشياء التي تخترق الزمن كي تصبح تحفة دالة على كل مرحلة من مراحل تفكير الإنسان.

■ نحس ونحن ننظر إلى هذه الوثائق أننا داخل متحف خاص وفي لمجهودات بذلها المسكرون والآباء، دون أن ننسى المعنى بالوثيقة التي تضيع لدى أغلب الناس مع انشغالاتهم وانصرافهم إلى متطلبات الحياة، علماً بأن ما يؤسس التاريخ هو الوثائق، فلولاها لغابت الكثير من الحقائق ولما عرفنا عن الزمن الذي مضى شيئاً.

يعكس هذا الملحق الخاصية التي قرنا الاشتغال عليها فيما يخص "رحيق العمر"، وهي الانتقاء والتوثيق، فالملحق ينتقي فيه صاحبه نماذج قليلة من كم هائل من الوثائق التي حفلت بها حياته في شتى المجالات، ولكن لا ننسى أنه كتب على غلاف السيرة أن ما سيقدمه من خلالها هو موجز، وأخبرنا في المقدمة أنه سيصدر جزءاً ثانياً وقد يضيف جزءاً ثالثاً للصور الشخصية والعامة المواكبة لحياته.

ما يثير الانتباه أيضاً الوثيقة المخصصة لنتيجة امتحان الطفل عباس الجراري في "مسيد" الفقيه المكي بربيش / مدرسة الفتح، إذ نلاحظ دقة في كتابة تفاصيلها التي تبدأ بحمد الله وتوجيه الكلام بكل احترام إلى والد التلميذ، ثم

تحديد مستوى الدراسة مع التحديد الزمني للسنة الدراسية ولفرة التقييم، ومواد الدراسة وملاحظات "الأساتذة" وملاحظات المدير.

يرجع تاريخ ورقة التقييم إلى العام 1947، وهو تاريخ يؤشر إلى ما كان عليه التعليم والتعلم في المغرب قبل الاستقلال، ويشير كذلك إلى الدور الذي لعبته المؤسسة الدينية في تكوين الطلاب قبل الانفتاح على التعليم العصري، وما حمله من مستجدات منهجية ومعرفية لم تقض أبداً على هذه الجذور التي رسخها التعليم التقليدي في عقول المتعلمين الذين كانوا بتأطير معلمهم، متمكنين من حفظ القرآن وتجويده، ومن المبادئ الأولية للفقه والتوحيد، مع محاولة إتقان النحو والصرف، وشحذ الذاكرة من خلال المحفوظات إضافة إلى حضور مادة الحساب.

إنه مقرر يمكن الاستعانة به من أجل تجويد طرق تدريس اللغة العربية في الأقسام الأولية الآن، لأنها أثبتت نجاعتها على الأقل في مجال التمكن من اللغة العربية والكتابة السليمة بها، بعيداً عما نلاحظه اليوم من تراجع كبير عرفته هذه اللغة التي ضاعت ناصيتها على يد المتعلمين، وأصبح المعلمون بدورهم حائرين في كيفية إرجاع القوة والفصاحة والبيان لهذه اللغة التي تمتعت بذلك ردحا طويلا من الزمن قبل أن تأتي العولمة فتعصف باللغة العربية كما عصفت بملاح هوية عريقة قاومت الزمن.

جعل الدكتور عباس الجراري اللغة العربية في صدارة اهتماماته وانشغالاته وقلقه: "أولى الأستاذ الجراري لمشاكل اللغة العربية عناية كبيرة، فسعى إلى اقتراح حلول لتجاوزها، ويمكن تقسيم المشاكل إلى نوعين:

أ- المشاكل الداخلية: ويقصد بها المشاكل المرتبطة ببنية اللغة العربية، وبيئتها الداخلية (المدرسة والجامعة).

ب- المشاكل الخارجية: ويقصد بها المشاكل التي تعرفها العربية في بيئتها المجتمعية خارج المؤسسات التعليمية، وتنقسم تبعاً لما ورد عند الأستاذ الجراري إلى صنفين: أولهما يتعلق بالموقف من الداريجة واللغات الأجنبية في علاقتها بالفصحى، وثانيهما بوضعية العربية في محيطها الاجتماعي" (43).

لا نستغرب أن يفرد باحث أطرته الأسرة والمسيد والمدرسة والجامعة كتابا - إن لم نقل كتبا ومقالات وندوات ومداخلات - لتشخيص المرض الذي بدأ ينخر هوية وتفرد اللغة العربية، عبر الدعوة إلى حاجتها إلى التطوير من خلال تحديد أسباب الأخطاء التي لحقت بنيتها، ومحاولة تقويمها، مع تحديد نماذج لتلك الأخطاء كي يتضح الأمر لدى مرتكبيها، محبذا عدم الاكتفاء بالوقوف عند الإطار النظري، وفي أحسن الحالات يتم الانصراف إلى التمارين التطبيقية لأن "التقويم اللغوي يحتاج إلى النموذج الذي يقتدي به، ويتمثل في الذين يخاطبون المتعلمين وعموم الناس، من مدرسين ومحاضرين وخطباء ووعاظ ومقدمي نشرات الأخبار والبرامج الإذاعية والتلفزيونية... الشرط فيهم أن يكونوا ذوي تعبير صحيح من حيث سلامة اللغة والالتزام بقواعدها النحوية والصرفية، ومن حيث النطق وما يرتبط به من مخارج الحروف... أن يعملوا في النهاية على تكوين أجيال من الناطقين بالعربية تصدر على أسنتهم سليمة قويمة وتندمج بوجدانهم وفكرهم، فيرقى تذوقهم لها، وتصبح لديهم فيها سليقة كالتى كانت لأجدادهم"(44).

يكفي أن نطلع على فهرس كتاب واحد من مؤلفات "عباس الجراري" الغزيرة، وهو الكتاب الذي أخذنا منه النصين السابقين، لنعرف الهم الكبير الذي كان يحمله من أجل اللغة العربية، اهتم بوسائل تطويرها وتقويمها، وقدم نماذج للأخطاء التي ترتكب فيها مع تصحيحها، وشخص واقع اللغة العربية ببلده الأم، مع محاولة رصد عوامل النجاح والفشل للتعريب، كما بحث في العلاقة الموجودة بين اللغة والهوية، ورسم ملامح مستقبل لهذه اللغة التي تلعب دورا رياديا في خلق مفهوم الوطنية.

تعكس الوثيقة الثانية نتائج التلميذ المحصل عليها في الطور الابتدائي، داخل مدرسة أبناء الأعيان، ونلاحظ من خلالها حضور اللغة الفرنسية في تدريس جزء من مواد هذا المستوى من التعلم، ومما لفت انتباهنا في هذه الوثيقة "نظرية الأستاذ الفرنسي" الذي أشاد بمستوى التلميذ الجيد رغم تغيبه الطويل عن

الدرس، وهذا يجد تفسيره في بداية السيرة، ويتعلق الأمر بالظروف الصحية التي كان يعيشها الكاتب.

أما الوثيقة الثالثة، فما أثار انتباهنا فيها هو متابعة الوالد عبد الله الجراري للتلميذ عباس الجراري الذي لاحظ عليه أستاذ اللغة الفرنسية كثرة الكلام رغم اجتهاده فبدأ أن الوالد أغضبه ذلك.

يواصل الملحق تقديم وثائق في غاية الأهمية، تتعلق بنتائج الكاتب تلميذا بالابتدائي، ثم بالثانوي داخل المغرب وخارجه، القاهرة تحديدا، بالثانوية الحسينية ثم بكلية الآداب حيث نلاحظ غزارة المواد والتخصصات التي كانت تدرس آنذاك بأقسام كلية الآداب.

كتبت الوثائق بعناية فائقة وبدقة متناهية تعطي صورة عن نظام العقل البشري قبل رقمنة العالم. وستصبح تلك الوثائق من الأمور النادرة بعد أن تسيطر الرقمنة على تفاصيل حياة الإنسان، ومن يدري لعلها تصبح - حجة مع غيرها من الوثائق المحفوظة - على مرحلة مضت وانتهت من تاريخ الفكر والتفكير البشريين.

لا يكتفي المؤلف في النماذج التي قدمها بالجانب العربي، بل زود المتلقي بوثائق استلمها من جامعة باريس، وهي بدورها تعطي صورة عن الانطباعات التي تركها الكاتب طالبا بالجامعة الفرنسية، وصورة أخرى عن كيفية كتابة هذه الوثائق التي لا تحتاج فرنسا إلى من ينبهها إلى ضرورة الحفاظ عليها في أرشيفها، لأنها أحسن من يقوم بذلك، يبقى الدور علينا من أجل ألا يضيع منا تاريخنا ممثلا في وثائقه وآثاره ومخلفاته، لأن قيمة الأمم تقدر بمقدار عراقة تاريخها.

قدم عباس الجراري في الملحق وثيقة طلب استقالته من وزارة الخارجية، ووثيقة قبول هذه الاستقالة، ثم رسالة عبد العزيز الأهواني الذي كان مشرفا على أطروحة عباس الجراري، والتقرير الذي كتبه بخصوص استيفاء الفترة الزمنية للإقامة بالقاهرة قبل إجراء المناقشة، وهي وثائق تحمل من وراء إثباتها قراءة - إن لم أقل قراءات - تتطلب الرجوع إلى تفاصيل السيرة وإلى مصادر أخرى تدل على أن الكاتب مر بزمان عصيب، جعله يكتب عنه منتقيا أكثر الوثائق ممثلا لمعاناته التي

ستنوع من خلال هذه السيرة بنجاحات عديدة، وتقلد مناصب مشرفة أعادت إلى الكاتب الاعتبار، بعد قساوة ظروف لم تثبت أمام إصرار "عباس الجارري" على التغلب عليها عن اقتناع، ودون أن تغريه مناصب يتهافت عليها الكثيرون.

6-2 جذور "الأوتوبيوغرافيا" في "طفولة قلم":

يتموضع المنجز العلمي للدكتور "عباس الجارري" في إطار مشروع متكامل تمتد جذوره إلى بداية تفكيره في التأليف، إنه يستفيد مما يختمر في عقله من أفكار من أجل إعادة النظر، أو تطوير أو تفصيل ما سبق له الاشتغال عليه في شبابه الأول، وهذا يضع قارئ مشروعه أمام مجموعة من الشروط لعل أبرزها وجوب قراءة مؤلفاته وما كتب عنه وعنهما، من أجل تقديم مقارنة لكتاب من كتبه أو لمساهمة من مساهماته في الندوات والمنتديات العلمية والأدبية، أو لما يكتبه داخل المجالات وغيرها، فهو عندما يمسك قلمه لتناول إشكالية من الإشكاليات الفكرية أو الأدبية أو النقدية، فليس ملء الصفحات ودخول باب التأليف من بابه المفتوح أمام الجميع، بل لوضع لبنة لبناء متماسك هو مشروعه الذي وهب له كل وقته.

لذلك، نقول إن ما قدمناه لقراءة "رحيق العمر" لا يعتبر سوى نقطة داخل بحر من القراءات الممكنة لهذه السيرة، لأننا ونحن نشتغل على خاصية الانتقاء والتوثيق فيها وجدنا أنها تضرر أكثر مما تظهر، وما يجعلنا نعي ذلك هو امتلاؤها بالإشارات التي تجبر القارئ المهتم على اتباعها للعثور على مساراتها وتفصيلها في كتب ووثائق أخرى موجودة أو يستعد صاحبها لإخراجها من أجل جمهور القراء، ونظن أن الكثير منها مما سيلقي الضوء على محطات الكاتب ما يزال ينتظر دوره للإفراج عنه قصد الإفادة.

يحفل "الرحيق" بمرجعيات عديدة لا ندعي أيضا أننا تمكنا من الإمساك بها جميعها، لأن الأمر يبقى رهينا بمجهود جماعي جبار يشتغل عليه المهتمون والمتتبعون والنقاد لوضع اليد على هذا الخيط الناظم لكل لبنات مشروع "عباس الجارري"، في الفكر والثقافة والأدب والفن وغيرها... لكننا على الأقل نشير بعض قضايها من بينها إمكانية الربط بين طفولة الكتابة لدى صاحب السيرة وبين

مرحلة النضج التي شبهها بالرحيق، لنعثر على موضوعات كثيرة شغلت باله في شبابه الأول، ورجع إلى الكتابة عنها عندما اختمرت لديه التجربة، ونعطي مثالا واحدا يرتبط بموضوع اشتغالنا على السيرة الذاتية "رحيق العمر".

إذا كانت مقدمة السيرة تعطي بعض المعلومات المتعلقة بهذا الجنس الأدبي، فإننا نعثر على أن هم تحديد جنس السيرة قد شغل فكر واهتمام الكاتب منذ مراحل مبكرة من حياته، وسيعود بنا البحث إلى سنة 1960، حين كتب مقالة بعنوان "الترجمة الذاتية"، نشرت بجريدة "الفجر" العدد 28، يقول: " هذا اللون من التأليف الذي يسمونه الأوتوبيوغرافيا أو الترجمة الذاتية أو الشخصية أو غيرها من الأسماء نكف عن شخص الكاتب الإنسان، ونرى سلوكه وأخلاقه، ما حقق منها وما لم يستطع تحقيقه، وما صاحب ذلك كله من توتر وكفاح وإحساس وآلام"(45).

يعكس النص وعيا مبكرا لدى كاتبه بإشكالية التحديد الأجاسي لهذا النوع من الكتابة، فيورد المصطلح كما هو في اللغة الأجنبية ولكن بحروف عربية، ثم يقدم اقتراحات لترجمته ويترك باب الاجتهاد أو البحث عن تسميات أخرى مفتوحا، وعيا منه منذ "طفولة قلم" أن المفاهيم لا تخضع للتعريفات الجامعة المانعة.

يفصل مقالة "الترجمة الذاتية" عن "رحيق العمر" زمن يقدر بستة عقود اختمرت خلالها الفكرة في ذهن الكاتب الذي تبلور لديه وعي بأن أصعب الأمور الكتابة عن الذات، لأنها كتابة تفرض الانتظار، انتظار مضي السنوات لجمع أزهار العمر من أجل استخراج رحيقها. رحيق الأزهار لا يمكن أن يقتحمه الغش، لأنه أصدق ما تعطيهِ الطبيعة للكائنات التي لا تعرف التزوير، بل تعطي الدواء والشفاء وتعطي خالص الأفكار وأصدق المشاعر "وهذا كفيْل بأن يجعلها خير مؤلفات صاحبها، لأنها برهان على أنه خبر فنه وتفهم رسالته، واحترام جمهوره، فهو في كتابتها يرجع إلى حياته الخاصة ليسجلها كما هي، بما فيها من عظمة وتفاهة، وبما فيها من توفيق وفشل، وبما فيها من انتصار وصدق كبيرين، ولا بدع، فحياته لا تقل عن فنه روعة وجمالا، يجدر به أن يطلع جمهوره عليهما، بل من حق هذا أن يطالبه بها"(46).

لا يكتفي الكاتب منذ حادثة سنه بالنزر القليل من المعلومات ولا بالمصدر الواحد واللغة الواحدة للإلمام بالقضايا التي يخوض فيها في كتاباته، ففي هذه المقالة المبكرة يعود من أجل مقارنة السيرة الذاتية إلى أسماء غربية معروفة مثل سانت بوف، ويعود أيضا إلى مصدر هذا الجنس الأدبي عند العرب، ليكتشف أن مصدره "قد" يكون من الفرس أو اليونان، الذين اشتهر ساساتهم ومفكروهم بالكتابة عن حياتهم، وسجل غياب حديثهم عن نشأتهم الأولى في "الرحيق"، ثم يتتبع تاريخ هذا الفن لدى العرب "وابن إسحاق والرازي وابن الهيثم من الذين قرأوا هذه السير، وخاصة ما كتبه كسرى وجاليونس، وتأثروا بها، ألفوا رسائل في ترجماتهم الشخصية تتجه اتجاهات مختلفة في حكاية السلوك وسرد التجارب. ونمضي قليلا مع الزمن، فنجد ابن بطوطة وابن جبير يسجل كل منهما في رحلته كثيرا من جوانب حياته، ويصور ما عانى من تجارب وما صادف من أحداث ثم نلتقي في "طوق الحمامة" بابن حزم الأندلسي، يدلي بكثير من الاعترافات الخاصة بسلوكه، ولا نصل إلى القرن الثامن الهجري حتى نجد الأدباء والعلماء يعنون بترجمتهم الخاصة، يسجلونها إلى جانب تراجم الغير، كما فعل السخاوي في "الضوء اللامع"، والسيوطي في "حسن المحاضرة"، وابن الجزري في "طبقات القراء"، وابن الخطيب في "الإحاطة"، ولكنها تراجم موجزة، إذا قورنت بما كتبه ابن خلدون في "التعريف"، فقد تحدث في صراحة عن تفاصيل حياته منذ نشأته حتى قريب من مماته، ويعد كتابه هذا أول ترجمة مستفيضة يسجلها لنفسها كاتب عربي" (47).

لا يقتصر الكاتب على المرجعية العربية، ولا على تاريخ الفرس واليونان، بل يفتح على الثقافة الغربية للاطلاع على نصيبها من التأليف السيرذاتي، ثم يواصل بحثه في نصيب العرب في الحاضر من هذا النوع من التأليف بعد استفادتهم من المصدرين العربي والغربي، لكنهم ظلوا حبيسي خوفهم من الكشف التام عن تفاصيل حياتهم وما يعتبرونه أسراراً لهم "لكنهم كثيرا ما يستولي عليهم الحرج والحياء، فيأنفون من ذكر جوانب في حياتهم، ومن عدم توضيح أخرى، مما كانت ستساعد على فهم شخصيتهم دون شك، وبالتالي على فهم "إبراهيم الكاتب" وهيكل

في "زينب"، و"فكري أباضة" في "الضحك الباكي"، و"العقاد" في "سارة"، سجلوا جوانب من حياتهم في هذه القصص والروايات، ولكنهم سترؤ أنفسم وراء بطلها حرجا وتحفظا"(48).

نلمس في كلام صاحب السيرة موسوعية معرفية وحدسا نقديا كان يحاول من خلاله مقارنة الإشكال الأجناسي للسيرة، وإن كان في الأمر نظر، فالأمر لا يتعلق دائما بالخرج من الحديث عن الذات، بقدر ما يتعلق بتداخل الأجناس لدرجة يمكن القول إن جزءا من السيرة الذاتية حاضر بالقوة في كل أشكال الإبداع والفن، وتبقى مهمة الناقد متعلقة بمقارنة مقدار هذا الحضور وتماهيه مع باقي مكونات موضوع الدرس والتحليل. هذا إضافة إلى أن السيرة مهما ارتبطت بميثاق الصدق وعدم التزييف فإنها لا تكشف عن كل ما عاشته الذات من تفاصيل، لأن القلم أولا يعجز عن استيعاب كل هذه التفاصيل، ثم لتعدد الأسباب في إخفاء بعض الحقائق. وتبقى مسألة النسبية حاضرة في كل الظواهر على تعددها واختلافها.

لا يكتفي عباس الجراري الشاب بتتبع مسار السيرة الذاتية في الحضارات والثقافات المختلفة، بل يتسلح بذلك، ويتخذ منه عدة للبحث عن هذا النوع من الكتابة لدى المغاربة، ويتأسف لكون الدافع الأساسي لكتابة السيرة الذاتية لدى المفكرين المغاربة بدأ بملاحظة تغييبهم وتهميشهم، فكتبوا عن أنفسهم من أجل تذكير التاريخ بهم: "وليس هذا الإهمال حديث عهد في تاريخنا، فقديمًا أغفلت شخصيات كثيرة، لم يلتفت إليها، طمست معالم حياتها، وطمست معها معالم أجيال، فتعذر الربط بين حلقاتها ما سبق منها وما لحق... ولا نغلو إذا قلنا إنه أضاع كثيرا من ملامح تاريخ المغرب الفكري والأدبي"(49).

حمل "عباس الجراري" هم الحفاظ على ملامح تاريخ المغرب الفكري والأدبي منذ حادثة سنه، وظل وفيما لمواقفه، فوهب حياته من أجل التوثيق لهذا التاريخ، من خلال المنجز العلمي للنادي الجراري، ومن خلال الإصدارات الكثيرة التي تحاول تصحيح بعض من أخطاء الأسلاف ممن حاول أو أهمل التوثيق لهذا التاريخ، ويتوج المنجز بهذه السيرة الذاتية "رحيق العمر"، التي امتدت جذور

التفكير في محاولة خوض غمار التعريف بها إلى مراحل مبكرة من حياة الكاتب، فهي تقدم وعدا لحر، يعرف أن هذا الوعد دين عليه، بتقديم المزيد من أجل أن تكتمل صورة هذا المشروع الضخم الذي ظل رغم غزارة إنتاجه محتاجا إلى كلمة الكاتب عن نفسه، وإلى تقديمه لوثائق ملء الكثير من الفراغات. والتفكير -ربما- في تأسيس متحف جراري، ولم لا!؟

نختم مقالتنا هاته بسؤال وضعه الدكتور "عباس الجراري" في "طفولة قلم":
"قد يتساءل القارئ عما إذا كان لأدباء المغرب في هذا الفن نصيب يستحق أن يدون ويسجل" (50).

ذكر وهو فتى بعض النماذج - وإن كانت "رحيق العمر" تسجل بأريحية جوابا واضحا عن هذا السؤال- وأضاف تعليقا يفيض مرارة عبر عنه في قوله: " هذه الحقيقة هي إغفال المغاربة لرجالهم، وإهمالهم للنوابغ وقبرهم لمواهب لو منحت ما تستحق من الدرس والتكريم، لكانت لها مكانتها في عالم الفكر والثقافة، ولا شك أن المعاصرة في هذا عامل قوي، فالكاتب يحجم عن تسجيل علم من الأعلام، لا يبغي من إحجامة غير طمس حياة ومحو ما توفر لها من محاسن ومميزات. وليت الأمر يقتصر على هذا الإغفال وعدم اللامبالاة، وإنما يتعداه إلى نصب العداء لمن ظهر بفكرة ذات بال أو برز بمظهر عز نظيره في الأقران" (51).

فهل يوجد في "رحيق العمر" رد اعتبار لكل هذه الذوات المستبعدة؟!
ما نحن متأكدون منه بعد ملامسه موسوعية الكاتب أنه ربي أجيالا على ثقافة الاعتراف، كتبوا عن أعماله الكثير، وكانوا له أبناء أبرارا...
لكن مع ذلك يجوز لنا أن نهمس متسائلين: ألم يبق في نفس المؤلف بعض من مرارة أحسها الفتى عباس، فقرر بعد مضي هذه السنوات طي صفحاتها بكتابة "رحيق العمر"!

* * *

الهوامش:

- 1- طه حسين: الأيام، دار المعارف، الطبعة 54، ص: 28.
- 2- عبد الكريم برشيد: الحكواتي الأخير، إيديسوفت، الطبعة الأولى، ص: 29.
- 3- عباس الجراري: رحيق العمر، الجزء الأول، منشورات النادي الجراري، رقم 101، الطبعة الأولى 2020.
- 4- نفسه، ص: 7-8.
- 5- محمود عبد الغني، ذخيرة الذات، نصوص السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم، منشورات ضفاف، دار الأمان، منشورات دار الاختلاف، الطبعة الأولى 2010، ص: 7.
- 6- عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، الطبعة السادسة، 1976، ص: 275.
- 7- نفسه، ص: 277.
- 8- نفسه، ص: 280.
- 9- نفسه، ص: 285.
- 10- رحيق العمر، مصدر سابق، ص: 8.
- 11- Philippe Lejeune :L'Autobiographie en France,Paris,Armand Colin 1971. نقلا عن : إيف ستالوني: الأجناس الأدبية، ترجمة محمد الزكراوي، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى 2014، ص: 213.
- 12- الأجناس الأدبية، مرجع سابق، ص: 214.
- 13- نفسه، ص: 215.
- 14- نفسه، ص: 217.
- 15- نفسه، ص: 217-218.

- 16-** أوستين وارين ورينيه ويليك: نظرية الأدب -ترجمة محي الدين صبحي- المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، الطبعة الثالثة، 1962، ص: 94.
- 17-** سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، سوشبريس، الطبعة الأولى 1985، ص: 28-29.
- 18-** محمود عبد الغني، ذخيرة الذات، مرجع سابق، ص: 15.
- 19-** نفسه، ص: 18.
- 20-** نفسه، ص: 19.
- 21-** نفسه، ص: 24.
- 22-** هشام موساوي: المناصية في الرواية المغاربية، من العنوان إلى النص، منشورات دار الأمان، مطبعة الأمنية، 2015، ص: 41.
- 23-** فاطمة كدو: تطريز الحكيم في كتابات ليلي أبو زيد، منشورات، دار الأمان، الطبعة الأولى 2015، ص: 10.
- 24-** رحيق العمر، مصدر سابق، ص: 16-17.
- 25-** نفسه، ص: 8.
- 26-** نفسه، ص: 7.
- 27-** نفسه، ص: 7-8.
- 28-** محمود عبد الغني: ذخيرة الذات، مرجع سابق، ص: 11.
- 29-** رحيق العمر، ص: 8.
- 30-** نفسه، ص: 13.
- 31-** نفسه، ص: 10.
- 32-** نفسه، ص: 10-11.
- 33-** نفسه، ص: 11-12.
- 34-** نفسه، ص: 15.
- 35-** نفسه، ص: 12.

- 36- نفسه، ص: 17
- 37- نفسه، ص: 23
- 38- نفسه، ص: 30
- 39- عباس الجراري: طفولة قلم، جمع وإعداد وتقديم سي محمد أملح، منشورات النادي الجراري، رقم 102، الطبعة الأولى 2020، ص: 8.
- 40- - رحيق العمر، مصدر سابق، ص: 143.
- 41- نفسه، ص: 165.
- 42- نفسه، ص: 204
- 43- عباس الجراري: من قضايا اللغة العربية - تصدير محمد اليملاحي جمع وإعداد خديجة العسري، منشورات النادي الجراري رقم 86، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 2020، ص: 27-28-30
- 44- نفسه: ص: 165.
- 45- طفولة قلم، مصدر سابق، ص: 182.
- 46- نفسه، ص 182-183.
- 47- - نفسه، ص: 184.
- 48- نفسه، ص: 184.
- 49- نفسه، ص: 186.
- 50- نفسه، ص: 185.
- 51- نفسه، ص: 185.

* * *

لائحة الكتب المعتمدة:

- 1- أوستين وارين ورينيه ويليك: نظرية الأدب -ترجمة محي الدين صبحي- المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، الطبعة الثالثة، 1962.
- 2- إيف ستالوني: الأجناس الأدبية، ترجمة محمد الزكراوي، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى 2014.
- 3- سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، سوشبريس، الطبعة الأولى 1985.
- 4- طه حسين: الأيام، دار المعارف، الطبعة 54.
- 5- عباس الجراري: رحيق العمر، الجزء الأول، منشورات النادي الجراري، رقم 101، الطبعة الأولى 2020.
- 6- عباس الجراري: طفولة قلم، جمع وإعداد وتقديم سي محمد أملح، منشورات النادي الجراري، رقم 102، الطبعة الأولى 2020.
- 7- عباس الجراري: كلمات تقديم، جمع وتقديم حميدة الصائغ الجراري، منشورات النادي الجراري.
- 8- عباس الجراري: من قضايا اللغة العربية - تصدير محمد اليملاحي جمع وإعداد خديجة العسري، منشورات النادي الجراري رقم 86، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 2020.
- 9- عبد الكريم برشيد: الحكواتي الأخير، إيديسوفت، الطبعة الأولى.
- 10- عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، الطبعة السادسة، 1976.
- 11- فاطمة بن حامي الدناي: قراءة في كتاب كلمات تقديم للدكتور عباس الجراري، منشورات النادي الجراري رقم 100، الطبعة الأولى 2020.
- 12- فاطمة كدو: تطريز الحكي في كتابات ليلى أبو زيد، منشورات، دار الأمان، الطبعة الأولى 2015.

13- محمود عبد الغني، ذخيرة الذات، نصوص السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم، منشورات ضفاف، دار الأمان، منشورات دار الاختلاف، الطبعة الأولى 2010.

14- هشام موساوي: المناصية في الرواية المغاربية، من العنوان إلى النص، منشورات دار الأمان، مطبعة الأمنية، 2015.

* * *

د. عبد العالي بوطيب

- أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة المولى اسماعيل، مكناس.
- رئيس شعبة اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب، مكناس، (1986-1994).
- رئيس مجموعة البحث في السرد والتلقي بكلية الآداب، مكناس.
- عضو اللجنة العلمية بكلية الآداب، مكناس (1999-2002).
- عضو اتحاد كتاب المغرب.
- عضو رابطة أدباء المغرب.
- رئيس وحدة البحث والتكوين في الأدب المغربي الحديث (الدكتوراه)، كلية الآداب، مكناس (2004-2009).
- عضو اللجنة العلمية العربية المكلفة بإعداد موسوعة شاملة عن حصيلة الثقافة العربية في القرن العشرين المعدة من قبل مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.
- عضو لجنة تحكيم جائزة المغرب للكتاب لسنة 2007.
- عضو في لجان تحكيم بعض المجلات العربية.
- عضو في لجان فحص ومناقشة الرسائل والأطاريح الجامعية في جامعات مغربية متعددة.
- شارك الدكتور عبد العالي بوطيب في ندوات وطنية ودولية عديدة، منها:
 - 1- ندوة « البحث في أدب الغرب الاسلامي » (تكريماً للدكتور عباس الجراري)، كلية اللغة العربية، مراكش، نونبر 1992.
 - 2- ندوة « المرأة والكتابة »، من تنظيم كلية الآداب بمكناس، مارس 1995.
 - 3- ندوة « التعريب في التعليم العالي »، المنظمة في دمشق من قبل المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، في الفترة الممتدة من 11/30 و 12/2/2003.
 - 4- ندوة « القراءة والتأويل »، ندوة دولية منظمة من طرف المعهد العالي للغات التابع لجامعة 7 نوفمبر بقرطاج، تونس، أبريل 2004.

المنشورات: أ- الكتب:

- 1- الوحدة والتنوع في فكر عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري (الرباط، مطبعة الأمنية، 1998).
- 2- مستويات دراسة النص الروائي، مقارنة نظرية. (الرباط، مطبعة الأمنية، 1999).
- 3- مستويات دراسة النص الروائي، مقارنة تطبيقية لنماذج مغربية، منشورات كلية الآداب، مكناس، سلسلة أبحاث ودراسات، العدد السادس، 2000.
- 4- الكتابة والوعي، دراسة لبعض أعمال غلاب السردية (المحمدية، مطبعة المتقي برنتر، 2001).
- 5- الكتابة والوعي، دراسة في أعمال غلاب السردية (منشورات دار الحرف، 2007).
- 6- الرواية المغربية من التأسيس إلى التجريب، (مكناس، منشورات كلية الآداب، 2010).
- 7- مستويات دراسة النص الروائي بين النظرية والتطبيق، (الأردن، منشورات عالم الكتاب الحديث، 2019).
- 8- الزمن في الرواية (الدوحة، دار كتارا للنشر، 2019).
- ب- ضمن كتاب جماعي: للدكتور عبد العالي بوطيب مجموعة من الدراسات المنشورة في كتب جماعية، منها:
 - 1- زهرة الآس في فضائل العباس (الرباط، مطبعة المناهل، وزارة الثقافة، 1997).
 - 2- الثقافة أساس التفاهم والتطور والحوار (الرباط، المعهد الجامعي للبحث العلمي، 1998).
 - 3- النقد الأدبي بالمغرب: مسارات وتحولات (منشورات رابطة أدباء المغرب، 2002).
 - 4- قضية المنهج في النقد المغربي الحديث (مكناس، كلية الآداب، 2013).
 - 5- الأدب المغربي الحديث والمعاصر: التاريخ والخطاب، أبحاث مهداة إلى الأستاذ الدكتور محمد احميدة، منشورات كلية الآداب، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، (الرباط، مطبعة الأمنية، 2014).
 - 6- التفاعل بين الأدب والفنون الأخرى (الأردن، منشورات عالم الكتب الحديث، 2019).

حضور الكاتب في الكتابة: قراءة في (رحيق العمر) للدكتور عباس الجراري

د. عبد العالي بوطيب

يقال عادة : (إن الكاتب لا يكتب إلا عن نفسه بشكل من الأشكال)، مقولة صحيحة إلى حد كبير، خصوصا إذا ما نحن أخرجناها من مفهومها المباشر الضيق طبعاً، وأعطيناها بعداً أوسع وأرحب، يتجاوز بكثير الحضور الفعلي الصريح لحياة الكاتب الخاصة فيما يكتب، كما في الكتابات الإحالية ذات الطابع الشخصي المحض تحديداً، كالسيرة والسيرة الذاتية والمذكرات واليوميات وغيرها، وذلك تفادياً لما قد يوقعنا فيه هذا المعنى الظاهر المباشر البسيط من اختزال يفرغ إلى حد كبير المقصود العميق والشامل لهذه المقولة، ويحصرها بالتالي في حدود ما بات يعرف بين النقاد والمهتمين (بالأدب الشخصي)، القائم تحديداً على آلية استرجاع الكاتب لوقائع حياته الخاصة، كلا أو بعضاً، وتدوينها في كتاب صونا لها من الضياع أو التحريف الذي يتهددها في كل وقت وحين. وذلك من خلال آلية التطابق المطلق بين محفل المؤلف والسارد والمسرود عنه، وجمعها في ضمير واحد يعود على الكاتب. مجسداً بذلك حضور الكاتب الفعلي نصياً فيما يكتب، وهو ما يؤكدُه عادة الميثاق الأوطوبيوغرافي المصرح به على ظهر الغلاف(1)، تماماً كما عبر عن ذلك (مونتاني) في مقدمة سيرته قائلاً: (إنني أرسم ذاتي، فأنا الكاتب وموضوع الكتاب)(2). وبذلك يستبعد كل أنواع الكتابات الأخرى، خصوصاً منها تلك الكتابة المعروفة بالتخييلية، كالرواية والقصة والمسرحية وغيرها. نظراً لانفصال عرى العلاقة السابقة فيها بين شخصيتي الكاتب والمكتوب عنه بفعل الطابع التخيلي للعمل، وميثاقه الروائي(3)، حتى وإن حضرت

بعض أمشاج حياة الكاتب الخاصة أحيانا في أغلب هذه النصوص، متماهية في نسقتها الإبداعي التخيلي العام، كما في (كتابة التخييل الذاتي)، ما دام ذلك لا ولن يغير في شيء من الطبيعة الأجnasية الخاصة لهذه النصوص.

وعليه فإن نوعية الحضور المقصود في هذه المقولة يتجاوز بكثير حدود الحضور الضيق الفعلي المباشر لحياة الكاتب في الكتابات الشخصية فقط كما قد يعتقد للوهلة الأولى، بقدر ما يتسع ليشمل جوانب أخرى أوسع وأرحب، لها ارتباطات ضمنية عديدة ومتنوعة، تتجاوز بكثير الأبعاد الظاهرية السابقة، المرتبطة غالبا بما يحكى فقط، لتطال الكيفية التي تحكى بها أيضا، وهو ما يعني بعبارة أخرى أنه حضور عام شامل يهم كل جوانب المكتوب بمختلف ألوانه وأجناسه. لا فرق في ذلك بين كتابة شخصية وأخرى تخيلية، ولا بين شكل ومضمون. وما معرفتنا المسبقة أحيانا بصاحب العمل المقروء، أيا كانت طبيعته ومحتواه، من خلال خصائصه الفنية والفكرية فقط، سوى دليل قاطع على صحة ذلك.

ليس معنى هذا طبعا أن هذا الحضور يكون دائما في كل هذه الكتابات على اختلاف تلويناتها بنفس القوة من حيث الدرجة والنوع، لا ليس هذا هو المقصود طبعا، بقدر ما يعني فقط أن هذا الحضور يعم كل الكتابات، ولا يغيب عنها أبدا، وإن اختلفت طبعا أشكاله وتمظهراته، بالقدر الذي يحفظ خصوصية كل كاتب، ويصون أسلوبه الخاص في الكتابة.

وعليه ففي الرواية مثلا، وهي جنس تخيلي كما هو معلوم، تغيب، أو تكاد المعطيات السير ذاتية الخاصة بالكاتب على مستوى المآن الحكائي، لتترك مكانها بالمقابل للحضور الضمني الكثيف لذخيرته الثقافية العامة، الفنية منها والفكرية، المكتسبة على امتداد حياته عبر مختلف قراءاته ومشاهداته وتجاربه، بما يشكل

في مجموعه الخصوصية الإبداعية المميزة له ولكتاباتة. كما يستشف ذلك من النصوص الروائية عديدة، عربية كانت أو غربية. يكفي أن نستحضر بالمناسبة الرد المعبر الطريف للروائي الفرنسي الشهير فلوبيير (Flaubert) عن سؤال يخص علاقته الشخصية ببطلة رائعتة (مادام بوفاري)، حيث قال: (إما - Emma-)، وهذا هو اسمها، هي أنا).

والعكس طبعاً ينطبق على الكتابة الشخصية ممثلة في السيرة الذاتية، حيث يرتفع منسوب حضور المعطيات الأوطوبيوغرافية الخاصة بالكاتب، كلا أو بعضاً، حسب المقاصد المتوخاة، حتى وإن اعتمد السارد في حكيها أحياناً على ضمير الغائب (هو)، كما فعل طه حسين في سيرته (الأيام) مثلاً، ما دام ذلك لا ولن يؤثر أبداً في طبيعة العلاقة الشخصية الوثيقة القائمة بين الكاتب وما يكتبه. بقدر ما يغير نوعية الرؤية السردية المعتمدة في نقل هذه الأحداث والوقائع الشخصية فقط. بحيث ينقلها من التبئير الداخلي الذاتي المألوف عادة في مثل هذه الكتابات، كما هو حال النص المدروس الآن، للتبئير الخارجي المحايد، القريب إلى حد ما من كتابة السير الغيرية المتجذرة في الثقافة العربية الإسلامية. كل ذلك مقابل حضور شكلي يبدو ظاهرياً أنه أقل، بالنظر لطبيعته الضمنية الخفية، ويحتاج عملياً لمجهود أكبر من القارئ لكشف مختلف تجلياته. خصوصاً إذا علمنا أن هذا النوع من الكتابة الشخصية، وإن اختلفت طبيعته عن الكتابة التخيلية، فإنه لا يقل عنها فنياً وإبداعياً. وما عملية إسناد بعض الأعلام مهمة كتابة سيرهم الذاتية للكتاب المتمرسين، وتردد بعضهم الآخر في اختيار الكيفية المناسبة لتدوينها، كما حصل مع المرحوم عبد الكريم غلاب مثلاً، سوى دليل قوي على صحة ما نقول(4).

بذلك تتأكد صحة المقولة السابقة التي انطلقنا منها في مستهل هذه الدراسة في مفهومها الواسع الرحب الذي لا يستثني جنسا أدبيا دون آخر، ولا لونا تعبيريا دون غيره، أيا كانت طبيعته وخصائصه. ما دام هذا الحضور لا ينحصر فقط في البعد الفعلي الصريح والمباشر لحياة الكاتب وحده، بقدر ما يتجاوزه ليشمل الحضور الضمني الخفي أيضا. وهو ما يعني بعبارة أخرى أنه حضور يتجاوز المضمون، المتعلق أساسا بما يحكى، ليطل الشكل الخاص بالطريقة المعتمدة في السرد أيضا. ولو بدرجات وصور مختلفة تتناسب والطبيعة الأجناسية الخاصة بكل كتابة.

لكل هذه المعطيات وغيرها، مما لا يتسع المقام لذكره، اخترت دراسة هذا الموضوع في (رحيق العمر) الجزء الأول من موجز السيرة الذاتية الخاصة بعميد أدبنا المغربي الدكتور عباس الجراري أطال الله في عمره. والمفترض مبدئيا تكونها من ثلاثة أجزاء، مختلفة ومتكاملة، خصص أولها، كما هو مبين على ظهر الغلاف، ومؤكد بنوع من التفصيل في مقدمة الكتاب، لموضوعي النشأة والمشروع. يقول : (وبعد، فهذا جزء أول من موجز سيرتي الذاتية، التي سميتها (رحيق العمر). وقد خصصته لمرحلة النشأة وما كان يشغلني فيها من مشروع علمي، كتب الله لي فيه بعض التوفيق، على أن أتبعه بجزء ثان قد يكون عنوانه (الشهود الفاعل)، وفيه أتناول ما شاهدته وما ساهمت به - قدر الإمكان - في الشأن الوطني العام، تحت ظل ثلاثة ملوك عظام هم:

- جلالة الملك المجاهد بطل التحرير محمد الخامس طيب الله ثراه.
- وجلالة الملك المغفور له مولانا الحسن الثاني : المثقف الكبير والسياسي المحنك الذي استطاع بوطنيته ودهائه أن يحفظ للمغرب كيانه ووحدته، ويرد عنه كل الدسائس والمؤامرات.

• ثم جلالة الملك سيدي محمد السادس: المفكر المتزن والسياسي المتبصر والمجدد المستنير، الذي أكرمه الله ببيعة لم تتقدم لغيره، وبإجماع عليه فاق كل تقدير، ورزقه هبة وقبولا لا يمنحهما إلا للصادقين المخلصين من عباده المؤهلين لحمل الرسالات، أيده الله ونصره وأعز أمره في صحة كاملة وعافية شاملة. وقد أضيف إلى الجزئين الأول والثاني، جزءا ثالثا يتضمن مجموعة من الصور الشخصية والعامة المواكبة لمراحل هذه السيرة(5).

وقد جاءت هذه السيرة الذاتية العطرة، كما أوضح ذلك صاحبها، تلبية لرغبة ملحّة من بعض الأصدقاء الأوفياء، ولسد بعض الخصاص الحاصل في التعريف بحقيقة الجهود الخاصة والعامة التي بذلها الكاتب على امتداد أزيد من ستة عقود أمضاها كاملة في تحصيل العلم والمعرفة، داخل المغرب وخارجه، ونشره بين صفوف الطلبة والباحثين خدمة للمصلحة العامة، رغم الظروف الصحية الصعبة العديدة التي مر بها، والعراقيل المختلفة التي واجهها. إلا أنه استطاع مع ذلك كله بعزمته وأرادته، وبتوفيق من الله عز وجل، تجاوزها، وبالتالي تحقيق طموحاته، وما نذر نفسه له من بداية حياته في كنف أسرته وتحت رعاية والده العالم الجليل المرحوم سيدي عبد الله الجراي، يقول في هذا الصدد : (وإني لأود منذ البدء في هذا التقديم، أن أشير إلى أن نشأتي في بيت علم ودين ووطنية كان لها أكبر تأثير على مسيرة حياتي، وكان لي فيها الوالد رحمه الله هو القدوة والمثال. تنضاف إليها حالتي الصحية التي جعلتني تلقائيا، ومنذ طفولتي الأولى أصرف النظر عن كل ما يتعارض مع سلامتها، أو ما يبعدني عن اتباع القدوة وتحقيق المثال(6).

وبالمناسبة تجدر الإشارة إلى أنه رغم الطابع الشخصي الخاص لهذا العمل، على غرار كل الكتابات السير ذاتية عامة، إلا أنه مع ذلك لا يخلو من معلومات تاريخية قيمة، تشهد على مكانة الرجل والمهام العلمية والعملية، التربوية منها والديبلوماسية، التي تحملها باقتدار كبير على امتداد حياته الطويلة الزاخرة، مما

يعطي هذا العمل قيمة معرفية استثنائية إضافية تتجاوز بكثير حدود ما هو مألوف ومعروف في مثل هذه الكتابات. خصوصا إذا علمنا أن المؤلف بخبرته الطويلة الوازنة في هذا المجال، استطاع إلى حد كبير احترام كل الشروط الموضوعية المطلوبة في سرد مثل هذه المعطيات والوقائع، بعيدا عن كل ما من شأنه الإخلال بمقاصده السامية النبيلة، يقول الكاتب : (هذا وأود أن أشير إلى أن قصدي من تسجيل هذه السيرة أن تكون خالصة صادقة، وصافية من كل تزيف أو تحريف أو مبالغة. وهو ما اجتهدت أن ألتزمه ولا أحيد عنه، ولو شعرت بأدنى ميل عن هذا الالتزام لأسرعت إلى تمزيق ما كتبت، باعتباره سيكون غير ذي أهمية بالنسبة للأجيال الجديدة المتطلعة إلى مزيد من التواصل فيما بينها ومع من سبقها، وإلى مزيد من معرفة تلك الحقائق وتأمل واقعها، في بعدها الممتد أزيد من ستة عقود، منذ انتهاء عهد الحجر والحماية وبزوغ فجر الاستقلالوالحرية(7). وفي هذا الإطار يكفي الرجوع للوثائق الملحقة بهذا العمل للتأكد من صحة ذلك.

ولبلوغ هذه المقاصد التعبيرية، الخاصة منها والعامة، قسم الكاتب هذا الجزء الأول من موجز سيرته الذاتية المخصص لموضوعي النشأة والمشروع، وفقا للمنهجية المناسبة المعتمدة، لسبعة عشر فصلا معنونا، بالإضافة لمقدمة وملحق. توزعت فيما بينها، حسب طبيعة والحاجة كل منها، مجموع صفحات العمل المكونة من (290) صفحة من القطع المتوسط على النحو والترتيب التاليين:

- نسب الأسرة الجراحية.
- مدينة الرباط.
- قدوتي والمثال: عبد الله بن عباس الجراحي.
- مع أخواتي وإخوتي في حضن الوالدين بالبيت.
- مراحل تكويني وتحولاتي الدراسية.
- مسيرتي الوظيفية.

- مع أسرتي الصغيرة - زوجتي والأولاد -.
- مؤلفاتي: 1/ المطبوعة. 2/ المخطوطة.
- منهجي في البحث واتجاهي الثقافي.
- نشاط ثقافي دروس حسنية.
- تقديم كتب
- إشرافي على البحوث الجامعية: إجازتي لطالبيها على الطريقة التقليدية.
- عضوياتي.
- النادي الجراي.
- المكتبة والمعرضات.
- أوسمة ودروع تكريمات: 1/ أوسمة ودروع. 2/ تكريمات.
- كتابات عني وأشعار ومصادر ترجمتي: 1/ كتابات ومؤلفات عني. 2/ بحوث الإجازة والدراسات المعمقة. 3/ ترجمة موجزة لي في مصادر أخرى. 4/ أشعار ومصادر تكميلية.
- محلق: وثائق خاصة (دراسية وإدارية).
- الفهرس (8).

من خلال هذه الفصول وعناوينها، مجتمعة ومتفرقة، يمكننا مبدئياً استخلاص جملة من الملاحظات، نكتفي مراعاة لطبيعة الموضوع بذكر اثنين منها، لهما ارتباط وثيق طبعا بالمقولة المركزية السابقة المعتمدة في مقارنة هذه السيرة الذاتية.

أولاهما تتعلق طبعا بالحضور الفعلي المباشر لأهم المراحل والمحطات الرئيسية في حياة المؤلف، التي كان لها، وما يزال، الأثر الكبير في تكوين شخصيته، العلمية والعملية، بدءاً من البيت والكتاب والمدرسة والثانوية، مروراً بالهجرة الدراسية الجامعية بكل من مصر وفرنسا وغيرهما، وانتهاءً بمختلف المهام الجامعية والرسمية التي تولاهما، وأهمها تعيينه مستشاراً خاصاً لجلالة الملك محمد السادس

نصره الله وأيده، وهي المهمة السامية التي ما زال يتحملها حفظه الله إلى اليوم. ولتقريب القارئ أكثر من حقيقة هذه الملاحظة اكتفى لضيق المقام باقتطاع مقطع معبر يلخص بشكل دقيق أبرز تجليات هذا الحضور في جانبه التعليمي تحديداً، وبعض الصعوبات التي واجهها في طريقه، لا سيما الصحية منها، لتحقيق حلمه وطموحه، يقول في هذا السياق : (ولست أشك في أن الدراسة المنزلية المتينة هي التي شجعتني في سنة 1956 م فور إعلان استقلال المغرب على أن أغير اتجاه تعليمي من الفرنسية إلى العربية، وأنا يومئذ في قسم الباكلوريا بالثانوية اليوسفية، وعلى أن استسمح الوالد في أن أرحل إلى القاهرة لإتمام دراستي العليا، وقد قبل على مضض، ليس بسبب تحويل الاتجاه، ولكن بسبب ظروف الصحية التي كانت تثقله باستمرار. وإني لأحمد الله على أن كنت أدخل عليه المزيد من السرور بتفوقي المطرد في الدراسة، وإن سببت له الكثير من الآلام نتيجة إقامتي الطويلة في الخارج، منها خمس سنوات في مصر للتعليم امتدت من 56 إلى 61، وبعدها سنة دراسية في باريس، ثم ثلاثة أعوام كنت فيها موظفاً بسفارة المغرب في القاهرة، ولم أرجع إلا عام 1965، لألتحق بهيئة التدريس في كلية الآداب بجامعة محمد الخامس، وخلال السنة الدراسية 68-69 عدت إلى مصر لأنجز آخر مرحلة لي في الدكتوراه. وقد زاد في تلك الآلام ما تعرضت له صحياً في سنوات الغربة، ولاسيما أواخر 62 وأوائل 63، حين أجريت لي عمليتان جراحيتان في المعدة بمصحة هيليوبوليس بمصر الجديدة بالقاهرة على يد الأستاذ الدكتور أحمد المازني، أولهما لاستئصال القرحة، والثانية لمواجهة مضاعفات خطيرة استمرت آثارها معي مدة طويلة(9). وهو ما سيمكن القارئ حتماً من تكوين صورة شاملة غير منقوصة عن أهم العوامل المشكلة لشخصية المؤلف بعيداً عن كل التخمينات والتأويلات، البرينة منها والمغرضة، وما قد يتولد عنها أحياناً من انعكاسات سلبية محتملة، من شأنها

الإساءة، بشكل أو بآخر، للصورة الحقيقية لصاحبها را هنا ومستقبلا. تماما كما اعترف بذلك الكاتب نفسه صراحة في مقدمة عمله قائلا : (... ولأنهم إن لم يفعلوا تبقى بعض الجوانب قابلة للتخمين والتأويل، إن لم تتعرض للتحريف والتزييف، وربما للسطو الذي بدأت تظهر آثاره حتى على ما هو منشور ومعروف. لذلك فإنه إذا شعر أحد المؤلفين أن مثل ذلك التعريف القصير - في أي شكل من أشكاله - لم يعد كافيا في نظر قرائه، فإنه يلجأ إلى كتابة ما يطلق عليه (سيرة ذاتية) (Autobiographie)، يضمنها تفاصيل مراحل حياته وما عاش فيها من تجارب خاصة، وما صادف من وقائع وأحداث عامة، وما خلف كل ذلك في ذهنه ونفسه وفكره من ذكريات(10).

ولعل هذا ما يفسر، في الوقت ذاته، سر إقبال الدكتور عباس الجراري على كتابة سيرته الذاتية من ناحية، وحرصه الشديد، من ناحية أخرى، على إرفاق وقائعها وأحداثها بالوثائق الضرورية اللازمة لتأكيداتها، ضمانا لمصداقيتها. كما هو مبين ومثبت في الملحق الوارد في نهايتها(11).

• أما ثانيتهما فتختلف عن الأولى في النوعية، وإن التقت معها طبعاً في تأكيد حضور شخصية الكاتب فيما يكتبه، ولو بطريقة أخرى مغايرة تماماً لسابقتها، بالنظر لطبيعتها الضمنية. وما تتطلب من مجهود استثنائي خاص على مستوى القراءة. وهكذا فبعودتنا للعناوين السابقة المشكلة لمفاصل السيرة الذاتية المدروسة نلاحظ أنها منفصلة زمنياً فيما بينها، وإن التقت جميعها موضوعاتياً عند غاية واحدة محددة سلفاً، متمثلة أساساً في رسم صورة معينة عن المسار الدراسي والعلمي لصاحبها. وهو ما يفسر في تقديري الطابع الانتقائي المقصود المعتمد في اختيار وقائعها، وكذا الطريقة المناسبة الخاصة لتقديمها، خلافاً لما هو مألوف ومعروف في العديد من الكتابات المماثلة القائمة أساساً على المعيار الزمني وحده، حتى ولو كان ذلك على حساب الترابط المنطقي والسببي أحياناً كثيرة، كما

هو الحال مثلا في (حياتي) لأحمد أمين، حيث يتم استعراض مختلف مراحل حياة الكاتب، بشكل تسلسلي تصاعدي تدريجي، من الولادة للشيوخوخة، مروراً بما بينهما، دون اعتبار للغاية التواصلية المقصودة من وراء استعراض جميع هذه المراحل. ولا الآثار السلبية المتولدة عن مقروئيتها، مما يحولها لمجرد تراكم عشوائي لوقائع شخصية لا يحكمها منطق ولا هدف. اللهم إلا ما كان من نسبها الصريح لصاحبها. أما فيما عدا ذلك فهي لا تقدم شيئا يذكر عن حقيقة شخصيته، ولا العبرة الأساسية المستهدفة من وراء سرد سيرته. وهذا ما حاول الدكتور عباس الجراري، بخبرته ونباهته، تفاديه طبعاً، من خلال تركيزه الكلي على مراحل وجوانب محددة بعينها، لها ارتباط وثيق بالقصد التعبيري المحدد سلفاً، مستبعداً في الوقت ذاته باقي الأشياء الأخرى التي من شأنها الإخلال بذلك. وهو ما أضفى على سيرته الذاتية قيمة معرفية استثنائية خاصة، تتجاوز بكثير ما سبقت الإشارة إليه، كما تؤكد في الوقت ذاته مظهر آخر من مظاهر هذا الحضور الفعلي، ولو بشكل تلمحي مغاير لسابقه. وما اكتفاء الدكتور عباس الجراري بسرد مراحل محددة بعينها، مع تركيزه الكلي على موضوعي النشأة والمشروع فقط، واستبعاده المطلق لكل ما لا علاقة له بما أسماه: (رحيق العمر) (12)، سوى دليل ملموس على صحة ذلك. وكيف لا ؟ وقد اختار لها صاحبها أن تكون (سيرة ذاتية فكرية) (13)، قائمة على ترتيب هادف، أساسه استعراض القضايا والأغراض ذات الصلة الوثيقة المباشرة بهذه الغاية دون غيرها (14).

وبانتقالنا للجانب السردى الخطابي الحامل لمواد هذه السيرة الذاتية، وما يعكسه أيضاً من مظاهر حضور تعبيري لافت، يجسد في مجموعه أبرز سمات كتابة صاحبه، وطريقته المتميزة الخاصة في تقديم مواد وأفكاره. نلاحظ في مقدمتها طبعاً أسلوبه البليغ الرصين المعروف بجودة فصاحته ودقة مفرداته، مع محافظته الصارمة على قواعد الكتابة العربية الأصيلة، بعيداً عن شوائب الرطانات التعبيرية الدخيلة. لدرجة يستحيل معها الخلط بين أسلوبه وأسلوب غيره. كما يتضح ذلك جلياً من المقطع الموالي المقتطف من الشهادة التاريخية التي

أوردها الكاتب بخصوص ما عرفته وقائع انتخاب الأجهزة المسيرة لدواليب اتحاد كتاب المغرب في مؤتمره الثاني سنة 1968، على سبيل المثال لا الحصر، مما جاء فيها: (في صيف 1968، وبالتحديد أيام الجمعة والسبت والأحد، خامس وسادس وسابع يوليوز، حدث أن انعقد المؤتمر الثاني لاتحاد كتاب المغرب في مدرج الشريف الإدريسي بكلية الآداب في الرباط، وتم انتخابي رئيسا لتسيير جلسات هذا المؤتمر، الذي كان معظم المشاركين في أعماله يسعون إلى تصحيح أوضاع الاتحاد، بدءا من مراجعة شروط العضوية فيه إلى عدم تجديد انتخاب العميد لرئاسته. وكان من الصعب يومئذ تدبير هذا التصحيح في مطلبية اللذين هما متلازمان كما سيتضح. فارتأيت تشكيل لجنة لمراجعة مسألة العضوية، رغما عن الذين كانوا يعارضونني بحجة أن لائحة الأعضاء موجودة. ولكن الذي دعاني إلى التمسك بضرورة المراجعة أن رئيس الاتحاد - وهو يعد لتجديد انتخابه - فتح باب العضوية قبل المؤتمر بأيام لعدد من الذين كان يراهم معظم المؤتمرين غير مؤهلين لهذه العضوية.

وبعد أن اختلت اللجنة للقيام بهذه المراجعة التي أقصت كل من اعتبر دخيلا على المجال، قررت بالاتفاق مع أعضاء مكتب المؤتمر تأجيل الإعلان عن هذه النتيجة للإخبار بها عمليا قبل جلسة إجراء الانتخاب. وأذكر أن السيد العميد الرئيس كان بين الجلسات يأخذني إلى مكتبه ويبرز لي الملف الخاص بي، ويؤكد لي أنه سيوقعه أمامي بالموافقة على طلبي شريطة أن أوافق على مخططه، وأن أتخلّى عن فكرة مراجعة اللوائح، ولكنني واجهت هذه المساومة برفض قاطع دفعت ثمنه غاليا..

وهكذا استمرت جلسات المؤتمر إلى أن كان موعد جلسة انتخاب المكتب الجديد مساء يوم الأحد، فأفرغت المدرج، ووقف الجميع خارجه، واعتليت كرسي باباه، وأخذت في النداء على من تم الاتفاق على عضويتهم ليدخلوا، وكان الوقت متأخرا، ثم أغلقت الباب لإجراء الانتخاب الذي كان من حظ المرحوم السيد عبد الكريم غلاب رئيسا، وعضوية السادة محمد برادة وربيع مبارك ومصطفى القباج والمرحومين العربي المساري ومحمد عزيز الحبابي(15). وهو ما يؤكد باللموس أن

الأسلوب العربي المشبع بالرصانة، الخالي من الرطانة، يمتلك قدرة تعبيرية هائلة، لا في الكتابة الشعرية فقط، كما كان الاعتقاد سائدا من قبل، وإنما في الكتابة النثرية أيضا، والسردية منها على وجه التحديد، بما فيها الكتابة السير ذاتية طبعاً، بالنظر لقيمتها التعبيرية المضافة الدالة على الحضور الضمني غير المباشر للكاتب فيما يكتبه. كما يؤكد ضمير المتكلم (أنا) المعتمد هنا في سرد وقائعها.

إذا أضفنا لذلك كله الحمولة المعرفية الهائلة والمتنوعة التي تحفل بها هذه السيرة الذاتية، بحيث لا يكاد يخلو مقطع من مقاطعها من بعض تجلياتها، كما هو الحال مثلاً في المقطع الموالي الذي استعرض فيه الكاتب نماذج دالة على تجذر الكتابات الشخصية في تراثنا العربي الإسلامي، قائلاً: (وليس هذا بغريب ولا طارئ على ثقافتنا التي بدأت تظهر فيها أنماط من مثل هذه الكتابات كالمذكرات واليوميات، فقد كان معروفاً في تراثنا العربي الإسلامي أن غير قليل من العلماء - مشارقة وأندلسيين ومغاربة - ولا سيما من المحدثين والمؤرخين وأصحاب الفهرسات، كانوا يترجمون لأنفسهم في مؤلفاتهم. فالسيوطي فعل ذلك في كتابه (حسن المحاضرة)، ومثله ياقوت الحموي في (معجم الأدباء)، ولسان الدين بن الخطيب في (تاريخ غرناطة)، وابن حجر في (قضاة مصر)، وأبو شامة في (الروضتين)، وأبو الربيع الحوات في (ثمرة أنسي)، وفتح الله بناني في (المجد الشامخ)، ومحمد بوجندار في (مبتدأ خبري)(16). مما يذكرنا حتماً بموسوعية الرجل وسعة عمله ومعرفته. ويؤكد في الوقت ذاته ضمناً مظهراً آخر من مظاهر حضور الكاتب فيما يكتبه.

لهذه المعطيات وغيرها أعتبر شخصياً أن هذا العمل يكتسي أهمية خاصة في التعريف بصاحبه، لا بالنظر لما يحويه من أخبار ووقائع صريحة مباشرة تتعلق تحديداً بحياته العلمية والعملية فقط، وإنما لكونه يعبر عن حقيقة شخصيته بطريقة ضمنية غير مباشرة أيضاً. وكيف لا؟، وقد دأب الكتاب على اعتبار السيرة الذاتية: (أعظم

مؤلفاتهم، لأنها تحوي بين دفتيها كل ما سبقها وتفسره وتبرره، وهي إلى ذلك تتويج لأعمالهم وحياتهم(17). تماما كما أورد ذلك المنظر جورج ماي في كتابه الشهير.

* * *

بيان الإحالات والهوامش:

1- الدكتور عباس الجراري: رحيق العمر، منشورات النادي الجراي رقم 101، دار أبي رقرق، الرباط، 2020.

2- أنظر: Lejeune Ph. le pacte autobiographique. éd : Seuil , 1975.

3- جورج ماي: السيرة الذاتية، ترجمة محمد القاضي وعبد الله صولة، منشورات المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، قرطاج، 1992.. صفحة: 42.

4- أنظر الحوار الذي أجراه بعض أعضاء اتحاد كتاب المغرب مع المرحوم الأستاذ عبد الكريم غلاب بهذا الخصوص، مجلة آفاق المغربية، عدد: 2، سنة: 1991، صفحة: 147 وما بعدها.

5- الدكتور عباس الجراري: مؤلف مذكور، 2020، صفحة: 17/16.

6- الدكتور عباس الجراري: مؤلف مذكور، 2020، صفحة: 9/8.

7- الدكتور عباس الجراري: مؤلف مذكور، 2020، صفحة: 17.

8- الدكتور عباس الجراري: مؤلف مذكور، 2020، صفحة: 288/287.

9- الدكتور عباس الجراري: مؤلف مذكور، 2020، صفحة: 80/79.

10- الدكتور عباس الجراري: مؤلف مذكور، 2020، صفحة: 8.

11- أنظر الدكتور عباس الجراري: مؤلف مذكور، 2020، صفحة 259 وما

بعدها.

12- أنظر دلالة عبارة (رحيق العمر) في المعاجم اللغوية، كلسان العرب، والقاموس المحيط.

13- جورج ماي: مرجع مذكور، 1992، صفحة: 50 وما بعدها.

14- أنظر ما أورده جورج ماي في كتابه المذكور، 1992، صفحة: 76 وما بعدها.

- 15- الدكتور عباس الجراري: مؤلف مذكور، 2020، صفحة: 123/122.
- 16- الدكتور عباس الجراري: مؤلف مذكور، 2020، صفحة: 8/7.
- 17 - جورج ماي، مرجع مذكور، 1992، صفحة، 39.

* * *

د. فاطمة كدو

- أستاذة جامعية، كلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن طفيل، القنيطرة.
- عضو مختبر « أرخبيل »، بكلية الآداب، القنيطرة.
- عضو مختبر « الديداكتيك واللغات والوسائط والدراماتوجيا » بكلية الآداب، القنيطرة.
- عضو اتحاد كتاب الأنترنت العرب.
- عضو لجنة تحكيم أدب الشباب بالقناة الثانية، 2014 و 2016.
- عضو بالعصبة المغربية لتربية النظامية ومحاربة الأمية (سابقاً).
- عضو لجنة التحكيم العلمي بجامعة عبد المالك السعدي، كلية الآداب، تطوان.
- عضو لجنة التحكيم لجائزة المغرب، 2020.
- أشرفت وتشرف على عدة أبحاث لنيل شهادة الماستر.
- أشرفت وتشرف على عدة أطاريح لنيل شهادة الدكتوراه.
- شاركت في العديد من الندوات العلمية واللقاءات الثقافية في جامعات مغربية.
- الإصدارات:
- 1- دليل الطالب إلى تقنيات التعبير والتواصل، 2013.
- 2- أدب.Com: مقارنة للدرس الأدبي الرقمي بالجامعة، 2014.
- 3- الخطاب النسائي ولغة الاختلاف، مقارنة للأنساق الثقافية، 2014.
- 4- تطوير الحكيم في كتابات ليلى أبو زيد، 2015.
- 5- دليل الطالب إلى منهجية العمل الجامعي، 2015.
- تحت الطبع: 1- مظاهر الثقافة المغربية في الرحلة الفرنسية.
- 2- الثقافة المغربية وتحديات ما بعد الكولونيالية.
- ضمن كتاب جماعي: شاركت د. فاطمة كدو بدراسات نشرت في مؤلفات جماعية، منها:

- 1- دوائر الخوف في خطاب فاطمة المرنيسي، ضمن كتاب « شهرزاد المغربية: دراسات وشهادات عن فاطمة المرنيسي»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان.
- 2- مفهوم "المحلية" في الفكر النقدي للدكتور مصطفى يعلى، ضمن كتاب « في شعرية القصة القصيرة»، دار الأمان، 2014.
- 3- الوجه الثقافي لمدينة الرباط في الزمن الكولونيالي، ضمن كتاب « الأدب المغربي الحديث والمعاصر: التاريخ والخطاب»، أبحاث وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور محمد حميدة، مطبعة الأمانة، 2014.
- 4- عبد الرحمان المجذوب في الدراسات الاستشراقية من خلال كتاب كونت هنري وكاستري، ضمن كتاب « تكامل المعرفة والعلوم الانسانية»، سلسلة مونوغرافيا للعلوم الانسانية، جامعة لورنتيان، كندا.

* * *

رحيق العمر: من سرد الذات إلى سرد الآخر "النشأة وبناء الذات الجماعية" في سيرة "السي" عباس الجراري

د. فاطمة كدو

تركز مساهمتنا، كما يبيّن العنوان، على "النشأة وبناء الذات" باعتبارها لبنة مهمة في بناء الذات وانطلاقها إلى آفاق تشاركية، تجمع الثقافي والفكري والسياسي والعقدي والاجتماعي. وما كان للرحيق أن يفوح لولا وجود تربة خصبة تتناوب عليها الأيادي بالعناية والرعاية كي تنمو الوردة في مشتلها إلى جانب أقرانها.

يقدم لنا "السي" عباس الجراري سيرته الذاتية من خلال غلاف يحمل دلالات رمزية متنسقة فيما بينها، منسجمة في أبعادها الهوياتية، حيث يتشكل تصميم الغلاف من عنوان رئيسي: "رحيق العمر" وآخر فرعي: "موجز سيرتي الذاتية = ج1 النشأة والمشروع"، وتحضر ثنائية: رحيق / موجز، للدلالة - قبل الشروع في قراءة السيرة- على ميثاق أولي بين سارد السيرة وصاحبها وبين القارئ. ومن المعروف أن الكاتب مهما كان جنس العمل الذي يتوخى التواصل من خلاله مع جمهور القراء، يختار له بعناية العنوان الدال على محتويات منجزه الكتابي، مع التركيز على استعمال دلالات رمزية مرافقة، وبقدر تمكن الكاتب من اللغة واستعاراتها الظاهرة والباطنة، يكون لهذه الرمزية تميزها وفنيته التي تظل مرتبطة بحسن التوليفة التي يعطيها إياها الكاتب.

تتفق كل معاجم اللغة العربية على تعريف الرحيق بأنه ما تفرزه الأزهار من محلول سكري لاجتذاب الحشرات لكي تقوم بالتلقيح (الحشري وأهمها النحل والفراشات)، الذي هو شكل من أشكال التلقيح، حيث يتم نقل حبوب اللقاح أو البَوغ بواسطة الحشرات. وتكون حبوب لقاح النباتات حشرية التلقيح أكبر عادة

من تلك الدقيقة الخاصة بالنباتات التي تلقح بالرياح. كما تتمتع بقيمة غذائية كبيرة للحشرات، فتستخدمها كغذاء وتقوم بنقلها تلقائيا إلى الزهور الأخرى؛ وهكذا ترنو السيرة الجراحية من خلال كلمة "رحيق" ورمزيتها وما تضمه من تقاطعات فكرية، سياسية وثقافية، إلى تلقيح، وتطعيم، وتغذية العقول والذهنيات بتجارب شاهدة على مراحل مهمة من تاريخنا الجماعي بكل مكوناته، محليا وقاريا ودوليا. وإذا ربطنا الرحيق في العنوان بـ "الحياة" وليس بـ "العمر" أي "رحيق الحياة" فإن الدلالة الرمزية ستنتفي لأن "العمر" في لغة المعاجم كلها، هي جمع "أعمار" وتدل على المدة التي مضت على الولادة؛ أما "الحياة" جمع "حيوات"، فهي النمو والبقاء. ولأن الزمن الذي مضى على الولادة زمن كثيف، ومتشعب، وثري، فإن الإيجاز أبلغ في السرد والحكي؛ لذلك ألح الكاتب على تثبيت العنوان الرئيسي بعنوان فرعي: "موجز سيرتي الذاتية". وبذلك تتحقق في العنوان صدقية هذا الميثاق بين الكاتب والقارئ، ويتأكد ذلك أكثر في اختيار اللون البنفسجي كواجهة للغلاف؛ وتشتهر زهرة البنفسج في مدينة هواي وأستراليا وأمريكا الجنوبية، وهي من النباتات العشبية المعمرة التي تتميز برائحتها العطرية. ويدل هذا الامتداد الجغرافي لأصل زهرة البنفسج على رمزية التربة التي تترعرع فيها دون غيرها من الأقاليم، وهو ما يعطيها تميزها ونسبها وتفردا. وتكتمل عناصر الغلاف من خلال صورة صاحب السيرة بنظرة عميقة، حادة، صارمة، فيها الكثير من التحدي والإصرار، وأيضا من خلال الخط المغربي العريق الذي يضيف إلى هوية السيرة بعدا وطنيا، وبصمة للذاكرة الجمعية التي أنتجت هذه الشخصية الفكرية.

وإذا كان عنوان الكتاب يتمحور حول الجزء الأول: النشأة والمشروع، فإن مساهمتنا هذه، ستركز على ثلاثة محاور من هذه النشأة:

1-مدينة الرباط

2-قدوتي والمثال: عبد الله بن عباس الجراحي

3-مع أخواتي وإخوتي في حضن الوالدين بالبيت

تشكل هذه المحاور الأرضية التي نهضت عليها "الأنا الجماعية" لـ "السي" عباس الجراري، كما سنوضح فيما سيأتي من فقرات؛ ومن خلال سرديات هذه السيرة تشكلت عوالم الذات من خلال تركيز لغة الكاتب على "الآخر" (بصيغة الجمع) ودوره في بناء شخصية فكرية، لها من المؤهلات ما مكنها من الانخراط في كافة دواليب المجتمع المغربي، وبالتالي الانطلاق نحو مشاركة فاعلة في كافة المنابر الدولية.

لكن قبل تحليل المحاور الآنفة الذكر، يجدر بنا التوقف والتأمل في مقدمة الكتاب، عتبة النص وبوابته، مبتدأ الكلام وخبره، الذي يؤسس الهوية التواصلية للنص السيرالذاتي/المحكي الذاتي، مع المتلقي:

1/ عتبات الرحيق: مداخل تواصلية

تتكون مقدمة "رحيق العمر" من عدة مداخل، يغلب عليها العامل النفسي في ترتيب هواجس الذات وقد أصبح الماضي بإشراقاته أحيانا وخفوت وهجه تارة أخرى ملء العين والقلب والقلم. لم يعمد "السي" عباس الجراري في مقدمته إلى تقديم الكتاب بالشكل الكلاسيكي المتداول فيما سلف من كتابات سير- ذاتية في أدبنا المغربي بصفة خاصة، والعربي عموما، بل كان للعامل النفسي أثره المباشر في نسج خيوط التواصل مع المتلقي من خلال كتابة مقدمة ممتلئة بعصارة من الشجن اتجاه أحداث وشخصيات ساهمت في تأسيس نواة فكرية ذات مشروع تأهيلي لثقافتنا المغربية. ومن أبرز هذه الشخصيات والد الكاتب العلامة عبد الله الجراري، وجلالة الملك الحسن الثاني. وقد مهد الكاتب لمقدمته بتقديم السياق العام لهذا النوع من الكتابة السيرية، مستعرضا مجموعة من المفاهيم التي تؤطر هذا النوع من الكتابة، والذي أسماه الكاتب: "التعريف الشخصي"، وهو ما شاع استعماله من خلال حرفي: (C.V)، اختصارا لعبارة *curriculum vitae*، وتعني في اللاتينية مسيرة الحياة ومراحلها؛ وتسمى بالفرنسية (*biographie*)، ويعبر عنها في

الولايات المتحدة الأمريكية وبعض البلدان الأنكلوساكسونية بكلمة (Resum)¹. مذكرا برافد آخر أصبح وعاء لهذا "التعريف الشخصي" ألا وهو التكنولوجيا الرقمية "مع ملاحظة الدور الذي أصبح اليوم في هذا المجال التعريفي للمواقع الإلكترونية الخاصة (site official)".² مؤكدا على مظهرين أساسيين في كتابة السيرة؛ يتصل الأول، حسب تعبير الكاتب، بامتداد الحياة في الزمن والعطاء حيث تكبر معها الحاجة إلى توسيع هذا التعريف. ويتصل الثاني بوضعية السيرة الذاتية في ثقافتنا المغربية والعربية " فقد كان معروفا في تراثنا العربي الإسلامي أن غير قليل من العلماء- مشاركة وأندلسيين ومغاربة - ولا سيما من المحدثين والمؤرخين وأصحاب الفهرسات، كانوا يترجمون لأنفسهم في مؤلفاتهم". (المقدمة ص7) لكن هذه الترجمات الذاتية تكون غير كافية للتعريف بصاحب المشروع الفكري ف" إذا شعر أحد المؤلفين أن مثل هذا التعريف القصير- في أي شكل من أشكاله - لم يعد كافيا في نظره أو في نظر قرائه فإنه يلجأ إلى كتابة ما يطلق عليه " السيرة الذاتية (Autobiographie)"، ويقدم لنا "السي" عباس الجاربي موجزا تعريفيا لهذا المفهوم الأخير باعتباره يضم " تفاصيل مراحل حياته وما عاش فيها من تجارب خاصة، وما صادف من وقائع وأحداث عامة، وما خلف كل ذلك في ذهنه ونفسه وفكره من ذكريات" (المقدمة ص8).

وانطلاقا من هذا الشاهد يمكننا أن نتساءل هل السيرة الذاتية بصفة عامة هي حصيلة المؤثرات الذهنية والنفسية والفكرية التي خلفتها الأحداث والوقائع على الكاتب؟ وأنها الأولى بالمراجعة والتحليل والتأويل، لمتابعة آليات ومكونات بناء "الشخصية المغربية" كما نظر لها علال الفاسي في كتابه " النقد الذاتي"، وبأن الأحداث والوقائع ما هي إلا تجارب عبر الزمن والفضاء قد عاشها كل من جايل هذا الكاتب أو ذاك بمستويات مختلفة ومتباينة، وبأن صناعة "الشخصية

¹عباس الجاربي، رحيق العمر- موجز سيرتي الذاتية - منشورات النادي الجاربي رقم101، الجزء الأول،

دار أبي رقراق للطباعة والنشر الرباط، ط1، 2020، ص 7.

²المرجع نفسه ص7.

المغربية" هي نتاج ذهني ونفسي وفكري، منضبط أمام تقلبات الحياة، متمسك بروح الجماعة وهويتها، وما تبثه من زاد تشجيعي تحفيزي من أجل مزيد من الثبات في معركة الحياة.

تعرض المقدمة /عتبة النص السير الذاتي، ما يشبه التوافقات الذاتية مع ما سيسرد أو يحكى لاحقا في فصول الكتاب، حيث يوضع الكاتب البناء العام لشخصيته المغربية من خلال صاريتين داعميتين لمراحل حياتية مهمة، ضمن سياق عام من الأحداث التي ساهمت في نجاح صاحب السيرة:

أ / القدوة والمثال:

يستحضر الكاتب أهمية الحضور الكبير للوالد كقدوة ومثال بكثير من الاعتزاز "وإني لأود منذ البدء في هذا التقديم، أن أشير إلى أن نشأتي في بيت علم ودين ووطنية كان له أكبر تأثير على مسيرة حياتي، وكان لي فيها الوالد رحمه الله هو القدوة والمثال". ولم يكن هذا الحضور الأبوي مرتبط فقط بالعلم والمعرفة كرائد من رواد الفكر المغربي، بل هو مرتبط كذلك بالجانب التواصلية والنفسي مع ابن يعاني منذ طفولته من حالة صحية " جعلتني تلقائيا ومنذ طفولتي الأولى أصرف النظر عن كل ما يتعارض مع سلامتها، أو ما يبعدني عن إتباع القدوة وتحقيق المثال (...)" وذلك ما جعلني أعيش شبه سلوك صوفي، هو أقرب ما يكون إلى خمول داخلي لا أثر له في المظهر الخارجي إلا ما قد يكشفه الهم العلمي وما يتطلب بلوغ لذة المعرفة من جهود، قد تصادف ظروفًا تفرض اتخاذ مواقف سياسية تبدو بعيدة عن الهدف العلمي والثقافي. وكنت أرى أن الزهد فيما سوى ما يدرك به هذا الهدف هو أحد مفاتيح إدراكه؛ ومعه الصبر على تحمل المشاق كالتعب عانيتها صحيا وفي حياتي الدراسية والوظيفية - عما كان فيها من تنقل - والتي كان الوالد يهونها علي وعلى نفسه، بمثل قول المتنبي يخاطب ممدوحه الذي كان دائم الترحل:

كل يوم لك ارتحال جديد

ومسير للمجد فيه مقام

وإذا كانت النفوس كبارا

تعبت في مرادها الأجسام

ويزيدني من باب "التسلية" ورفع المعنوية قول الشاعر نفسه لممدوح آخر:

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال

ولم يقتصر هذا المجهود التربوي للعلامة عبد الله الجراري على التنمية الذاتية للابن نفسيا وصحيا لتقوية عزيمته بشواهد من أبيات شعرية، بل عرض عليه أسماء نموذجية من العلماء الذين تحدوا إعاقاتهم الصحية فأصبحوا مبرزين في منابر العلم والمعرفة " وفي هذا السياق كان - رحمه الله - غالبا ما يذكر لي أن الإنسان لا يصير قنديلا إلا بعد أن يكون منديلا"؛ واحتراق المندبل كي يضئ القنديل هو قمة التواضع في التعايش داخل الجماعة بكل مكوناتها، ونبل محبتها.

أما الصارية الثانية، فتنهض على ما أسماه الكاتب ب "الأيادي البيضاء

ب/ الأيادي البيضاء: "أش عندهم أمعك السي الجراري؟".." ما عندي ما

أنسالو، راجل"

تقدم لنا الجمل الأنفة الذكر باللهجة العامية، للراحل الحسن الثاني، إشارات مهمة ذات دلالات عميقة بخصوص أحداث معينة عاشها الكاتب وعانى من تبعاتها في الساحة الثقافية والفكرية والسياسية بالمغرب. وقد شكلت الجملتان في فقرات متفرقة من المقدمة اصطفاا المؤسسة الملكية إلى جانب رجل لم تلقبه ب "الدكتور" بل ب "السي"، وهي اختصار لكلمة "السيد" التي تحمل من الدلالات الرمزية ما يجعلها في مقام الألقاب النبيلة التي تتجاوز لقب "الدكتور" أو "الأستاذ"، ويقابلها في الثقافات الأنكلوسكسونية العريقة لقب "sir" ؛ وهذا اللقب تقام له في بريطانيا احتفالات أكاديمية يحترف فيها بحصول شخصيات مرموقة على هذا اللقب النبيل بعد مشوار طويل ومهم في مجال تخصصها. ولأن المؤسسة الملكية تتميز بعراقتها، وأصولها الضاربة في التاريخ لقرون عديدة، فإن مخاطبة الراحل الحسن الثاني ل "السي" الجراري بهذا اللقب، فيه العرفان بما قدمه للفكر والثقافة المغربية من عطاءات. لهذا لم يعمد الكاتب إلى تحويل

الجمليتين من لغتها العامية إلى اللغة الفصحى، لما فيها من رمزية، حيث لا تتوقف اللغة هنا عند دلالاتها التواصلية، بل تتعداها إلى "مغربة" (إن صح التعبير أو التَّمْغَرَبِيَّة) اللغة إمعانا في التعاطف والتأييد للشخصية المغربية في مواجهة المعارضين، وهو ما أشار إليه رولان بارت بقوله: اللغة-الموضوع، في ارتباطها بإنتاج لغة ما في ارتباطها بموضوع محدد.¹ وكل تحريف للغة عن أصلها الذي نطقت به، هو تحريف للموضوع في حد ذاته "وأرى واجبا من باب الاعتراف بفضل جلالته وتوالي أياديهِ البيضاء علي، أن أشير إلى موقفه من الذين كانوا يعارضون عضويتي بأكاديمية المملكة لذا تأسيسها، على الرغم من اقتراحي في اللجنتين اللتين عينهما تباعا لاختيار الأعضاء، إلى حد أنه علق على الأمر بقوله وهو يبتسم عند تعييني: أش عندهوم معاك ألسي الجراري؟ (...) أما تعليقه على تقديم استقالتني من منصب عمادة كلية الآداب جامعة مراكش لأول تأسيسها، فهو غني عن كل تعليق، إذ قال - على الرغم من أنه هو من عينني فيه- "ما عندي ما أنسالو راجل". لأنه كان يعرف من كان خلف اقتراحي لهذا التعيين ودافعه إليه." (المقدمة ص، 13، 14) ولم يكن هذا هو التحدي الوحيد الذي وقف عنده الكاتب، تحدي الولوج إلى المؤسسات الفكرية والأكاديمية التي كانت محاطة بحرس شديد، ممانع أمام طموحاته وإصراره، ف"السي" الجراري يعرض تفاصيل عديدة في ثنايا سيرته، متحاشيا بنبله عرض الأسماء وفضح ممارساتها، وعزاؤه في ذلك استمرار الأيدي البيضاء في العناية به، خصوصا بعد تعيينه من طرف الحسن الثاني - رحمه الله - سنة 1999 مكلفا بمهمة في الديوان الملكي" وإذا كنت فوجئت بذلك التعيين الحسني، فلأني اعتبرته دالا على حقيقة كبرى لا أجد لها تفسيراً غير الإيمان بالقدر وحتميته، ولا أقول بسخريته كما قد يراها الآخرون. ذلكم أن ما شعرت به يكمن في أن من نتائج الإيمان بالقدر جلاء المواقف وزوال الهم والحزن..". (المقدمة ص، 14)

¹ Roland Barthes: *Meythologies*.ed.seuil,1957

لقد جاءت هذه المقدمة على شاكلة حوار بين الكاتب والقارئ، أو دردشة تواصلية تهيب القارئ لبناء فعله القرائي؛ فالسيرة الذاتية الحقيقية لا تولد إلا من خلال القارئ، أي من خلال الهدم والبناء القرائي. إن القارئ في قراءاته للسيرة الذاتية لا يتعلق روحيا ونفسيا وفكريا بالذات الساردة صاحبة السيرة، ولكن يتعلق ويشتبك قرائيا بالآخر؛ فالسارد في سيرته الذاتية، لا يحكي عن ذاته، بل يحكي عن فعل الآخر فيه.

ولعل القارئ هو من هذه الجماعة التي نسميها بـ "الآخر" ولو بشكل غير مباشر، يتضح ذلك من خلال "القصيدة" التي توجد تقريبا في كل السير الذاتية، حيث يعرب أصحابها وهم يخاطبون القارئ الافتراضي عن قصدهم من هذا السرد والبوح الذاتي، كما فعل صاحب الرحيق بقوله "هذا وأود أن أشير إلى أن قصدي من تسجيل هذه السيرة أن تكون خالصة صادقة، وصافية من كل زيف أو تحريف أو مبالغة. وهو ما اجتهدت أن ألتزمه ولا أحيد عنه. ولو شعرت بأدنى ميل عن هذا الالتزام لأسرعت إلى تمزيق ما كتبت باعتباره سيكون غير ذي أهمية بالنسبة للأجيال الجديدة المتطلعة إلى مزيد من التواصل فيما بينها ومع من سبقها، وإلى مزيد من معرفة تلك الحقائق وتأمل واقعها، في بعدها الممتد أزيد من ستة عقود، منذ انتهاء عهد الحجر والحماية وبزوغ فجر الاستقلال والحرية." (المقدمة ص، 17)

2/ تاريخ الأنا: الذاكرة كمنصة تفاعلية

تتموقع هذه السيرة إذن كوسيط بين الأجيال الجديدة فيما بينها، ومع نظيراتها السابقة، وهو تواصل يتأطر في خانة تبادل الخبرات والتجارب التي ساهمت في بناء "الشخصية المغربية" في الفكر والمعرفة. لذا فالسرد عند "السي" عباس الجراري ينطلق فعلا من "الذات"، لكنه ينشغل كليا بسرد "الآخر"؛ حيث يشكل تاريخ الميلاد، والنسب والنواة الأسرية ومراحل التعليم والأساتذة: أي النظام المعرفي، وكذا المؤثرات المؤسساتية: الاجتماعية والسياسية والفكرية، المكونات التي تشيد الهوية التواصلية للنص السير الذاتي: "رحيق العمر"، من خلال متواليات من "محكيات الآخر".

تشتغل الذاكرة كمنصة تفاعلية، من خلال تفعيل روابط ذهنية تواصلية مع الماضي كعلبة نصية عدمية، أو في درجة الصفر، أو في حالة كمون في انتظار توفر أسباب انطلاق الذات كي تخترقها لفك أسرارها، إنها أشبه بالعلبة السوداء العvisية على الانفتاح حتى أمام صاحبها، كاتب السيرة الذاتية، الذي يظل في حالة ذهاب وإياب إلى هذه العلبة للتدقيق في اختيار ما يستحق النشر والبوح، والتشارك مع الآخرين، وما ينبغي أن يظل طي الكتمان والسرية؛ لأن الكتابة فاضحة، والإفضاء بدون رقيب يضع الخطوط الحمراء أمام فعل الاسترسال في السرد، قد يؤدي إلى تضارب في التأويلات بخصوص تأريخ الأنا، أو تعريض من تتقاطع حياتهم مع حياة الكاتب لوضعية إحراج معنوي، كعرض أسماء المعارضين للكاتب في الولوج إلى بعض المؤسسات والأكاديميات على سبيل المثال لا الحصر.

تصف جوديث بتلر هذه الحالة النفسية قائلة "ثمة أوقات لا أتمكن فيها من رواية القصة على وفق مسار مستقيم، أفقد الخيط، وأبدأ مرة أخرى، ثم أنسى أمرا حاسما، ويكون من العسير جدا التفكير في الطريقة التي أحشره بها في النسيج، أبدأ التفكير، ومزيذا من التفكير، لا بد من وجود خيط مفهومي قادر على توفير السرد هنا، رابطة مفقودة، إمكانية تعاقب زمني. وهكذا تصبح "الأنا" على نحو متزايد مفهومية الطابع، تزداد يقظة، وتركيزا، وتصميما على إنجاز مهمتها. في هذه النقطة، عندما أقترب من إمكانية الاكتفاء الذاتي الفكري في حضرة الآخر، وأكاد أقصيه / أقصيه من أفقي، تنحل خيوط قصتي. إذا تمكنت من تحقيق ذلك الاكتفاء الذاتي أكون قد ضيعت علاقتي بالآخر.¹ لكن هذا التوقف عن سرد معطيات معينة تقع في دائرة "الأنا"، والتي يمكن للمتلقي أن يتساءل بخصوص عدم ذكرها، تسميها جوديث في مكان آخر من كتابها ب"الصمت": الصمت في مثل هذه اللحظات إما أن يخضع شرعية السلطة التي يستحضرها السؤال والمتسائل للشك، وإما أن يحاول رسم دائرة حول منطقة استقلال لا يصح أن يتطفل

¹ جوديث بتلر، الذات تصف نفسها،: فلاح رحيم، التنوير للطباعة والنشر، بيروت ط2، 2015،

عليها المتسائل... عندما يمتنع المرء عن تقديم السرد، فإنه إما أنه يرفض العلاقة التي يفترضها المتسائل مسبقا، وإما أن يغير تلك العلاقة بحيث أن الشخص الذي يتعرض للسؤال يرفض الشخص الذي يسأل.

3/ من سرد الذات إلى سرد الآخر: تقاطع المحكي الذاتي مع المحكي الجماعي

نرجّح في هذه المقاربة فرضية أن السيرة الذاتية هي في الواقع سيرة الآخر أكثر منها سيرة الذات، فلا وجود للذات / ذواتنا خارج "رحم" الآخر الذي يتخذ عدة مظاهر، قد يكون مكانا وشخصيات مرموقة أو عادية، لكنها تركت أثرها في النفس وفي الضمير، أو مؤسسات فاعلة ومؤثرة في أحداث معينة... وسنعرض بعضا من هذه الظواهر التي يتمظهر من خلالها هذا الآخر كمؤثر في بناء شخصية المفكر المغربي "السي" عباس الجباري منذ بدايات النشأة.

أ/ مدينة الرباط: منبت الحضارة والثقافة

لم يتحدث الكاتب في هذا القسم الثاني من "رحيق العمر" المعنون بـ "مدينة الرباط"، عن "ذاته" باعتباره من مواليد هذه المدينة، حيث يكون الحديث عن "مسقط الرأس" مصدر اعتزاز، ومهجة القلب وحنياه، وسلوة خاطر، ومرتع الطفولة والشباب، ولو كان هذا المكان في صحراء نائية، أو مدشر ثاو في ركن قصي من البراري. لكن الكاتب اختار مسارا آخر من أجل سرد سيرته، من خلال تقديم توصيف يليق بهذا "الرحم" الذي احتضنه "سوف أقصر الكلام في هذه النبذة على بعض الجوانب الحضارية والثقافية التي عرفت الرباط في مراحل من تاريخها القريب والبعيد، دون أن أكون في حاجة إلى أن أتحدث عنها من حيث هي جزء من مغربنا الحبيب الجميل، أو من حيث هي مدينة ينعم سكانها جميعا بالعيش في أرجائها الفيحاء ويعاينون نموها المتزايد. فهي في قلب كل المواطنين، نبض وصال حي، ونبع حب متدفق. وهي في نفس زوارها الأكارم ذات موقع حب خاص. ولا عجب فهي في جيد الوطن واسطة عقده النضيد، بل هي تتمتع بهذه الوسطية على

صعيد عالمي بموقعها بين مختلف جهات الكون.¹ تتوارى الذات خلف سرد الآخر: الفضاء الرباطي بكل حمولته التاريخية منذ العصر الحجري، وكأن الكاتب يقدم للرباط قرايين الاعتراف بما قدمته له من أرضية خصبة نهضت عليها شخصيته وترعرت داخل ثقافة فينيقية ورومانية وإسلامية على امتداد الزمن؛ وهو ما يستفيض الكاتب في ذكره عبر صفحات هذا القسم الذي اختار له عنوانا بسيطا دون زخرفة أو تركيب جملي مدحي: "مدينة الرباط". لكن، هذه البساطة تحمل في طياتها رمزية المدينة العربية عبر التاريخ بحمولتها: العمرانية والمعرفية "إن مثل هذه المنشآت العمرانية والدفاعية والتجارية أتاحت للرباط طابعا متفردا زان ما كانت اشتهرت به منذ العصور القديمة"²

لقد اعتمد الكاتب في تقديمه لهذه النبذة من تاريخ الرباط على نفس المبدأ في سرد سيرته الذاتية، من خلال التوظيف الضمني لعبارة "رحيق"، حيث استعرض تاريخ المدينة من خلال متواليات سردية مركزة (من الفينيقيين مروراً بالموحدين والمرابطين والسعديين إلى يومنا هذا) تظهر شغف الكاتب بمدينته ومسقط رأسه. أما فيما يتعلق بالشق الثقافي، وهو الأقرب إلى نفسية الكاتب، فإن الرباط كانت حاضنة للحركات العلمية، وشهدت ولادة أعلام بررة كرام زادوا المدينة رقياً ومكانة في المشهد المعرفي؛ يتماهى من خلالها كاتبنا عبر سرد أسماء الأعلام ومناقبهم. حيث تمتزج الذات مع الآخر: مكانيا وإنسانيا، فلا تجد هويتها وكيانيتها إلا من خلال هذا الآخر، ولا تعترف بذاتيتها إلا من خلال الاعتراف "بذاتية الآخر" وحضوره المستحق على منبر السيرة ذاتية، "وقد واكب هذا الازدهار الحضاري تقدم ثقافي مس مختلف ميادين العلم والفكر والإبداع الأدبي والفني، مما تكشفه المئات من أسماء الأعلام الذين يشغلون حيزا كبيرا في كتب التاريخ والفهارس والتراجم والطبقات العامة، والذين ألفت في التعريف بهم مصنفات خاصة، كتاريخ الصُّعَيْف وكتاب (الاغتباط بتراجم أعلام الرباط) لمحمد بوجندار،

¹ رحيق العمر، ص 35.

² المرجع نفسه، ص 39.

و(مجالس الانبساط بشرح تراجم علماء وصلحاء الرباط) لمحمد بن علي دينية،
(أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين) وكذا سلسلة (شخصيات مغربية) لعبد الله بن
العباس الجراري.¹

لقد كان لمدينة الرباط أثرها الكبير في تنشئة صاحب الرحيق، مستفيدا من
مدنيتها وعمرانها ومؤسساتها ورجالاتها " لهذا وغيره، لم يكن غريبا أن تُعلن الرباط
مدينة الأنوار وحاضرة الثقافة والفنون، وأن تُختار "عاصمة عصرية ومدينة
تاريخية: تراث للتقاسم"، وان تصنف ذات "قيمة عالمية استثنائية" و"تراثا عالميا"
يعكس ثقافات إنسانية كبرى. وقد تم هذا الاختيار بإجماع أعضاء المجلس الدولي
للآثار والمواقع (ايكوموس) بمنظمة اليونسكو، الذي عقد اجتماعه بسانت
بترسبورغ(روسيا) يوم الإثنين 12 شعبان 1433 الموافق 2 يوليوز 2012".

يتضح أمامنا، من خلال ما سلف، ومن خلال ما سيأتي من فقرات، أن "
السيرة الذاتية ليست مجرد استعادة للماضي ولما جرى، لأن ذلك لن يقود إلا إلى
الحديث عن عالم انقضى إلى الأبد، بل محاولة للبحث عن الذات من خلال
تاريخها.² وهذا التاريخ، هو تاريخ مشترك مع الآخر/ الآخرين، ولأنه كذلك، فإن
الوعي به دفع الكاتب إلى أن تكون سيرته، هي سيرة هذا المشترك الجماعي، من
خلال بناء "الأنا الجماعية". وينضاف إلى هذا الحضور للوعي حضور آخر يتعلق
بالتقدير الذي يعطيه الكاتب لذاته وهو يكتب سيرته، التي لم تكن على ما هي
عليه من الثراء والغنى، لولا وجود الآخر ضمن صيرورة متعاقبة من الأحداث
والتفاعلات "إن التجربة الواعية ما هي إلا بعد واحد فقط من أبعاد الحياة النفسية،
وأنا لا نستطيع تحقيق باللاوعي أو اللغة سيطرة تامة على تلك العلاقات الأولية

¹ المرجع نفسه، ص 41.

² عبد القادر الشاوي، الكتابة والوجود، السيرة الذاتية في المغرب، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2000،
ص 12.

الخاصة بالتبعية للآخرين والتأثر بهم التي تشكلنا وتكوننا بطرق متواصلة غامضة.¹

ب/ قدوتي والمثال: عبد الله بن عباس الجرامي - والدي رحمه الله -

في هذا القسم الثالث من السيرة الذاتية، يحدد الكاتب القدوة والمثال في شخص والده، من خلال مسارين كان لهما التأثير البالغ في المسار الشخصي لصاحب السيرة. أما الأول فيرتبط بسرد نشأة الوالد: عبد الله بن عباس الجرامي، وكأننا أمام سيرة ذاتية ثنائية تجمع سيرة الابن بسيرة الأب، اعترافا من الكاتب بفضل الوالد في بناء شخصيته وفي نشأته. وأهم ما يميز هذا المسار هو طبيعة التكوين العلمي الذي تدرج فيه منذ عشرينيات القرن الماضي، وهو تكوين تميز بالانفتاح على كافة المجالات المعرفية ومنها الموسيقى وتعلم اللغة الفرنسية، خصوصا إذا علمنا أن الراحل عبد الله بن عباس الجرامي قد تدرج في مسالك تعليمية يغلب عليها الطابع الديني، وما يتطلبه ذلك من التزامات " وبفضل التكوين العلمي المتين الذي اكتسبه في هذه الحلقات، وما كان له من طموح وتطلع للاستزادة، فقد تسنى له بالترشيح الحر أن يتقدم لنيل شهادة العالمية من جامعة القرويين عام 1356هـ = 1937م. كما تسنى له أن يطور هذا التكوين بالتعاطي للجغرافيا وكذا علم الفلك والتوقيت من خلال لقاءات ومراسلات مع بعض العلماء البارزين في هذا الفن... وما كان له في فورة شبابه الأول أن يغفل تعلم الموسيقى لأول تأسيس معهد الودايا عام 1921م، وإن لم يستمر في هذا التعلم الذي أحس بأنه قد يصرفه عن دراسته العلمية. كذلك كانت له محاولات في تعلم اللغة الفرنسية، على الرغم من النظر الشزر الذي كان يوجه لأمثاله حين يحاولون.² إلى جانب هذا يشير الكاتب إلى صفتين يشترك فيهما مع الوالد شغفا ولوعة وهما: المطالعة والتدوين والتسجيل. ف"السي" الجرامي لم يعتمد إلى الحديث عن ذاته من خلال حبه للمطالعة والتسجيل والتدوين، بل قدم ذلك من خلال التماهي مع الآخر/

¹ الذات تصف نفسها مرجع مذكور ص 119.

² رحيق العمر، ص 48.

الوالد وسرد سيرته داخل سيرة الابن. أضف إلى ذلك توجه الابن والأب إلى ميدان التربية والتعليم بعد مسارات متنوعة في الوظيفة بقطاعات متعددة، وتكاد تكون في نفس المجال: التكليف بمهام داخل المؤسسة الملكية مثلاً.

أما المسار الثاني فيتعلق بالإصدارات التي جعلت من عبد الله بن عباس الجراري قدوة ومثالاً في الفكر والعلم "أما مؤلفاته فتعكس ولوعه المتفرد - والمبكر- بالكتابة والتدوين، مما يبرزه إنتاجه المنشور في مختلف صحف المرحلة ومجلاتها، وكذا مؤلفاته التي تبلغ نحو الثمانين كتاباً ما زال معظمها مخطوطاً أو مرقوناً. وهو يعكس ثقافته الموسوعية".¹ وقد توزعت هذه الإصدارات على عدة تخصصات نذكر منها: التجويد، والتفسير والدراسات القرآنية، والحديث واصطلاحاته، والاجتماعيات، والتاريخ والحضارة، والشعر، والموسيقى، وكتابات أدبية.. وغيرها.

ج/ مع أخواتي وإخوتي في حضن الوالدين بالبيت

استأثر حضور الوالد في هذا القسم الرابع من "الرحيق"، بكل المشهد العائلي المكون من الوالدين وصاحب السيرة وأخواته وإخوانه. وانبرى الكاتب إلى استكمال ما بدأه في القسم الثالث، الذي عنوانه: المثال والقدوة، بل عمد "السي" الجراري إلى إعادة إنتاج علاقة الذات مع الآخر/ الوالد من خلال تقاطع الكتابات السيرية لكل من الأب والابن "سبق لي في كتابي عن الوالد رحمه الله العالم المجاهد عبد الله بن العباس الجراري أن خصصت فصلاً عن حياته (مع أبنائه ص: 73-85)، أراني اليوم بهذه الكتابة التي أنا بصدها مضطراً- لوحدة الوضع أو تشابه- أن أستحضره وأقتبس منه وقد أكرر أغلب ما فيه".² ومن السياقات المهمة التي تقدمها لنا هذه السردية السيرية المتعلقة بالنشأة، سياق التربية والتعليم داخل المنزل الذي كانت الحياة فيه "منتظمة ومنضبطة ومنفتحة في نفس الوقت على المجتمع الصغير والكبير"، حسب وصف الكاتب. ويمكن تحديد هذا السياق من خلال قاعدتين أساسيتين وفرهما فضاء المنزل، الذي تحول إلى مؤسسة تعليمية مساندة للمدرسة

¹ المرجع نفسه، ص 53.

² المرجع نفسه، ص 67.

الرسمية، يتعلق الأمر ب1/ المدرسة الجراحية (هكذا أسميها) و2/ النادي الجراحي. فأما الأولى فقد كان فيها الراحل عبد الله بن العباس الجراحي، المعلم الأول بالنسبة للأبناء ذكورها وإناثها، من خلال الوسطية والاعتدال، ومسايرة تحولات الزمن وما يتطلبه من انفتاح على باقي حضارات الأمم والاستفادة منها، وتحويلها إلى طاقة إيجابية رافقت الأبناء والبنات داخل المنزل وخارجه، بدءاً من اللباس والهندام إلى التنوع في ولوج المدرسة الرسمية خارج جدران المنزل ما بين كتاتيب قرآنية ومدارس مغربية وفرنسية عصرية، مع بناء متين في الثقافة العربية الإسلامية " وهذا ما أتاح لإخوتي على اختلاف اتجاهاتهم الدراسية أن يكونوا متمكنين من أسس متينة في الثقافة العربية الإسلامية، وهي أسس كان الوالد يلح على ضرورة المحافظة عليها وتنميتها بوسائل متعددة، كالمطالعة ومساعدته في تسجيل الكتب وترتيبها في المكتبة، ونسخ بعض مؤلفاته وحضور حلقات دروسه بالمساجد، وكذا استقبال ضيوفه والمشاركة في جموعه ومجالسه التي كان يحدث على حضورها والمساهمة في مذكراتها ومناقشاتها، مع الانضباط وحسن الإنصات والاستيعاب، وما إلى ذلك مما عد تكويننا مستمرا أبقي على خط الأصالة الحق¹. ولم يكن لهذا التكوين المستمر أن يبقى فقط على خط الأصالة الحق، كما قال الكاتب، بل ساهم في القدرة على خلق المبادرة الذاتية، والقدرة على الاختيار والانتقاء "ولست أشك في أن هذه الدراسة المنزلية المتينة هي التي شجعتني في سنة 1956م فور إعلان استقلال المغرب، على أن أغير اتجاه تعليمي من الفرنسية إلى العربية، وأنا يومئذ في قسم البكالوريا بالثانوية اليوسفية، وعلى أن أستسمح الوالد في أن أرحل إلى القاهرة لإتمام دراستي العليا².

إن بناء "الأنا الجماعية" في مختلف مراحل "النشأة"، ينطلق حتما من "الذات"، لكنها ذات في حالة كمون، ومتوارية خلف "الآخر" (الفضاء والشخصيات) كما أظهرت لنا ذلك المتواليات السردية لرحيق العمر في الأقسام

¹ المرجع نفسه، ص 77.

² المرجع نفسه، ص 79.

التي تتناولها هذه الدراسة. ولكن هذا الكمون وهذا التواري، كان بمثابة التعبد في محراب المعرفة والعلاقات الإنسانية الرفيعة، وشببها بالنبته التي تمتص قطرات الماء رويدا ومهلا، قبل أن تستوي وتعلن عن غلتها وألوانها ومنافعها. لذا عمد السارد إلى تكثيف الحكى عن هذا الآخر، تاركا له المساحة الكافية للظهور والبروز والحضور على صفحات السيرة (في قسمها الخاص بالنشأة) التي هي، في نظري الخاص، "سيرة فعل الآخر في الذات الساردة، وتأثيراتها عليها".

وفي الختام طرح السؤال التالي: هل تمكن "السي" عباس الجراري من تقديم كل عناصر هذا الموجز لسيرته الذاتية، أم أن لسان حاله يقول: "وهكذا أحاول أن أبدأ قصة عن نفسي، أبدأها من مكان ما وأحدد الزمن في محاولة للشروع في متتالية أقدم بها روابط سببية أو بنية سردية في الأقل. أسرد، وأقيد نفسي في أثناء السرد، أصف نفسي، أقدم وصفي إلى آخر على شكل قصة يمكن لها أن تلخص كيف ولماذا أنا ما أنا عليه الآن. لكن جهدي في تلخيص الذات يخفق، وهو يخفق بالضرورة، لأن ال "أنا" التي أقدمها منذ السطر الأول بوصفها صوتا سرديا تعجز عن تقديم وصف للكيفية التي أصبحت بها "أنا" يمكن أن تروي نفسها أو تروي هذه القصة على وجه خاص. وبينما أنا أصنع تتابعا وأربط حدثا بآخر، مقدمة حوافز تنير المسار، مستجلبة النماذج المتواترة، مؤشرة إلى بعض الأحداث أو لحظات الإدراك بوصفها ذات أهمية محورية، بل ومحددة نماذج متكررة معينة أعدها أساسية، لا أعمل بذلك على توصيل شيء عن الماضي، بالرغم من أن ذلك جزء مما أفعل دون شك. أنا أعيد تمثيل الذات التي أحاول وصفها؛ هنالك إعادة تكون لل "أنا" السردية في كل لحظة يستحضرها السرد نفسه".¹

* * *

¹الذات تصف نفسها، مرجع المذكور، صص 130-131.

د. محمد بلبول

- أستاذ جامعي، تخصص اللسانيات العامة.
- أستاذ بكلية الآداب والعلوم الانسانية (شعبة اللغة العربية)، جامعة ابن زهر، أكادير (1984-1990).
- أستاذ بكلية الآداب والعلوم الانسانية، (شعبة اللغة العربية)، جامعة محمد الخامس، الرباط، (1990-2015).
- أستاذ زائر بجامعة محمد الخامس، (فرع أبو ظبي، الامارات العربية المتحدة).
- أستاذ اللسانيات والمعمية العربية بمعهد الدوحة للدراسات العليا (2015-2018).
- مدير وحدة التكوين والبحث (الدكتوراه): لسانيات عربية مقارنة (2004-2010).
- عضو اللجنة العلمية للتحكيم لمجلة أبحاث لسانية التي يصدرها معهد الأبحاث والدراسات للتعريب، جامعة محمد الخامس، الرباط.
- عضو مشارك في مختبر البحث، إعداد اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة.
- عضو فريق البحث حول التواصل بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط.
- عضو الهيئة الاستشارية العلمية لمجلة «البلاغة والنقد الأدبي» مجلة محكمة.
- مستشار علمي لمنشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر.
- مستشار علمي لمجلة «تبين» مجلة علمية محكمة، يصدرها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر.
- شارك الدكتور محمد بلبول في مؤتمرات وندوات علمية عديدة داخل المغرب وخارجه (تونس، لبنان، قطر).
- أشرف على عدة أطاريح جامعية لنيل شهادة الدكتوراه في اللسانيات.
- عضو في عدة لجان لفحص ومناقشة رسائل وأطاريح جامعية بكليات متعددة، (جامعة قطر، جامعة ابن طفيل القنيطرة، جامعة المولى اسماعيل، مكناس).

- المنشورات: الكتب:

- بنية الكلمة في اللغة العربية: تمثلات ومبادئ، منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب. حاز هذا الكتاب على جائزة المغرب للكتاب سنة 2008.

ضمن كتاب جماعي:

1- اللغة العربية وقضايا التخطيط والاصطلاح، ضمن كتاب «الهندسة المعرفية والتدبير الحاسوبي في المصطلح المولد»، إشراف محمد غاليم، عبد الرزاق تورابي، منشورات معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، 2010.

2- ملاحظات حول بنية المقطع، ضمن كتاب أعمال مهداة إلى الدكتور محمد مفتاح، منشورات كلية الآداب بالرباط، سلسلة ندوات، 2013.

3- دراسات جديدة في صرف اللغة العربية، مؤلف جماعي بإشراف وتنسيق محمد بلبول، منشورات معهد الأبحاث والدراسات للتعريب، سلسلة تطوير اللغة العربية، رقم: 3، الرباط، 2015.

4- الفرضية الفطرية وطريقة اشتغال اللغة، ضمن أعمال المؤتمر الدولي في موضوع لسانيات تشومسكي، مراجعة نقدية، منشورات كلية دجلة، بغداد، 2018.

5- عن بنية الكلمة: ملاحظات أولية ضمن كتاب: مجالس النادي الجراي، المحاضرات، الجزء الأول، منشورات النادي الجراي، رقم: 91، صدر بمناسبة تخليد الذكرى التسعين لتأسيس النادي الجراي (1930-2020)، إعداد وتقديم: د. محمد احميدة، الرباط، 2020.

* * *

هوامش على سيرة "رحيق العمر: النشأة والمشروع"¹

د. محمد بلبول

1. السيرة والحقيقة

لا تخلو الكتابة عن أدب المذكرات والسيرة الذاتية من صعوبة مغيرة لتلك التي نصادفها ونحن نكتب عن نصوص تروي حكايات متخيلة ترسم ملامح خلقية ونفسية لشخصيات نابعة من خيال الكاتب، لكنها غير بعيدة عن الواقع فتبدو للقارئ محتملة الوجود. هذه الشخصيات قد يكتب لها النجاح الأدبي والفني فتدخل تاريخ الأدب (الأب جوريو لبلزك أو عبد الجواد في ثلاثية نجيب محفوظ على سبيل المثال لا الحصر) وتغدو أيقونة نمط إنساني أفرزته لحظة اجتماعية تاريخية واقعية. مبدئيا لا شيء يمنعنا من قراءة نصوص السير الذاتية أو المذكرات كنصوص متخيلة، خصوصا حين تراودنا فكرة شيطانية من وحي التحليل النفسي تزعم أن الكاتب حينما يتحدث عن نفسه فإنما يتحدث عن شخصية متخيلة أيضا لا تطابق الشخصية الفعلية، ذلك أننا ما أن نشرع في الكلام عن أنفسنا حتى نؤخذ على نحو لاشعوري إلى الكذب لا بالمعنى المألوف المستهجن أخلاقيا، بل بمعنى أن استعادة الوقائع والمعلومات التي تختزل تجارب كاتب السيرة الذاتية ليست بالبساطة التي نتصورها للوهلة الأولى. إنها استعادة عسيرة تلجم عفويتها نظم الرقابة الاجتماعية فضلا عن الرقابة الذاتية التي وقرت في اللاوعي. وغني عن القول إن كتابة السيرة الذاتية عمل مضمّن ضد النسيان كما يشير إلى ذلك طه

¹ أ أتوجه بجزيل الشكر إلى الأستاذ الفاضل الدكتور محمد احميدة الذي بفضلته عرفت كتاب "رحيق العمر" وعرفت صاحبه، ولولا تشجيعاته لما تجرأت على كتابة هذه الورقات التي أرجو أن ينظر إليها بعين الرضا التي تتجاوز عن نقائصها. والله ولي التوفيق

حسين، ربما عن غير قصد، وهو يستهل سيرته بالاعتراف بأنه: "لا يذكر لهذا اليوم اسما، ولا يستطيع أن يضعه حيث وضعه الله من الشهر والسنة، بل لا يستطيع أن يذكر من هذا اليوم وقتنا بعينه، وإنما يقرب ذلك تقريبا". فالتذكر يُخاتِل إذ يتلاعب بالذكريات، ويوهم أحيانا، ويمحو من الوعي جميع الوقائع التي تتسبب في تعاسة الشخص وشقائه في أحيان أخرى. ثم إن الكتابة عن النفس وما يقتضيه ذلك من وعي بها هي أشبه بالإبحار في محيطات عميقة مظلمة كما يحلو لأحمد أمين أن يصورها وهو مقبل على كتابة سيرته الذاتية "حياتي"¹ متهيئا وجلا، فيكتب: "ثم إن للنفس أعماقا كأعماق البحار، وغموضا كغموض الليل، فالوعي واللاوعي، والعقل الباطن والظاهر، والشعور البسيط والمركب، والباعث السطحي والعميق، والغرض القريب والبعيد، كل هذا وأمثاله يجعل تحليلها صعب المنال وفهمها أقرب إلى المحال" وبسبب هذا "كان قول سقراط: اعرف نفسك بنفسك تكليفا شططا وأمرًا يفوق الطاقة". (ص، 7)

وما نحب أن نقف طويلا عند فكرة الكذب اللاشعوري وتلاعب عوامل شتى بمحتويات ما استقر في الذاكرة ومحدودية علمنا ببواعث ما يَمُور في ذواتنا من مشاعر وأفكار. وذلك لأسباب منها أن طائفة من نقاد الأدب ومنظريه لا تنظر بعين الارتياح للمنهج النفسي وتشكك في أن يكون له ما يفيد في باب التحليل والنقد الأدبيين. فلو نظرنا، بحسب هؤلاء، إلى السيرة كعمل أدبي فإن حقيقة ما يعرضه وينسبه الكاتب لنفسه ليست هي الموضوع الرئيس، بالرغم من أهميتها الموضوعية بالنسبة للمؤرخ ولعالم الاجتماع. ولو تحرينا الدقة لقلنا إنها موضوع ثانوي من وجهة نظر الناقد الأدبي الذي يتوخى الوقوف على القيمة الجمالية في علاقتها بالحقيقة الأدبية في عصر من العصور وذلك بإبراز الخصائص الذي تجعل قولاً حول الذات خطاباً أدبياً وليس وثيقة تاريخية أو قانونية أو علمية. فما يجعل السيرة الذاتية نصاً قابلاً لأن يقرأ باستمرار، في نظره، ليس في المقام الأول، حقيقة ما

¹ طبعة مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013.

تقوله وإنما قيمتها الفنية والأدبية مثلها في ذلك مثل لوحة الرسام التي لا ينظر إليها الناقد الفني من زاوية وفائها للواقع الذي ترسمه وإنما لخصائصها الجمالية الدائمة، وأساليب الصنعة المستعملة في إنجاز العمل الفني.

ومهما يكن من أمر الحقيقة في علاقتها بالأدب، والسيرة الأدبية بعض منه من المنظور الحديث للأدب، لا بد من الإشارة إلى أن الكذب في السير الذاتية قد يكون أيضا مقصودا وعن سبق إصرار وترصد. وقد ألمع الأستاذ العميد عباس الجراري إلى ذلك وهو لم يبرح عتبة سيرته الذاتية "رحيق العمر: النشأة والمشروع، ج1"، فيكتب: "وعلى الرغم من وجود هذه الترجمات فإن الذين يعنون بها ويتابعونها (الترجمات)، غالبا ما يلاحظون فيها بعض الغموض أو الثغرات، مما يكون أصحابها قد أغفلوها أو تعمدوا عدم ذكرها لسبب من الأسباب، قاصدين إخفاءها أو تأجيلها إلى وقت لاحق يرونه أنسب لإثارتها" (ص. 8). بسبب هذا نصادف عند بعض كتاب السيرة تلميحات وتصريحات لها لبوس التزام أخلاقي يريدون بها طمأنة قرائهم بخصوص صدق أقوالهم. من ذلك ما نجد لدى أحمد أمين في مقدمة سيرته المشار إليها أنفا، حين يكتب: "ولكن على المرء أن يبذل جهده في تعرف الحق، وتحري الصدق ليبرئ نفسه ويريح ضميره، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها. على ذلك وضعت هذا الكتاب، ولم أذكر فيه كل الحق ولكني لم أذكر فيه أيضا إلا الحق، فمن الحق ما يرذل قوله وتنبو الأذن عن سماعه، وإذا كنا لا نستسيغ عري كل الجسم فكيف نستسيغ عري كل النفس؟" (ص، 8)

عطفا على هذا، ينهج عباس الجراري في مقدمة "رحيق العمر" النهج نفسه فيفصح عن الميثاق الأخلاقي الذي يربطه بقارئه وقد اتخذته نبراسا يستهدي به وهو في خضم صعوبات الوجود من حيث هو وجود إنساني جسماني ومن حيث هو وجود معنوي مشروط بخصوصية المجتمع وحقبته التاريخية. ويقدمه في صورة مبدأ نابع من صميم تجربته الإيمانية والفكرية. وكأنني به وهو يعرب عنه في مقدمة الكتاب يدعو قارئ سيرته إلى أن يستحضره في فهمه وتأويله للأحداث والوقائع المعروضة، ومؤداه أن العبرة في الحياة الدنيا، ليست بالنجاحات ولا بالإخفاقات بل

بالإيمان بالقدر وحتميته وبأن من "تتأج الإيمان بالقدر جلاء المواقف وزوال الهم والحزن كما في الحديث النبوي الشريف لما يكون له راحة في نفس المؤمن الذي يتحقق من وقوع ما هو مكتوب له متى أراد الله ذلك... مع اليقين أنه هو المانع المانع" (ص. 16/14)، وخلق بمن آمن بهذا أن يتحرر من أغلال الغيظ والضغينة وأن يربأ بالكتابة عن أن تتخذ مطية لرد الإساءة أو التشهير بمن صدرت منهم. فلنستمع إليه يقول بهذا الصدد: "أما الذين كانوا يعارضون ويتخذون مني موقف الخصومة والعداء بقصد الإساءة إلي أو بقصد حماية مصالحهم الشخصية، فقد أصبحوا جميعاً في ذمة الله تعالى، ولا أملك إلا أن أدعولهم بالرحمة والمغفرة، وأن يتجاوز عن إساءتهم لي، وأن يتقبل بعفوه الكريم مسامحتي لهم بصدق ورجاء إليه تعالى في ذلك، حتى لا يلقوه يوم الحساب وفي صحيفتهم ما يشوبها أو ما قد يسألون عنه بهذا الشأن، وكذا حتى لا ألقاهم -وأقسم على ذلك- وفي نفسي ذرة حقد أو بغض عليهم، أو ميل إلى التشفي والانتقام أو الطمع في رد الاعتبار أو استرجاع ما سلبوه مني -وأنى لي ولهم ذلك يومئذ- وإن كانوا تسببوا لي ولمن حولي في معاناة أحمد الله على أن أعاننا إذ ذاك على تحملها وتجاوزها" (ص. 16 / 15).

في ضوء الميثاق الأخلاقي تحقق كتابة السيرة عند عباس الجراري، نوعاً من التسامي الذي يطهر النفس بالدعاء بالعفو عمن أساء، وبالتحرر من المشاعر السلبية ومن أهواء النفس التي من شأن الكتابة تحت تأثيرها أن يبعد الكاتب عن الحق، وليس الحق أن تقول كل شيء وإنما الحق أن تلتزم الموضوعية قدر طاقتك فيما تعرض من وقائع وأحداث. وعلى هذا النحو يضع الكاتب مسافة بينه وبين شبهة الكذب شبهة ملازمة لكل من امتلك الشجاعة ليتحدث عن نفسه بله الكتابة عنها.

2. شجرة النسب "الجينولوجي" والأدبي

يجوز أن نرى في اختيار افتتاح السيرة الذاتية بمبحث النسب التعبير عن رغبة دفينة لدى الكاتب ليس في تأصيل انتماؤه "الجينولوجي" فحسب بل في تأكيد أنه بصدد كتابة سيرة موضوعية، موضوعها الوقائع الموثقة وليس الحياة

النفسية الداخلية، تنتسب إل النموذج السيرة في التراث العربي الذي ينتمي إلى ما يجوز أن نسميه بالآداب الموضوعية وتتضمن كتابة الأخبار والرحلات والرسائل والسير بأصنافها المختلفة. في مقابل الشعر مجال الهوى والأهواء والكذب العذب والإيهام. ولعلّ عباس الجراري بهذا الاختيار يعلن ضمناً أنه لا يميل فكرياً ولا أسلوبياً للقطيعة مع التقليد ليكتب ضد الموروث في هذا المضمار. أو بمعنى أدق، ينسج الكاتب على منوال نموذج كتابة التعريف بالأعلام ويعرض عن استنساخ نماذج وافدة من آداب أجنبية كما فعل آخرون نذكر منهم طه حسين الذي قرب السيرة من أدب الاعترافات الذي ظهر في الغرب، وعبد المجيد بن جلون صاحب "في الطفولة" الذي يعطي الكلمة للطفل بدل الراشد فيعرض المشاهد من زاوية نظر طفل¹. وبخلاف هذا تبدو سيرة رحيق العمر أقرب إلى كتابات من قبيل كتابة ابن خلدون في سيرته: "التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً"، من جهة نزعتها التاريخية وسردها الموضوعي للأحداث في انسجام مع منظومة القيم الدينية والأخلاقية الكبرى، الموجهة للفرد والجماعة، وما تبيحه من أشكال الانقياد من غير استسلام والاعتراض من غير تمرد. ولكن عباس الجراري يختار مع ذلك، في ظل الثوابت النبوية لنموذج التراجم، أن يكون معاصراً بأسلوب التعبير المتحرر من قيود الكتابة التراثية السائدة قبل عصر النهضة حين كان الكتاب يخاطبون النخبة، ولم تكن الكتابة حينئذ موجهة "لأي قارئ كان" على حد تعبير أحمد فارس

¹نسوق للتمثيل هذا المقتطف التالي من سيرة عبد المجيد بن جلون حيث يعبر بوعي طفل عن رؤيته للرجال المراكشيين (المغاربة) الذين كانوا يفدون إلى المنزل بمانشيستر: "لم يكن ليغيب حتى عن طفل صغير مثلي أن ما يحيط بهؤلاء الناس مبالغ فيه، فهم يبالغون في صياحهم وفي ضحكهم وفي أكلهم وفي لباسهم وفي غضبهم وفي عبثهم وفي كل ما يتصل بهم، كل ذلك في بلاد لا تعرف المبالغة إليها سيلاً... كانوا يعرفون بين الأطفال "بذوي القبعات الحمر" وبالرغم من ذلك كانت سمعة ذوي القبعات الحمر هؤلاء بين الناس سمعة حسنة لما لمسوه فيهم من عزة نفس وحب الخير وحسن السيرة، ولذلك أحبهم جميع من عرفهم من الانجليز" (ص. 33-34)

الشدياق¹. ولعله بجمعه بين المحافظة على السمات الكبرى للنوع الأدبي والتعبير العصري، يعيد الحياة لهذا النوع من كتابة السير الذي يقلص مساحة التعبير الوجداني فيتيح للكاتب أن يتحرر من تجاوزات الأهواء التي قد تتسربل برؤية ذاتية للواقع غير مناسبة لمقتضى الحال.

وفضلاً عن هذا، تقدم سيرة "رحيق العمر" مستويات تعبيرية متعددة حيث تتصاقب الكتابة العلمية (الفصل الأول والثاني) والكتابة السردية التي تسرد الأحداث من زاوية نظر الكاتب متوسلة بتعبير تقريرى يغلب فيه الاقتصاد في المحسنات التعبيرية والتحفّظ في التعبير عن المشاعر الوجدانية، لأن العبرة إنما يتم بتوثيق الحدث في بنية سردية إخبارية لا تحفل بمعالجة الآثار النفسية والانطباعات الجمالية المواقبة له. قد يعرض للكاتب من أسباب الفرح والحزن والأسى والحب مثل ما يعرض لسائر الناس، ولكن جهده وغايته في الكتابة لا ينصرفان إلى تشريح هذه الحالات الوجدانية وإبرازها على نحو قد يجعل الحدث الموضوعي يتوارى وينحسر في خلفية الصورة. وبفضل هذه الاستراتيجية يحافظ الكاتب على المسافة المعتبرة بين الذات والموضوع مؤثراً التحفّظ في التعبير على الانقياد خلف أي تفاعل ذاتي وما قد ينجم عنه من تشويه أو حجب لحقيقة الموضوع. وتعزز مقارنة المقتطف، أسفله، من رحيق العمر، بمقتطف مجتزأ من أيام طه حسين، يروي حدثاً مماثلاً، ألا وهو حدث الامتحان المدرسي، هذا الانطباع.

"حدث ذات عشية وأنا في غرفتي بالمستشفى الإيطالي أن فوجئت بالصديق بنمسعود يدخل عليّ حاملاً إليّ -مشكوراً- ملف التسجيل في الامتحان النهائي (الثانوية العامة) الذي كان سيحل بعد أسبوع والذي كنت أغيته من ذهني لا أفكر

¹ يذهب عبد الفتاح كيليطو في كتابه الذي يحمل عنوان "في جو من الندم الفكري" إلى أن تاريخ نشر كتاب "الساق على الساق" يعد علامة فارقة في تاريخ محاولات تجديد الأدب العربي. ففارس الشدياق "يخبر القارئ أنه سيتخلّى تماماً عن السجع، فضلاً عن المحسنات البديعية والصور البلاغية التقليدية، = بانفصاله عن الكتابة النخبوية للحريري والزمخشري" داعياً إلى كتابة موجهة، على حد تعبيره "لأي قارئ كان". (ص. 66).

فيه، فجاءت هذه الزيارة المفاجئة لترجع بي إلى الواقع وكيف عليّ أن أواجهه، فعدت على الفور إلى القاهرة، وعكفت خلال الأسبوع المتبقي قبل الامتحان، على مراجعة المقررات. ومباشرة بعد ذلك عدت إلى المغرب. وما هي إلا أيام حتى اتصل بي الصديق المرحوم محمد الدغمي الذي كان مسجلا في معهد للتمثيل بالقاهرة، وكانت له مع فنانات وفناني مصر لقاءات واستجابات ينشرها في جريدة (العلم). وكان عاد إلى المغرب لقضاء عطلة الصيف، وذات صباح فاجأني بالاتصال مخبرا أنه وصلتته رسالة من القاهرة بنتائج بعض الأصدقاء، وكان من حظي أنني نجحت ورتبت الرابع على مجموع مرشحي مصر وكان عددهم نحو سبعين ألفا نجح نصفهم كما أخبرت الرسالة " (ص. 100).

تروي هذه الفقرة حدثا مركزيا يتكون من لحظتين: لحظة الانتقال من وضع الاستشفاء إلى وضع تحضير الامتحان في ظرف وجيز، ولحظة تلقي نبأ النجاح الباهر إلى الراوي وهو يقضي عطلة الصيف بالمغرب. وتتخلله معلومات دخيلة على بنية الحدث ترد في السياق في صورة استطراد يقدم للقارئ هوية الشخص الذي جاء بنبا النجاح: محمد الدغمي، ويخبر عن نشاطه في مصر واتصاله بجريدة العلم التي تنشر لقاءاته واستجاباته مع الفنانين بمصر بحكم متابعته للدراسة بمعهد للتمثيل. ويتيح الاستطراد للقارئ الخروج ولو مؤقتا من الحدث المركزي كتجربة مقلقة وكمصدر للتوتر، إذ ليس الغرض وضع القارئ في أفق انتظار يسوده الترقب، خصوصا وأن المرض وضيق فسحة تحضير الامتحان وكثرة المترشحين تعد من العوامل التي قد تسهم في الرفع من منسوب الانفعال والتشويق وما يستصحب ذلك من توتر سردي (tension narrative). لكنه لا يكتب ما يكتب بغية إثارة انفعال وإنما يقصد تقديم الحدث تمهيدا لإخبار بحدث لاحق في بنية سردية كبرى مترابطة الحلقات زمنيا، فحدث الامتحان ومآله (النجاح بامتياز) يمهد لحدث اتخاذ قرار متابعة الدراسات العليا بمصر، وهو قرار مفصلي في مجرى حياة الكاتب. ويُلَمَح الكاتب بين ثنايا العرض إلى الإنجاز الذاتي المتمثل في النجاح بتفوق بالرغم من إكراهات العارض الصحي وضيق الفسحة الزمنية للتحضير للامتحان.

وعلى النقيض من هذا، يجنح طه حسين في كتابة سيرته، خصوصا في جزئها الأول، إلى إضفاء مسحة روائية انفعالية على أسلوب عرضه للأحداث متأثرا بكبار الرومانسيين الفرنسيين، أمثال صديقه أندري جيد، وخصوصا اعترافات رسو الصادرة سنة 1782. ففي هذا الكتاب المؤسس للسيرة الذاتية كفن أدبي تسهم الاعترافات في الكشف عن حقيقة الشخص والحياة الاجتماعية التي تحجبها الأقنعة لبلوغ الشفافية الداخلية (*la transparence intérieure*). تماما كما يبين طه حسين ذلك من خلال المقتطف الوارد أسفله، حيث يكشف قساوة المدرسين في الأزهر وغلظتهم وهي الصورة التي يخفيها قناع النفاق الأخلاقي المتفشي بين فقهاء الأزهر. ثم إنه يتخذ من حدث الامتحان المفضي إلى الانتساب إلى طلبة الأزهر تعلّة للتعبير عن الجرح المؤسس لتجربته الذاتية والمحدد لتفاصيلها في سياق اجتماعي يكاد يكون عدائيا في مجمله، عدائيا تجاه أبناء الريف وتجاه الذين لم تنصفهم الطبيعة فأذتتهم في حواسهم وأجسامهم. ولعل هذا ما يفسر الحزن الطاغى الممزوج بالقلق والحيرة الذي تعرب عنه مفردات الخوف (خفقان القلب والاضطراب) والحسرة والألم والخواطر اللاذعة.

"وقد أقبل اليوم المشهود، فأنبئ الصبي بعد درس الفقه أنه سيذهب للامتحان في حفظ القرآن توطئة لانتسابه إلى الأزهر. ولم يكن الصبي قد أنبئ بذلك من قبل، فلم ينتهيا لهذا الامتحان. ولو قد أنبئ به لقرأ القرآن على نفسه مرة أو مرتين قبل ذلك اليوم، ولكنه لم يفكر في تلاوة القرآن منذ وصل إلى القاهرة. فلما أنبئ بأنه سيمتحن بعد ساعة خفق قلبه وجلا، وسعى إلى مكان الامتحان في زاوية العميان خائفا أشد الخوف مضطرب النفس أشد الاضطراب، ولكنه لم يكذب يدنو من המתحنيين حتى ذهب عنه الوجع فجأة، وامتلا قلبه حسرة وألما، وثارت في نفسه خواطر لاذعة لم ينسها قط، فقد انتظر أن يفرغ المتحنيان من الطالب الذي أمامهما، وإذا هو يسمع أحد المتحنيين يدعوه بهذه الجملة التي وقعت من أذنه ومن قلبه أسوأ وقع: "أقبل يا أعمى." ولولا أن أخاه أخذ بذراعه فأنهضه في غير رفق وقاده إلى المتحنيين في غير كلام، لما صدق أن هذه الدعوة قد سيقنت إليه، فقد تعود

من أهله كثيرا من الرفق به وتجنبنا لذكر هذه الآفة بمحضره. وكان يقدر ذلك وإن كان لم ينس قط آفته ولم يشغل قط عن ذكرها. ومع ذلك فقد جلس أمام الممتحنين وطلب إليه أن يقرأ سورة الكهف، فلم يكذب يمضي في الآيات الأولى منها حتى طلب إليه أن يقرأ سورة العنكبوت، فلم يكذب يمضي في الآيات الأولى منها حتى قال له أحد الممتحنين: "انصرف يا أعمى فقد فتح الله عليك". (ص. 101-102/ج. 2).

تبرز المقارنة الاختلاف بين النصين -ولنقل بين السيرتين- في أسلوب معالجة الحدث، ذلك أن رحيق العمر يحرص على ترك مسافة بين الذات والموضوع مما يضيف على العرض بعدا تسجيليا لا يخلو من سلاسة تظهر في انسيابية توالي الأحداث سببيا.

لقد آثرت أن أعقد هذه المقارنة السريعة لأوضح أن مسألة الانتساب إلى النوع في الكتابة ذات أثر كبير في منهجية وأسلوب تقديم الأحداث إلى القارئ وتوجيه فكره وانفعالاته، وكما سبق أن ذكرت فإن عباس الجراري يقدم لنا نصا تتنوع مستوياته التعبيرية بين الكتابة البحثية الخالصة والسرد الموضوعي الذي يروم توثيق الوقائع والأحداث المرتبطة بتجربة الكاتب الأسرية والمهنية والعلمية، حيث يلتزم الكاتب بترك مسافة معتبرة بين الذات العارضة والموضوع، فلا يبيح لنفسه أن يخرج عن التمثيل الموضوعي للتجربة وما يقتضيه من استبعاد الذات الداخلية (الجوانية) تفاديا لإثارة الأشجان وتقليب المواجه التي لا تخلو منها حياة على الأقل، في هذا الجزء الأول الذي يخيل لي أن الكاتب أراد به بمثابة الخلفية التاريخية والأساس الموضوعي لما سيأتي ذكره ومعالجته في الجزأين اللّاحقين.

3. صورة الأب

تتفرد سيرة رحيق العمر بتصويرها للعلاقة الاستثنائية التي ربطت عباس الابن بعبد الله الأب. هي علاقة تتبدى بجلاء في كثير من المقاطع التي تستعيد شذرات من سيرة عبد الله الجراري في سياق علاقته بالكاتب وهو يخطو خطواته الأولى في طريق الحياة التي شاءت الأقدار أن تكون تيارا يستمد زخمه من صفوة عمر الوالد عبد الله الجراري الفقيه المثقف والعالم المستنير. إن ما يسترعي الانتباه

أن عباس الجراري يقدم صورة في غاية الرقة عن والده، عبد الله، الذي يعتبر أبا غير نمطي مقارنة بصورة الأب التي يرسمها كثير من الكتاب عن آبائهم. وهي في الغالب صورة تمثل السلطة المطلقة وما تثبire من مشاعر الحب المشوبة بالخوف والرهبة لدى أفراد الأسرة. ويرسم أحمد أمين في سيرته "حياتي" ملامح هذه الصورة. "كان بيتنا محكوما بالسلطة الأبوية، فالأب وحده مالك زمام أموره، لا تخرج الأم إلا بإذنه ولا يغيب الأولاد خوفا من ضربه. ومالية الأسرة كلها في يده يصرف منها كل يوم ما يشاء، وهو الذي يتحكم فيما نأكل وما لا نأكل... أما إيناسنا وإدخال السرور والبهجة علينا وحديثه اللطيف معنا فلا يلتفت إليه ولا يرى أنه واجب عليه." (ص. 20).

خلافًا لهذا يرسم عباس الجراري صورة عن الوالد عبد الله بن العباس الجراري تتبدى عبر كثير من أوجه نشاطه العلمي والتربوي والعلمي والاجتماعي، وهي أوجه يصعب الوقوف عندها بتفصيل لكثرتها وتداخلها مع حياة الكاتب، ولأن المقام ليس تلخيص ما كتب الأستاذ عباس عن والده، وهو كثير، وإنما إبراز السمة الجوهرية المحددة لنظرة الابن لوالده، التي يعرب عنها سلوك الأب في نطاق عائلته الصغيرة وكذا في حياته العامة، وهي صورة لا انفصام فيها ولا انشطار بين الباطن والظاهر بين الخاص والعام: "...إلا أن هذه الحياة بالنسبة للوالد رحمه الله -على ما فيها من خصوصيات- تلتقي إلى حد كبير مع حياته العامة المعروفة، ربما لأنها كانت منتظمة ومنضبطة ومنفتحة في نفس الوقت على المجتمع الصغير والكبير" (ص. 67، حقيق العمر). ونفهم من هذا أن أساس انتظامها وانضباطها كونها شخصية صاغت ملامحها النشأة في أحضان والدين حرصا على تربيته بمعية أخيه تربية قائمة على أسس أخلاقية مستمدة من ديننا الحنيف ومدعمة بتكوين علمي تشهد به المكانة العلمية والاعتبارية للعلامة عبد الله الجراري في أوساط النخبة العالمة المغربية التي عاشت مخاض الاستقلال وجهاد بناء مغرب ما بعد الاستقلال في ظل ثوابت الهوية الإسلامية للمغاربة. فلنقرأ للكاتب هذه السطور التي يوضح

الفلسفة الأخلاقية التي طبعت شخصية الوالد ووجهت تربيته لأبنائه والتي تقوم على مكارم الأخلاق والحرص على كرامة الإنسان:

"وعلى هذا النسق عني رحمة الله عليه بتكوين أبنائه وتثقيفهم، في توجيه سلوكي مستمر كان يلح فيه على القيم الخلقية، وعلى ربط مكارم الأخلاق بالكرامة، باعتبارها أساس كل مكرمة ومنطلق الإحساس بكل حق وواجب، سواء على مستوى الفرد أو المجتمع، ومن حيث هي المقياس الذي تنظم به العلاقة مع الله والناس، بدءاً من الحاكم إلى المواطن الصغير. وقد كان يجسد لنا مفهوم الكرامة على الصعيد الاجتماعي في فضائل سلوكية سنية مارسها وربانا عليها، تتجلى عنده في الصدق والأمانة والكرم وصلة الرحم وإفشاء السلام وعبادة المريض وإغاثة المعوز والإسراع إلى التعزية إن لم يتح حضور الجنازة والصلاة عليها وخدمة الصالح العام والتضحية من أجل ذلك" (ص، 81/80)

يكتسي هذا النص أهميته من كونه يعبر بجلاء عن الأسس الأخلاقية للتنشئة الاجتماعية التي مارسها العلامة عبد الله الجباري طيلة حياته وغرسها في أبنائه وكل من رضي به أستاذا مربيا زاهدا جاعلا نصب عينيهِ العمل الصالح المقرب من الله. وهي أسس نراها تتراجع وتتلاشى في حياتنا الآن وتحتاج إلى إعادة إحياء لإدماجها في مشروع لإصلاح التعليم الذي يجب أن يعنى بالفرد المغربي من جميع جوانبه.

وبموازاة هذه الصورة يقدم لنا الكتاب صورة أخرى تبرز الوالد، الرجل المتشعب بثقافة شرعية وعربية أصيلة، مثقف الایهاب الانفتاح على مستجدات العصر، فيبدو عبد الله فقيها صاحب أفق فكري رحب يأخذ بأساليب التربية الحديثة التي تحرص على العناية بالجانب الترفيهي من منطلق كونه ركنا من أركان التربية السليمة، لا يقل أهمية عن التكوين الذي يصقل القدرات الذهنية وينمي المعارف العقلية والنقلية. وبيان هذا أن الوالد عبد الله، رحمة الله عليه، وأمد في عمر نجله عباس، بقدر ما كان حريصا على امتثال أبنائه إلى برنامج تعليمي صارم وشاق، يجمع بين الكتاب والمدرسة الحديثة ويوفق بذلك بين

النمطين التعليميين: التقليدي والجديد (ص. 75)، كان أيضا حريصا على أن يأخذ أفراد أسرته بأسباب الأُنس والجَمَام من نزهة ولعب وتنظيم للفرجة التي تشحذ الخيال وتهذب الذوق وترسخ القيم:

"ومن العجيب أن ذلك لم يكن يتعارض مع أخذنا بانتظام إلى الحدائق العمومية، ومع تدريبنا على اللعب التقليدية وكذلك العصرية التي كان يكثر من اقتناء ما يظهر منها على ندرته وقلة العناية به وقتئذ، وكذلك اشتراكه رحمه الله معنا في ألعاب ومباريات كنا ننظمها في وسط الدار الفسيح الذي كان يتسع لكرة القدم وقذفاتها البعيدة، بل كل يتسع لحفلات التمثيل إذ قدمت فيه عام 1950 مسرحية مثلتها فرقة رباطية هاوية كان السيد العربي اجديرة -ابن الخالة- أحد أعضائها." (ص 76)

تلك بعض السمات التي تحدد ملامح شخصية الأب التي أسهمت في صوغ برنامج تربوي- تعليمي للأبناء عماده الأصالة والالتزام بالمقومات الروحية والحضارية للشخصية المغربية، وفيه تجديد فكري وتربوي من غير تقليد، غايته بناء شخصية قوية مؤمنة بقوة حضارتها وقدرتها على التقدم والخروج من لحظة الوهن والضعف والانعقاد من قبضة الوصاية السياسية والاقتصادية والثقافية. ولا يخفى على المتتبع للحركة الثقافية في العالم العربي والإسلامي في ذلك الأبان أن الحركة الإصلاحية السلفية شكلت الإطار المرجعي لبزوغ المثقف-الفقيه في الساحة الاجتماعية ودوائر التأثير، ويقدم عباس الجراري في سيرته، من خلال حديثه عن والده ورسمه لمعالم شخصيته الفكرية والسلوكية، صورة نموذجية للمثقف-الفقيه الذي جعل التربية المدخل الأساس لنهضة الأمة الإسلامية، والمغرب حصن من حصونها، وانعتاقها من براثن الجهل والتخلف. وقد تمكن صاحب الرحيق بتأثير من تربيته وتكوينه، كما رسمهما الوالد، من أن يحافظ على استمرارية هذه الصورة في شخصه، بل إنه قد استطاع أن يغنيها برافد البعد الأكاديمي العصري بحكم استكمالته لتكوينه العلمي بفرنسا ومصر، في فترة كانت فيها الجامعة المصرية صرحا علميا يضاهي أعرق الجامعات الغربية، وبفضل إسهامه في نشأة الجامعة

المغربية غداة الاستقلال وانخراطه في العمل الثقافي والأكاديمي الذي تشهد على قيمته مؤلفاته وتأثيره العلمي لكوكبة من الأساتذة والطلبة.

4. شذرات مما جاء في باب اللوم

تشير سيرة رحيق العمر قضايا ومشكلات عامة من خلال وقائع وأحداث خاصة ترتبط بمسيرة مثقف وأكاديمي شق طريقه نحو النجاح باجتهاده وموهبته. نذكر منها واقعتين يوردهما صاحب الرحيق في سياق سردي يسلط الضوء على المسيرة الوظيفية للكاتب. الواقعتان يمكن أن نرى فيهما مشهدا عاما يُمثل لذلك الضرب من التدافع الذي لا يراعي أصول التنافس الشريف فلا يستنكف أصحابه من التدليس لإدامة الاستئثار بالمنافع المادية والمعنوية.

تحليل الواقعة الأولى على حدث زيارة الملك المغفور له الحسن الثاني للقاهرة في عام 1965. ويشير الكاتب إلى الظروف البالغة الحساسية التي تمت فيها هذه الزيارة. فهي زيارة تأتي بعد حرب الرمال التي كانت الجمهورية العربية المتحدة، بقيادة جمال عبد الناصر، طرفا مناوئا للمغرب فيها. وكان أن اغتنم الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه هذه المناسبة ليمرر رسالة صلح المنتصر بتقديمه للرئيس المصري فور وصوله خمسة ضباط مصريين أسرتهم القوات المسلحة الملكية في الحرب السالفة الذكر. يروي الكاتب من موقع وظيفته في السفارة المغربية بالقاهرة وقتئذ، ومن موقع صلته الوثيقة بالنخبة السياسية والثقافية مجريات تلك الزيارة الملكية التي توجت بحفل تقليد جلالة الملك الدكتوراه الفخرية من جامعة القاهرة. وقد حرص الوفد المغربي على أن يبرز هذا الحفل المكانة الفكرية والعلمية والأدبية لجلالته بحيث لا يكون نسخة للحفلات التكريمية السابقة. وقد كان لكاتب السيرة، عباس الجراري، دور في تعديل بروتكول هذا التكريم الذي تميز، على غير العادة، بالقاء الملك الحسن الثاني خطابا نال إعجابا وإشادة من قبل الحضور والمستمعين. (التفاصيل في ص. 118-119 من رحيق العمر).

الشاهد في القصة أن المغفور له جلالة الملك الحسن الثاني سيأمر ولما تُقلع الطائرة عائدة به إلى أرض الوطن، بتعيين عباس الجراري في الديوان:

" ثم حدث يوم توديع جلالتة في مطار القاهرة، وبعد أن سلم عليه أعضاء السفارة، نُودي عليّ للصعود إلى الطائرة حيث كان جلالتة ما زال واقفا عند مدخلها، وبجانبه الحاج أحمد بلا فريج والحاج امحمد اباحيني الذي كان يومئذ كاتباً عاماً للحكومة، ونُودي من وسط الطائرة على السيد عبد الوهاب بنمنصور الذي كان إذ ذاك رئيساً للديوان الملكي، وقال جلالتة وهو يضع يده على كتفي: "لقد عيّنت السيد الجراري في الديوان وعلى وزير الخارجية السيد أحمد الطيب بنهيمّة أن يعجل بإجرائات عودته إلى الرباط" (ص 119).

لا نعرف على وجه اليقين البواعث والحيثيات التي جعلت هذا التعيين العلني لم يعرف طريقه إلى التنفيذ. ونستشف مما يرويه الكاتب بعد ذلك، أن أياد خفية عطلت هذا القرار أو بالأحرى سُمح لها بتعطيله لأسباب لم تُقدم للمعني بالأمر من قبل المسؤول عن تنفيذ الأمر الملكي. وأغلب الظن أن أسبابها تصب في مجرى التآمر الذي لا تخلو منه بطانة، وقد تكون لها صلة بكيفية اشتغال منطق السياسة، حيث الأوامر تحتّم الخروج إلى أغراض لا صلة لها بمنطوقها، بحسب مقتضيات طارئة، فتُحمل الألفاظ على غير ما تُفيد لدى العموم.

لقد كان لهذه الواقعة دور في تغيير الأستاذ عباس الجراري لمساره المهني بعد أن نصحه الوالد "باهمال موضوع الديوان ونسيانه، فكان أن قرر الاستقالة من وزارة الخارجية والالتحاق بالتدريس في التعليم العالي. وبهذا يبدأ فصل آخر من حياة الأستاذ نذره للبحث في الثقافة العربية المغربية لإحياء أعلامها ونصوصها الغميسة. وقد اعترضته في سبيل تحقيق مبتغاه عقبات وصلت إلى حد تشطّيبه من أطر الجامعة وما ترتب عن ذلك من قطع للرزق وتعريض أسرة بأكملها للمجهول. وتشهد حادثة اعتراض رئيس الجامعة آنذاك على موضوع أطروحة الأستاذ بتواطؤ مع عميد الكلية، مما نجد تفصيله في الصفحات 121-127، على هشاشة مؤسساتنا العلمية والثقافية التي كانت وما زالت¹ خاضعة للنزوات الذاتية وللنزوع إلى

¹ هذا رأي وتأويل كاتب هذه السطور وليس بالضرورة رأي صاحب رحيق العمر.

التسلط من غير وازع أخلاقي وعلمي. وتتقاطع الوقائع المرتبطة بهذا الحدث مع واقعة أخرى أشار إليها الكاتب في مقدمة السيرة، تتعلق بملازمات تعيينه عضوا في أكاديمية المملكة عند تأسيسها. فمما أشار إليه بهذا الصدد أن اقتراح تعيينه بهذه المؤسسة جوبه بمعارضة على الرغم من اقتراحه في اللجنتين اللتين عهدا إليهما أمر اختيار الأعضاء. فما كان من صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه أن علق على ذلك مبتسما، موجها الخطاب للكاتب عند تعيينه بالأكاديمية: "آش عندهم معاك أنتي الجراري" (ص 13).

خاتمة

هذه بعض الانطباعات والأفكار التي أوحى بها قراءة هذه السيرة، فارتأينا تدوينها في صورة هوامش على النص عليها تفيد القارئ وترغبه في قراءتها لاستخلاص الدروس والعبر. ذلك أن الهدف الأول والأخير لكل من ارتأى ضرورة الكتابة في مضممار السيرة والمذكرات يتمثل في نقل شهادة وقيم مستخلصة من التجربة الحياتية للكاتب إلى الأجيال اللاحقة من القراء والمثقفين ليحكموا عليها ويحتكموا إليها بخصوص ما عرضته من أحداث ووقائع تاريخية. ومن الاطناب التذكير بالمكانة الاعتبارية للكاتب والأستاذ والعالم عباس الجراري، لكن ليس منه أن صدور هذا العمل حدث ثقافي وأدبي بامتياز، جدير بالعناية والدراسة، لأنه، فضلا عن تسليطه الضوء على حياة الكاتب والأسرة الجرارية، يميظ اللثام على كثير من الأحداث والمعلومات المرتبطة بجوانب من تاريخ المغرب الثقافي والسياسي تساعد في فهم تاريخنا الراهن.

* * *

د. محمد احميدة

- أستاذ جامعي، كلية الآداب، جامعة ابن طفيل، القنيطرة (تقاعد سنة 2013)..
- رئيس مجموعة البحث في الأدب المغربي بكلية الآداب بالقنيطرة.
- عضو مؤسس لمجموعة البحث «أرخبيل» بنفس الكلية.
- عضو مختبر أرخبيل للدراسات والأبحاث الأدبية بنفس الكلية.
- عضو لجنة نشر الأعمال العلمية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة.
- شارك في العديد من اللجان العلمية لفحص ومناقشة الأطاريح في عدة جامعات مغربية.
- عين مديراً لمجلة «المناهل» التي تصدرها وزارة الشؤون الثقافية (المغرب) من 1994 إلى 1998.
- عضو النادي الجراي بالرباط منذ 1983 إلى اليوم.
- عضو اللجنة العلمية لجائزة عبد الله الجراي في الفكر والأدب.
- اشترك في العديد من الندوات العلمية واللقاءات الثقافية داخل المغرب وخارجه.
- المنشورات:
- 1- الكتب: من الأدب المغربي على عهد الحماية، محمد بوجندار الشاعر الكاتب، (الرباط، 1993).
- 2- الكتابة الإصلاحية بالمغرب خلال القرن التاسع عشر: قضاياها وخصائصها الفنية، (الرباط، 2002).
- 3- من تاريخ الأندية الأدبية في المغرب: النادي الجراي بالرباط لمؤسسه العلامة عبد الله الجراي، (الرباط، 2004).
- 4- حركية النادي الجراي خلال العقد الأول من القرن العشرين، (الرباط، 2008).
- 5- دراسات في الأدب العربي بالمغرب الحديث، ج1، (الرباط، 2009).
- 6- دراسات في الأدب العربي بالمغرب الحديث، ج2، (الرباط، 2011).

7- محمد بن الحسين، الشاعر الذي أحب وطنه، بالاشتراك مع الأستاذ محمد لومة (الرباط، 2013).

8- شعراء النادي الجراي: الشاعر والنص، (الرباط، 2015).

ضمن كتاب جماعي: نشر عدة دراسات ضمن كتب جماعية، منها:

1- زهرة الآس في فضائل العباس، أعمال مهداة إلى عميد الأدب المغربي

الدكتور عباس الجراي في عيد ميلاده الستين (الرباط، 1997).

2- ظاهرة الأندية الأدبية في المغرب، ندوة عبد الله الجراي، الحلقة الثالثة،

(الرباط، 1998).

3- الأدب المغربي، إشكالات وتجليات، دراسات مهداة للأستاذ عباس

الجراي، كلية الآداب بالرباط، 2006.

4- الرباط مدينة الثقافة والفنون، كلية الآداب بالرباط، تقديم عباس

الجراي، 2014.

* * *

قراءة للمكان في «رحيق العمر»

د. محمد حميدة

«رحيق العمر» نص أدبي بهوية صريحة، هو سيرة ذاتية للأستاذ عباس الجراري ويزيده العنوان الشارح تدقيقاً وتوضيحاً، حين يخبر الكاتب قارئه، أن هذا الجزء الأول، مخصص للحديث عن نشأته ومشروعه العلمي. وهذا الحصر، يشكل جزءاً من الميثاق الذي عقده الكاتب مع القاريء.

ولاشك أن هذا القاريء المفترض يمكن أن يتساءل: لماذا كتب عباس الجراري سيرته الذاتية ؟ ولماذا عمد إلى نشرها والنادي الجراري يحتفل بالذكرى التسعين لتأسيسه؟⁽¹⁾

لا يتردد صاحب السيرة في تبيان الدافع الكامن وراء إخراج هذه السيرة إلى مجال التلقي الواسع، فيقول⁽²⁾: «أود أن أشير إلى أن قصدي من تسجيل هذه السيرة أن تكون خالصة صادقة، وصافية من كل تزيف أو تحريف أو مبالغة، وهو ما اجتهدت أن ألتزمه ولا أحيد عنه. ولو شعرت بأدنى ميل عن هذا الالتزام لأسرعت إلى تمزيق ما كتبت باعتباره سيكون غير ذي أهمية بالنسبة للأجيال الجديدة المتطلعة إلى مزيد من التواصل فيما بينها ومع من سبقها، وإلى مزيد من معرفة تلك الحقائق وتأمل واقعها في بعدها الممتد أزيد من ستة عقود، منذ انتهاء عهد الحجر والحماية وبزوغ فجر الاستقلال والحرية». بهذا التصريح يتّمم الأستاذ الجراري ذلك الميثاق الذي عقده مع القاريء والمعلن بدءاً من عنوان الكتاب.

ولما كان من أهداف كتابة هذه السيرة، التواصل مع الأجيال الجديدة، والمزيد من معرفة بعض الحقائق وتأملها، فقد تم التوصل بآليات متعددة لصياغة هذا

(1) صدر كتاب "رحيق العمر" ضمن منشورات النادي الجراري، رقم 101، سنة 2020.

(2) عباس الجراري، رحيق العمر، موجز سيرتي الذاتية، ج1، النشأة والمشروع، ص، 17.

النص، وتحقيق ذلك التواصل، وتم توظيف وسائط سردية مختلفة، لنسج هذا الحكيم الاستيعادي.

وقد بدا لي أن توظيف المكان، شكل إحدى الأدوات التي من خلالها شيد الكاتب بناء النص. ويعتبر المكان في الكتابة السردية، امتداداً للذات الكاتبة، التي تنمى مع فضاءات هذه الكتابة. ويبدو ذلك من خلال الطريقة التي يشكّل بها المكان داخل المتن بنقله من حيّزه الطبوغرافي الصرف، لصياغته وجدانياً، وقد ملّئ بمشاعر ومواقف ودلالات نفسية، تغني إنتاجية المعنى؛ فهو «حقيقة معيشة يؤثر في البشر بقدر ما يؤثرون فيه، فلا يوجد مكان فارغ أو سلبي، ويحمل المكان في طبيعته قيمة تنتج من التنظيم المعماري كما تنتج من التوظيف الاجتماعي»⁽¹⁾.

والقاريء لـ «رحيق العمر» يلحظ أن المكان قد احتل داخل هذه الكتابة، حيزاً غير يسير، ويكتسب في سياقها دلالات عديدة، تسهم في رسم ملامح سيرة الكاتب، وتفتح زوايا أكبر، تكشف المضمّر، وتعمّق المصريح به في مستوياته المتعددة. ومن ثم كان إغراء المكان في «الرحيق» كبيراً، تسعى هذه القراءة إلى مقارنته، تأسيساً على أهمية المكان في الاقتراب من نص أدبي، يتمثل هنا في السيرة الذاتية.

وأود في البداية توضيح القصد من توظيف مفهوم «قراءة» في هذا السياق، أبغي به تلك القراءة التي تقدم احتمالاً من احتمالات متعددة، تسمح بها مداخل أخرى لهذا النص. وهناك أمر آخر، يتعلق بالاستخدام الإجرائي لمفهوم «المكان» و«الفضاء». وأميل هنا إلى استخدام مفهوم «الفضاء» باعتباره دالاً على اتساع أكبر، يضم في نفس الآن أمكنة⁽²⁾، وهو ما تميل إليه بعض الدراسات النقدية، التي انبرت إلى تناول موضوع المكان، في بعض الأعمال السردية.

تأسيساً على هذا التحديد، سنجد أن «رحيق العمر» باعتباره نصاً سير ذاتياً، يتحرك في فضاءات ثلاثة أساسية رصدناها كالاتي:

(1) أنظر سيزا قاسم، القاريء والنص: العلامة والدلالة، ص، 46.

(2) أنظر، حميد لعمداني، بنية النص السردى من منظور النقد الأدبي، ص، 63.

1- الفضاء المغربي، 2- فضاء الشرق العربي وغير العربي، 3- فضاء الغرب، وكل فضاء من هذه الفضاءات، يضم أمكنة لها ارتباط قوي بسيرة الكاتب، ومؤثرة في مسيرته.

وربما كان البيت الذي نشأ فيه عباس الجراري، داخل المدينة العتيقة بالرباط، من أهم الأمكنة التي شكلت جانباً من شخصيته، وبصمت قويا مساره، باعتبار أن البيت مكان يُشعر بالألفة، وداخله تتشكل الملامح الأولى لذلك الطفل الذي سيغدو أديباً يخط هذه السيرة.

إن البيت كما يقول باشلار «جسد وروح، وهو عالم الإنسان الأول..... والكثير من ذكرياتنا محفوظة بفضل البيت»⁽¹⁾.

احتل البيت في «رحيق العمر» ركناً أساسياً. ففي البيت الجراري تتجسد القدوة ممثلة في الأب العالم، عبد الله الجراري. يأتي هذا الأمر صريحا من طرف الكاتب منذ البداية، من خلال المقدمة التي وضعها لـ «الرحيق». قال: «وإنني لأود منذ البدء في هذا التقديم، أن أشير إلى أن نشأتي في بيت علم ودين ووطنية كان لها أكبر تأثير في مسيرة حياتي، وكان لي فيها الوالد رحمه الله هو القدوة والمثال»⁽²⁾. ثلاثة عناصر تنبثق من البيت، حددت الإطار العام الفاعل في تشكيل هوية الكاتب، المؤسسة على الدين والعلم والوطنية.

ويتضح في هذه السيرة، الحضور القوي لشخصية الأب داخل البيت، وهي شخصية مؤثرة، ويبدو أن الطفل عباس الجراري، كان الأكثر قربا وملازمة لوالده، لعبت فيها ظروفه الصحية دوراً كبيراً. «ولعلي أكثر إخوتي حظاً في هذا المجال، إذ قرأت عليه كثيراً من الكتب التي كانت في معظمها مما توصف بـ «الصفراء»»⁽³⁾. والبيت في هذه السيرة الذاتية، تعددت وظائفه ودلالاته. فلم تنحصر في حضور القدوة المتمثلة في الأب، بل كان البيت مكاناً للحنان والتعاطف والتماسك،

(1) غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، ط، 2، صص، 38-39.

(2) رحيق العمر، ص، 8.

(3) نفسه، ص، 77.

مما له تأثير في التكوين النفسي للطفل، بل نشعر أحياناً أن البيت في «الرحيق»، يزاحم مكاناً آخر من حيث الوظيفة. الصورة التي قدمت للبيت الجراري، تجعله مزاحماً للمدرسة، المكان الرامز للتربية والتعليم نظامياً. في البيت هناك برنامج يشرف عليه الوالد، يتلقى العباس دروساً «قرأ الوالد فيها معنا متونا أولية.....، كالمُرشد المعين والأجرومية وما إليها، بالإضافة إلى التدريب على كتابة موضوعات إنشائية وإلى تطبيقات على نصوص من الأدب القديم والحديث شعره ونثره»⁽¹⁾، بل نجد هذا البيت يطلع عنصراً نسوياً، يتمثل في الجدة التي تسهم بدورها في هذا التأطير التعليمي والتربوي من خلال تلقين العباس وإخوته «أبياتاً من المرشد المعين تنجزها الجدة «البرنوسية»»⁽²⁾.

ولم يكن البيت في سيرة العباس، مكاناً تنحصر وظيفته في التلقين والانضباط، بل حمل المكان كذلك دلالة تربوية أخرى، تمثلت فيما يشيعه ذلك الحيز من روح المرح والانشرح، من خلال ممارسة هواية التمثيل، حيث يتحول البيت إلى «مسرح»، بما يتيح من متعة وفائدة، خاصة وأن عبد الله الجراري الأب، كان من الذين سعوا في وقت مبكر إلى كتابة النص المسرحي، بل إنشاء فرقة مسرحية حملت اسم «جوق السعي والفضيلة»، وقدمت بعض المسرحيات. وإذا كانت مساحة البيت تسمح بتحويلها إلى مكان للفرجة المسرحية، فإن الذي قد يبدو غريباً، هو أن يتحول هذا الحيز المكاني لممارسة كرة القدم، وهو ما يرمز لأمرين: يرتبط الأول بمساحة البيت ودلالته الاجتماعية، ويشير الثاني إلى نمط التأطير التربوي الذي تحرص الأسرة على اتباعه، بما يحمله من طابع المحافظة على سلوك معين. فممارسة كرة القدم تتم في فضاء له خصوصيته، وضمن إطار اجتماعي متألف، وبالتالي غياب ممارسة هذه اللعبة في «الحومة» بالاختلاط مع أبناء الحي. من كل هذه العناصر، تتجمع صورة البيت لتشكل «مجمعاً» للتربية والتعليم والرياضة... بتأطير مُحكَّم، مشمول بالحنان والدفء. وبهذه الصورة

(1) رحيق العمر، ص، 76.

(2) نفسه، ص، 76.

يتخلص البيت/المكان من هندسته الجامدة، ويُملأ بمجموعة من القيم التي تتحرك داخل هذا الحيز، وهي حركية تساهم في رسم مسيرة كاتب السيرة.

فضاء آخر يسهم في بناء مسار عباس الجراري، يرتبط بمجال تربوي تعليمي في مستويات متعددة، تبدأ بالكُتّاب وتنتهي بالجامعة، مروراً بالمدرسة في مراحلها المختلفة. يحضر الكُتّاب في «رحيق العمر»، ليرمز إلى نمط من التعليم يعتبر أساسياً في الحياة التعليمية للطفل، خلال المرحلة التاريخية لطفولة العباس، بالإضافة إلى رمزيته داخل أسرة يشكل فيها الدين الاسلامي الركن الأساس. لقد تشربَّ عباس الجراري الثقافة العربية الاسلامية منذ مراحل طفولته الأولى، وهو ما تمثل في حضور الكُتّاب باعتباره مكاناً رامزاً لهذا النمط من التعليم، وبدا في كُتّاب الفقيه المهدي المصباحي، وكُتّاب الفقيه ابراهيم المدور، وكُتّاب الفقيه المكي بربيش. وإذا كان هذا المكان يقدم جانباً من الثقافة السائدة، داخل المجتمع المغربي في فترة تاريخية معينة، فإنه يحمل في نفس الآن، صورة لفئة من فقهاء الرباط عرفوا في مجال التربية والتعليم في المرحلة المرتبطة بتنشئة الأطفال، بل تقدم لنا سيرة الجراري نموذجاً متقدماً من أنظمة الكتاتيب، ممثلاً في كُتّاب الفقيه المكي بربيش «الذي سعى إلى تطويره وسماه «مدرسة الفتح»⁽¹⁾. وتأتي طي الكُتّاب/المكان، إشارة ضمنية توميء لحضور الأب الذي نهض في فترة من حياته بمهمة تفتيش الكتاتيب القرآنية بالمغرب.

وقد ارتبط الكُتّاب في المجتمعات العربية بشكل عام، بذلك المكان الذي تتجسد من خلاله سلطة الفقيه المكلف بتحفيظ القرآن الكريم للأطفال في بداية مسيرتهم التعليمية. وقد بصم حياة العديد من الأعلام. وكلنا يتذكر صورة «سيدنا» الواردة في سيرة طه حسين، وهو يحكي هذه التجربة في «الأيام»، وقدم جانباً لتلك

(1) رحيق العمر، ص، 75، وأنظر نموذجاً للشهادة التي تسلمها مدرسة الفتح، ضمن الوثائق التي نشرها الكاتب في هذا الجزء، ص، 261.

الشخصية في ممارستها للسلطة داخل الكتاب وخارجه⁽¹⁾. كما نجد في سيرة أحمد أمين «حياتي»، حديثاً عن هذا المكان، الذي يعتبره المدرسة الثالثة في حياته، بعد البيت والحارة⁽²⁾. والكتاب في «رحيق العمر»، يمثل جانباً من الثقافة التي تلقاها عباس الجراري في مرحلة أساسية من مسيرته الدراسية، وسيظل هذا النمط من التعليم، ملازماً له في موازاة مع التعليم العصري، بعد التحاقه بالمدرسة. وكان والده عبد الله الجراري - وهو من رجالات الحركة الوطنية - حريصاً على أن يظل الابن عباس، ملتصقاً بهذا التعليم المرسخ للهوية الوطنية، بل سجد الأب يلزم الابن بالتردد على كتاب الفقيه المكي بربيش ثلاث مرات كل يوم، في مصافحة مع برنامج المدرسة العصرية، رغم الارهاق الذي يسببه هذا الجمع بين النظامين. « كنت أتردد على هذا الكتاب ثلاث مرات في اليوم قبل التوجه إلى المدرسة والعودة منها. وعلى الرغم من الفائدة العظمى التي اكتسبتها من هذا الأسلوب التعليمي الجامع بين المدرسة والكتاب، فقد كان فيه شيء من الارهاق يظهر عليّ في بعض الأحيان»⁽³⁾.

وإذا كان الكتاب/المكان، يجلي مرحلة من طفولة الكاتب في مسيرته التعليمية، فإن حضوره في «الرحيق» مَحْمَلٌ بدلالات وطنية ودينية، يجسدها حرص الأب على ارتباط الابن عباس بمكان يعمق الشعور الديني الاسلامي، ويرسخ الهوية الوطنية ويقوي الارتباط باللغة العربية. والملاحظ في سيرة «الرحيق»، أن صاحبها، قدم الكتاب/المكان، بشكل أضفى عليه نوعاً من الألفة، يشعر القارئ أنه مكان غير معادٍ للطفل، وبقدر ما يحقق له الفائدة التعليمية، يشعره في نفس الآن بالطمأنينة، بل بنوع من الاعتزاز بالانتماء إلى هذا المكان، وهو

(1) طه حسين، الأيام، ج1، ص، 41. وأنظر صورة أخرى لشيخ الكتاب كما قدمها هشام شرابي في كتابه

«مقدمات لدراسة المجتمع العربي»، ص، 87.

(2) أنظر، أحمد أمين "حياتي"، الفصل السابع، ص، 39.

(3) رحيق العمر، ص، 87.

ما نقرؤه في حديث العباس عن كُتاب الفقيه المكي بربيش حيث يقول⁽¹⁾:
« وإني لأود أن أسجل بالكثير من التنويه والافتخار أن من عناية الفقيه المرحوم المكي بربيش بكُتابه أنه سعى إلى تطويره وسمّاه «مدرسة الفتح» ببرنامج دروس ينهض به ولده الفقيه المرحوم محمد بربيش، وبنظام امتحان ومَنح شهادات وفق ما تثبت الشهادة المرفقة بملاحق هذه السيرة». في «الرحيق» قدم العباس هذا المكان بصورة محبّة إلى النفس، في الوقت الذي نجده في سير أخرى، يرسم مكاناً للمعاناة⁽²⁾.

وفي الفضاء المرتبط بمجال التربية والتعليم، لا يحضر في هذه السيرة، الكُتاب بمفرده، بل إلى جانبه يظهر مكان آخر يتمثل في المدرسة العصرية، وحضوره يضيء زاوية أخرى من المسار الجراحي. المكان يرسم ملمحاً من صورة النظام التربوي والتعليمي في المغرب خلال حقبة زمنية معينة، في موازاة مع تنامي شخصية الكاتب.

تنتصب داخل هذه السيرة الذاتية، مؤسسة تحمل اسم "مدرسة أبناء الأعيان". سيلتحق بها الطفل عباس بعد أن تعذر الالتحاق بمدرسة أخرى تحمل اسم «مدرسة محمد جسوس». الانتقال من مكان إلى مكان في هذا السياق، لا ينحصر في تغيير حيّز هندسي بآخر، بل كل من هذين المكانين مشحون برمزية معينة. مدرسة محمد جسوس ليست اسمناً فحسب، بل هي تجسيد لقيم وطنية، ومدرسة أبناء الأعيان ليست بناءً هندسياً محايداً، بل وجود مادي قد يكون حاملاً لرمزية ذات بعد سياسي اجتماعي!

فهل المكان الذي يحمل اسماً يقتزن بصفة «الأعيان»، ينطوي على دلالة

⁽¹⁾ نفسه، ص، 75.

⁽²⁾ من ملامح الكُتاب في «أيام» طه حسين، إلى جانب وظيفته التعليمية، أنه مكان للغش والخداع والكذب، تُنظر «الأيام»، ج، 1، الفصلان: 9 و10، وص، 41 وما بعدها.

وفي سيرة أحمد أمين «حياتي»، يُقدم الكُتاب مكاناً وسخاً ومسرحاً للتعذيب الذي تجسده «الفلقة» المعلقة على سمسار كبير في الحائط. أنظر كتاب «حياتي»، الفصل السابع، ص، 39.

طبقية أو رمزية اجتماعية ؟

الدراسة في «مدرسة أبناء الأعيان» بالفرنسية، وحصة اللغة العربية محدودة، «وهو النظام الذي كان عليه التعليم في المؤسسات التي أنشأتها إدارة الحماية الفرنسية»⁽¹⁾. لقد كان التحاق الطفل عباس بمدرسة أبناء الأعيان اضطرارياً. الاختيار الأول للوالد انحصر في «مدرسة جسوس» التي «تتميز وحدها بتعليم مزدوج تكاد تتساوى فيه حصص العربية والفرنسية»⁽²⁾، والمدرسة مكان ذو رمزية وطنية، وتحيل على اسم رجل وطني كبير هو الحاج أحمد بلافريج، مؤسسها.

نحن أمام مكانين: الأول برمزية وطنية، تعذر الالتحاق به، والثاني مرتبط بالسياسة التعليمية لسلطات الحماية. «فقد أخضع ليوطي تصويره الخاص عن العدالة الاجتماعية لمفهومه عن التراتيبية الجميلة *La belle hiérarchie*. فأيا كان الأمر، فإن العدد الوفير من «المدارس الأهلية» التي أنشأها، على اختلاف أنواعها، كان مرصوداً لمطابقة البنية التراتيبية للمجتمع المغربي. فالأعيان أهل الترف والمال، موظفين وتجاراً، خصصت لهم «مدارس أبناء (وبنات) الأعيان *Les écoles des fils de notables*، وبروليتارية المدن والحرفيون وأصحاب الدكاكين وصغار الموظفين والتجار، أعدت لهم «المدارس الحضرية» *Les écoles urbaines*. أما المجموعات القروية المشتغلة بالزراعة، فأنشئت لها المدارس القروية»⁽³⁾.

يبدو من خلال هذا الرأي، أن مدرسة أبناء الأعيان تحضر في فضاء مديني، وترتبط بالسياسة التعليمية لإدارة الحماية الفرنسية في المغرب، والتي كانت تعمل على أن يكون «التعليم الملقن في مدارس الحماية المخصصة للمغاربة - المدارس الفرنسية الإسلامية- إما تعليم غير مسيَّس، أو تعليم مهني، تبعاً لما إذا كانت المدرسة مخصصة للنخبة أو للدهماء»⁽⁴⁾. «مدرسة أبناء الأعيان» مكان - في سياق السيرة-

(1) رحيق العمر، ص، 85.

(2) نفسه، ص، 85.

(3) حركة المدارس الحرة بالمغرب (1919-1970)، جون جيمس ديمس، ترجمة: السعيد المعتصم، صص، 22-23.

(4) نفسه، ص، 22.

مفروض بصيغة ما. فمدرسة جسوس، المكان الذي اختاره الأب لابنه، والذي يحمل ذلك العمق الوطني المبتغى، يغلُق سنة 1944 بسبب الأحداث المعروفة والمرتبطة بهذا التاريخ؛ والحرص على عدم ضياع سنة من الحياة الدراسية للابن عباس، تدفع الأب، مضطراً، إلى مكان مغاير، ورمزية مرتبطة بسلطات الاحتلال. ولمحاصرة هذا المكان ودلالاته، سيحتفظ الأب لابنه بمكان حافظ للتوازن المطلوب، تربوياً واجتماعياً ونفسياً. يبقى التردد على «الكُتّاب» فريضة، وسيقوم «كُتّاب الفقيه المكي بربيش»، بتشديد الدرع الوطني الاسلامي المحقق للمبتغى.

«فالمناهج الدراسي لمدارس أبناء الأعيان كان يشابه، في الواقع نظيره في المدرسة الابتدائية العادية الفرنسية *L'école Primaire ordinaire* وفي المدارس الحضرية، كانت حصة اللغة العربية ساعتين فقط في الأسبوع طيلة السنوات الخمس (9% من المنهاج الدراسي). ولم تكن تدرس بتاتاً في المدارس القروية. وحتى تلك الساعات المحدودة والمخصصة لتدريس اللغة العربية، كانت قيمتها نظرية أكثر منها عملية»⁽¹⁾. يضاف إلى هذا «ساعة واحدة في الأسبوع للتربية الدينية، تلقن باللغة الفرنسية خلال السنتين الرابعة والخامسة»⁽²⁾.

من ثم يغدو حضور الكُتّاب/المكان، للفقيه بربيش، وجهاً من وجوه مقاومة السياسة التعليمية لإدارة الحماية، الهادفة إلى إضعاف الهوية بكل مقوماتها الدينية واللغوية، بل إن تعدد هذا المكان في «الرحيق» من خلال وجود ثلاثة كتاتيب تردد عليها الطفل الجراي، ورمزية المدة الزمنية اليومية التي يقضيها داخلها، كل أولئك، يظهر تعلق الوسط الجراي، بتحصيل شخصية العباس، في مرحلة حاسمة، من تشكل الذهنية والوجدان؛ دون أن يغيب عنا الوجه الآخر لحضور المدرسة العصرية في هذه المرحلة من حياة الطفل عباس، وإن في صيغتها المشار إليها (مدرسة أبناء الأعيان)، والرامية إلى روح الانفتاح على ثقافة الغير، التي كان يتطلع إليها أب عالم، متفتح، وصاحب تجربة كبيرة في الحقل التربوي،

⁽¹⁾ حركة المدارس الحرة بالمغرب (1919-1970)، صص، 24-25.

⁽²⁾ نفسه، ص، 24.

والراغب في بناء جيل جديد لمغرب الغد، يتجلى نموذجه في الابن عباس. هذا الانفتاح سيستمر في المراحل الموالية من المسيرة التعليمية لصاحب السيرة، تمثله أمكنة أخرى حاملة لهذه الدلالة. فالانتحاق في المرحلة الإعدادية، بإعدادية الليمون، التي كانت خاصة بالفرنسيين، يمثل امتداداً للانفتاح على ثقافة الغرب، وسيعضد هذا المنحى حضور مكان تعليمي آخر، ممثلاً في الثانوية اليوسفية التي التحق بها العباس، بعد اجتياز اختبار في مادتي الرياضيات واللغة العربية. في هذا المكان الأخير، الذي له رمزيته التاريخية والتربوية، ستبرز أهمية التحصين الذي اكتسبه الطفل عباس داخل الكتّاب. ففي الثانوية اليوسفية بالرباط سيظهر هذا التلميذ، ذلك المتمكن من اللغة العربية الذي حصله مما رصده على يد والده ومن الكتّاب. وتم الاختبار في هذا الباب، على يد شاعر مغربي كبير، هو الأستاذ عبد الرحمان حجي، و«حضور» الشاعر العباسي أبي فراس الحمداني⁽¹⁾ وبعد «مصيصة» (نعم أنا مشتاق) و(بلى أنا مشتاق)، يجيء اعتراف الممتحن مخاطباً التلميذ عباساً: «قم فأنت ابن أبيك، وستكون لي معك جولات في هذه المدرسة»⁽²⁾. لقد سمحت الثانوية اليوسفية، باعتبارها مكاناً تربوياً تعليمياً، بإظهار وظيفة الكتّاب في تحقيق التوازن المطلوب لتحصين الهوية، وبناء الأس الرصين الذي يستند إليه الطفل حينما يفتح على ثقافة الغير، التي تمثلها في المغرب عهدئذ، روافد الثقافة الفرنسية، المؤطرة بإدارة الحماية.

وللبيت والكتّاب دور كبير في تنشئة صاحب «الرحيق»، جعلت الفتى يشب وملؤه اعتزاز كبير بهويته العربية الاسلامية. وكان المكان حاملاً لهذه الرمزية، تبدو جليلة في تلك المساحة التي احتلها فضاء الشرق العربي في «رحيق العمر»، وكانت مصر بؤرة هذا الفضاء، من خلال الأمكنة التي كتبت جانباً من

⁽¹⁾ من جملة ما ورد في اختبار التلميذ عباس، شرح بيتين لأبي فراس الحمداني:

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهى عليك ولا أمر....

أنظر نص الاختبار وجواب التلميذ في الصفحتين: 92 و93 من «رحيق العمر».

⁽²⁾ رحيق العمر، ص، 93.

سيرة العباس، بدءاً بـ«المدرسة الحسينية» إلى جامعة القاهرة، مروراً بإمكانة أخرى داخل هذا الفضاء الشرقي.

وارتباطاً بالفضاء التعليمي والتربوي، تظهر أمكنة أخرى، كان حضورها مؤثراً في مسار الكاتب، وحظيت طي النص السردي بوقفات لها دلالاتها، وترسم هندستها أبعاداً علمية واجتماعية وعاطفية ونفسية، وتكشف عن اقتناعات فكرية، تبلور في جملتها جانباً من شخصية عباس الجراري. والإشارة هنا إلى الفضاء الجامعي الذي يحضر في هذه السيرة في مستويات: الأول، يتمثل في الفضاء الشرقي، والثاني في الفضاء الغربي، والثالث في الفضاء المغربي.

فقد شكلت جامعة القاهرة مكاناً تجاوز الحد الجغرافي، ليمتليء بدلالات علمية وعاطفية. كلية الآداب في جامعة القاهرة بمصر، مكان له رمزية تتمثل في ريادة معرفية على مستوى العالم العربي سنوات الستين من القرن العشرين؛ وإذا كانت هذه الكلية رحاباً سمحت لعباس الجراري الشاب، أن يدرس على يد مجموعة من كبار دارسي الأدب العربي ومؤرخيه، أمثال طه حسين، وعبد العزيز الأهواني، وشوقي ضيف، وسهير القلماري، وعبد الحميد يونس، وشكري عباد، وغيرهم، فإن هذا المكان ستحمل هندسته بُعداً عاطفياً، باعتباره بناية تقع مقابل بناية كلية الحقوق! ما دلالة هذا التقابل الهندسي؟

يبدو ظاهرياً تقابلاً لبنائين ليس غير! والحق أن المكانين معاً يشيدان ممر عبور عاطفي! كيف؟

في كلية الحقوق توجد من تضبط إيقاعات قلب العباس!
«حميدة الصائغ التي بدأت علاقتي بها تتقوى في هذه الفترة، والتي كانت مسجلة بكلية الحقوق، التي تقع بنايتها في مقابل مبنى كلية الآداب، كانت تحضر إلى محاضرات عميد الأدب وتساعدني على تدوين بعضها»⁽¹⁾. القنوات بين الآداب والحقوق، تمر عبر العاطفي، وتنصهر التخصصات في إيقاعات قلبية!

(1) رحيق العمر، ص، 102.

لم يكن فضاء الجامعة هو الحجر الأساس الذي رسم هذا الطريق العاطفي بين العباس وحميدة، بل هناك مكان قاهري آخر، جاء محملاً بهذه الدلالة، وتجاوز سَمَتَهُ الهندسية ليغدو كياناً مشرباً بأحاسيس رقيقة عبر تيار عاطفي. إنه «مكتب لجنة المغرب العربي». هذا المكان تتحول هندسته الصخرية إلى فضاء ناعم يفوح «رحيقاً»، و«صاغه» العباس تعبيراً مرهفاً يقول⁽¹⁾: «من أجمل ما صادفت هذا اليوم، وأنا عند مصعد بناية المكتب المذكور لقائي بالآنسة حميدة الصايغ التي هي من خريجي مدارس محمد الخامس وحضرت إلى القاهرة لإتمام دراستها».

بهذه الكيمياء اللغوية يتحول «مكتب المغرب العربي» من بناية إسمنتية إلى بناء عاطفي، رُصَّ بتؤدة وصفاء، على أسس صادقة ومتينة، وسيغدو بيتاً يُملاً دفناً وطموحاً وصموداً ونضالاً، ويتحول «مصعد بناية المكتب» إلى رافعة تصعد بالعباس وحميدته إلى آفاق أعلى وأسمى، شيدت بالصبر والإيمان والمثابرة، والتضحية والمعاناة؛ وقبل كل شيء وبعده، بعون من الله ممدود.

لا تحضر الجامعة باعتبارها فضاء في «رحيق العمر»، بهذا الوجه الناعم فقط، بل سيرسم أحد أمكنتها صوراً للمقاومة والتصدي للفساد، لعل أبرزها ما جسده جامعة محمد الخامس، من خلال كلية الآداب بها. مثَّلَ هذا المكان الذي يرمز إلى المعرفة، في لقطات زمنية عبر حكي «الرحيق»، في إهاب يشي بالتزوير والمساومة. كلية الآداب بجامعة محمد الخامس في الرباط، لها رمزيته الأكاديمية، ومكانتها العلمية بما خرَّجته من أطر، وما شهدته من جلسات علمية، في شكل ندوات ومناقشات الرسائل والأطاريح، من مختلف شعبها؛ غير أن البعض كان يرغب في تحويل هذا المكان إلى رمز للتدليس والابتزاز، وهو ما رسمته وقائع انعقاد المؤتمر الثاني لاتحاد كتاب المغرب، التي جرت وقائعه داخل هذا الحرم الجامعي. لقد تعرض عباس الجراري إلى مساومة من طرف عميد كلية الآداب، وهو يومئذ رئيس لاتحاد كتاب المغرب، صيف 1968. كان الأستاذ الجراري قد وضع لدى

(1) نفسه، ص، 97.

عمادة هذه الكلية طلباً لسنة «استيداع» لإتمام متعلقات أطروحته التي سيناقشها في القاهرة، ليجد نفسه أمام مساومة تلخص في: التوقيع على الطلب = التواطؤ والتزوير!

تصدى العباس لتحويل مكان له دلالاته العلمية الأكاديمية، ورمزيته للنزاهة الفكرية، إلى بؤرة للتآمر والفساد. وسيظهر في سيرة «الرحيق» مكان كان شاهداً على هذا التصدي للمساومة. كان مدرج الشريف الإدريسي بكلية الآداب بالرباط، رمزاً لمقاومة هذا الانحراف، وجسد المكان صورة للصمود أمام الإغراء، والانتصار للشفافية، وأدى عباس الجراري الثمن غالياً. «وأذكر أن السيد العميد الرئيس كان بين الجلسات يأخذني إلى مكتبه ويبرز لي الملف الخاص بي، ويؤكد لي أنه سيوقع أمامي بالموافقة على طلبي شريطة أن أوافق على مخططه، وأن أتخلّى عن فكرة مراجعة اللوائح، ولكّني واجهت هذه المساومة برفض قاطع دفعت ثمنه غالياً»⁽¹⁾. كان العميد يرغب في الحصول على ولاية ثانية رئيساً لاتحاد كتاب المغرب، ولكن عبر مسلك التزوير. يأخذك الكاتب إلى مكتب العميد لترى ملفه وقد وضع أمام عينيه، ولك أن تتخيل لهجة المساومة التي يختلط فيها الترغيب بالترهيب! وتطفح العبارة في هذا السياق بإيقاعات ترتسم من خلال كلمات مثل «يأخذني»، «الموافقة»، «شريطة»، «المخطط»، «أتخلّى»، «المساومة»، «رفض قاطع»، «الثمن غالياً»، وكلها تعابير تصور جواً متوتراً داخل مكان أسس للمجدل العلمي، وتربية النشء على الدفاع عن الحقيقة، بمنطق وعقلانية، فإذا بالذي يفترض فيه حامياً لهذه القيم و«يعتمد» عليه في الدفاع عنها، يسعى إلى هدمها، وتحت قبة «شريف إدريسي»⁽²⁾ له رمزيته الفكرية والتاريخية.

فضاء الجامعة رمز لمبادئ نبيلة، تمسك بها العباس وتصدى لتشويهها، وأدى صاحب «الرحيق» ثمناً غالياً، تمثل في التشطيب عليه من أسلاك الإدارة. أصبح الأستاذ عباس الجراري بين عشية وضحاها بدون راتب، وهو يومئذ رب أسرة

(1) رحيق العمر، صص، 122-123.

(2) الإشارة هنا إلى مدرج الشريف الإدريسي بكلية الآداب بالرباط.

تتكون من زوجة وطفلين صغيرين. وللقاريء أن يتصور حجم المعاناة التي ولدت من رحم الجامعة، هذا المكان الذي للجراري فيه صولات وجولات علمية ونضالية، يتحول إلى مصدر للآلام، يعبر عن حجمها صمت الكاتب عن تفاصيلها، و«الصمت إحساس ونمط للمعنى»⁽¹⁾، بل «لا توجد اللغة دون لحظات وقف يحتلها الصمت ويجعل منها لغة معقولة»⁽²⁾. والتنكيب عن البوح المفصل يحمله هذا التعبير الذي جاء على لسان صاحب السيرة، وهو يشير إلى هذه المعاناة بقوله «..... مما يطول الحديث عنه وما قدمته وقدمت زوجتي من تضحيات جراء ذلك»⁽³⁾. تضيق مساحة البوح وتتسع سعة الجرح يفرز «الرحيق» هنا ألماً!

حينما نتحرك في الفضاء الجامعي من خلال «رحيق العمر»، تجوب مع الكاتب أمكنة عديدة للمعاناة. صورة ثانية لها تجسدت في الصراع الذي خاضه عباس الجراري من أجل إرجاع الحق إلى نصابه، متمثلاً في النضال من أجل إعادة شعبة اللغة العربية وآدابها إلى الكلية الأصل بالرباط، وكان قد تم نقلها إلى مدينة فاس، منفصلة عن بنيتها، في إطار صراع يبدو خفياً ضد اللغة العربية وآدابها، ففقدت كلية الآداب بالرباط أساً رئيساً من أسسها العلمية الأصيلة، لأول جامعة عصرية مغربية، وتم هدم مكان عن طريق البتر، لكن ما لبث أن ولد من رحم البتر مكان آخر، تمثل في «مدرج ابن خلدون» في سياق عودة شعبة اللغة العربية إلى الكلية الأم. ثم التدشين بحضور رسمي لأعضاء الحكومة، وألقى يومه الدكتور عباس الجراري محاضرة في موضوع «التيار الفقهي المرابطي ومدى تأثيره على الفكر والأدب». لقد تجمعت جملة من العناصر الحاملة لدلالات عديدة، جسدها المكان من خلال كلية الآداب ومدرج ابن خلدون، برمزيتها إلى مركزية نمط من المعرفة داخل الجامعة الأم في اقتران باسم كبير في الثقافة العربية المغربية، بالإضافة إلى طبيعة المحاضرة التي تحمل هوية مغربية صرفاً، ترتبط بأدبنا المغربي

(1) دافيد لوبروطون، الصمت لغة المعنى والوجود، ترجمة: فريد الزاهي، ص، 27.

(2) نفسه، ص، 33.

(3) رحيق العمر، ص، 124.

الذي شكل هو الآخر، واجهة للصراع الذي خاضه عميد الأدب المغربي داخل فضاء الجامعة المغربية، من أجل إقرار هذه المادة، ضمن مقررات شعبة اللغة العربية وآدابها.

وإذا كان المكان في فضاء الجامعة قد جسد جانباً من المعاناة التي دونها الكاتب في «رحيق العمر»، فإنه سيظهر كذلك في هذه السيرة مجسداً للمكيدة. تحضر هذه الصورة من خلال كلية الآداب التابعة لجامعة القاضي عياض بمراكش. يظهر هذا المكان المراكشي بالنسبة للقاريء - في هذا السياق - وكأنه رمز تشريفي، ذلك ما يمكن الاحساس به للوهلة الأولى، ولكن سبر الأغوار والبحث في الخفي، وتعرية المضمرة، يكشف عن مكان معادٍ، مليء خداعاً ومكرًا! مكان يضم سلوكاً عدوانياً! كيف؟

لا يفصح الكاتب عن الخفي وراء هذا الترشيح لعمادة كلية الآداب بمراكش، وهو منصب له قيمته، في زمن كانت للعمادة هيبتها وسموها! يصمت الكاتب ولا يفصح، ولكن «الصمت يكون أحياناً مشخناً بالمعاني بحيث إنه يحطم الكلام»⁽¹⁾. الإحجام عن البوح نلمسه في عبارات صاحب «الرحيق» وهو يتحدث عن تعيينه عميداً، ثم عن استقالته من هذا المنصب حيث يقول: «إلا أنني لظروف وأسباب ليس هذا مجال ذكرها قدمت استقالتي»⁽²⁾.

نقرأ هذا الكلام، ونضعه في سياق النص بكامله، وما تنطق به أمكنة أخرى كالمعهد المولوي وأكاديمية المملكة، فترتسم أمامنا دلالة حضور كلية مراكش، مجسدة المكيدة التي تستبطن إبعاد عباس الجراري عن المحيط الملكي، يؤكد الأمر، ما قاله الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه، مخاطباً من أبلغوه اعتذاره واستقالته: «ما عندي ما نسالوا، راجل»⁽³⁾. ولما كان الفضاء الجامعي يرتبط قوياً بمسار الأستاذ عباس الجراري، فقد بدت في «الرحيق» صورة أخرى لهذا الفضاء. فكلية الآداب

(1) الصمت لغة المعنى والوجود، ص، 233.

(2) رحيق العمر، ص، 129.

(3) نفسه، ص، 14.

باعتبارها مكاناً داخل ذلك الفضاء الجامعي، تعتبر رمزاً للنضال والتضحيات التي قدمها عميد الأدب المغربي، في سبيل تشييد جانب من صرح ثقافتنا المغربية المعاصرة، بل جسّد مسار العميد، ذلك الاعتزاز بالهوية الوطنية، الذي ترسخ من خلال المدرسة الجراحية، وهي مدرسة لها أساتذتها، وتلامذتها، ومقوماتها الفكرية، وأسسها العلمية، ولها امتداداتها واستمراريتها، من خلال ما أنجبته من باحثين عمّقوا وطوّروا ما شاده المؤسس ورعاه.

تتجلى بعض مظاهر هذا المشروع العلمي، حينما نقرأ في «الرحيق»، تلك الصفحات التي خصصها الأستاذ الجراحي للحديث عن إشرافه على البحوث الجامعية، في مستوى رسائل دبلوم الدراسات العليا وأطاريح الدكتوراه. في هذا السياق تحضر أماكن جامعية طي هذا السرد لجهود التأطير العلمي الأكاديمي لباحثين، أصبحوا فيما بعد أساتذة في مختلف الجامعات المغربية، ومثلوا استمرارية المدرسة الجراحية في دراسة أدبنا المغربي وتطورها.

ولا توجد اليوم جامعة مغربية لا تضم باحثاً تخرج في هذه المدرسة. أمكنة، الرباط، فاس، مراكش، الدار البيضاء، تطوان، مكناس، وجدة، أكادير، القنيطرة، المحمدية، الجديدة..... تحتضن من خلال جامعاتها، أو مؤسساتها التعليمية، أطراً تمثل استمرارية روح المدرسة الجراحية، المعترزة بالهوية المغربية، والمنافحة عن ثقافتنا، والساعية إلى تدعيم مقوماتها، وتطوير مجالات البحث في مكوناتها.

لقد كان فضاء الجامعة المغربية - كما تجلّى في «الرحيق» - حلبة صراع وتحّد، وكشف المكان عن جانب من معاناة مثقف مغربي ورجل فكر، آمن برسالته النبيلة، وسعى إلى تحقيقها، متسلحاً بروح وطنية عالية، وإيمان عميق عبّر عنه العباس بقوله:⁽¹⁾

«إن الحمد عن الشدائد والمكاره بما يقتضي من صبر وثبات لا يكون إلا عن رضى بما هو مقدر، في غير اعتراض عليه أو شك فيه، أي لا يكون إلا عن تفويض

(1) رحيق العمر، ص، 16.

أساسه الثقة في الله والاطمئنان إليه وشكره والثناء عليه مع اليقين أنه هو المانح والمانع».

ويكتسي الفضاء الجامعي في «رحيق العمر» من وجه لآخر سمة التنوع، تخرج به من الفضاء العربي إلى آخر مغاير، تجلّى في الجامعة الغربية، التي شكل حضورها في هذه السيرة ملامح للمنعطفات في الحياة الدراسية للكاتب، والتي اتسمت منذ بدايتها بالمزوجة بين ثقافتين، عربية إسلامية رافقته منذ المراحل الأولى، وغربية مرتبطة بالثقافة الفرنسية، انفتحت عليها في زمن مبكر، ارتوى من الأول ما جعله معتزلاً بالقيم الإسلامية والهوية الوطنية، ومنحته الثانية ذلك الانفتاح المطلوب على ثقافة الغير، سيتعمق مع الالتحاق بجامعة السربون لإكمال دراسته الجامعية.

ويتضح من سيرة الكاتب، أن الانتقال إلى الجامعة الفرنسية لا يكن اختياراً مفضلاً للعباس الذي ولّى وجهه شطر المشرق، إيماناً منه أن اللغة العربية وثقافتها ستستعيد مكانتها في وطنه بعد تحقيق الاستقلال وجلاء السلطة الحامية. لذلك خاطب والده وهو في قسم الباكلوريا قائلاً:⁽¹⁾ «الآن جاء الاستقلال ومعه ستعود للغة العربية مكانتها ولن يبقى للفرنسية ما كان لها من وجود ونفوذ». كان حلمًا جميلاً! ويبقى ظهور كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة باريس، إشارة تقرب القاريء من ملمح آخر للمسيرة العلمية للأستاذ عباس الجراري. ولهذا المكان، في عمق باريس، وفي محيط الحي اللاتيني، رمزية لثقافة التنوير والعقلانية، ويرتبط قوياً من جهة أخرى بالتراث العربي الإسلامي، باستحضار أسماء كبيرة في حقل الدراسات الاستشراقية للمدرسة الفرنسية، أمثال ماسينيون، وهنري لاوست، وجاك بيرك، وغيرهم.

في هذا المكان الذي تختزن جدرانه الحجرية معارف شتى، عبر زمن طويل، يلتقى عباس الجراري بأساتذة كبار من المهتمين بالأدب العربي، وهم: بلاشير

(1) رحيق العمر، ص، 95.

Blachère، وشارل پيلا Charles Pellat وغيرهما. ويعزز هذا الحضور لأمكنة الثقافة الغربية، كوليج دو فرانس Collège de France، المؤسسة العلمية العريقة.

في فضاء باريس يفتح عباس الجراري على الفكر الغربي باتصال مباشر مع بعض أعلامه، وفي نفس الآن يُبقي على مساره العلمي مرتبطاً بالثقافة العربية، والمغربية الأندلسية بشكل خاص، بتسجيل أطروحته الرئيسية للدكتوراه في موضوع «مسلمو اسبانيا ورحلاتهم إلى الشرق»، تحت إشراف الأستاذ بلاشير، والأطروحة التكميلية في موضوع تحقيق «رحلة العبدري» بإشراف شارل پيلا.

لقد فتح الفضاء الباريسي الجامعي الباب أمام الطالب عباس الجراري لإنجاز أبحاثه الجامعية، بل والتدريس في رحابه، وهو الأمر الذي يكشفه ذلك الحوار الذي دار بين الباحث المغربي وأستاذه الفرنسي بلاشير الذي «تمنى أن أبقى بجانبه في باريس إلى أن أنتهي مما بدأت من بحث في الأطروحة..... وكان فاتحني برغبته أن يعمل على تعييني أستاذاً مساعداً له في معهد الدراسات الإسلامية، وكان جربني لذلك بالقاء بعض الدروس على السنة الأولى»⁽¹⁾.

لقد سمح الفضاء الجامعي في باريس، برسم صورة نبوغ باحث مغربي يحظى بتقدير كبير من أساتذة غربيين، لكن تضافر عدة عوامل أغلقت هذا الفضاء بأمكنته المتعددة، وبالتالي حُوصرت امتداداتها في سيرة الكاتب.

كان فضاء الشرق أقوى جذباً من فضاء الغرب، وسيطع سيرة الكاتب بشكل أعمق، استمر معه إلى اليوم، دون إغفال ذلك الخيط العاطفي الذي جعل القاهرة أدفاً من باريس. ويبدو أن المكان الشرقي، امتلك من الجاذبية ما ساهم في اتخاذ القرار بالتحول من مكان إلى مكان، وهي جاذبية تستشعرها طبي هذه الكلمات التي يباح بها حوار حول هذا المنعطف، دار بين العباس والديه في إطار المشورة، حين خاطبه والده: «إنك ستكون بجانب خطيبتك وزوجتك في المستقبل القريب إن شاء الله، وهو ما كانت الوالدة ترغب فيه وتشجعني عليه كذلك»⁽²⁾.

⁽¹⁾ رحيق العمر، ص، 109.

⁽²⁾ نفسه، ص، 109.

هناك عوامل أخرى ساهمت في اختيار فضاء الشرق، لكن النبض العاطفي لا يغيب!

ونحن نسعى إلى تقديم قراءة لفضاء الجامعة في «رحيق العمر» بأمكنته المتعددة، تتشكل أمامنا صورة أخرى بدلالة مغايرة، تتمثل في رمزية هذه الأمكنة الجامعية كمعبر للثقافة المغربية، نحو ديار شرقية وأخرى غربية. نلمس ذلك من خلال ما رسمته تنقلات عباس الجراري بين جامعات مختلفة، لإلقاء محاضرات.

جغرافيات عربية متعددة رُسمت على صفحات «الرحيق». تونس، العراق، المملكة العربية السعودية، الكويت، ليبيا. ولما كان المكان وسيلة اتصال وتواصل، فإننا نراه في «رحيق العمر»، وقد غدا قناة تعبر من خلالها صور للثقافة المغربية في أصالتها وغناها وخصوصيتها؛ ولا يقتصر الأمر في هذا الباب على فضاءات عربية، بل أتاحت للأستاذ عباس الجراري، أن ينقل هذه الثقافة إلى آفاق إفريقية (السينغال)، وفضاءات غربية جسدتها جغرافية بلدان: يوغسلافيا، المكسيك، الولايات المتحدة الأمريكية. ويمكن الوقوف على نماذج لطبيعة حضور الثقافة المغربية في الفضاءات الغربية، طي ما دونه صاحب هذه السيرة، في إحدى رحلاته إلى الولايات المتحدة الأمريكية، التي صدرت تحت عنوان «ثلاثون يوماً في الولايات المتحدة الأمريكية»⁽¹⁾.

من خلال الفضاء الجامعي، كانت «سيرة الرحيق» تسرد جانباً من حياة مفكر كبير، بمعاناتها، وطموحاتها، ونضالها، تجاوز السرد استيعاد بيئات جغرافية أو أشكال هندسية. كانت الأمكنة في الفضاء الجامعي المرسوم في «الرحيق» تنطق بطبيعة العلاقة بين هذا الفضاء والذات الكاتبة، إنها علاقة وجود. وستتعزز هذه الصورة بظهور مكان آخر، يرتبط وثيقاً بهذا الأخير وبمسار صاحب السيرة، تجسد في المكتبات. ما كان لسيرة مفكر أن يغيب عنها هذا الحيز. ويحضر في سيرة العباس من خلال أمكنة متعددة، عاش داخلها منذ المراحل الأولى لطفولته، وتمتد

⁽¹⁾ صدرت ضمن منشورات النادي الجراي، رقم: 80، إعداد وتقديم، مصطفى الجوهري، ط، 1، 2018.

هذه المصاحبة إلى اليوم. بدأت بالمكتبة العباسية، مكتبة الوالد عبد الله الجراري، ترتيباً، وتصفحاً، فقراءة وفهرسة، حيث دون عباس التلميذ أحد فهارس هذه المكتبة. حدد هذا الأمر وهو يتحدث عن تعدد فهارسها بقوله:⁽¹⁾ «أما الفهرس الثاني فكتبته في أوائل الخمسين من القرن الماضي لطول احتكاكي بما تضمنه مما كنت أطلعه وأرجع إليه». والمكتبة العباسية بحضورها في «رحيق العمر»، ليست مكاناً يسهم في تقديم طبيعة ما ارتوى منه العباس من علوم فحسب، بل يقدم نفسه باعتباره قناة للتواصل مع الغير، مهّده الوالد، وحافظ عليه الابن.

كانت المكتبة العباسية، صلة وصل بين العلماء والأدباء، من داخل المغرب وخارجه، بل ستتطور وظيفة المكان وتتوسع بعد أن ألحق الابن عباس خزانته الخاصة، التي شرع في جمعها، يوم كان في القاهرة، وهي اليوم، في صورتها الحالية، مكان حامل لذلك التنوع المعرفي، الذي شكل جانباً من رحيق عمر العباس، ذلك «الرحيق» الذي يفوح بما يغني دلالات المكان، حين تحضر أمكنة أخرى داخل هذا الفضاء المكتبي. فمكتبات القاهرة بحي الفجالة، وسور الأزبكية الذي يذكر بـ«*Les quais de Paris*» على ضفاف نهر «السين»، كلها أمكنة تشي باهتمامات عباس الجراري الطالب الباحث، ولعه بالكتاب، اقتناء في مرحلة الدراسة، ليستمر ولعاً واهتماماً من خلال التأليف والنشر.

إن التردد على أمكنة معينة بشكل منتظم، لا يكون بدون دلالة. «ولا أنسى هنا الزيارات المتكررة التي كنت أقوم بها إلى معهد المخطوطات التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، التابع لجامعة الدول العربية وفي مقرها بميدان التحرير»⁽²⁾.

تخط أمكنة المكتبات بعداً آخر لشخصية هذا المفكر المغربي. فحين تحضر باريس في «الرحيق» تحضر بالأساس، مكاناً ثقافياً بتنوعه وغناه. «وما كنت لأنسى وأنا في باريس التردد على المكتبة الوطنية وضاف باريز والذهاب كذلك إلى

(1) رحيق العمر، ص، 223.

(2) رحيق العمر، ص، 103.

المسرح..... وزيارات المتاحف والآثار»⁽¹⁾، حتى إذا حلّ العباس بإسبانيا - في إطار استكمال الدكتوراه- كنت تراه متردداً على «مكتبة الاسكوريال» في ضاحية مدينة مدريد. والفضاء نفسه يكون الجاذب الأكبر حين يتغير بين ديار غربية وأخرى شرقية. ومهوى الولع في تركيا حين يحل بها الكاتب، «مكتباتها باسطنبول وبورصة»⁽²⁾. لم تكن تجليات الفضاء المكتبي في هذه السيرة الذاتية بياضاً، أو حديثاً عن بناءات هندسية في جغرافيات متعددة، بل كان حضوره أداة تنكتب بها ذاتية عباس الجراري المفكر والباحث الأكاديمي الرصين، والحامل لصورة من الثقافة المغربية إلى فضاءات الآخر؛ ويكفي أن نلقي نظرة على بعض رحلاته، سواء داخل الوطن⁽³⁾ أو خارجه لتلاحظ حضور فضاء المكتبات بشكل لافت. ففي رحلته «ثلاثون يوماً في الولايات المتحدة الأمريكية»، تعدد الحديث عن المكتبات التي زارها الكاتب في ولايات مختلفة، سواء كانت مكتبات جامعية أم خاصة، كما أن رحلته إلى تركيا⁽⁴⁾، شكل فيها هذا الفضاء أساً رئيساً داخل نسيج الكتابة، يتماهى بشكل كبير مع شخصية عباس الجراري في بعدها الأكاديمي، الذي يعمقه فضاء آخر مآخٍ لسابقه، متمثلاً في الأنديّة الأدبية.

يحقق هذا الفضاء وجوده من خلال أمكنة متعددة، بدءاً من النادي الجراري بالرباط، والامتدادات المتحققة خارج الحيز الجغرافي المغربي.

ويحمل النادي الجراري باعتباره مكاناً، رمزية رئيسة في سياق بناء هذه السيرة الذاتية. تنوع المكان من خلال حركية الانتقال من المدينة العتيقة للرباط، إلى خارج أسوارها (ديور الجامع)، ثم تحرك ثانٍ إلى فضاء "الهرهورة"، ثم إلى "حي

(1) نفسه، ص، 107.

(2) نفسه، ص، 111.

(3) من مظاهر تكريم المجتمع المغربي للدكتور عباس الجراري افتتاح مكتبة باسمه في مدينة تطوان.

أنظر، رحيق العمر، ص، 241.

(4) صدرت ضمن منشورات النادي الجراري بعنوان: «نسيم البوسفور»، إعداد ودراسة، د. بديدة لفصايلي.

وأنظر على سبيل المثال الصفحات: 141، 144، 154، 158، 159، 172.

الرياض"؛ وكلها تحركات مقرونة بترميز هندسي حامل لدلالات اجتماعية واقتصادية. غير أن الذي نبغي رصده في هذا السياق هو الرمزية العلمية في ارتباطها بالذات الكاتبة، والتي تعضد طبيعة اهتمامات صاحب السيرة، باعتباره ابن عالم، كان النادي الأدبي جزءاً من مكانه الأليف منذ التنشئة الأولى، سمح للطفل عباس بالانفتاح منذ طفولته على مجالسة العلماء والأدباء، وهو المجال الذي سيتسع، حينما تتاح له الفرصة أثناء وجوده طالباً في القاهرة للتردد على مجالس أدبية لها صيتها، كمجلس عباس محمود العقاد، ومحمود شاكر، وأمين الخولي⁽¹⁾. من ثم كان فضاء الأندية الأدبية بأمكنته المختلفة، بيئة علمية لها بصماتها في تشكيل طبيعة الشخصية التي انكتبت من خلال المكان السائد في النص، بدءاً من البيت وانتهاء بالفضاء الجامعي، دون إسقاط فضاءات موازية، تتشابك لبناء سيرة الأستاذ عباس الجراري، ومنها الفضاء الملكي الذي تحرك صاحب «الرحيق» داخله، فغدا عنصراً فاعلاً داخل نسيج الكتابة، وآلية لإكمال بناء المسار.

فما هي الأمكنة التي تنطق بصلات الكاتب بالفضاء الملكي؟

قد يبدو للبعض أن علاقة العباس بهذا الفضاء طارئة أو متأخرة. الأمر ليس كذلك. عدة أمكنة في «رحيق العمر» تكشف عن اتصال مبكر بالمحيط الملكي، كانت بدايته مع والده وعباس طفل صغير. المكان هو «المشور السعيد»، ولهذا الحيز الجغرافي رمزيته. كان الطفل ذات صباح مع الوالد وهو في طريقه إلى عمله «وما إن دخلنا إلى المشور من الباب الذي أصبح فيما بعد يسمى «باب السفراء» حتى فوجئنا بسمو الأمير مولاي الحسن يتدرب على الفروسية في الملعب الذي كان خاصاً بذلك على يمين الداخل إلى المشور. فنزل من فرسه وهو بلباس الفرسان، وأقبل علينا مسلماً على الوالد الذي بادره بالسؤال عن دروسه بالمعهد الذي كان قد بدأ قبل نحو سنة أو أكثر، فكان رد سموه: «ألفقي را كل شي اعلى عينيك فالمعهد» ثم انحنى عليّ فأردت تقبيل يده، فسلم هو عليّ مقبلاً رأسي وداعياً لي بالصلاح.

(1) رحيق العمر، صص، 102-103.

وهي لقطة ظلت ترافقني في مخيلتي باستمرار»⁽¹⁾.

انطلاقاً من المكان - وهو هنا المشور- تتحدد علاقة عباس الجراري بالفضاء الملكي، وطأت لها صلة الوالد بدار المخزن، في مستويات مختلفة، منها تكليفه بالتدريس والتفتيش بالمدرسة المولوية التي ستظهر في «رحيق العمر» امتداداً وتعميقاً لهذه العلاقة.

شَخَّص «المعهد المولوي» في «رحيق العمر»، يؤكد تلك الحظوة التي نالها عباس الجراري باعتباره أستاذاً لأمرء وأميرات الأسرة الملكية. غير أن هذا المكان، جاء يحمل في هذه السيرة، رمزية أخرى ينكتب من خلالها وجه آخر للعوائق التي رمى بها الغير في سبيل الرجل.

«المعهد المولوي» مكان له خصوصيته المتمثلة في ارتباطه بالأسرة المالكة، وله، إلى جانب ذلك، رمزيته التربوية والتعليمية التي تمنحه سمة الألفة والطمأنينة والسمو والانضباط. غير أن سياق حضوره في «الرحيق» ألبسه لباس المكيدة التي حضرت في فضاء الجامعة. تشييد صورة المكيدة من خلال هذا الحكى: «ومن غريب ما صادف تعييني في المدرسة المولوية أنه ما سمع به أحد المغرضين⁽²⁾ حتى حمل إلى جلالة الحسن الثاني طيب الله ثراه كتابين كانا قد صدرا لي هما: الثقافة في معركة التغيير - الحرية والأدب. وقال لجلالته مستغرباً: «كيف تعين الجراري لتعليم أصحاب السمو الأمراء والأميرات وهو شيوعي وهذه كتاباته تؤكد ذلك». فكان رد جلالته: «إذا كانت أفكار الفقيه الجراري هي الشيوعية فأنا أريد أن يكون كل المغاربة شيوعيين مثله»⁽³⁾. وظيفة المكان هنا، أصالة، محمّلة بقيم نبيلة، لكنها تحرّف عن طريق المكيدة التي تصدى لها خطاب آخر تجلّى في منطوق الملك

(1) رحيق العمر، ص، 82.

(2) من عَاف الكاتب ونبله، ترفعه عن ذكر أسماء الذين أساءوا إليه وعرقلوا مساره، كما حكى عن مرحلة حياته الجامعية، بل شفع ذلك، بالدعاء لهم بالرحمة والمغفرة، وأقسم على أنه لا يحمل ذرة حقد أو بغض عليهم أو ميل إلى التشفي والانتقام أو الطمع في رد اعتبار.....، أنظر «رحيق العمر»، صص، 15-16.

(3) رحيق العمر، ص، 133.

الحسن الثاني، وبه أعاد للمكان وظيفته الأساس وهيئته. إجابة الملك تملأ المكان بالدلالة الأصل، وتصبح «الأفكار الشيوعية» مطلوبة لكل المغاربة، ولكن في إهاب جرّاري!

ويظهر مكان آخر في «الرحيق» يؤكد الصلة بالمحيط الملكي، تمثل في قصر الصخيرات.

لهذا المكان في ذاكرة المغاربة بصمة ارتبطت بحادث مأساوي، هو محاولة الانقلاب الذي شهد هذا المكان وقائعه سنة 1971، لكنه في سياق الكتابة المجسّدة في «رحيق العمر»، أخذ دلالة مغايرة ترمز إلى القيمة الاعتبارية التي كان عباس الجارري يحظى بها لدى الملك الحسن الثاني. كان حضوره داخل قصر الصخيرات صيف 1970 يحمل سمة تكريمية بعد أن علم الملك بمناقشة الجارري لأطروحته في جامعة القاهرة، في موضوع يرتبط وثيقاً بأصالة الثقافة المغربية، متمثلة في أدب الملحون. «وكان جلالة الملك المنعم أكرم الله مثواه يتابع عن قرب مسيرتي الجامعية وما واجهت فيها من إكراهات وتحديات..... وإني لأفخر أن كان جلالته أول من أبلغ الإعلام بنشر هذه الأطروحة»⁽¹⁾. ستتكرر الدعوة إلى قصر الصخيرات سنة 1971، ولم يتأت للكاتب الحضور، بسبب تعرضه لطاريء صحي، جعله يعتذر عن تلبية الدعوة.

تؤكد الأحياز الملكية، الوضع الاعتباري لعباس الجارري داخل هذا الفضاء، وهو ما سيتأكد من خلال مكان آخر ترسمه أجواء الدروس الحسنية، ومن خلالها تحضر رحاب قصر الرياض. وهو مكان يجمع - كما سبق في «الرحيق» - بين الدلالة العلمية والرمزية السياسية. ولم تكن الدروس التي قدمها الأستاذ عباس الجارري لتبتعد عن هذا المنحى. فـ«أسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب»، و«الدين في وسطيته وتجديده وسياق الشخصية المغربية»، و«شرعية الإمامة في المغرب منذ اثني عشر قرناً»، و«المسؤولية في الاسلام»، كلها دروس تجمع بين المعرفي والديني

(1) نفسه، ص، 12.

والسياسي. وحينما يتكرر حضور الأستاذ عباس الجراري داخل هذا المكان المتمثل في «قصر الرياض» بالرباط، فإنه يعزز تلك الصورة التي تربط صاحب السيرة بالفضاء الملكي، وهي صورة مُؤَسَّسة على تقدير كبير من شخصية سياسية عَالِمة، تجسدت في الملك الحسن الثاني، وهو التقدير الذي لخصته شهادة التنويه التي عبر عنها الملك بعد الدرس الذي ألقاه الأستاذ الجراري عن «أسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب» والذي تم بعد عصر الخميس 9 رمضان 1405هـ الموافق 30 ماي 1985، حيث خاطب جلالتة المحاضر بقوله: «أشفيت الغليل ألقفيه ما عندي ما نتسالك» وظل يكررها وهو يغادر المجلس⁽¹⁾.

إن «قصر الرياض» بالرباط، يكتسي خلال شهر رمضان هالة خاصة لها بعدها الديني والسياسي، ويمتليء المكان بدلالات تشكلها طبيعة الحضور متمثلة في هيئات وطنية ودولية، مدنية وعسكرية، وحينها يرسم هذا المحيط الذي يتحرك فيه الأستاذ عباس الجراري، ملامح شخصيته في بعدها العلمي ومرتبته الاجتماعية، ودورها السياسي داخل دواليب الدولة.

لقد تعددت الأمكنة التي تنسج ذلك الرابط بين صاحب «الرحيق» والفضاء الملكي. وستشيد الكتابة طيّ هذه السيرة، مكاناً آخر، قد يبدو بعيداً عن دائرة المحيط الملكي!

يبرز مسجد للاسكينة داخل النص برمزية دينية، لكن تأمل سياق تعيين الأستاذ الجراري خطيباً بهذا المسجد، يسحب على المكان دلالة خاصة، تعمقها عناصر مساعدة، تحملها سمات الهندسة المعمارية للمكان، وموقعه الجغرافي المختار بعناية، يتوج كل ذلك دلالة الاسم المقترن بهذا المسجد، اسم الحفيدة للاسكينة الذي يحظى باعتبار متميز لدى الملك الحسن الثاني. لقد كان تعيين الأستاذ الجراري خطيباً، تعييناً ملكياً. لم يكن وقوف العباس على منبر مسجد للاسكينة في قاعدة الملك، وقوفاً إدارياً، صادراً عن وزارة الأوقاف، بل كان وقوفه ذا

(1) دروس حسنية، عباس الجراري، جمع وتقديم، حميدة الصايغ الجراري، ص، 17.

رمزية عميقة ترتبط برؤية ملكية، بعيدة وعميقة، إلى وظيفة الخطيب، وهو ما حملته إشارة «الرحيق» التي صاغها صاحب السيرة في قوله⁽¹⁾: «إن ما كان يقصده جلالته بحكمته وتبصره هو تقديم صورة رائدة لعمل إسلامي متسم بالجد والجدة والإعتدال، وقادر على مواجهة العدو والتطرف بعلم ومعرفة وإقناع»، بالإضافة إلى ما أتاحتها الخطابة للكاتب من استكمال ما يغني مشروعه العلمي، «فمع الخطبة وانفتاحي على عوالم أخرى..... كنت أشعر بمشروعي ينمو ويتسع ليشمل آفاق تراث المغرب وإبداعه في مختلف أنماطه ومجالاته، وكيفية تحديثه وتبليغه للجماهير العريضة»⁽²⁾. وحينما عين الملك الحسن الثاني الجاربي خطيباً في مسجد للاسكينة، كان يعلم أن الذي سيعتلي المنبر، مفكر مغربي أصيل، وأستاذ جامعي، ودبلوماسي محنك، ومناضل نقابي، وعضو اتحاد كتاب المغرب..... وقبل كل شيء، مثقف ينحدر من أسرة عالمة، وبيئة وطنية أصيلة. والمسجد في «رحيق العمر» يتجاوز الوجود الهندسي ليرمز إلى قيم نبيلة، تربو حينما تقترن بزمن له خصوصيته وقداسته، يتمثل في يوم الجمعة، حيث يعتلي العباس منبره مخاطباً شرائح مجتمعية من فئات وطبقات مختلفة⁽³⁾.

وإذا كان المسجد مكاناً قد لا يشد إليه «البعض»، فإنه في مسار عباس الجاربي، مكان أليف، يُشعر بالطمأنينة، وعمق الانتماء؛ وهي ألفة نمت مع صاحب «الرحيق»، منذ الصغر. جرّب التشفيح طفلاً، فتمهد السبيل ليعلو منبر المسجد، فتولد بين المكان وذات الكاتب علاقة تجاذب روحي، ترمز إلى إطار مُحدّد - إلى جانب عناصر أخرى - لهوية العباس.

(1) رحيق العمر، ص، 11.

(2) نفسه، ص، 11.

(3) لما كنتُ من المترددين على مسجد للاسكينة أيام الجمعة، لاحظت أن الحاضرين لأداء الصلاة، ينتمون إلى فئات مختلفة، من طلبة وأساتذة جامعيين وأطباء وقضاة، ومهندسين وإداريين وعمال..... فالمسجد في موقعه، محاط بالعديد من المؤسسات الجامعية ومستشفيات، وغيرها من المرافق الإدارية لبعض الوزارات.

وجماع القول في هذا الباب، أن ارتباط عباس الجارري بالفضاء الملكي كما رسمته رمزية الأمكنة في «رحيق العمر»، كان ارتباطاً مؤسساً على حس وطني عميق، تشرب به الكاتب منذ طفولته داخل البيت والكتاب، ومن مجالسة بعض رجالات الحركة الوطنية، في ظل تأطير لأب كان ممن ساهموا وشاركوا في تاريخ تلك الحركة، ممارسة وكتابة.

وأنت مأخوذ بأحداث هذه السيرة، يجذبك «الرحيق» إلى فضاء آخر، شكل عنصراً بارزاً في هذا الحكي عن الذات، يمكن أن نسميه بـ«الفضاء الصحي»، ونقصد بذلك تلك الأمكنة التي ارتبطت، عبر مسيرة الكاتب، بحالته الصحية التي ترسم جانباً من معاناة العباس، عبر مراحل العمرية المختلفة، وربما كانت لفظة «مغلّال» التي دونها بلهجتها الدارجة، خير تعبير عن تلك المعاناة التي بلغت حدتها عند حديثه عن عمليتين جراحيّتين على الأمعاء أواسط سنوات الخمسين من القرن الماضي قال عنهما⁽¹⁾: «كدت ألفظ معهما أنفاسي الأخيرة لولا لطف الله وعنايته». ويسهم هذا الفضاء الصحي بتعدد أمكنته، في كتابة جانب من معاناة عباس الجارري، وهي معاناة رافقته منذ طفولته إلى نهاية زمن الحكي في «الرحيق». كان المكان في تعدده، يعبر فضاءات صحية في المغرب ومصر وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية. ففي المغرب تحضر عيادة الطبيب الشرفي بشارع القناصل ومصحة الطبيب ديبوا زكبير بشارع الجزائر، فمصحّة الكّڨدال، ومستشفى الشيخ زايد، ومستشفى ابن سينا، والمستشفى العسكري، فمختبر التحليلات التابع للدرك الملكي، وكلها أمكنة في فضاء الرباط، ثم الطبيب لعجيمي خارج هذه المدينة؛ حتى إذا حلّ الكاتب بمدينة القاهرة لمتابعة دراسته، كان هذا الفضاء الشرقي، في جانب منه، مشحّناً لمعاناته الصحية، فيحضر داخل نص «رحيق العمر»، مستشفى العباسية بالقاهرة، والمستشفى الإيطالي بالإسكندرية. ومن الغريب أن هذا المكان المتمثل في المستشفى أو العيادة، يبدو وكأنه ربط علاقة قوية بصاحب السيرة، حتى في زمن

(1) رحيق العمر، ص، 73.

يبدو مقتطعاً للترفيه في حلة ثقافية، محطته باريس ومدن فرنسية أخرى، فيأبى إلا أن يحضر من خلال مستشفى كوشان **Cochin** في باريس، بل سيسجل الفضاء الصحي حضوره خارج الديار المغربية، مرة أخرى، عبر قناة مستشفى كليفلاند **Cleveland Clinic**، بالولايات المتحدة الأمريكية.

من شارع القناصل بالرباط إلى مستشفى كليفلاند في أمريكا، يرتسم الخط الصحي لعباس الجراري، كما دونه سردياً في «رحيق العمر»، فانكتبت من خلال الكلم، صورة أخرى لمعاناة الكاتب في حياته، ارتبطت هذه المرة بالجانب الصحي، بعد أن بدا وجه منها في صور سابقة عبر المسار الأكاديمي والاجتماعي، دون أن نفعل امتداد هذه المعاناة، بشكل غير مباشر، جسّدته أمكنة تحكي الحالة الصحية لابن العباس محمد، في مرحلة من طفولته.

صورة المعاناة التي سطرته سيرة «الرحيق»، تكتب ملامح من شخصية عباس الجراري الإنسان المؤمن بقدره، وهو إيمان عميق، منح الرجل صموداً معتبراً، وصبراً جميلاً، وشحنه بقدرة عالية على تحمل الشدائد، إيمان صاغ شخصية لها طموح مشروع، وإرادة قوية مشبعة بروح التحدي، وفي إهاب يمتح من التعاليم الإسلامية الحنيفة. لقد انبرت هذه الكتابة إلى تقديم قراءة للمكان، في السيرة الذاتية للأستاذ عباس الجراري «رحيق العمر»، وقد جاءت حافلة بفضاءات متنوعة، جسّدت أمكنة متعددة.

بيد أن النظر في هذه الموضوعة، يقتضي الالتفات إليها في قسمها الحاضر ضمن المتن، وكذا في شقها الغائب. غياب أمكنة معينة، لا يخلو بدوره من دلالة، دون أن ننسى أننا مع سيرة موجزة كما ينطق بذلك العنوان الفرعي للرحيق، والذي شكل جزءاً من الميثاق الذي سطرته هذه الكتابة مع المتلقي المفترض.

فهل غابت أماكن يفترض أن يكون لها حضور في سيرة الكاتب ؟ وهل هو غياب فرضه الإيجاز أم هناك أماكن تم تغييبها لسبب من الأسباب ؟ قد تدور أسئلة عديدة في ذهن المتلقي، تبغي جواباً، مثلاً، عن غياب مكان كقاعة السينما، في هذه السيرة ؟ هل يمكن أن نتصور حضور الكاتب في القاهرة أواخر سنوات

الخمسين وبداية سنوات الستين، دون أن يكون لقاءات السينما حضور في هذه الكتابة ؟ نفس السؤال قد يدور في الخلد، ونحن نعيش أجواء القاهرة في «الرحيق» دون أن نلمس ظهوراً لحيز مسرحي ؟

كان للمسرح حضور من خلال وجود الكاتب في باريز، ولكنه باهت، ورد في إشارة عابرة، دون تفاصيل تسمح بالوقوف على طبيعة ميولات الكاتب في هذا الباب. وقد يكبر التساؤل، حينما نعلم أن العلامة عبد الله الجاربي، والد الأستاذ عباس، من الأدباء الأوائل الذين اهتموا بالمسرح، وأسس فرقة للتمثيل حملت اسم "جوق السعي والفضيلة"⁽¹⁾. وأميل إلى القول بأن التردد على مسارح القاهرة، لم يغيب عن الحياة التي عاشها عباس الجاربي الطالب ثم الدبلوماسي، في أجواء القاهرة المعزية، خاصة وأن المنطوق الشعري للأستاذ الجاربي، يوحى بمعرفته الكافية بأجواء القاهرة، في زمن ازدهرت فيه الحركة المسرحية، بل الفنية بشكل عام، وما عرفته مسارح «المحرسة» من حركية دائبة، لمَّح إلى صورتها من خلال مساجلة شعرية مع الشاعر اليميني الدكتور عبد الولي الشميري، مجيباً عن تهنة بحلول شهر رمضان⁽²⁾ تقول:

تقبل عباراتي الشاكرة بأدعية نرتجي غافرة
وإنِّي لأغبط صومك في رحاب المعزية القاهرة
تُرى هل على ما ألفنا بها تقام الليالي بها ساهرة؟

للقاهرة «أجواء باهرة»، بعضها مقرون بطقوس رمضان، وأخرى «لياليها ساهرة» ! وقد يكون غياب أمكنة معينة، حاملاً دلالة على طبيعة التنشئة التي عاشها الكاتب. فالملاعب الرياضية مثلاً، لا تبدو مغرية في مسيرة الطفل عباس، بل عندما يتم الحديث عن لعب كرة القدم، فإن الملعب لا يتجاوز حيزه «وسط الدار الفسيح»⁽³⁾، وتمارس اللعبة تحت إشراف الوالد، واللعبون من أفراد الأسرة.

(1) رحيق العمر، ص، 49، وص، 76.

(2) من ديوان عباس الجاربي، الجزء الثاني، ص، 143.

(3) رحيق العمر، ص، 76.

ومن الأمكنة الغائبة في هذه السيرة، المقهى. وإذا كان غيابه في سن الطفولة أمراً عادياً، فإن عدم ظهوره في «الرحيق» في مرحلة الشباب، وخاصة في أجواء القاهرة، يبدو أمراً مقصوداً، وقد يكون بسبب جنوح الكتابة إلى الاختصار، والاقتصار على ذكر الأماكن الفاعلة في مسار الكاتب بشكل أقوى، خلال المرحلة المتحدث عنها؛ وإن كنتُ أميل إلى ترجيح التغييب لهذا المكان في فضاء القاهرة، التي لا يمكن لزائرها، بله المقيم فيها، ألا يتردد على مقهى الفيشاوي مثلاً، بخان الخليلي، والذي كان ملتقى للأدباء والفنانين، فضلاً عن رمزيته التاريخية التي ترجع إلى أواخر القرن الثامن عشر، تاريخ بناء المقهى.

لا يعني غياب «المقهى» في «رحيق العمر»، أن صاحبه يستنكف من التردد عليه، فكتابات موازية لصاحب السيرة، تسجل حضوره داخل هذا المكان، وهو ما نقف عليه في رحلته إلى تركيا، في فترة تتقاطع مع فترات من زمن «الرحيق»، تردد الكاتب خلالها على مكاتب اسطنبول، للاطلاع على مخطوطات تسعف في بعض مكملات أطروحته. وفي اسطنبول تحدث العباس عن ترده على المقهى وجلوسه في رحابه، مدة قد تطول أو تقصر حسب الظروف⁽¹⁾.

هذه جوانب من تجليات المكان في السيرة الذاتية «رحيق العمر» للأستاذ عباس الجراري. وما حكاة الكاتب جرى في أمكنة حقيقية، رافقته عبر زمن الحكي من البداية إلى النهاية. وحضور المكان بهذه الصورة، أضفى على الكتابة صدقية، اتخذها صاحب «الرحيق» أساً رئيساً لنسج سيرته، فجسدت تلك الأمكنة جملة من العلاقات الإنسانية في مستويات متعددة، بتلوينات نفسية، اختلفت طبيعتها ودرجة تموجاتها.

حضر المكان في «الرحيق» بألفته وطمأنينته وسموه ونبله وروحانيته آنأً، وأنا آخر، جسّد المكيدة والمؤامرة والمساومة، والمعاناة في درجاتها المختلفة. لقد رسمت أمكنة «رحيق العمر»، مسار مفكر كبير، وتحولت الإحداثيات

(1) أنظر، «نسيم البوسفور»، رحلة عباس الجراري، إعداد ودراسة، د. بديعة لفضايلى، الصفحات: 149، 161، 172، 183، وغيرها.

الجغرافية عبر اللغة، من فضاء هندسي إلى أحياز ناطقة بقيم ومواقف. وتحرك
الحكي عبر المكان بحركية تنبسط وتنقبض، بتغير إيقاع الحركة الزمنية، وطبيعة
الفضاء، وقد تتجاوز سيرورة «الرحيق» أحياناً، ما هو ذاتي، لترسم النبض الجماعي.
ويلوح طي نسيج هذه الكتابة، نوع من التناظر بين مسار صاحب «الرحيق»،
ومسيرة وطن في محطات من سيرورته التاريخية، على مدى زمني يمتد من سنوات
الثلاثين من القرن العشرين، إلى الربع الأول من القرن الواحد والعشرين. وقد
ينكتب هذا التناظر بشكل مبين، في الجزء الثاني من سيرة الأستاذ عباس الجارري،
الذي حُطَّ تحت عنوان «الشهود الفاعل»⁽¹⁾، قد يعضد بثالث يخصص للوثائق
والصور؛ فتكون بين أيدي القاريء كتابة متكاملة، تمكن من تعميق زوايا النظر،
وتسمح للقراءة باختراقات، قد تسهم في إنتاج معنى جديد، لمسار امتزج فيه
«الرحيق» بـ«الحريق»..... «حريق» انفعالات بـ«رحيق مختوم»، شاء
الله أن يتضوع، وكان ما يمكن في الأرض.....!

* * *

(1) تحت هذا العنوان سيصدر الجزء الثاني من هذه السيرة، وأنظر، رحيق العمر، ص، 16.

المصدر والمراجع

١- المصدر:

الجراري عباس، رحيق العمر: موجز سيرتي الذاتية، ج١، النشأة والمشروع، منشورات النادي الجراي، رقم: 101، الرباط، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، 2020.

٢- المراجع:

- 1- أمين أحمد، حياتي، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012.
- 2- باشلار غاستون، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، لبنان المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1984.
- 3- الجراري عباس، دروس حسنية، جمع وتقديم، حميدة الصايغ الجراي، منشورات النادي الجراي، رقم: 64، الرباط، دار السلام للطباعة والتوزيع، 2015.
- 4- الجراري عباس، من ديوان عباس الجراي، إعداد وتقديم، محمد احميدة، الرباط، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، 2017، الجزء الثاني.
- 5- الجراري عباس، نسيم البوسفور، رحلة عباس الجراي، إعداد ودراسة، د. بديعة لفصايلي، منشورات النادي الجراي، رقم: 85، الرباط، 2020.
- 6- جماعة من الباحثين، جماليات المكان، الدار البيضاء، عيون المقالات، 1988.
- 7- جماعة من الباحثين، شعرية المكان في الأدب العربي الحديث، تحرير بطرس الحلاق، وروين أوستل وشتيفن فيلد، ترجمة نهى أبو سديرة، عماد عبد اللطيف، القاهرة، المركز القومي للترجمة، 2014.
- 8- حسين طه، الأيام، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، 1992.
- 9- ديفير-دس، المفهوم الحديث للمكان والزمان، ترجمة، السيد عطا الله، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1996.
- 10- ديمس جون جيمس، حركة المدارس الحرة بالمغرب، ترجمة، السعيد المعتصم، الدار البيضاء، النجاح الجديدة، 1991.
- 11- الشاوي عبد القادر، الكتابة والوجود: السيرة الذاتية في المغرب، الدار

البيضاء، افريقيا الشرق، 2000.

12- شرابي هشام، مقدمات لدراسة المجتمع العربي، بيروت، الأهلية للنشر

والتوزيع، 1981.

13- قاسم سيزا ، القاريء والنص، العلامة والدلالة، القاهرة، المجلس الأعلى

للثقافة، 2002.

14- لحمداني حميد، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، الدار

البيضاء، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، 1991.

15- لوبروطون دافيد Le Breton Davide، الصمت لغة المعنى والوجود،

ترجمة فريد الزاهي، الدار البيضاء، المركز الثقافي للكتاب، 2019.

16- لوتمان يوري، سيمياء الكون، ترجمة عبد المجيد نوسي، الدار البيضاء،

المركز الثقافي العربي، 2011.

.....

المجلات:

1- شلاش غيداء أحمد سعدون، المكان والمصطلحات المقاربة له: دراسة

مفهوماتية، كلية التربية للبنات، جامعة الموصل، العراق، مجلة أبحاث كلية

التربية الاسلامية، المجلد، 1، العدد، 2، 2011.

* * *

ذ. محمد الوهابي

- أستاذ جامعي، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط.
- أستاذ مشارك بالجامعة الدولية بالرباط.
- أستاذ متعاون بالمدرسة الوطنية العليا للمعادن بالرباط.
- أستاذ زائر بالمدرسة الوطنية للهندسة المعمارية بالرباط (سابقا).
- شارك في عدد من اللقاءات والندوات العلمية المنظمة من طرف كلية الآداب بالرباط، او جهات ثقافية أخرى مثل:
- اتحاد كتاب المغرب.
- رابطة ادباء المغرب.
- بيت الشعر.
- المجلس الأعلى للثقافة بدولة الكويت.
- شارك في العديد من اللقاءات العلمية المنظمة بين كلية الآداب بالرباط ومؤسسة كونراد الألمانية في مدن مغربية متعددة.
- عضو مختبر الدراسات المغربية الأندلسية، كلية الآداب بالرباط.
- عضو مكتب جمعية البحث التاريخي والاجتماعي بالقصر الكبير.
- شارك في الإشراف وتأطير ومناقشة العديد من الرسائل والأطاريح الجامعية.
- نشر مجموعة من الدراسات ضمن أعمال علمية أكاديمية جماعية.
- نشر عدة مقالات في الصحف الوطنية (العلم) وبعض المجالات الثقافية
- «الثقافة المغربية»، مجلة «الثقافة المغاربية والمقارنة».
- له مؤلفات تحت الطبع، منها:
- 1- ديوان ملحونات أحمد بن عبد القادر التستاوني: جمع وتحقيق وتقديم.
- 2- ديوان عبد الكريم بن عبد السلام بن زاكور: تحقيق ودراسة.
- 3- صناعة ديوان الشاعر عبد الله القباح.

* * *

البوح المعقلن

قراءة في كتاب: «رحيق العمر: موجز سيرتي الذاتية» للدكتور عباس الجراري

ذ. محمد الوهابي

استهلال، أو بوح لا بد منه:

إنه لمن دواعي السعادة والسرور أن تتاح لي فرصة المشاركة في قراءة عمل أستاذنا الجليل الدكتور عباس الجراري: «رحيق العمر، موجز سيرتي الذاتية»⁽¹⁾. والذي يمثل حلقة من حلقات عقد الانتاج الفكري والأدبي للأستاذ، ولحظة من لحظات مساره الثقافي الطويل والمتشعب، الذي لم يترك مساحة من مساحات الثقافة العربية والمغربية والأندلسية، قديمها وحديثها، وبمختلف مجالاتها وأجناسها، إلا وأماط عنها اللثام، أو أنار مناطق معتمة منها، أو قوم أحكاماً ومواقف وتصورات خاطئة أو جائزة ألصقت بها، بحسن نية أو بسوءها، الأمر الذي يتجلى بوضوح في ببليوغرافيا أعماله وإنتاجاته⁽²⁾.

فأما مصدر السعادة فيكمن في كون الكتابة عن أعمال أستاذنا الجليل تعتبر، بالنسبة لطالب محب مثلي، فرصة للتواصل، وتعزيز أواصر محبة في الله دائمة ومتصلة، والتعبير عن وفاء لتلمذة كانت، وما تزال، مصدر اعتزاز وإلهام لي إلى اليوم.

وأما السرور، فمنبعه ما نشهده من إنتاج متواصل لأستاذنا، رغم بعض العوارض الصحية، شافاه الله منها وعافاه، يُثري به الخزانة المغربية والعربية،

⁽¹⁾ صدر الجزء الأول منه عن منشورات النادي الجراري رقم: 101، تخليداً للذكرى التسعين لتأسيس النادي

الجراري 2020/1930، دار أبي رقراق للطبع والنشر، ط: 1، 2020.

⁽²⁾ الرحيق، ج: 1: مؤلفاتي: ص: 151 إلى 162.

ويغذي به النقاش العلمي الأكاديمي الرصين حول قضايا الفكر والأدب المغربيين، ويحفز الباحثين، من خلاله على مواصلة الحفر في جغرافية هذا الأدب، والكشف عن ذخائره، تحقيقاً ودرساً وتاريخاً.

وأحب بهذه المناسبة، كذلك، أن أتقدم بجزيل الشكر لأخي وصديقي العزيز، الأستاذ الفاضل سيدي محمد احميدة الذي دعاني للمشاركة في هذه القراءة، واقتسام بعض من عذوبة هذا الرحيق، فله مني كل المحبة والتقدير.

كلمة في صاحب «الرحيق»:

لقد ارتبط اسم الأستاذ الدكتور عباس الجراري، في ذاكرة من أتيج لهم معرفته، من زملائه وطلبته وغيرهم، بالجامعة المغربية، أستاذاً باحثاً مبرزاً، ومدرساً لامعاً ضمن قلة من المدرسين الذين كانت تشد إليهم الرحال لحضور محاضراتهم العلمية القيمة، سواء بكلية الآداب بفاس، أو كلية الآداب بالرباط، لكن قلة قليلة، من هؤلاء وأولئك، من يعرف المسارات المختلفة التي مر منها هذا العالم الفذ، والمنعرجات التي عبرها، والمفايزات التي قطعها بإيمان وصبر ويقين، كان النجاح فيها كلها حليفة بتوفيق من الله، وشجاعة وثبات على المبادئ والقيم الأساسية التي تربى عليها، دينية كانت أو علمية أو وطنية أو إنسانية....، وهي القيم التي شكلت على الدوام الإطار المرجعي المحدد لاختياراته في شتى مجالات الحياة، والموجهة لمواقفه الواضحة والمعلنة، إزاء العديد من القضايا التي شغلت المجتمع العلمي المغربي، أو نخب المجتمع الدينية والسياسية والثقافية لعقود، وما يزال. ولعل «رحيق العمر» جاء ليُجلي بعضاً من جوانب هذه الحياة الحافلة بالعطاء العلمي، وخدمة هذا الوطن بكل أبعاده ومكوناته.

❖ في السياق النظري والأدبي «الرحيق»:

كان بالإمكان استحضار كل الجهاز النظري المنجز حول السيرة الذاتية في الغرب، وعند بعض العرب، كما أنه كان بالإمكان استحضار كل ذلك العناد المنهجي الذي بلوره دارسو السير الذاتية شرقاً وغرباً، قديماً وحديثاً، في سبيل الكشف عن مجموع الآليات والتقنيات السردية والحكاية والتخييلية التي قد

يكون وظفها أستاذنا في صياغة «رحيقه»، إلا أنني وأنا أطلع الصفحات الأولى منه، وجدتني أمام ما يغني عن كل تمحل نظري أو منهجي غير منتج، إلا في حدود ضيقة جداً، نظراً لما قدمه الأستاذ للقاريء من مفاتيح أساسية لكل قراءة تسعى لكي تكون موضوعية، تاريخية، ومنصفة.

فعلى الرغم من العنوان الفرعي للكتاب: «موجز سيرتي الذاتية» الذي يوحي بأن المؤلف سينخرط في ميثاق أوطوبيوغرافي ذي تاريخ وقواعد وآليات وتقنيات، أضحت معروفة لدى دارسي السير الذاتية ومنظريها، فإن الأستاذ، وفي مقدمة عمله، نراه يستعمل مصطلحاً آخر ذا حمولة تراثية أصيلة في ثقافتنا العربية، وهو مصطلح: «الترجمة»: «وذلك ما جعل بعض الأصدقاء الدارسين - على كثرة ما كتبوا عني مشكورين - يلحون علي - لحسن الظن بي - أن أكتب ترجمة شخصية تكون موسعة بعض الشيء، ومستوفية كذلك بموضوعية وإنصاف لتلك للفراغات والشغرات، وإن بإيجاز»⁽¹⁾.

إن استعمال الأستاذ لمصطلح «الترجمة» ليس صدفة في هذا السياق، ولا هو فلتة من فلتات الأقلام، وإنما هو في نظري، تعبير عن انحياز لثقافة، ولنمط من التأليف لعب دوراً حيويّاً في التعريف برجال العلم والمعرفة في تاريخنا الثقافي العربي الإسلامي، سواء كانت هذه التراجم مؤلفة من لدن العلماء أنفسهم، أو تلك التي وضعها آخرون لهم، وهي ممارسة، أو تقليد علمي وثقافي، لا تخفى فائدته في التاريخ الثقافي للأمم والشعوب على أكثر من صعيد.

كما أن استعمال هذا المصطلح من طرف مؤلف «الرحيق» هو تشمين لمصطلح يشكل موقعاً أساسياً في شبكة مفاهيم الكتابة، وأنماط التأليف، بل وجينالوجيا الأجناس الأدبية، داخل النسق الثقافي العربي بشكل عام.

وفضلاً عن ذلك، فإن المصطلح يتقاطع مع ممارسة ثقافية أصيلة أخرى في ثقافتنا العربية، والتي أنتج فيها المغاربة كمّاً هائلاً من النصوص، ذات القيمة

(1) الرحيق ج1، مقدمة: ص: 8.

المتفاوتة، في شكلها وفي محتواها؛ وأقصد بذلك، كتب الفهرسات التي يعرف فيها العلماء بأنفسهم، وبمسقط رأسهم ونسبهم ومسارات تكوينهم وشيوخهم، وبعض ما اعترضهم من مشاكل، أو ما عاشوه من أحداث ووقائع، وما مرَّ بهم من تجارب، وما أتيج لهم أن يتعرفوا عليه من رجالات العلم أو السياسة، أو غيرهما... إلخ، مما درج مؤلفو الفهرسات على الخوض فيه، وتوثيقه في مؤلفاتهم، وهي المؤلفات التي لم تحظ بالعناية الكافية في الجامعة المغربية، سواء على مستوى التحقيق أو على مستوى الدراسة.

وأستطيع أن أزعـم بأن «الرحيق»، ينتمي من حيث تكوينه الجيني إلى شجرة نسب معرفية ذات جذور قوية وراسخة في تراثنا العلمي، وتقاليدنا الأدبية، وهو يمثل امتداداً طبيعياً، وتطوراً حديثاً لهذين التقليديين (التراجم والفهرسات)، وأخص بالذكر هنا كتاب، أو فهرسة: «ثمرة أنسي في التعريف بنفسي» لسليمان الحوات⁽¹⁾، والذي يعتبر من أرقى وأنضج كتب الفهرسات في الثقافة المغربية، والذي حمل مبكراً بذور التحول إلى جنس أدبي جديد سيعرف في الغرب، لاحقاً، بـ«السيرة الذاتية».

إن حضور عناصر من هذا الشكل الأدبي في «الرحيق»، واستحضاره في سياق الحديث عن السيرة الذاتية، والترجمة للذات، في مقدمته، لهو في نظري، مظهر آخر من مظاهر احتفاء الأستاذ بالفكر والإبداع المغربيين في تجلياتهما المشرقة، وتذكير للباحثين، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، إلى أهميتهما وقيمتيهما في البحث والتأريخ لتطور الأجناس الأدبية في الثقافة العربية عموماً، والمغربية بشكل خاص.

ولعل هذا، وجه آخر من وجوه جرأة وشجاعة الأستاذ في إعادة النقاش، ولو بشكل ضمني، حول جملة من القضايا الأدبية والمفهومية التي استقرت في ثقافتنا، وأضحت من مسلماتها، لا من أجل نفيها، أو الدعوة إلى رفضها وعدم العمل

(1) لقد عبرت عن رأيي في هذا النص الهام، في مداخلة لم تنشر، أثناء مشاركتي في مناقشة تحقيق (الثمرة) بكلية الآداب بالرباط، وهو العمل الذي أنجزه الأستاذ شداد جهيد.

بمقتضياتها...، وإنما، من أجل خلق جسور بينها وبين ما أنتجه الأسلاف من ممارسات خطابية ذات قيمة أدبية جديرة بالذكر، والاستحضار والاستلهام، في كل سياق يراه مناسباً.

❖ هندسة الرحيق، أو الرحيق ومكوناته:

إذا كانت هندسة الأعمال العلمية والإبداعية عادة ما تشير إلى الخلفيات المعلنة - أو المضمرة- الموجهة لتلك الأعمال، والمحددة والموضحة لمقاصدها واستراتيجياتها، فإن هندسة «رحيق العمر» لم تشذ عن هذا التصور؛ بل أمعنت في دقة معماره، وصرامة كل قسم من أقسامه، وتطور كل بنية من بنياته، بحيث لا يكون إلا ما يراد له أن يكون، ولا يدون ويوثق إلا ما يخدم الهدف المسطر سلفاً، وفق استراتيجية مضبوطة تكاد لا تخلو فقرة، أو صفحة، أو فصل من فصول «الرحيق» من آثارها.

ولعل هذا ما جعل «الرحيق» يسير وفق نسق كرونولوجي تصاعدي في سرد الأحداث والوقائع، مع استثمار ذكي، عند الاقتضاء، لجملته من التقنيات السردية، مثل الاسترجاع والتذكر والاستطراد... إلخ لدعم فكرة، أو تفسير رأي أو موقف، أو الدفاع عن وجهة نظر أو سلوك معين، وما إلى ذلك من التقنيات مما هو متداول في المتن السردية المشابهة.

فبعد مقدمة هامة ومركزة، تهييء القاريء لما سيطلع عليه من أخبار ومعطيات، ولما سيتعرف عليه من أحداث ووقائع، ولما سيكتشفه من سياقات عاشها المؤلف، سواء داخل المغرب أو خارجه، ودخل أسرته الكبيرة رفقة الوالدين والأشقاء، أو بين أفراد أسرته الصغيرة لاحقاً، وكان لها بالغ الأثر على حياته الخاصة، وعلى مساره الحياتي الاجتماعي والثقافي العام، والأكاديمي الخاص، وتضيء جوانب معتمدة من كل هذه المسارات المختلفة، وفي مراحل متعددة وسياقات متباينة، وتستبق الإجابة عن كثير من الأسئلة التي كان المؤلف يتوقع طرحها من لدن القراء، بمختلف أجيالهم وطبقاتهم ومستوياتهم، بحس العالم، ولين المربي، وانفتاح الأستاذ، وأخلاق الزاهد، سالكاً بهم سبل الوصول لارتشاف ما طاب

لهم من «الرحيق» - كل حسب زاده وطاقته ورغبته- الذي كلما أطلت تذوقه، منحك المزيد من أسراره ومكوناته.

فبعد كل ذلك، إذن، انتقل الأستاذ الجراري إلى وضع المتلقي في صورة الأجواء العائلية التي نشأ وتربى فيها، وتشرب قيمها، وتمثل مفاهيمها للذات وللناس وللحياة، وللدين والدنيا في أبعادهما المترابطة والمركبة، مركزاً على إبراز دور الأسرة كنواة جوهرية في بناء الإنسان، وإنتاج القيم، ورسم النماذج العليا الواجب الاقتداء بها اجتماعياً وسياسياً وثقافياً ودينياً...

بل أستطيع أن أزعم، بأن الهاجس التربوي كان دافع أستاذنا إلى التوسع في هذا الباب، ليذكر، من كان يحتاج إلى تذكير، بأن مجتمعاً لا يجعل من الأسرة بكل مكوناتها، مركز اهتمام سياساته العمومية، الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والتربوية والتعليمية، لهو مجتمع آيل إلى تفكك وسقوط، وأن أهم وأقوى منظومات القيم، وشبكات الأمان الاجتماعية تبني داخل هذه النواة، وتستنبت داخل هذا المشتل الذي إن صلحت تربته، وطاب مناخه، وحسنت العناية به، منحك غرساً طيباً معطاءً، وإن أهمل، وترك للصدفة أن تلعب دورها فيه، أخرج لنا كل ما نتوقع، وما لا نتوقع، من النباتات الشقية الضارة لمحيطها وللناس. ولا عجب في ذلك، فالأستاذ يصدر عن رؤية للأسرة بلورها ديننا الاسلامي الحنيف، - قبل أن تدعمها النظريات التربوية المعاصرة بمختلف تياراتها واتجاهاتها- الذي منح الأسرة موقعاً مركزياً في البناء الاجتماعي، ومكنها من آليات الدعم والتحصين التي تجعلها في مأمن من أي تصدع أو ارتجاج، ولكي تظل القلعة الحصينة التي تحمي المفاهيم والقيم والتصورات التي يُبنى بها الإنسان المسلم في كل أبعاده: الدينية والاجتماعية والفكرية والوطنية...

وما صاحب «الرحيق» سوى ثمرة طيبة لأسرة تشعبت بهذه القيم الإسلامية الرفيعة، وعملت على نشرها، والدفاع عنها في شتى المجالات والمواقع. ولعل نظرة على أعمال الأستاذ، والأنشطة العلمية التي شارك فيها، داخل المغرب وخارجه، تبرز مدى حضور الفكر الإسلامي في كل ذلك، ودعوته إلى العمل بمقتضيات هذا

الدين الحنيف، قرآنًا وسنة وفكرًا، ومذهباً وطريقة....

ثم قدم لنا إطلالة على مسيرته التكوينية والوظيفية التي عرفت تحولات وتقلبات متعددة، كانت وراءها ظروف ذاتية أحياناً، وموضوعية أحياناً أخرى، ولكنها، في كلتا الحالتين، ساهمت في صقل شخصية الأستاذ، وجعلته يتعلم الكثير ممن أتيح له العمل إلى جانبهم من أطر الدولة الساميين، في شتى القطاعات الحكومية، كما سمحت له بمعرفة معادن الناس، واختبار طباعهم، ولاسيما زمن الشدة؛ مذكراً بما لاقاه، من كثير من الخلق، من حقد مجاني، وكيد، ناتجين عن مشاعر الغيرة والحسد وغيرهما مما هو ملازم للطبع البشري، مذ وجد الإنسان، ولا يسلم منهما إلا من كان من معدن أصيل، وحفته العناية الإلهية بلطفها.

بعد ذلك، انتقل الأستاذ إلى ذكر مؤلفاته، وإنتاجه العلمي، المطبوع والمخطوط، ثم منهجه في البحث واتجاهه الثقافي، ثم إشرافه على البحوث الجامعية، فعضوياته في المجالس والهيئات العلمية، ثم حديثه عن النادي الجراري العامر وتاريخه، فالأعمال التي كتبت عنه، والأشعار التي أبدعها، ومصادر ترجمته، خاتماً (الرحيق) بملحق وثائق دراسية وإدارية.

ذلكم كان وصفاً مقتضباً، وسريعاً لمحتويات «الرحيق»، وهو كما سيلاحظ القاري، غني بالمعطيات التي سعى صاحبه إلى وضعها رهن إشارة قارئيه ومحبيه، والمؤرخين للثقافة والفكر في هذا البلد، لاستثمارها في كل عمل علمي مفيد.

❖ في مؤلفات الأستاذ وإنتاجه العلمي: مجالاتها - موضوعاتها - مناهجها

ولعل أكثر ما يشد الباحث - بعد مرحلة النشأة والتكوين والعمل -، وهو يتتبع مراحل صناعة «الرحيق»، ومكونات بنائه، هو مشروع الأستاذ العلمي الأكاديمي، بشقيه الأساسيين: البحث والإنتاج، والإشراف والتأطير، وهما المجالان اللذان كرس لهما الحيز الأكبر من جهده وطاقته، وجعلهما يسيران جنباً إلى جنب، في تكامل وتناغم، بما يخدم الأهداف العليا للمشروع، والتي ليست سوى خدمة مقومات الأمة في أبعادها الدينية (الاسلام) والثقافية (اللغة العربية وتراثها الزاخر بكل مكوناته) والوطنية. (ثوابت الأمة العليا، ودورها في وحدة البلد وانسجامه

وتماسكه واستمراره)، عبر رؤية تاريخية ديناميكية تراعي مختلف التطورات والتحولات التي شهدتها هذه الأمة في مختلف مجالاتها، وعبر مراحلها المختلفة، من أقدم العصور إلى آخر ما أبدعته وأنتجته من أفكار وممارسات ثقافية، وما أفرزته من ظواهر اجتماعية وحضارية...؛ الأمر الذي جعل هذا المشروع دائم التطور والتجدد والانفتاح، مع انغراس قوي في تربة المجتمع الذي ينتمي إليه، وانشداد لا ينقطع إلى قيمه الأصيلة التي شكلت، وتشكل، على الدوام قاعدته الصلبة، وإطاره المرجعي الثابت.

وسأسعى، في الصفحات التالية من هذه القراءة الأولية، إلى الوقوف عند ذينك الشقين الاستراتيجيين من مشروع الأستاذ العلمي الهام، والذي ضحى من أجله بمناصب ومواقع هامة في مختلف أسلاك الدولة، في سبيل إبراز مساهماته الأساسية في التعريف بالأدب العربي بعامة، وبأدب الغرب الإسلامي بخاصة، وبالأدب المغربي بصفة أخص، ودوره في إثارة الانتباه إلى الكثير من ظواهره وقضاياها، ونفض الغبار عن الكثير من نصوصه الإبداعية الأساسية، نثراً وشعراً، ولاسيما المخطوطة منها، والتي منها ما عرف طريقه إلى التحقيق والنشر، ومنها ما ينتظر بعض الارادات العلمية الطيبة لتخرجه للناس، وتنقذه من برائن النسيان، وما أكثرها في خزاناتنا العامة والخاصة، وفي مختلف حقول العلم والمعرفة والفن.

1- محور التأليف:

إن الناظر في ببليوغرافيا الأعمال العلمية، والمساهمات الثقافية للأستاذ عباس الجراري ستستوقفه جملة أمور أوردها كالتالي:

أ- تعدد مجالات اهتمام الأستاذ، وتنوعها واتساع جغرافيتها، وامتداد تاريخها، ذلك أنه ألف في الأدب العربي القديم والحديث والمعاصر، كما ألف في أجناس أدبية مختلفة، سواء منها ما كان من صميم الثقافة العربية ونتائجها، أو كان دخيلاً عليها بفعل التفاعل الثقافي والحضاري أو المثقفة (المسرح مثلاً)....

ب- مساهمة الأستاذ القوية في التعريف بشخصيات أدبية وفكرية بصمت تاريخنا الأدبي والثقافي، والسياسي والديني، مثل أبي الربيع سليمان الموحدي،

وأبي الحسن البيوسي، وعبد الرحمان بن زيدان، وعبد الله الجارري، ومحمد البيضاوي الشنقيطي... وغيرها، مما يستطيع القاريء أن يقف عليه في تضاعيف مؤلفاته المختلفة.

كما كانت له مشاركة بارزة في الدراسات النقدية، لظواهر أدبية عربية معروفة ساهم فيها برأيه، أو لقضايا وإشكالات فكرية عرفها الفكر العربي، أو الفكر المغربي أو الأندلسي، وكان له حولها رأي وموقف، أو نصوص تراثية إبداعية مغربية ذات قيمة في تاريخنا الأدبي، فعمد إلى تحقيقها ودراستها فوجدت - بفضل الجهد العلمي الذي بذله فيها - طريقها إلى النشر والتداول (الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي نموذجاً).

ج- ريادته في الاهتمام بالأدب الشعبي في الجامعة المغربية، و«النضال» لكي يحتل موقعه داخل الدرس الأدبي المغربي، كمادة لها قيمتها العلمية الخاصة، وكتخصص يهتم بكل ما يتعلق بالتراث الشعبي المغربي بكل جوانبه وتمظهراته، وإدماجه، بالتالي، داخل نسق التاريخ الأدبي المغربي الذي طالما قصر اهتمامه على الثقافة العربية العالمة، ولم يعترف قط بالثقافة الشعبية المغربية، والتي لا تقل أهمية فكرية وإبداعية وفنية عن قرينتها الأخرى، الأمر الذي سيثمر جملة من الدراسات الأكاديمية القيمة لهذا التراث، انطلاقاً من هذا الوعي بما يختزنه من قيم دينية وأخلاقية، ومفاهيم وتصورات فكرية، ورؤى فنية وجمالية، مما أضاف للدرس الأدبي المغربي أفقاً جديداً يسمح للباحثين والمهتمين بإعادة اكتشاف ذاتهم الفردية والجماعية، فضلاً عن اكتشاف جانب من تراثهم الثقافي المغيّب، والذي شكّل، على مر الزمان، مشتركاً ثقافياً لكل مكونات المجتمع المغربي، ورافداً أساسياً من روافد الذاكرة الثقافية الجماعية لهذه الأمة في مختلف مراحل تطورها التاريخي والاجتماعي والثقافي...

ويكفي، في هذا السياق، أن أشير مرة أخرى، ودون ملل أو كلل⁽¹⁾، إلى الجهد

(1) لقد سبق لي في أكثر من مناسبة علمية، وفي مقالات، أن أشرت إلى أهمية هذه الأطروحة الرائدة في تاريخ تطور الفكر الأدبي والنقدي في المغرب، والدور الطلائعي الذي لعبته في خلق دينامية علمية جديدة في مجال البحث في الدراسات الأدبية المغربية في شقها الشعبي. ولهذا، ومن هذه الزاوية تحديداً، سأسمح =

العلمي الرائد الذي بذله في أطروحته حول «القصيد» أو الزجل في المغرب، والذي نفّض فيه الغبار عن مآثر شعري زجلي ضخم، وعن شعراء شعبيين، قلة قليلة من الباحثين والمثقفين من كان على علم بوجودهم، فضلاً عن وعيهم بأهمية هذا الجانب القوي من ذخيرتنا الابداعية الشعرية الشعبية المغربية.

ويمكنني أن أزعم، بكل اطمئنان، بأن كتاب (القصيد) فتح باباً للبحث العلمي في التراث الأدبي المغربي ظل موصداً في وجه الباحثين، إما بسبب غياب الوعي النظري والمنهجي الموجه إلى هذا النوع من البحث، وإما لأسباب إيديولوجية أعمت بصر وبصيرة الكثير من باحثينا الذين ظلوا يعتقدون، عن جهل، أو عن سبق إصرار، ولزمن طويل، أن البحث في التراث الشعبي للأمم هو مجرد مضیعة للوقت، وتكريس للتخلف، ونشر لقيم الرجعية، ووقوف في وجه كل تقدم ثقافي واجتماعي منشودين....!!! وإما بسبب رغبة بعض الجهات احتكار البحث في هذا المجال، وجعله وقفاً عليها دون غيرها من أبناء هذا البلد الراغبين في المساهمة في تطوير البحث العلمي في بلدهم، والكشف عن ذخائر تراثهم العلمي والأدبي، انطلاقاً مما توفر لديهم من وعي أدبي جديد، وهاجس وطني قوي كان، على الدوام، الحافز على تجاوز كل العوائق، وتحدي كل الصعاب.

د- الحرص على الاهتمام بالثقافة المغربية بصفة عامة، والأدب بصفة خاصة في مختلف جهات وأقاليم المغرب، بهدف إبراز مساهمة كل جهة أو إقليم من المملكة المغربية في إثراء هذه الثقافة، وإغناء ذلك الأدب، انسجاماً مع تصوره المنهجي المتبني للمنهج الإقليمي في دراسة الفكر والأدب: «ثم إنني أرى في بحث أدبنا - وفكرنا عامة- ضرورة انطلاقه من الدراسة الإقليمية، كمرحلة أولى لجمع شتات ما أنتجه العرب في مختلف الأقطار، متصلاً بذلك الأدب والفكر وما خلفه من تراث»⁽¹⁾ وهو المنهج الذي دعا إليه كذلك، ودافع عنه بشراسة الدكتور شكري

= لنفسي بدعوة أستاذنا الجليل إلى إعادة نشر هذه الأطروحة، ولاسيما على ضوء ما ظهر من نصوص ملحونية تحت إشرافه، وعلى ما جد من بحث نظري ومنهجي في هذا المجال.

(1) منهجي في البحث واتجاهي الثقافي. رحيق العمر، ج: 1، ص: 163.

فيصل في المشرق العربي، تأثراً ببعض الدارسين الغربيين المنظرين له سواء في بريطانيا أو فرنسا.

ولعل هذا الاختيار المنهجي سيجد صдаه بوضوح في الرسائل والأطاريح الجامعية التي أشرف عليها الأستاذ الجراي طيلة مسيرته الجامعية الحافلة، وهو ما سنقف عليه عند تناولنا لمحور الإشراف والتأطير العلميين في مشروع الأستاذ العلمي.

هـ- اهتمامه الدائم بالمسألة المنهجية سواء في الدرس الجامعي، أو في البحث العلمي الأكاديمي، لإدراكه المبكر بأن لا علم بدون منهج، ولا تطور في مجال البحث دون قواعد وآليات علمية موجهة تنير للباحث القضايا التي ينبغي عليه مقاربتها، وطبيعة الإشكالات التي عليه إثارتها، والاهتمام بها، والسعي لإيجاد حلول لها، والأسئلة التي لا بد من إيجاد أجوبة لها بأسلوب علمي يستحضر المنجز النظري والمنهجي العربي والإنساني.

ولعل هذا هو ما جعله، وفي سياق جدل علمي محتدم حول المناهج والنظريات داخل الجامعة وخارجها، وأيها أصلح للدرس الأدبي، وأنفع في التحليل والنقد، يصدر كتابه المعروف: «خطاب المنهج»⁽¹⁾ والذي صدرت منه طبعتان لحد الآن، ليبدلي بدلوه في هذا الموضوع بالغ الأهمية في السياق العلمي الأكاديمي، وفي كل جامعات العالم، وداخل كل التخصصات. ولاشك أن المطلع على أعمال الأستاذ الجراي سيجد، لا محالة، تطبيقاً لتصوراته المنهجية في كل أعماله ممارسة بدقة وانسجام واجتهاد، كما أنه سيجد صدًى لهذه التصورات في الغالبية العظمى من الأعمال التي أشرف عليها وأطرها، أو كان له فيها رأي واستشارة، وهي أكثر من أن تعد.

وهو منهج، أخيراً، بقدر ما يتسم بالدقة والصرامة العلميين، بقدر ما ينطوي على الكثير من عناصر المرونة المنهجية التي تبعده عن ذلك التصلب المفهومي

(1) خطاب المنهج - «الرحيق»، ج: 1، ص: 152.

والأرثوذكسية النظرية التي يتحول معها المنهج، أو النظرية، من أدوات وآليات للفهم والتفسير والتأويل، إلى جهاز مفهومي مقدس يتجاوز في أهميته الموضوع المدروس في كثير من الأحيان.

ولقد استطاع الأستاذ الجراري، انطلاقاً من تصوره المنهجي في دراسة الثقافة المغربية بكل مكوناتها، وليس الأدب المغربي فحسب، أن يصدر جملة من المؤلفات القيمة التي أدت - وما تزال - دوراً بالغاً في التعريف بهذه الثقافة، داخل المغرب وخارجه، ونشرها بين الطلبة والدارسين، وبث الوعي بأهمية ما تنطوي عليه من قيم فكرية وفنية وجمالية لا تقل عما أنتجه أدباء العربية في المشرق العربي؛ بل إن هذه المؤلفات، بشقيها النظري والتطبيقي، ساهمت بشكل كبير في توجه عدد كبير من الطلبة لدراسة الأدب المغربي، والتخصص به، والمساهمة في إثراء خزانته العلمية، إن بالدرس والنقد، وإن بتحقيق أمهات التراث المغربي المخطوط شعراً ونثراً، قديماً وحديثاً.

و- اعتداد الأستاذ الجراري القوي بنفسه، واعتزازه بما أنجزه من أعمال علمية، وساهم به من نشاط فكري وأكاديمي، وثقافي عام، وتربوي وديني وتأطيري، لا تخفى آثاره على المتتبع والمراقب للحقل الأكاديمي والثقافي والديني المغربي. فضلاً عن أدوار أخرى ساهم بها الأستاذ، بكل إخلاص وتفان، خدمة للوطن، ولشوابته العليا.

إن مساراً حافلاً مثل مسار الأستاذ هذا، لجدير بأن يوثق، ويُعرف به، بما هو مشروع للحياة وللعلم وللوطنية، يشكل نشره وتداوله بين الناس امتداداً للدور التربوي والتنويري الذي نهض به لعقود، كما أنه يمثل وثيقة تاريخية أساسية في سبيل فهم الكثير من القضايا والسياقات المرتبطة بشخصه الكريم، أو بما عرفته الساحة الجامعية والثقافية والتعليمية والدينية والوطنية في المغرب، باعتباره كان فاعلاً أساسياً فيها، بطرق مباشرة، وغير مباشرة.

فضلاً عن ذلك، فإن تعريف الجمهور العريض بهذه المسيرة الحياتية والعلمية الناجحة، وإطلاعه على الكثير من جوانبها وخفاياها، ومشاركته للكثير من أحداثها

الخاصة الحميمية بكرم وعقلانية وأخلاق، مما يسمح له بالاقتراب في حدود المعقول، من حياة الأستاذ العامة والخاصة، دون أي حرج، وفي احترام تام للخصوصية التي يسعى كل واحد لحمايتها وتحسينها بشتى السبل.

وإذا كان القاريء عادة ما يطمع ويطمح في الحصول على أكبر قدر ممكن من المعطيات حول حياة رجالات وأعلام وطنه، للاستفادة من تجاربهم، واستخلاص العبر من مساراتهم، واستلهام الدروس من إنتاجهم الفكري، وسلوكهم الاجتماعي والسياسي... إلخ، فإن أصحاب السير كثيراً ما يتحفظون، وهم يخوضون في جوانب من حياتهم الخاصة، إما بوازع ديني وأخلاقي، أو بدوافع إكراهات أخرى تكبح جماح البوح لديهم وتجعله مؤطراً، هادئاً، سلساً، لا إثارة فيه ولا استفزاز.

وتحضرني، في هذا السياق، قولة المرحوم الأستاذ أحمد أمين في سيرته الذاتية (حياتي)، مبرراً عدم خوضه في بعض تفاصيل حياته الحميمية الخاصة، على طريقة بعض كتاب السير الذاتية من الغربيين، أو من سار على نهجهم من الكتاب العرب:

«.... فإذا كنا لا نستسيغ عري كل الجسم، فكيف نستسيغ عري كل النفس»⁽¹⁾.

وهي عبارة تختزل ثقافة أجيال بكاملها، وبمختلف تركيباتها ومكوناتها، شكلت الأساس والمنطلق لفكر رواد نهضتنا الكبار مشرقاً ومغرباً.

ولعل أستاذنا لم يكن بمنأى عن هذه الأجيال المثقفة العاملة والعاملة، وعن قيمها الأساسية التي كانت حصناً منيعاً في وجه حملات التخريب والتغريب الهوياتي التي استهدفت بها قوى الاستعمار مجتمعاتنا العربية والإسلامية، وثقافتنا المشتركة، وقيمنا العليا الموحدة.

ولعل هذا، وغيره، هو ما دفع الأستاذ عباس الجراري لكتابة سيرته الذاتية (رحيق العمر)، ساعياً من ورائها إلى تقديم صورة ليس عن نفسه وسياقه العائلي

⁽¹⁾ لقد علقت هذه العبارة بذاكرتي، ولم تبارحها قط، لارتباطها بسياق تعليمي خاص يوم كنت تلميذاً بالثانوي، وكانت سيرة أحمد أمين (حياتي) من المؤلفات المقررة وقتئذ.

وحسب، ولكن عن مجتمع بأكمله، عاش ما عاش، وعانى ما عانى، وناضل وكافح من أجل الحرية والكرامة، والعدالة والمساواة، والديمقراطية، رغم كل الصعاب والمعوقات والإكراهات.

ز- حس إنساني رفيع ينتظم كل إنتاج الأستاذ الجراري، ويسري في تضاعيفه، الأمر الذي يمنحه، فضلاً عن بعده العلمي الأكاديمي الرصين، بعداً عابراً للأوطان واللغات، والديانات والأعراق، والثقافات والحضارات، لما يختزن من قيم إنسانية كونية، تمجد المشترك، وتعلي من المفاهيم العليا الموحدة، وتتقاوم كل فكر فنوي تجزيئي، أو نزوع إقصائي، ولعل هذا كله، يتجسد في مشروع الأستاذ الجراري، بأشكال وتمظهرات مختلفة.

2- محور الإشراف والتأطير⁽⁴⁾:

لعل الإشراف على الأعمال العلمية للطلبة، ولمجموعات البحث داخل الجامعة، أو على مشاريع أكاديمية أخرى ضمن مؤسسات وهيئات علمية رسمية وطنية، أو علمية وأكاديمية إقليمية أو دولية، يمثل مجالاً آخر من مجالات تجسيد مشروع الأستاذ، ونشره، وضمان الإشعاع له، بكل ما ينطوي عليه من مفاهيم وتصورات، واختبار آثاره وفعاليته في الكشف عن المساهمة المغربية في الثقافة العربية الإسلامية والإنسانية، والتعريف بها، وتثمينها، وإبراز الوجه الإنساني والحضاري لهذه الثقافة على امتداد تاريخها.

وفي سبيل إبراز الدور الذي لعبه الإشراف العلمي للأستاذ في خدمة الثقافة المغربية بشكل خاص، سأحاول الوقوف على جملة من المحددات التي حكمت هذا الإشراف، ووجهت اختياراته، ومجالاته، ولو باقتضاب شديد لضيق الحيز، وشساعة الموضوع، وامتداده، لوضع اليد على جملة من القضايا الأساسية التي أصبح الباحثون في المغربيات اليوم على بينة منها بفضل ذلك الإشراف، في سياق مساهمة الأستاذ الجراري في البناء العلمي والأكاديمي داخل

⁽⁴⁾ أنظر الفصل الخاص المعنون بـ: إشرافي على البحوث الجامعية، الرحيق، ص: 185.

الجامعة المغربية، تاركاً الحديث عن مساهماته القوية والمتعددة خارج المغرب
لفرصة لاحقة إن شاء الله.

لعل نظرة على طبيعة الموضوعات التي أشرف عليها الأستاذ الجباري، وعلى
أصول أصحابها، وعلى المناهج المتبناة فيها، والجامعات التي تتوزع عليها جغرافياً،
تعطينا فكرة واضحة أولاً على رؤية الرجل للجامعة ووظيفتها الاجتماعية والثقافية،
في علاقتها بمحيطها الإنساني والجغرافي والحضاري، ولدور البحث العلمي في
خدمة التاريخ والإنسان والمجال، والاقتصاد والثقافة، وكل ما يسهم في تنمية كل
جهات البلاد، والتعريف بما تتوفر عليه من مقومات ذاتية تساعد على النهوض
بها، وتضمن تلك المقومات بشقيها المادي واللامادي، بما يسمح لصاحب القرار
السياسي والاقتصادي النبيه إلى الالتفات إلى المجالات التي يمكن الارتكاز عليها
في مشاريع تنمية جهته، أو إقليمه، أو بلده، الأمر الذي يجعل الجامعة، والبحث
العلمي داخلها، من الآليات الأساسية للنهوض بجهة ما، والدفع بالتنمية فيها،
ونشر قيم العلم والمعرفة بين أبنائها، والارتقاء بعقولهم وفكرهم، ومساعدتهم على
الانفتاح على مختلف العلوم والتجارب والممارسات، وإخراجهم من عزلتهم،
وانتشارهم من ردهات الاقصاء والتهميش، وجعلهم، باعتبارهم ثروة بشرية،
دعامات وروافد لا غنى عنها في بناء جهتهم، والوطن ككل.

إن هذه النظرة الإستراتيجية الواسعة للجامعة، ووظائفها وأدوارها في مجتمع
يسعى إلى النهوض والتطور، والتقدم والريادة إقليمياً ودولياً، عبر استثمار موارده
البشرية، وطاقاتها الخلاقة في كل مناحي الفكر والمعرفة، هي التي كانت دائماً
وراء ما نهض به الأستاذ من أعمال ومشاريع بحث، أو ما أشرف عليه من رسائل
وأطاريح فتحت آفاقاً كبيرة للبحث في الآداب والعلوم الإنسانية، وكشفت عن
جوانب معتمدة من ذاكرتنا الثقافية المشتركة، وخلقت العديد من جسور التواصل
بين مكونات هذه الثقافة، مما لم يكن ينظر إليه إلا متفرقاً مشتتاً، ولا يجمع بينه
جامع.

وهذه خطاطة أولية لمشروع الأستاذ الجباري في الإشراف والتأطير تسهل على

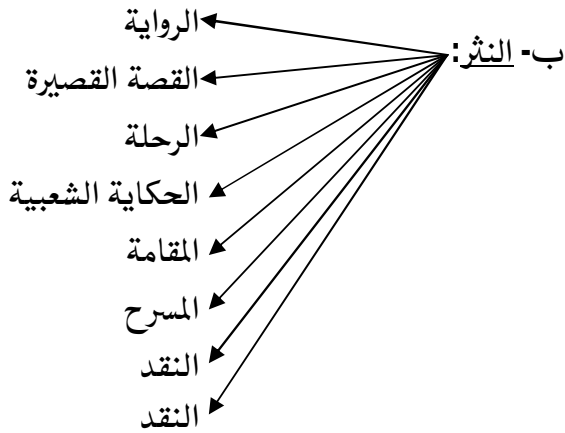
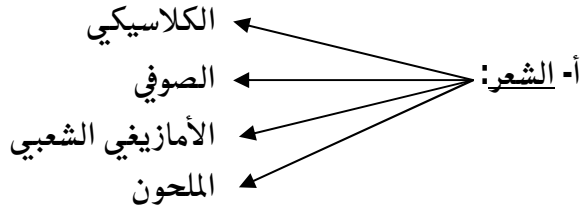
من لم تتح له فرصة الاطلاع على مختلف جوانب هذا المشروع الضخم عمودياً، والممتد أفقياً، فهم مكوناته وأبعاده المختلفة ولو بشكل نسبي، لأن الإمام بكل تفاصيله يتطلب عملاً أوسع وأشمل.

الأطروحات والرسائل التي أشرف عليها الأستاذ الجراري:

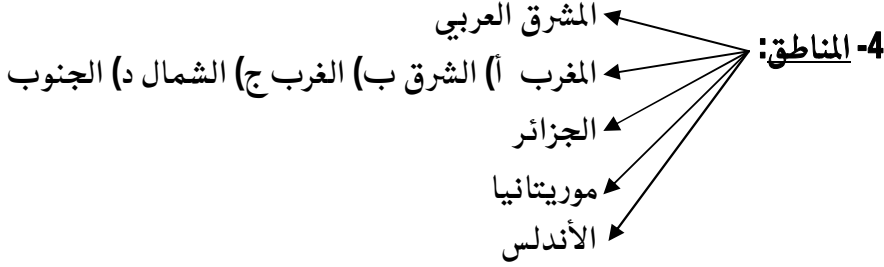
1- الجامعات:

- أ- الرباط: (جامعة محمد الخامس)
- ب- فاس: (جامعة سيدي محمد بن عبد الله)
- ج- مكناس: (جامعة سيدي محمد بن عبد الله ثم المولى إسماعيل لاحقاً)
- د- الدار البيضاء: (جامعة الحسن الثاني)
- هـ- أكادير: (جامعة ابن زهر).

2- الموضوعات:



3- العصور: مختلف العصور السياسية والأدبية.



5- المناهج: أ) تحقيق النصوص ب) منهج 'ساريحي ج' 'وصفي 'سحبيي د'

تحليل الخطاب، الفني... إلخ

إن تأمل هذه الخطاطة غير المكتملة - لمحاوّر الإشراف والتأطير اللذين نهض بهما الأستاذ الجراري طيلة حياته العلمية الأكاديمية المديدة، - أمد الله في عمره - ستفضي به لا محالة إلى الخلاصات التالية، أو بعض منها، أو أكثر منها:

1- إن حديث الأستاذ الجراري، في سياقات ومناسبات مختلفة، عن مشروعه الفكري، واختياره المنهجي لم يكن حديثاً نظرياً مجرداً، بل كان على الدوام، دليلاً توجيهياً، وآلية عملية لتطبيق هذا المشروع، وممارسة ذلك المنهج، وإنزالهما على أرض الواقع عبر ممارسة تطبيقية ذكية لم تترك مجالاً، أو ظاهرة، أو موضوعاً، أو قضية، أو إشكالاً فكرياً أو أدبياً أو دينياً إلا وخاضت فيه، وساهمت فيه بحظ وافر؛ الأمر الذي جعل هذا المشروع متعدد الأقطاب، وذلك المنهج، يتكيف مع طبيعة كل موضوع أو قضية أو إشكال، للمرونة البنيوية التي يتحلّى بها، وسعة الأفق التي تطبع تصورات ومفاهيمه، وطبيعته المنفتحة على مختلف مناهج البحث الأخرى المعاصرة له.

2- إن مشروع الأستاذ الجراري العلمي وجد سبيله إلى التطبيق عبر قناتين:

أ)- القناة الأولى: وتتجلى في إنتاجه العلمي الشخصي الغزير والمتنوع المجالات والآفاق.

ب)- القناة الثانية: وهي التي تهمنا هنا، عبر الطلبة الذين أشرف على

أطاريحهم ورسائلهم الجامعية، والذين اشتغلوا بموضوعات، وقضايا وإشكالات، تشكل امتداداً موضوعياً لاهتمامات الأستاذ الجراي الفكرية، وانشغالاته الأدبية، وتوجهاته المنهجية. الأمر الذي جعل هذا المشروع ينمو ويكبر، وتكثر فروع وأغصانه، وتتعدد وتنوع أزهاره، ليشمر هذه الرحيق الذي سيتمتع به كل واحد منا، بطريقة وأسلوبه.

ولعل أستاذنا، من الأساتذة القلائل الذين عملوا على صناعة الخلف وتكوينه، ليتحمل نصيبه من مسؤولية البحث العلمي، وينهض بدوره في تطوير الدرس الجامعي، ويساهم في الدفع بنهضة التربية والتكوين ببلادنا إلى آفاق أوسع وأرحب، عبر سن أنظمة تربوية وتعليمية أكثر جدة وتطوراً وديمقراطية وعدلاً، وانفتاحاً على المنجز، المعرفي والتربوي والتعليمي الكوني الناجح، وعبر سن أنظمة قانونية وإدارية تساعد على إنجاح هذا الورش الوطني الحيوي والحاسم في رسم مستقبل المغرب في المدى المتوسط والبعيد.

وسأقصر حديثي في هذه القراءة الأولية على جانب مما أشرف عليه أستاذنا الجليل من أطاريح ورسائل جامعية، في مختلف جامعات المغرب، والذي أسهم، بشكل كبير، في الكشف عن جانب غير يسير من تراثنا الفكري والإبداعي المهمل أو المجهول، والذي يشكل علامات مضيئة في تاريخ التطور الأدبي والثقافي للمغرب، وللأدب والثقافة العربيتين كذلك، وأقصد بذلك ما حققه طائفة من الطلبة الباحثين المتميزين من نصوص أدبية متميزة، ذات قيمة فكرية وفنية وجمالية هامة بالنظر لسياقها التاريخي والاجتماعي والثقافي الذي أنتجت فيه، ومن حقنا أن نتساءل:

- كيف كانت ستكون نظرتنا إلى ديوان الشعر المغربي، وإلى الخط البياني لتطور هذا الشعر تاريخياً، إن على مستوى الشكل وإن على مستوى المضمون في غياب هذه المتون الإبداعية الأساسية:

- ما هي أهم الاتجاهات التي عرفها هذا الشعر؟
- ما هي أهم التحولات التي خضع لها القول الشعري في المغرب في مختلف عصوره؟
- ما هي القضايا المهيمنة على هذا المتن الضخم من الشعر، وما هي الخلفيات

النظرية أو الإكراهات السياسية والاجتماعية والثقافية الموجهة له ؟

- ما مدى تفاعله مع المتن الشعري المشرقي ونظيره الأندلسي ؟ أين وكيف ؟

- أين تبرز الخصوصية الإبداعية الشعرية المغربية، وكيف تم التعبير عنها ؟

- كيف حققت تلك الدواوين الشعرية، وما هي القيمة المنهجية المضافة فيها ؟

وأخيراً، سأسمح لنفسي بطرح السؤال الذي يثير القلق على مآلات درس الأدب المغربي بخاصة، والثقافة المغربية بعامة، في الجامعة المغربية اليوم، وهو الدرس الذي كلف جيل المؤسسين ما كلف، وفي طليعتهم الأستاذ الجليل عباس الجارري من أجل أن يحتل هذا الدرس المكانة اللائقة به بين ما كان يدرس من آداب في شعبة اللغة العربية وآدابها وقتئذ، وهو كالتالي:

ما الذي يُدرس من الأدب المغربي في كلياتنا اليوم ؟ وكيف يدرس ؟ وما هي

نتائجه ؟

وما الذي يعرفه طلبتنا اليوم من تاريخ الشعر المغربي، وشعرائه ؟ إلى غير ذلك من الأسئلة الحارقة التي أجاب عنها أستاذنا ضمن مشروعه، بإنتاج ما انتج من أعمال علمية تشهد على ما كان يشغل جيله، والأجيال اللاحقة عليه، من قضايا وإشكالات تمس مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية والوطنية للمغرب، كما حاول الإجابة عنها عبر توجيه الطلبة الباحثين للإشتغال بقضايا وموضوعات وإشكالات تعمق البحث في ما هو معروف، وتكشف عن المغيب المجهول، وتعيد النظر في المتداول المدروس، من أجل خلق دينامية جديدة في درس الأدب المغربي، وإثارة انتباه الأجيال الجديدة من الطلبة إلى ما يزر به أدهم من كنوز، يعتبر اهتمامهم بها، والعناية بمختلف مجالاتها، فرض عين لا فرض كفاية.

إلا أن هذه الدينامية التي انطلقت وتسارعت وتيرتها، واتسعت قاعدة المنخرطين فيها من أساتذتنا المؤسسين ومن سار على دربهم، تبدو اليوم في انحسار، ولم نعد نجد من يدعمها ويغذيها، ويمنحها الزخم العلمي الضروري لكل تطور منشود. ولعل هذا الأمر - ولأسباب كثيرة ليس ها هنا مجال الخوض فيها - لا يقتصر فقط على درس الأدب المغربي، بل ينسحب على مجمل الدرس الأدبي، وغير

الأدبي، في الجامعة المغربية، إلا ما شملته العناية الربانية، وقبضت له رجالاً، هم اليوم كالقابضين على الجمر، يعملون بكل السبل المتاحة للحفاظ على استمرارية درس ذي أبعاد تاريخية ووطنية وهوياتية، لا تخفى على أحد، في الوقت الذي يتقلص هذا الدرس، وتقل حصصه، بل، ويقل المهتمون به من الطلبة والباحثين حتى ليخشى عليه من التهميش والتغيب.

إن توجيه أستاذنا لنخبة من طلبته للنهوض بأعباء تحقيق نصوص الثقافة المغربية، قديمها وحديثها، شعبيها وعالمها، لم يكن عملاً عبثياً، وإنما هو عمل كان المراد منه الكشف عن المادة الأدبية المغربية غير المعروفة للجمهور المغربي والعربي العريض، ومن تم الانتقال لدراستها بشتى المناهج والمقاربات، من أجل إدماجها في نسقها الثقافي العام، ووضعها، بالتالي، في السياق المناسب لها من تاريخنا الأدبي والثقافي العام.

إذا كان بإمكان الباحثين في الأدب المغربي اليوم الولوج إلى ما تتوفر عليه الخزنة الأدبية المغربية من مصادر ونصوص، ذات قيمة أساسية، بيسر وسهولة، وإنجاز دراساتهم وأبحاثهم وهم مطمئنون للتراكم النصي الموضوع رهن إشارتهم من هذا الأدب، بفضل الجهود العلمية الجبارة والمضنية التي بذلتها أجيال من الباحثين تحت إشراف الأستاذ عباس الجراري وأساتذة آخرين لاحقاً، في سبيل تحقيق ونشر ذخائر أدبية وثقافية مغربية ما كان للدرس التاريخي النقدي لأدبنا المغربي ليتحقق بدونها، فإن الأمر لم يكن كذلك قبل بضعة عقود، حيث كان مجرد الحصول على مصورة لنص مخطوط، في خزنة عامة أو خاصة يعتبر نجاحاً في حد ذاته....، والذين عاشوا هذه التجارب من الزملاء الباحثين، يعرفون جيداً ما أشير إليه، وأذكر به، إذ لكل واحد منهم في هذا الباب قصة أو حكاية تروى....

وأحب أن أعود، وباعتزاز كبير، لأذكر ببعض الأعمال ذات القيمة الأدبية والفكرية والتاريخية العالية، التي أشرف عليها أستاذنا الجليل في وقت مبكر من تاريخ الجامعة المغربية، وهي الأعمال التي أسهم تحقيقها ونشرها في رفع الحيف عن جوانب مهمة من تاريخنا الأدبي المغربي، والإجابة عن الكثير من الأسئلة التي

- طالما ظلت الإجابة عنها عالقة، أو مؤجلة، لغياب المادة العلمية التي تساعد الباحثين على المضي قدماً في الإجابة عن أسئلتهم وفرضياتهم المختلفة والمتعددة:
- (1)- شعر أبي عبد الله محمد بن الطيب العلمي: جمع وتحقيق ودراسة عبد الرحيم الراجي.
 - (2)- تحقيق ديوان: «الروض الفائح بأزهار النسيب والمدائح»، للحاج ادريس بن علي السنانى، من إنجاز لطيفة محروش.
 - (3)- تحقيق ديوان: علي مصباح محمّدي الحسني.
 - (4)- تحقيق ديوان: الوزير بن ادريس العمرابي (ذ. التهامي شهيد).
 - (5)- تحقيق كتاب: «البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية» للحوات عبد الرحمان كظيمي.
 - (6)- تحقيق كتاب: «الدر المنظم» للعزفي، ذ. فاطمة اليزيدي.
 - (7)- كتاب: «المجالس الأدبية لعبد الله الجراري» دراسة وتحقيق، عائشة نواير.
 - (8)- تحقيق كتاب: «الوسيط» ذ. محمد بن محمد عبد الله ماء العينين.
 - (9)- شعر داود الرسموكي جمع وتحقيق ودراسة، ذ. اليزيد الراضي.
 - (10)- شعر مصطفى مربيه ربه: جمع وتحقيق ودراسة، ذ. ماء العينين النعمة.
 - (11)- تحقيق ديوان: «الأبحر المعينية» ج: 1، ذ. أحمد مفدي.
 - (12)- رسائل أبي علي الحسن اليوسي: جمع وتحقيق ودراسة، ذ. فاطمة خليل.
 - (13)- ديوان: «النوافح الغالية في المدائح السليمانية» لحمدون بن الحاج، ذ. أحمد العراقي.
 - (14)- تحقيق الجزء الأول من ديوان «تبسم ثغور الأشعار بتنسم عبير الأفكار» لأبي العباس أحمد بن المامون البلغيثي مع دراسة لشعره من خلال الديوان. ذ. محمد علامي يزمي.
 - (15)- شعر محمد المكي البطاوري (جمع وتحقيق ودراسة)، نوال الرجراجي.
 - (16)- ديوان عبد القادر القادري: تحقيق ودراسة، عتيقة الوافي.
 - (17)- نوادر النظام في شرف سيد الأنام، لمحمد بن قاسم بن داود السلوي،

تحقيق ودراسة، خديجة احسايني.

لا يخفى على الدارس المتخصص، وعلى المهتم أو المتتبع، ما لهذه الأعمال من قيمة علمية جديرة بالعناية والاهتمام، ولو أردنا أن نتحدث عن قيمة كل واحد منها، في سياقها، وفي علاقته بالأعمال الأخرى مما أشرف عليه أستاذنا، أو أشرف عليه أساتذة آخرون، لتجاوزنا ما هو مطلوب منا في هذه القراءة الأولية «للرحيق»، ولكن أحببنا أن نبين ما بذله الرجل من جهود مضيئة في سبيل أن ترى هذه النصوص النور، وتتداول من لدن الدارسين والباحثين، وتعبيد الطريق لما قد يكتب من تواريخ للأدب العربي في المغرب الأقصى ولو بعد حين.

لقد اقتصرنا، في هذه القراءة، على إبراز جانب واحد ووحيد مما ساهم به أستاذنا في الكشف عن نصوص التراث الأدبي، المغربي بعامة، والشعري منه بخاصة، وتركت باقي الأعمال العلمية الأخرى التي اختارت الدراسة لهذه النصوص، ولغيرها، لمناسبة أخرى، وهي أعمال ساهمت بقدر كبير في التعريف بالأدب المغربي، نصوصاً واعلاماً وزوايا وظواهر وقضايا....، مما عزز نظرة الباحثين إلى هذا الأدب، وقوت فهمهم له، وجعلته أقرب إلى المهتمين من غير المغاربة، وفي متناول أبحاثهم ودراساتهم، بعد زمن طويل من الجهل والنكران.

في الأخير، أود أن أختتم قراءتي المتواضعة هذه «للرحيق» بالقول: إن هذا القسم من السيرة الذاتية لأستاذنا استطاع أن يضع القاريء، والدارس والمؤرخ، ليس للأدب المغربي وحسب، بل ولمجتمع والثقافة والسياسة والدين، أمام مادة غنية ببوحها، ثرية بالمعطيات الشخصية لصاحبها، وقوية بإحالاتها المعلنة والمضمرة، والتي من شأنها أن توضح الكثير من مناطق الظل في حياة المؤلف، كما في حياة كل الذين عرفهم في مختلف الظروف والسياقات، وأن تتعزز لديه الثقة في ما كان يقوم به المؤلف من أعمال، وينهض به من التزامات، ويقدمه من مبادرات داخل الجامعة وخارجها.

فشكراً له على هذا الرحيق العذب.

* * *

د. أحمد زنيبر

- أستاذ التعليم العالي، المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، الرباط.
- باحث وشاعر.
- رئيس فريق البحث في « الخطاب البيداغوجي ورهاناته اللغوية والجمالية ».
- رئيس لجنة جائزة المغرب للكتاب (صنف الشعر)، 2019.
- عضو اتحاد كتاب المغرب.
- عضو لجنة التحكيم الخاصة بالجائزة الجهوية للقراءة - جهة الرباط - سلا.
- القنيطرة- 1918.
- عضو لجنة التحكيم في مسابقة **Al Ifrane Battle** المنظمة بكلية علوم التربية بالرباط، 2018.
- عضو مشارك في مختبر اللغة والمجتمع بكلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن طفيل، القنيطرة.
- عضو مشارك في فريق البحث في الزجل وفي بنية البحث العلمي، كلية اللغات والآداب والفنون، القنيطرة.
- عضو مشارك في مختبر « الثقافة والعلوم والآداب العربية » بكلية الآداب والعلوم الانسانية، عين الشق، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء.
- عضو هيئة التحرير في المجلة العلمية الفصلية المحكمة « منارات » جامعة عبد المالك السعدي، تطوان.
- عضو الهيئة العلمية في المجلة المحكمة « العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب »، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، الجزائر.
- أشرف الأستاذ أحمد زنيبر ويشرف على تأطير بحوث الطلبة الأساتذة في المسالك الثلاثة بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين (ابتدائي، إعدادي، ثانوي).

- المنشورات: أصدر الأستاذ زنيبر عدة دراسات منها:

1- الكتب:

- أطيف مائية (شعر)، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، 2007.
- حيرة الطيف (شعر)، دار العالمية للنشر، الدار البيضاء، 2013.
- المعارضة الشعرية، عتبات التناس في القصيدة المغربية (دراسة)، دار أبي رقرق، الرباط، 2008.
- قبعة الساحر: قراءات في القصة القصيرة بالمغرب، دار التوحيدي، الرباط، 2009.

- الانحياز إلى القصيدة: قراءات في القصة العربية المعاصرة، 2012.

2- ضمن كتاب جماعي:

- تقاطعات الحكمة والتصوف في شعر الطبال والرباوي، دار الوطن، 2015.
- نجاة المريني: الكتابة والحياة، دار أبي رقرق، الرباط، 2015.
- النقد الروائي العربي: أسئلة الكتابة والمنهج، منشورات المقهى الأدبي، وجدة، 2017.
- القصيدة المغربية بين التجديد والتجدد، ندوة، مكتبة سلمى الثقافية، تطوان، 2018.
- الفن المكمول، نحو مقاربة جديدة للشعر الملحون، منشورات النادي الجراي، رقم: 92. صدر في إطار الاحتفال بالذكرى التسعين لتأسيس النادي الجراي (1930-2020)، ط1، 2020.

* * *

سيرة الذات والكتابة في "رحيق العمر" لعباس الجراري

د. أحمد زنيبر

"وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ"

سورة الضحى. الآية 11

دأب النادي الجراري، منذ سنوات عدة، على نشر عدد من الكتب والأبحاث في مختلف المجالات العلمية والأدبية، تنظييراً وتحليلاً. وهو تراكم مهم ساهم في إثراء المكتبة المغربية والعربية، من جهة، كما ساهم في تجديد الصلة الثقافية مع القراء والباحثين في شؤون الفكر والفن والأدب، من جهة ثانية. وإذ يخلد النادي، هذه السنة، الذكرى التسعين لتأسيسه (1930-2020) لا يكون قد حقق حضوره المطرد فحسب؛ بل أكد أيضاً، كفايته الثقافية في تدبير شؤونه وتحقيق أهدافه.

في هذا السياق الاحتفالي بالنادي الجراري، صدرت مجموعة من الأعمال، عبارة عن دراسات وأطاريح ودواوين وندوات، من بينها كتاب "رحيق العمر. موجز سيرتي الذاتية. ج1 النشأة والمشروع"¹ لعباس الجراري، أحد القائمين على هذا الصرح الثقافي والمحافظة على استمراره وانتظامه. فماذا عن هذا الكتاب / السيرة؟ وما الجوانب التي أثر الكاتب الكشف عنها وتقاسمها مع القارئ المفترض؟ ثم ماذا عن القيمة المضافة في مثل هذا المنجز السيري؟

¹ - عباس الجراري. رحيق العمر موجز سيرتي الذاتية. ج1 النشأة والمشروع، منشورات النادي الجراري رقم،

تأطير

تعددت التعاريف التي أفردت للسيرة الذاتية، باعتبارها شكلا تعبيريا، واختلفت مضامينها وأشكال كتابتها، من كاتب لآخر، باختلاف التمثلات والمنطلقات. الأمر الذي يتحول إلى إشكال معرفي ومنهجي، من خلال استحضار جملة أسئلة، من قبيل: ما الغاية من كتابة سيرة ذاتية؟ ما السر في عرض حياة الفرد على عموم القراء؟ وهل ثمة ما يغري، في هذا المنزع السردى أم هو مجرد نزوة عابرة؟ بل، كيف يستعيد الكاتب حياته / محكيه، في ظل الثقوب التي تنخر الذاكرة؟ ثم ماذا عن معيارى الصدق والتخييل في كل ذلك؟ وهي أسئلة تعنى الكاتب والمتلقى معا. فالسيرة اختيار، قبل كل شيء، واستحضار لجملة شروط، منها الوعي بالسرد واستدعاء الضمير واسترجاع الذاكرة وانتقاء الموضوعات.

إنها، بلا شك، كتابة / سيرة تنطلق من رؤية فنية ومنهجية. تعلن عن نفسها، وتورط كاتبها في التعبير عن الذات والتعريف بها وكشف دواخلها، إن تصرّحا أو تلمّحا. ولنا في التاريخ الأدبي الحديث، نماذج من هذه الكتابات / السّير، التي تنم عن طبيعة الاستجابة إلى نداء الداخل. لعل طه حسين في "الأيام" وأحمد أمين في "حياتي" وعباس محمود العقاد في "أنا" من المشرق مثلا، أو عبد المجيد بنجلون في "الطفولة" وعبد الكبير الخطيبي في "الذاكرة الموشومة" ومحمد شكري في "الخبز الحافي"، وغير هؤلاء من المغرب، يقدمون صورة تقرّيبية عن هذا النمط من الكتابة الأدبية، ذات الفرادة والخصوصية. كتابة لا تقف عند حدود الترجمة والتعريف؛ بل تتخطاها لربط جسور التواصل بينها وبين الآخر، الشبيه والمختلف، في ذات الآن.

ولأنّ لا أحد يجبر أحدا على البوح والاعتراف؛ فإن الكاتب نفسه هو من يبادر بتقديم ما يراه جديرا بالمشاركة والتقاسم مع القارئ المفترض. ومن ثمة، لا نعدم أن نجد في الكتابات السردية، رواية وسيرة، بعض الشهادات الدالة على إثارة بعض أو جل الجوانب الخفية من الذاكرة، بوصفها مناطق قابلة للكشف والاكتشاف. وتشكل الطفولة، في الغالب، أولى المحطات الاستيعادية، التي ينطلق منها كاتب السيرة، قبل أن يتابع تفصيل الحديث عن مساراته الأخرى. وهي

المسارات المرتبطة بالتكوين والوظيفة والعلاقات وردود الأفعال تارة، وبالمواقف والوقائع والأحداث المؤثرة، تارة أخرى.

عن الدافع والاختيار

يندرج الجزء الأول من سيرة الدكتور عباس الجراري "رحيق العمر"، لينضاف إلى سلسلة السير المغربية، في بعدها البيوغرافي العام. ولعل أول ما يسترعي انتباهنا، ذلكم العنوان اللافت الذي اصطفاه لعمله. فثمة لفظ "الرحيق"، بما هو عطر وطيب ورائحة زكية، وثمة لفظ "العمر" بما هو عبور في الزمان وحضور في المكان. والجامع بين اللفظين، انخراط في مسار تجربة إنسانية، تمتد رحلتها من زمن النشأة إلى زمن النضج الفكري والثقافي. كما أن العنوان الفرعي المصاحب (موجز سيرتي الذاتية) للعنوان الرئيس (رحيق العمر)، يحيل رأساً إلى جنس العمل وهو السيرة الذاتية، ويوجه القارئ المطع، بصورة أو بأخرى، إلى المضمون المرتقب حيث الإيجاز في العرض والاقتصار على الأساسي من السيرة.

نحن، إذًا، أمام تجربة حية، واقعية غير متخيلة، اغترف صاحبها من ينابيع صافية أهلته للحظوة والقُدوة، وهيئاته لاحتلال مكانة رفيعة في المشهد الثقافي والأدبي. يقول الكاتب في مقدمة هذا العمل: "هذا وأود أن أشير إلى أن قصدي من تسجيل هذه السيرة أن تكون خالصة صادقة، وصافية من كل تزيف أو تحريف أو مبالغة. وهو ما اجتهدت أن التزمه ولا أحيد عنه. ولو شعرت بأدنى ميل عن هذا الالتزام لأسرعت إلى تمزيق ما كتبت باعتباره سيكون غير ذي أهمية بالنسبة للأجيال الجديدة المتطلعة على مزيد من التواصل فيما بينها ومع من سبقها، وإلى مزيد من معرفة تلك الحقائق وتأمل واقعها، في بعدها الممتد أزيد من ستة عقود، منذ انتهاء عهد الحجر والحماية وبزوغ فجر الاستقلال والحرية." (ص 17)

يلاحظ، مما سبق، أن دوافع التأليف، في بعده السيري، مبرر ومقصود. فالكاتب واع بما للكتابة من دور فعال، في إحداث التواصل بين الأجيال، ومدرک للغاية المنبثقة عن هذا الفعل الكتابي. فالقارئ متنبه، لا محالة، إلى ما أولاه الجراري لهذه السيرة الموجزة من أهمية، من خلال انتصاره الصريح لقيم الصدق

والأمانة في نقل الأخبار وعرض الأحداث. فالرغبة في كتابة ترجمة شخصية، بحسب رأيه، لا تستهدف البثّة الاستعلاء والمبالغة، في عرض ما يتصل بمسار الذات الكاتبة، بقدر ما يتوخى من ورائها أن "تكون موسعة بعض الشيء ومستوفية كذلك بموضوعية وإنصاف لتلك الفراغات والثغرات، وإن بإيجاز". (ص8)

استناداً إلى ما ورد في مقدمة عباس الجراري، لموجز سيرته الذاتية (رحيق العمر)، يتضح أنها سيرة ذات وجهين. أحدهما ذاتي والثاني موضوعاتي. لذلك انتظمت وفق تسلسل زمني، تخللته موضوعات رئيسة شكلت بناءها السردى العام.

عن الانتماء والمدينة

تخللت سيرة الجراري، مباحث تفصيلية ترصد مختلف المحطات التي طبعت ذاكرة الكاتب. وقد كانت أولى هذه المحطات تلك الإشارة المركزة إلى نسب الأسرة الجرارية، حيث اكتفى بعرض أهم الخلاصات التي انتهت إليها بعض الكتابات في الموضوع. يقول عباس الجراري: "وأبدأ هذه الخلاصة بأن "الجراري" نسبة إلى عرب بني جرّار (بفتح الجيم وتشديد الراء المفتوحة) وإن شاع في الاستعمال النطق به مكسور الجيم ومدّه وتخفيف فتحة الراء (الجيراري)، وقد أثبت معظم النسابين والمؤرخين هاشميتهم الجعفرية الزينية، وإن ورد في ترجمة بعض الجراريين المنتسبين إلى الفرع السكرادي أنهم أدارسة حسنيون، حسب النسب المتداول بين أفرادهِ". (ص24)

ثم يمضي الجراري في التعريف بأسرة "الجراريين"، ليصل إلى تمييز المؤرخين لثلاثة فروع منها، اشتهر أبناؤها، جميعهم، بالعلم والفضل والصلاح، مثلما برزوا في مجال السياسة والدفاع. يقول: "وقد جمعت في كتابي المخطوط "الجراريون في التاريخ" نحو مائتي علم من الذين برزوا في مختلف الميادين، لعل الله يبسر نشرهِ". (ص27) وتلك إشارة، أخرى، إلى أن الكاتب لا يزال على العهد في مواصلة الكتابة والتعريف بالأدب وأعلامه المبرزين. لذلك، لم يكن غريباً أن يفخر الجراري بانتمائه لهذا الأصل الطيب.

ولأن الذات الكاتبة لا تخرج عن سياقها الذي توجد فيه، فقد خص الجراري حيزاً مهماً لمدينة الرباط، باعتبارها مسقط الرأس أولاً، وباعتبار مكانتها الضاربة في أعماق التاريخ، بما حققته من حضور فعلي ضمن المدن المغربية الأخرى ثانياً. فهي المدينة التي تعاقب عليها عدد من الملوك والسلطين، منذ الأدارسة فالمرابطين والموحدين والسعديين إلى العصر العلوي الزاهر، حيث شهدت كثيراً من الأحداث والوقائع، التي حولتها من مجرد مدينة جغرافية عادية إلى مدينة حضارية ذات سيادة. وهو ما جعل الكاتب يشيد بدورها الطلائعي ويوطن الحديث على جوانب كثيرة، من بينها ما له علاقة بالسياسة والاقتصاد والسياحة والعمارة. هذا الدور الطلائعي لمدينة الرباط، لم تكن لتضطلع به لولا العنصر البشري المكون لها. يقول الكاتب: "ففي هذا العنصر انصهرت منذ التاريخ القديم فئات بربرية وعربية بعضها عريق في المنطقة، وبعضها وافد من أقاليم المغرب المختلفة، قبل أن يطعم بالرافد الأندلسي الذي طبع المدينة منذ الهجرة التي حدثت أوائل القرن الحادي عشر الهجري." (ص 40)

وتكفي الجراري، في هذا الصدد، بعض الإشارات الدالة، في سيرته الموجزة، إلى ثلثة من الأعلام الرباطيين وما كان لهم من حضور وتميز في مجالات الفكر والفن والأدب. وهي أسماء ساهمت، كل من موقعها، في إحداث نهضة ثقافية وحضارية مميزة، خلال الأربعينيات من القرن الماضي. ولعل مراجعة النصوص التاريخية وما سجلته من وقائع وأحداث تؤرخ للمرحلة، كفيل بترسيخ الصورة الإيجابية عن هذه المدينة، ملكاً وشعباً، وتأكيد الخطوة التي خصت بها، حين اختيرت، في عهد الملك محمد السادس، "مدينة للأنوار وحاضرة للثقافة والفنون." (ص 45)

عن الوالد وما ولد

ثم يصل كاتب السيرة إلى لحظة مفصلية، تمثلت في العناية الدقيقة بشخصية الوالد عبد الله بن عباس الجراري، باعتباره القدوة والمثال. وقد تم التركيز فيها على استحضار ما لهذه الشخصية من مؤهلات علمية ومهنية، مكنته من أن يكون ذا شأن في البلاد. ولم يفت الكاتب أن ينوه ببعض المبادرات

الشخصية للوالد، وأن يذكر ما كانت له "مع بعض العلماء الغيورين محاولات لتكوين هيئة للعلماء انطلاقاً من الرباط، يشار منها إلى تأسيسه (جمعية الصداقة والثقافة) في نوفمبر 1928. كما يشار إلى تأسيسه (جمعية ثقافية) بهدف نشر التعليم والثقافة بالرباط في مارس 1937." (ص 51). بالإضافة إلى مبادرات تعدت الجانب الشخصي إلى الجانب الرسمي، وأبانت عن روح وطنية عالية. كما أن ولع الوالد بالكتابة والتدوين، وما تركه من كتابات ومؤلفات، مطبوعة ومخطوطة، تنم عن موسوعية ظاهرة.

لقد عبر الجراري، في هذه السيرة الموجزة، عن شديد الإعجاب والانجذاب إلى الوالد، ليس فقط لكونه أبا مثالياً؛ وإنما لكونه مؤثراً في مساره وتكوينه. وقد حق له أن يفخر به، حاضراً وغائباً، انسجاماً مع أخلاقه وخصاله. هكذا كلما انبرى للحديث عن الوالد، في علاقته به وبيأخوته، إلا واستعاد من صفاته ومميزاته، ما يبرر ذلك. فحياة الوالد نظام وانضباط واحتياط وتوسط واعتدال، مع ميل إلى المشي والأسفار وشغف بالمطالعة. يقول الكاتب: "ولعلي أكثر إخوتي حظاً في هذا المجال، إذ قرأت كثيراً من الكتب التي كانت في معظمها مما توصف بـ (الصفراء)، ولا سيما في فترة الأزمة المشار إليها، حين كان رحمه الله معفى من أعماله التفتيشية وكنت أنا ملازم الدار بسبب المرض." (ص 77)

إن حب القراءة التي زرعها الوالد في الولد، داخل البيت، وعمل على دعمها وتنشيتها بسلسلة من تمارين الإنشاء والتعبير وحرص على مصاحبة المصادر والمراجع، كان من شأنه اكتساب مهارات في الكتابة والخطابة، وما رافقها من تأثير على المسار الدراسي. يقول: "ولست أشك في أن هذه الدراسة المنزلية المتينة هي التي شجعتني في سنة 1956 فور إعلان استقلال المغرب، على أن أغير اتجاه تعليمي من الفرنسية إلى العربية، وأنا يومئذ في قسم البكالوريا بالثانوية اليوسفية، وعلى أن أستسمح الوالد أن أرحل إلى القاهرة لإتمام دراستي العليا." (ص 79)

هكذا يمضي عباس الجراري في استدعاء الذاكرة وما علق بها من زمن الطفولة والشباب، بما تضمنته من إشارات وإماعات، وما رصدته من أخبار

وأحداث. والواقع أن المبحث الذي خصه الكاتب للحديث عن علاقته بالوالد، جاء مفعما بالود والمحبة، مثلما جاء محملا بمشاعر الفضل والاعتراف. وما الإشارة إلى التربية والسلوك والثقافة والحوار والمصادقة وغيره، إلا غيض من فيض ما للوالد من أفضال وخصال. فكثير من الأقوال التي نقلها عنه والنصائح التي سمعها منه، كانت خير معين له في مواصلة الحياة. يقول: "كان -رحمه الله- غالبا ما يذكر لي أن (الإنسان لا يصير قنديلا إلا بعد أن يكون منديلا)." (ص10)

عن التكوين والانفتاح

شكل المسار التعليمي لعباس الجراي، لحظة فارقة ومميزة. فقد توقفت السيرة عند أهم المراحل التي شكلت تحولاتها قيمة تاريخية. ذكر منها، على سبيل المثال لا الحصر، انتقاله المباشر من القسم الثالث إلى الخامس من التعليم الابتدائي (ص86) وتردده على الكُتاب ثلاث مرات في اليوم قبل التوجه إلى المدرسة والعودة منها، وما كان في ذلك من تعب وإرهاق (ص87) ثم تعرضه لمجلس تأديبي بسبب قراءة جريدة وطنية (العلم لسان حزب الاستقلال) أثناء الساعة الفارغة (ص90)، بالإضافة إلى ذكره لأسماء المعلمين والأساتذة وما لقي من بعضهم من تنويه وتشجيع (ص93)، لم يجد التلميذ إلا إصرارا على التعلم وطلب المزيد. وهو ما تبدى واضحا من خلال ما أنجزه من عروض ومقالات وكتابات في موضوعات مختلفة، ارتبط بعضها بالأنشطة المدرسية والثانوية وأخرى ببعض التأملات والانطباعات الشخصية. يقول: "كما أنني طوال هذه المرحلة وما قبلها كنت ألتقى على الوالد في البيت جملة وافرة من العلوم العربية والإسلامية وأتدرب على الكتابة وفق ما سبق أن ذكرت." (ص94). ولعل بيان ذلك، وشاهده من المكتوب، نظفر به في مجموع ما دونه الكاتب، خلال تلك المرحلة وما بعدها، وقد جمعت في كتاب بعنوان: (طفولة قلم)¹.

هكذا، مع توالي السنوات الدراسية، بمختلف مراحلها، يشتد عود التلميذ / الكاتب وتزداد نباهته ويكبر فرحه عندما أتيحت له فرصة الدراسة الجامعية

¹ - سي محمد أملح. عباس الجراي، طفولة قلم. جمع وإعداد وتقديم. منشورات النادي الجراي رقم : 102، الرباط 2020.

بالقاهرة. ومن ثمة، صار بالإمكان الحديث عن طالب مغربي أبان عن نباهة وتفوق كبيرين. وبات اسمه مقرونا بالتميّز والجديّة. وقد شكلت هذه الفترة القاهرية نقطة ضوء في مسار الكاتب استنار بعلمائها ومدرسيها وتأثر بأحداثها وتحولاتها وشارك في بعض وقائعها. يقول في توثيق لحدث تاريخي: "وما أن انطلقت الدراسة واقترب شهر أكتوبر من نهايته حتى حدث ما لم يكن بالحسبان، إذ تعرضت مصر لما سمي يومئذ ب(العدوان الثلاثي)... في هذا الوقت وبالضبط يوم الأربعاء 30 أكتوبر، خطب (الصاغ) كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم وقائد جيش التحرير وأعلن إيقاف الدراسة... لأجل غير محدود وأهاب بالتلاميذ والطلاب أن ينضموا لهذا الجيش وخوض المعركة. فما كان مني ومن بعض التلاميذ المغاربة إلا أن انخرطنا في فرقة من المتطوعين.. " (ص98)

ولم تتوقف رحلة الدراسة الجامعية بمصر فحسب؛ بل امتدت للدراسة بفرنسا أيضا. وقد كانت هذه المرحلة، بين مصر وباريس ثم مصر من جديد، تجسيدا حقيقيا لما انتاب الكاتب، خلال رحلته، من مشاعر الغربة والوحدة، لم يخفف من وطأتها إلا ما لقيه من حفاوة وترحيب.

يقول الكاتب: "وحدث ذات صباح أن استدعاني عميد الكلية إلى مكتبه ليخبرني أنني رتبت الأول على زملاء الامتياز، وأني أستحق ابتداء من العام مكافأة شهرية من رئاسة الجمهورية. ثم أخذ ينوه بي ويشجّعني على الاستمرار مما جعلني أشعر بسعادة وابتهاج، لا سيما وقد كان حاضرا في هذا اللقاء ثلة من أساتذتي الأعزاء." (ص102) ولعل في مثل هذه المواقف ما يشعر المرء بالارتياح والرغبة في الاستمرار. وهو ما حصل مع الكاتب حين ضاعف جهوده العلمية بزيارة المكتبات والتنقل بين المصادر والمراجع وتطوير العلاقة بينه وبين الأساتذة والباحثين.

إن تركيز الجراحي على هذا الجانب التكويني في مسار حياته، جدير بالاهتمام والتأمل، بالنظر إلى ما في ذلك من تنبيه إلى أن عالم البحث والكتابة لا يتأتى إلا بما توافر لدى الفرد من مؤهلات معرفية وكفايات تواصلية ومنهجية. بهذا المعنى، تصير المدرسة والجامعة، إلى جانب البيت والكتاب، أمكنة ضرورية

تمكن هذا الفرد أو ذاك، من تلقي مبادئ التربية على القيم والاختيار، كما تمكنه من تحصين الذات وتحفيزها على الإبداع وتجويد الأداء. ومن ثمة، إمكانية ولوج سوق الشغل والمساهمة الفعلية في خدمة المجتمع.

عن الوظيفة والأداء

لم يكن الحديث عن المسار الوظيفي، بأقل أهمية عن المسار التكويني للكاتب. فبالرغم من العروض المغرية التي اقترحت على صاحب السيرة، فقد اعتذر عنها في مقابل متابعة الدراسات العليا. (ص115)؛ بل إنه سيقدم استقالته من وزارة الخارجية ليلتحق بهيئة التدريس في جامعة محمد الخامس في 1956. يقول: "وأذكر أنني حين أخبرت الوالد بهذا القرار، قدم لي مجموعة من النصائح التي استفدت منها طوال مسيرتي في التدريس بالجامعة. وكان مما جعلت نصب عيني باستمرار قوله رحمه الله (إذا كنت تريد أن تكون أستاذا ناجحا لا بد أن تراعي شرطين: الأول أن تجعل طلابك يعرفون جبينك، والثاني أن تخرج من بينهم من يتفوقون عليك)". (ص120)

غير أن رحلة الدراسات الجامعية، لم تكن مفروشة بالورود، كما يقال؛ بل رافقتها مشاكل ومعاناة دونها الكاتب بعناية، استدعاء للتوثيق وحفظ الذاكرة. وقد كانت، هذه الاستعادة، مناسبة للنش في بعض الجوانب السلبية ذات الصلة المباشرة بسلوكيات مسيري الجامعة المغربية، آنذاك. (ص124-125) يقول الكاتب: "وعدت إلى الرباط لأبدأ اتصالات إدارية معقدة لمراجعة وضعيتي المشطب عليها، فالتقيت مرارا بالمرحوم عبد اللطيف الفيلاي الذي كان يومئذ وزيرا للتعليم العالي، وكذا بالسيد إبراهيم بوطالب الذي كان عين عميدا جديدا للكلية، فكانت النتيجة ما انتهينا إليه من أنني (ارتكبت خطأ إداريا فادحا بالسفر دون إذن، وأنهما في أحسن الأحوال سيعملان على تجديد تعييني وكأني أوظف في الجامعة لأول مرة) وهو ما رفضته." (ص126) وظل التشبث بالموقف في العودة إلى التدريس بالجامعة المغربية

واسترداد جميع الحقوق بعد الحصول على الدكتوراه، في موضوع عَدَّ الأول في مجاله عن الأدب الشعبي، تيسر نشره في ما بعد بعنوان: (الزجل في المغرب: القصيدة)¹.

أما عن فترة التدريس بالجامعة المغربية، سواء بفاس أو الرباط، فقد أُمِلح الكاتب إلى ما اعترضته من مشاكل إزاء رغبة جامحة في تدريس الأدب المغربي، ضمن وحدة مستقلة. يقول في هذا السياق: "تمكنا من تأسيس شعبة للغة العربية وآدابها في الكلية الأصلية بالرباط، وانتخبت رئيسا لها وإن بقيت على صلة وثيقة بفرع فاس الذي أصبح كلية مستقلة، خاصة في مجال الدراسات العليا والإشراف على البحوث الجامعية." (ص 127)

ولعل الكاتب، بعد استطراده في الحديث عن المناصب الإدارية واعتذاراته المتتالية، يعود للحديث عن مهمة التدريس وشرف التعيين بالمعهد المولوي 1980، بالإضافة إلى التكليف، من قبل الملك الراحل الحسن الثاني، بمهام علمية وثقافية وغيرها من المكرمات الملكية. يقول الجراري: "وإني لأستسمح للاعتراف بأني كنت منذ طفولتي الأولى -وكما سبق أن ذكرت في حديثي عن مهام الوالد رحمه الله- على صلة -مباشرة وغير مباشرة- بالمحيط الملكي وفي رعايته، منذ عهد السلطان المجاهد سيدي محمد بن يوسف قدس الله روحه. ومع ذلك فإن ما لقيته من عناية فائقة وما اكتسبته من خبرة بجانب جلالة الحسن الثاني رحمه الله، ولا سيما مع جلالة الملك سيدي محمد السادس أيده الله ونصره، لا تكفي لإبراز أهميته وغناه بالنسبة لي إشارات عابرة في مسيرتي الموجزة..." (ص 136)

عن المرأة والعاطفة

استكمالا لمباحث هذه السيرة الموجزة، في تشاكلاتها وتشكلاتها المختلفة، يؤثث الجراري فضاء السرد بحديث ناعم عن المرأة/ الزوجة، في إشارة دالة إلى القولة الصوفية الشهيرة (كل ما لا يؤنث لا يعول عليه). هكذا، لربط السابق باللاحق، يعمد الكاتب إلى ذكر اللقاءات الأولى التي جمعته، في مصر، بإحدى

¹ - عباس الجراري. الزجل في المغرب: القصيدة، مطبعة الأمنية الرباط 1970.

الفتيات الجميلات النبيلات، وكيف حصل الاستلطاف فالانشداد ثم التواصل والتقارب. (ص 138-139).

لقد كانت هذه الزوجة خير رفيق وسند؛ بل وأعز ما يطلب في مثل الظروف التي مر بها الكاتب، إذ اقتسمت معه الحياة، بكل تفاصيلها الصغيرة والكبيرة. يتعلق الأمر بالسيدة حميدة الصائغ وما تحملته من أعباء وتميزت به من صبر وثبات.

هكذا، لم ينحصر دور المرأة/ الزوجة في صيانة البيت ورعاية الأولاد، بل انضاف إلى مهامها تلك، حرصها الشديد على ملازمة الزوج/ الباحث في تيسير نشاطاته الثقافية وتدبير أعماله البحثية، بالرغم من تباين التخصص بينهما. تفاوتت، بين الأدب والقانون، ما كان ليقف حاجزا أمام المواكبة الدقيقة لكل ما يصدر عن الجارري، فهي بحكم ثقافتها وتمكنها من اللغة والتعبير تعدّ قارئته الأولى. وبين هذه المهمة أو تلك، يبرز جهدها في الاهتمام بالنادي الجارري والحرص على إنجاحه واستمراره، من خلال الترتيب الدقيق والتنظيم المحكم لاجتماعاته الأسبوعية بعد عصر كل جمعة. وهي بذلك، ترسم صورة مشرقة عن المرأة المغربية، في حبها وتفانيها وولعها بالثقافة والأدب.

يقول الجارري: "لولا ما ذكرت من صبر وثبات، ما كان يكتب لنا أن نستحضر اليوم مرور ستين عاما لم تكن خالية من مشاكل كان يمكن أن تعصف بهذه الأسرة وما رزقنا الله فيها من نعم واستمرار لهذه النعم." (ص 150)

عن الحضور والامتداد

حين ينتقل الجارري للحديث عن حصيلته العلمية في مجال الفكر والأدب يتوخى عرضها وفق تسلسلها الزمني، ضمنا لتمثل قرائي أفضل. فمسار الكاتب، بحكم تقلب الزمان وتنوع التكوين، عرف تطورات ملحوظة تنم عن يقظة ودينامية. تلك الحصيلة تضمنت متنا واسعا ومتنوعا، تمثل في ما أنجز من دراسات وحرر من مقالات وأنشأ من خطب ونظم من أشعار. ومن ثمة، كان

الانتقال من الحديث عن النشأة وامتداداتها إلى الكتابة وتداعياتها معبرا للاقتراب من سيرة الجراي الشخصية والعلمية.

وإذا ارتسم السؤال: لماذا استعرضت هذه القائمة الطويلة من البحوث والمقالات والعروض المنجزة، جاوزت المئة، وما الفائدة من وراء ذلك؟ (ص 151-162) فإن الجواب، لا شك، يرتبط بطبيعة السيرة وما تقتضيه أعرافها من واقعية وموضوعية. فالكاتب، تنقل بين الفكر والتاريخ والجمع والتدوين والتحقيق والدراسة الأدبية، وبين التراث الشفاهي والثقافة الشعبية. وهو المنحى الذي اختاره، ودافع عنه باستماتة، خلال مساره العلمي والتكويني. وصلة بعالم الكتابة، خصّ الكاتب عددا من المؤلفات بلغت أكثر من مائة وأربعين تقديمًا، شكلت متنا واسعا يمكن للباحث من خلاله أن يتبين موقفه وآراءه إزاء الأدب المغربي، في بعده المدرسي والشعبي. أما إشرافه على البحوث والأطاريح الجامعية فكثيرة ومتنوعة تنم عن خبرة ودراية واسعتين.

تبعًا لهذا الحضور المُشرف، كمًا وكيفًا، في مجال البحث والكتابة، لم يكن عجبًا، بالنظر إلى قيمة تلك الأعمال المنشورة، التي اشتغلت على أكثر من واجهة، أن يعتني الباحثون بها وينجزوا حولها العديد من المقالات والدراسات تنظر في مادتها ومنهج صاحبها. وهي مصاحبات تفاوتت بتفاوت المقاربات وتباينت بتباين الموضوعات، لعل العودة إلى التفصيل فيها موضوع بحث مستقل.

والواقع أن الكاتب ظل حريصًا، وهو يعرض لبعض تفاصيل سيرته الموجزة، على تبيين كل المراحل التي مرّ بها ومرت به، من خلال العمل على توثيقها تاريخيًا، بما يجعلها مرجعًا للأجيال اللاحقة وشاهد عصر على سيرة خصيبة ومتجددة. فالسيرة راهنت على استدعاء الماضي البعيد عبر التمثّل الذهني، وفق ما تتيحه لحظة الاسترجاع. والواقع أن امتلاء الذاكرة وتعدّد صورها من شأنه أن يربك عملية التذكر، بفعل السن والنسيان وجدوى المحكي. لذلك يجد الكاتب نفسه، لحظة التعبير والاستعادة مدعوا إلى التنسيق والتقسيم والتقديم والتأخير أو مدفوعا إلى

الاستطراد أو الاقتصار. ولا تسلم سيرة من هذه الاختيارات، لضمان وصول سليم إلى جمهور القراء.

لقد اقتضى أمر الكتابة، بالنظر إلى رحابة السيرة وامتدادها في الزمان والمكان، أن ينهج الجراحي أسلوبا يحضر فيه الانتقاء البين للمواقف والأحداث، والتهذيب الظاهر لصيغ التعبير وطرائق السرد. فضمير المتكلم كان حاضرا بقوة، فيما الزمن تراوح بين الماضي والحاضر. يمكن أن نحيل إلى بعض هذه العبارات التي ارتبطت ببداية الفقرات أو وسطها، من قبيل:

- سبق لي في كتابي...
- ذكرت في الفصل السابق...
- وإني لأذكر جيدا...
- لا أنسى... ولست أنسى...
- والحق أني وجدت بغيثي...
- وبالتحديد أيام...
- أعود بعد هذا الاستطراد...
- وذلك ما سأتناول تفاصيله...
- ولا أريد أن أختتم هذا الفصل...

إلى غير ذلك من العبارات، مما تحضر فيه الذاكرة مستجيبة لنداء اللحظة الراهنة، بكل حمولتها التاريخية والثقافية.

عن المنهج والرؤية

يلخص الكاتب، في أحد المباحث من هذه السيرة الموجزة، تعريفه للمنهج "باعتباره منظومة متكاملة تبدأ بالوعي والرؤيا المشكلين لروح المنهج وكنهه اللامرئي، بما فيه الهدف المتوخى منه، وتنتهي بالعناصر اللازمة لتحقيق تلك الرؤيا وذلك الوعي، من خلال الكشف والفحص والدرس والتحليل والبرهنة للإثبات أو النفي." (ص163) وهو تعريف مهّد به للحديث عن رؤيته الثقافية التي تبناها في دراسة الأدب. ذلك أن رحابة هذا الأدب وشسوع مواطنه استلزم، في

تصوره، أن ينطلق من فكرة تقوم على الدراسة الإقليمية "كمرحلة أولى لجمع شتات ما أنتجه العرب في مختلف الأقطار، متصلا بذلكم الأدب والفكر وما خلفه من تراث." (ص163). لذلك كان الاهتمام بالأدب المغربي، بكل حملاته الثقافية وتمظهراته المغربية، مدخلا رئيسا لترسيخ أصول هذا الأدب.

غير أن اعتماد الإقليمية إطارا واختيارا، تطلب من الكاتب بيان القصد وتحديده، فكان أن وضع سر هذا الانحياز في قوله: "وأؤكد أنني حين أقول الإقليمية وتأثير البيئة في الأديب لا أنسى الشخصية الذاتية والموهبة الفردية. ولا أعني تضيق الأفق والانحصار في إطار المحلية، ولكنني أعتبرها الوسيلة الوحيدة للم شتات الأدب العربي في كل الأقطار التي أبدعته، والوسيلة كذلك للعالمية والإنسانية، بل إنني أرى أنه كلما قسم نطاق الإقليم في الدراسة إلى بيئات صغيرة، كانت دراسة الإقليم مكتملة ومستوفاة."¹

ولأن مجال التراث المغربي، يتوزع إلى صنفين ملتحمين، أحدهما مدرسي والثاني شعبي؛ فإن الدراسة، لدى الجراي، لا تستقيم إلا بالاهتمام العادل بين الصنفين. فهما يشكلان وجهين لعملة ثقافية واحدة. ولعل إحالة الكاتب إلى كتابه المرجعي (خطاب المنهج) وإلى باقي كتبه التحليلية في المجال، يؤكد مدى التزامه بهذا المنهج. تقول نجاة المريني في دراسة عن هذا الكتاب: "غني بمعلوماته وأفكاره في تناول قضية المنهج التي استعصى البحث فيها، وفي علاقة هذا المنهج بالفكر العربي الإسلامي والتراث الأدبي المغربي، متقصيا الإجابة عن الأسئلة الشائكة التي يطرحها الموضوع في دقة ووضوح لتقريب الموضوع من الأذهان، وتلك خاصية يتميز بها الأستاذ الجراي في محاضراته الجامعية وفي الندوات وفي مؤلفاته وكتاباتة."²

أما عن رؤيته الثقافية فقد تمثلها نشاطا إنسانيا "يحرك الوجود في تفاعل يفضي إلى التنوع والتعدد، وإلى التباين والاختلاف وفق معطيات، بينية وفكرية

¹ - عباس الجراي. الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها. مكتبة المعارف. الرباط. ط2. 1979. ص8

² - نجاة المريني. عباس الجراي سيرة وأعمال. مكتبة النجاح الجديدة. الرباط. 1999. ص127

ونفسية وحتى جسمية، هي التي تتيح إنشاء ثقافة بخصوصيات معينة قد تلتقي مع غيرها، في تكامل يتحقق معه التماثل والوحدة." (ص165)

بهذا الأفق الفكري والمنهجي دعا الجراري إلى تكوين ثقافة وطنية فاعلة تستند في إجرائيتها إلى ثروة ثقافية تقاوم التخلف وتواجه تحديات العصر. ومن ثمة، يمكن اعتبار مشروعه العلمي والتربوي، انطلاقا مما خلفه من دراسات متعددة ومتنوعة، خلال مساره الأكاديمي الطويل، إحدى المحطات البارزة في معالجة التراث الأدبي المغربي "حركتها دوافع الوطنية والهوية المغربية، حيناً، ووجهتها رغبة بيداغوجية في سد الفراغات ونفض الغبار عن كنوز وأسرار هذا الأدب، حيناً آخر، دونما إغفال ما كان للحضور الذاتي والشخصي، من أهمية بالغة، في كل هذا."¹

رحيق القول

يمكن اعتبار (رحيق العمر) لعباس الجراري، بوصفه سيرة ذاتية، انعطافاً نوعياً في مسار الكتابة لديه. فقد ألقه القارئ، في جل أعماله، باحثاً وناقداً ومؤرخاً ومحققاً ودارساً للأدب المغربي، وفق مشروع ينتصر للهوية المغربية بالأساس. وها هو الآن، في كتابة تصدر عن الذات، بما تعكسه من حميمية ورغبة في البوح والتعبير. إنه، بهذا المعنى، كتاب جدير بالقراءة والتأمل، استناداً إلى ما شمله من إحالات تاريخية وأدبية وثقافية وغيرها، إضافة إلى ما تخلله من مشاعر مودة وتقدير لأسرته وأساتذته وطلبته. يكفي أن نستحضر هنا، جزءاً من كلمة له، في إحدى المناسبات التكريمية، مفادها أنه كلما قرأ بحثاً لأحد طلابه أو كتاباً أو مقالاً أو أية

¹ - أحمد زنيبر. الهوية الوطنية في التراث الأدبي بالمغرب (ص81-88). ضمن كتاب جماعي "الهوية بين التراث واللغة" تنسيق المصطفى حسوني. منشورات كلية الآداب المحمدية. الدار البيضاء. 2012. ص88

مشاركة من المشاركات الثقافية، يكون سعيدا ومغتبطا. وهو ما يتردد أيضا في سائر محاضراته أو تكويناته.¹

رحيق العمر، سنوات تفصل الذات الكاتبة، وعيا وممارسة، عن علاقتها الأولى بعالم الكتابة، مثلما تفصلها عن عالم الوظيفة، تواصلًا وانقطاعًا. هي سنوات، ارتأى مؤلفها أن يختزل جزءها الأول في ما قلّ ودلّ، بتعبير الجاحظ، ومع ذلك يظل هذا القليل من كثير، ذا أهمية بالغة.

صفوة القول، إن سيرة عباس الجراري في كتاب (رحيق العمر)، لهي بحق مسار حافل بالعطاء الأدبي والإنساني ونموذج حيّ من نماذج النبوغ المغربي.

* * *

¹ - أذكر، هنا بالمناسبة، ما صدر عنه من توجيه وتنويه بليغين، يوم تيسّر لي المشاركة في إحدى الدورات التكوينية في المنهجية بمراكش، سنة 1998، شكلت لي خير حافز لتطوير أطروحتي لنيل الدكتوراه في موضوع: ظاهرة المعارضة في الشعر المغربي.

د. هشام موساوي

- أستاذ باحث، القنيطرة.
- أستاذ عرضي بكلية اللغات والآداب والفنون منذ 2016 إلى اليوم (2020).
- حاصل على الدكتوراه في الأدب العربي.
- قدم أطروحته في موضوع «آليات إنتاج المعنى في السرد المغاربي: دراسة مقارنة في المكونات والتطور السردية».
- عضو في الهيئة العلمية والاستشارية للمجلة الدولية للدراسات التربوية والنفسية، برلين، ألمانيا.
- عضو مشارك في «فريق البحث في مكونات الأدب المغربي» ضمن مختبر الديدكتيك واللغات والوسائط والدراما بكلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن طفيل، القنيطرة.
- عضو اللجنة العلمية المشرفة على مشروع «حلقات دراسية: قضايا ومفاهيم نقدية» بكلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن طفيل، القنيطرة.
- عضو مؤسس لفضاء ابن طفيل للثقافة والعلوم (EUSCIT)، جامعة ابن طفيل القنيطرة.
- شارك في العديد من الندوات واللقاءات العلمية، منها:
 - 1- الندوة الدولية، The national Multidisciplinary for researchers بجامعة غرناطة، اسبانيا، 2014.
 - 2- ندوة دولية حول «الصمت في الخطاب»، المعهد العالي للعلوم الانسانية، مدين، تونس، 2018.
 - 3- ندوة دولية حول «خطاب المقدمات»، بكلية الآداب والعلوم الانسانية، القيروان، تونس، 2018.

- 4- ندوة دولية تكريماً للباحث التونسي حسين الواد في موضوع: «حسين الواد باحثاً ومبدعاً». عنوان المشاركة: «شعرية الضحك في روائح المدينة: من هزل اللغة إلى سخرية الخطاب»، كلية الآداب والعلوم الانسانية بالقيروان، تونس. 2019.
- 5- ندوة «الحوارية في النقد المغربي» عنوان المشاركة «أصول الحوارية عند باحثين»، كلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، 2020.
- المنشورات: 1- الكتب: - المناصية في الرواية المغاربية: من العنوان إلى النص، منشورات دار الأمان، الرباط، 2015.
- 2- كتاب جماعي: - الصمت في الخطاب السياسي... ضمن كتاب «الصمت في الخطاب»، تنسيق وتقديم: د. بلقاسم مارس، يافا للبحوث والدراسات والنشر والتوزيع، 2018، تونس.
- سؤال الهوية في الرواية المغربية بين اغتراب الذات وزيف الهوية، ضمن كتاب «الأدب المغربي الحديث والمعاصر: أسئلة وقضايا»، تنسيق د.محمد حميدة، د.ربيعة بنويس، د.بديعة لفضايلي، د.نورة لغزاري، منشورات النادي الجراي، رقم: 93، ط، ط، 1، 2020.
- الخطاب المقدماتي والمناصية الاختيارية في الرواية المغاربية، منشورات المكتبة الجامعية، القنيطرة، 2021.
- بالإضافة إلى عدة مقالات في مجلات مغربية ودولية.

* * *

عبق الثقافة في "رحيق العمر" بين النشأة والمشروع

د. هشام موساوي

يحمل جنس السيرة الذاتية إشكالات جمة سواء لمن أراد الانكباب على تحرير نص ينضوي ضمن هذا الضرب التعبيري أو لمن رغب في التعرض له خلال عملية التلقي، ولعل أهم هذه الإشكالات التي تواجه مبدعها مرتبطة بمشروعية كتابتها، لذلك لا تنفك تجد صاحب السيرة الذاتية يخصص في متنه أو فيما يحيط به من عتبات مساحة لتبريرها بوصفها جنساً أدبياً له حدوده ومقوماته ومبررات لاختياره. لينطلق الكاتب في مغامرة أكبر تضعه أمام جوهر السيرة الذاتية وهو قول الحقيقة عن الذات وما قد يولد من تعارض مع الأنساق الاجتماعية والثقافية السائدة، وكذا تلاعب الذاكرة بالأحداث، ومسألة الترتيب الزمني للوقائع وغيرها. هذا الجوهر الذي يلقي ضلاله على عملية التلقي باعتبار ما قد يولده من التباس وغموض.

1- رحيق العمر: الثقافي ميثاق للسيرة الذاتية

عند مطالعنا لرحيق العمر من خلال عتباته المصاحبة "المناص المحيط" لا تباغتنا تلك الأسئلة الاعتيادية التي نألفها في تلقينا للأعمال السير ذاتية، والتي غالباً ما تجد ضالتها في العتبات، فإما أن تُصَحِّمها بزرع بذور الضبابية الأجnasية وبتوليد الغموض والتشويش على مصداقية الحقيقة في هذه الأعمال، وإما أن تُجَلِّبها بتأكيد سَمَتِها السيربي من خلال إرساء أسس الميثاق الأوتوبيوغرافي بين المؤلف والمتلقي. فأسئلة من قبيل: ما طبيعة العمل الذي بين أيدينا؟ وما مدى الصدق في ما سَيَقْدَم؟ ومن يتلكم؟ ومن يسرد؟ وما هي المسافة الفاصلة بين التخيل والحقيقة؟ كل هذه الأسئلة وغيرها مما يثير الالتباس في تلقينا لها، تحسم فيه

عتبات "رحيق العمر؛ موجز سيرتي الذاتية"¹ فهي ترسل إشارات واضحة تجلي الطبيعة الأجنبية للعمل وصاحبه، لتبعده عن التخيل وعن الأعيب الذاكرة وتجعله أقرب إلى التقرير والجدية في استدعاء مباشر لمقولات الواقع والحقيقة. فنكون إزاء وثيقة تاريخية تتحقق فيها معايير الكتابة الذاتية، والمتمثلة في المرجعية والتطابق والحقيقة، مكتسبة بذلك وضعية اعتبارية ضمن أعمال الكاتب، ومكانة رمزية ذات مشروعية تاريخية ضمن الأدب المغربي تضيفه طبيعة الشخص الذي ييوح وكذا المكانة البارزة التي يتبوؤها في المجتمع.

أ- المرجعية:

ما يميز أي سيرة ذاتية هو سعيها للابتعاد عن الطابع التخيلي الذي قد ينأى بها عن سِمَتِها الأساسية وهي قول الحقيقة، فأبي تقصير في الحكي أو الوصف لوقائع أو أحداث بعينها ينزع عنها خصوصية كونها خطاباً للحقيقة. ففي الوقت الذي "تقوم فيه الرواية على إعادة إنتاج صورة الواقع عن طريق اللغة، طبقاً لنظرية المحاكاة، نجد أن السيرة الذاتية، بسردها لأحداث واقعية، أي حقيقية، تبحث عن الوفاء للواقع المعاش وليس محاكاته"²، لذلك تعمل السيرة الذاتية جاهدة على الارتباط بالمرجع من خلال استحضار مجموعة من العلامات والمؤشرات المرجعية ومن الأماكن التي تحقق تواتراً في الربط بين المؤلف والشخصية والسارد. إن وعي المؤلف بهذا المعطى يظهر من خلال مجموع الفصول التي تؤسس لهذا البعد المرجعي، ونذكر منها الفصل الأول: نسب الأسرة الجراحية، والفصل الثاني: مدينة الرباط، والفصل الثامن: عضوياتي، والفصل السادس عشر: أوسمة ودروع وتكريمات، والفصل السابع عشر: كتابات عني وأشعار ومصادر ترجمتي، والفصل الثامن عشر: ملحق؛ وثائق خاصة (دراسية وإدارية). فهذه الفصول رصدت سياق

1- عباس الجراحي، رحيق العمر؛ ج1. النشأة والمشروع، منشورات النادي الجراحي رقم 101، دار أبي رقرق، الطبعة 1، 2020.

2- توماس كلارك، الكتابة الذاتية؛ إشكالية المفهوم والتاريخ، ترجمة: محمود عبد الغني، دفاتر الأدب الذاتي، منشورات الموجة، 2003، ص: 29.

الزمان وحددت إحداثيات المكان الحقيقيين، كما رسمت ملامح الشخصية الحقيقية، فإذا كان بروز المرجع الزماني ظاهراً من خلال تحديد تواريخ مجموعة من الأحداث المرتبطة بحياة المؤلف، فإن المرجع المكاني قد استأثر باهتمام المؤلف فardاً له فصلاً بأكمله هو الفصل الثاني "مدينة الرباط"¹ والذي سافر بنا خلاله في عبق الزمان والمكان، فامتطى صهوة التاريخ ليبرز الملامح الحضارية والثقافية للمدينة، ليخلص إلى الأثر الذي يتركه المكان في نفسية روادها وفي ثقافتهم وطبيعتهم، يقول في ذلك: "ويبدو أن هذه العوامل وغيرها مما لا يتسع المجال لذكره تدخلت لتكيف نفسية الرباطيين ومزاجهم، وتحدد سلوكهم وعلاقاتهم فيما بينهم ومع الآخرين، مما أفضى بهم إلى طبيعة يغلب عليها الجد والوقار، في نزاهة واستقامة وأنفة وإباء نفس، ولكن مع سلامة صدر وتواضع جم يصل إلى حد نكران الذات والتفاني في الغير والصدق في معاشرته والأمانة في خدمته والوفاء الخالص له"². لقد شكلت الرباط بالنسبة للدكتور عباس الجراري أصراً للارتباط بالثقافة وفرصة للوعي بها في مختلف امتداداتها سواء الفكرية أو العلمية أو الوطنية، فتحولت من مرجع مكاني يحدد فضاء النشأة والترعرع والاستقرار إلى مرجع ثقافي شكل مشتل مشروعه الأدبي والتربة الخصبة لنمو بذور رؤيته الفكرية، فكان امتداد المدينة في الزمان دليلاً على عمقها الحضاري الطافح بأعلام الفكر والثقافة والأدب، والذي بوأها تنصيب منظمة اليونيسكو ضمن التراث العالمي. إن المرجعية الثقافية لعباس الجراري تجد ضالتها في مرجعية الرباط الثقافية، فهي تتجاوز كونها مجرد مكان محدد بإحداثيات الطول والعرض إلى اعتبارها فضاء يتعالق فيه الزمان والمكان ليخلق بأحداثه وعمرانه وأسره وأعلامه وتراثه وواقعه، بماضيه وحاضره ومستقبله، بأصالته وحداثته، بوطنيته ومقاومته، صبغة ثقافية صبغت عميد الأدب المغربي كما صبغت عدداً من أعلام الرباط، فغدت جزءاً لا يتجزأ منهم كما أنهم جزء لا يتجزأ منها.

1- عباس الجراري، حريق العمر؛ ج. 1 النشأة والمشروع، مصدر سابق، ص: 35.

2- نفسه، ص: 40.

ب- التطابق:

يعد التطابق أحد المطالب الأساسية للسيرة الذاتية الحقيقية، فالمطابقة بين المؤلف والسارد والشخصية أمر ضروري للحديث عن ميثاق سيرذاتي، "ففي اللحظة التي يكتنف فيها الغموض العلاقة بين هذا التطابق الثلاثي، بهذه الطريقة أو تلك، نبتعد عن السيرة الذاتية بالمعنى الدقيق للكلمة"¹. فالمؤلف يجب أن يجمع في السيرة الذاتية بين كونه الذات والموضوع، و"رحيق العمر" نموذج لهذا التطابق الذي تلعب فيه المناصات دوراً أساسياً في تأكيده، بداية بالمؤثر الأجناسي "موجز من سيرتي الذاتية" مروراً باسم المؤلف الذي يُصرَّح بتطابقه مع شخصية العمل وسارده كما جاء في ضوء حديثه في الفصل الرابع الموسوم بـ "مع أخواتي وإخوتي في حضن الوالدين بالبيت" حيث يقول: "وكان أصدقاء الوالد ومحبوه يشاركونه فرحته بما يولد له من بنين وبنات، كقول الشاعر المرحوم إبراهيم الإلغي بعد أن رزق بمولود ذكر (عباس مؤلف هذه السيرة)، إذ قال في بداية قطعة يهنئه"²، ومما يؤكد هذا التطابق وينزع أي غموض حول المتكلم ما نصادفه في بداية الفصل السابع المعنون بـ "مع أسرتي الصغيرة - زوجتي والأولاد -"، يقول الدكتور عباس الجاربي: "ولدت صباح الإثنين ثالث ذي الحجة 1355هـ الموافق 15 فبراير 1937م. وقد كتب الله لي أن أعيش حياتي على النحو الذي تكشفه سيرتي الموجزة التي يضمها بإذن الله تعالى هذا السفر بعنوان: «رحيق العمر»"³. إن هذا التطابق يضعنا أمام عمل سيرذاتي يحمل امتدادات تناسية متنوعة وكثيرة، فصاحبه ألف في مجالات علمية متعددة وله إنتاج غزير ضم منوعات فكرية وثقافية توزعت بين بحوث ومقالات ومؤلفات عكست ولعه الشديد بقضايا الفكر والأدب والتراث والإبداع كما شكلت معالم بارزة في مشروعه الثقافي. إن تلقي هذا العمل يفترض قراءة له في ضوء هذا المشروع الثقافي الذي أرسى لبناته المؤلف، بل وأقام بنيانه

1- توماس كلارك، الكتابة الذاتية؛ إشكالية المفهوم والتاريخ، مرجع سابق، صص: 23-24.

2- عباس الجاربي، رحيق العمر؛ ج1 النشأة والمشروع، مصدر سابق، ص: 70.

3- نفسه، ص: 137.

بإنتاجه الوفير وبالدرس الجامعي والتأطير الأكاديمي والمساهمات العلمية في الندوات واللقاءات والمجلات.

ت- الحقيقة:

يُقَدِّمُ العمل بوصفه سيرة ذاتية صورة للذات عن نفسها، بمعنى أننا في رحيق العمر إزاء حديث لعباس الجرامي عن صور عباس الجرامي عبر الزمن، فنحن أمام إسقاطات للذات الجرامية في أزمنة مختلفة ماضية، هذه الصور التي تنتظم في متوالية لتقدم لنا صورة عباس الجرامي الممتدة إلى الآن. ومن معايير السيرة الذاتية الصدق في القول وفي نقل الأحداث، وهو ما كان الدكتور عباس الجرامي على وعي به من خلال قوله في مقدمة الكتاب: "هذا وأود أن أشير إلى قصدي من تسجيل هذه السيرة أن تكون خالصة صادقة، وصافية من كل تزيف أو تحريف أو مبالغة. وهو ما اجتهدت أن ألتزمه ولا أحيد عنه. ولو شعرت بأدنى ميل عن هذا الالتزام لأسرعت إلى تمزيق ما كتبت باعتباره سيكون غير ذي أهمية بالنسبة للأجيال الجديدة المتطلعة إلى مزيد من التواصل فيما بينها ومع من سبقها، وإلى مزيد من معرفة الحقائق وتأمل واقعها"¹، وهكذا فإن مسعى الدكتور عباس الجرامي يتجاوز مسألة الصدق ونقل الحقيقة إلى تحقيق غاية أسمى تتمثل في ضمان الامتداد والاستمرارية التاريخية للحقيقة، حقيقة تربط الجيل الجديد بتاريخه وبالأجيال التي سبقتها، أو على الأقل مع الفترة التي عاشها الكاتب. فالتصالح مع الذات رهين بمعرفة حقيقة الماضي وقبولها كمرجعية أساسية لتطور الشعوب ونمائها. إن تزيف الحقائق أو تجاهلها يجعل الحاضر مدثراً بعلامات الاستفهام التي تعيق التنمية التي تتغيا بناء هوية حاملة لقيم ومقومات الشخصية الوطنية والذي يعد المقوم الثقافي عنصراً أساسياً في بلورتها، مثله في ذلك مثل مقوم الدين واللغة والوطن والأرض²، لذلك فإن الدكتور عباس الجرامي على يقين تام بأن أي اقتراح لنموذج

1- عباس الجرامي، رحيق العمر؛ ج1 النشأة والمشروع، مصدر سابق، ص: 17.

2- انظر في ذلك كتابه "من قضايا الهوية الوطنية" الصادر ضمن منشورات النادي الجرامي، العدد 58، يناير 2013. حيث وقف عند الهوية الوطنية في علاقتها بالدين ودور المذهب المالكي في تشكيلها وتشبيثه =

تنموي جديد يجب أن يتم فيه التركيز على العنصر الثقافي " الذي ينبغي لفت انتباه اللجنة الملكية المكلفة باقتراح نموذج تنموي جديد إلى أهميته"¹.

ينبغي أن ننتبه إلى أمر آخر يُجلى الرؤية في تلقي هذا الكتاب وفي بلورة تصور عن الحقائق التي يستعرضها الكاتب، فبالعودة إلى العتبات نجد أنفسنا أمام حقيقة أخرى فالتأشير الأجاسي للعمل جاء كالتالي " موجز سيرتي الذاتية " بمعنى أن ما سيعرض في العمل لا يمثل الحقيقة كاملة بل جزءاً منها، فما بين أيدينا لا يعدو أن يكون ملخصاً لحياة الكاتب وانتقاء لأحداث بعينها، فالكاتب انتهج خطة للقول والسكوت واتبع منهجاً في البوح والإمساك عن الكلام، وهو ما تشير إليه عتبة أخرى على الصفحة الأولى للغلاف " ج1 النشأة والمشروع "، وما تُجَلِّيه المقدمة من خلال قوله: " وبعد، فهذا جزء أول من موجز سيرتي الذاتية التي سميتها «رحيق العمر». وقد خصصته لمرحلة النشأة وما كان يشغلني فيها من مشروع علمي كتب الله لي فيه بعض التوفيق؛ على أن أتبعه بجزء ثان قد يكون عنوانه «الشهود الفاعل». وفيه أتناول ما شاهدت وما ساهمت به -قدر الإمكان- في الشأن الوطني العام، تحت ظل ثلاثة ملوك عظام"².

يظهر مما سبق أن المؤلف قد التزم في عمله بالحقيقة وإن كانت موجزة باعتبار السيرة الذاتية خطاباً مُنتجاً للحقيقة، هذه الحقيقة التي سعى إلى ضمانها من خلال التأسيس لتلاحق سردي يضمن تغطية فترات زمنية متتالية من حياته مرتبطة بالنشأة، مع الإبقاء على فترات زمنية وأحداث في طي مؤجل البوح. لقد شكلت الفصول السبعة الأولى هذا التلاحق السردى الذي يضمن تحقق السيرة

= الوحدة الوطنية. كما تعرض للغة باعتبارها حاملة للفكر وأداة للتعبير الفنى والأدبى مستعرضاً علاقتها باللهجات المنتشرة في مختلف بقاع البلاد وأهمية هذه اللهجات في الحفاظ على الإرث الثقافى للمغرب. إضافة إلى هذين المقومين يعتبر الدكتور عباس الجراي الوطن (الأرض وما يرتبط بها من عناصر بشرية وطبيعية) والثقافة والقيم أسسا لتشكيل هوية وطنية.

1- عباس الجراي، رحيق العمر؛ ج1 النشأة والمشروع، مصدر سابق، ص: 21.

2- نفسه، ص: 16.

الذاتية كشكل خطابي يُظهر مسار حياة الدكتور عباس الجراري ويضمن توالي الأحداث الحياتية للمؤلف، لتدور باقي الفصول في فلك هذه المتوالية.

إن الرغبة في إمساك خيوط الحقيقة التي تقدمها هذه السيرة الموجزة تجرنا إلى أعمال الدكتور عباس الجراري السابقة، وكأننا إزاء نص مترابط بالمفهوم الرقمي، يفتح لك نوافذ متعددة ويمنحك روابط متنوعة ويجعلك تختار سبيلك في تلقي العمل، إن قراءة هذا العمل بفصوله المختلفة يمنحك إمكانية احترام المعطى الكرونولوجي للأحداث - وهو أمر هام في بناء النص السير ذاتي - كما يمنحك إمكانية القراءة الترابطية لأفكار الدكتور عباس الجراري، والتي تنسج شبكة تتجاوزها كذات لتؤسس لرؤية ثقافية جماعية تجمع بين الأدبي والفني والتاريخي والأكاديمي والمجتمعي والوطني. إن الحقيقة الثابتة الأولى التي نستخلصها هي وجود بنية شبكية تحكم ما يقدمه العمل، وبيان طبيعتها يستوجب الخروج من النص تجاه نصوص أخرى، والتخلص من البنية الكرونولوجية سمة النص السيري إلى بنية زمنية دائرية تفقد المبتدأ والمنتهى. إن نسبة الزمن تتأسس من خلال ربط الأحداث بالأفكار، وربط الزمن الشخصي بالزمن التاريخي الذي يغدو فيه الكتاب إحالة لكتب أخرى ومرآة ثقافية لزمن ممتد في جغرافية المكان وتاريخه. إن الإمساك بالحقيقة وفق هذا المعطى لا يتأتى في بعدها الزمني باعتبار بنية الإيجاز التي تتصف بها هذه السيرة وما يترتب عنه من حذف وتلخيص، وإنما في تعاليها عنه إلى ما هو فكري وثقافي ممتد في الزمن.

إن تحقق شروط الكتابة الذاتية في "رحيق العمر" يدفعنا إلى طرح سؤال آخر أكثر أهمية بالنسبة لنا، ألا وهو: لماذا كتب الدكتور عباس الجراري سيرة ذاتية؟ وأين يمكننا أن نموقعها في إنتاجاته الأدبية وفي رؤيته الفكرية؟

إن الإجابة عن سؤال الحاجة للسيرة الذاتية واختيارها كجنس أدبي تعبيري من طرف المؤلف تقودنا إلى مقدمة الكتاب التي تعرض لبعض ما نرجو بيانه. فالدكتور عباس الجراري يربط الحاضر بالماضي مؤصلاً لهذا النوع من الكتابة بما يوجد في ثقافتنا العربية الإسلامية، فكتب التراث العربي الإسلامي شاهدة على ما

قدم المؤلفون من تراجم لأنفسهم مستحضراً في ذلك ما نجده عند السيوطي في كتابه «حسن المحاضرة»، ولسان الدين ابن الخطيب في «تاريخ غرناطة»، وابن حجر في «قضاة مصر» وغيرهم¹. لقد شكل الامتداد الثقافي لهذه الكتابة معطى أساسياً في هذا الاختيار ومسوغاً لها عند المؤلف، فعلى الرغم من كون الحاجة إلى التعريف بالذات غدا مطلب العصر الذي نعيشه والمتسم بتطور هائل، إلا أن التوافق مع أصالة هذا النمط من الكتابات في تراثنا الإسلامي ينزع عنه طابع الغرابة، ويضمن له العمق الحضاري من جهة والاستمرارية من جهة أخرى. إن اختيار هذا الجنس الأدبي من طرف المؤلف هو ضرب لمبدأ القطيعة الفكرية والثقافية مع التراث، وتأكيد في الآن ذاته لثقافة الانفتاح والتطور عند المؤلف. فالحاجة إلى مثل هذا النمط من الكتابة التي يتحمل فيها الشخص المعني سرد الأحداث وترتيبها تصدر عند مؤلفنا عن وعي تام بأهمية تولي هذه المهمة، ف"إذا شعر أحد المؤلفين أن مثل ذلك التعريف القصير - في أي شكل من أشكاله - لم يعد كافياً في نظره أو في نظر قرائه، فإنه يلجأ إلى كتابة ما يطلق عليه «سيرة ذاتية» (Autobiographie)، يضمنها تفاصيل حياته وما عاش فيها من تجارب خاصة، وما صادف من وقائع وأحداث عامة، وما خلف كل ذلك في ذهنه ونفسه وفكره من ذكريات.² إن وعي المؤلف بهذا النوع من الكتابة في بعده الجوهري والتطوري يجعله متنبهاً إلى ماهيته خاصة في علاقته بالبعد الديني والأخلاقي، فالسيرة الذاتية بوصفها حديثاً عن الذات تجعل المرء في مواجهة مباشرة مع قيمة أخلاقية مثل التواضع، فالحديث عن الذات هو حديث قد يجر صاحبه إلى البطر والرياء، وهذا بالضبط ما يتنبه وينبّه إليه الدكتور عباس الجراري، بل ويجعله شرطاً للكتابة وللروح الذي لا يعدو أن ينخرط في التحدث بالنعمة: "على أن من شكر الله أن يُظهر العبد نعمته عليه

1- عباس الجراري، حريق العمر؛ ج.1 النشأة والمشروع، مصدر سابق، ص:8.

2- نفسه.

ويتحدث بها: «وأما بنعمة ربك فحدث» كما في سورة «الضحى». وهذا شريطة ألا يكون في ذلك بطر أو رياء. وإلا فلا معنى أصلاً لتدوين سيرة ذاتية¹.

تكتسب، إذن، كتابة السيرة الذاتية عند الدكتور عباس الجراري ماهيتها من خلال ثلاثة مستويات، يتحدد مستواها الأول في الجانب الأخلاقي الذي تلتزم به والذي تعكسه في الآن ذاته، كما تصدر ثانياً عن موروث ثقافي عربي إسلامي تنتمي له وتضمن استمراريته، وتجيب ثالثاً عن سؤال الراهن الممتد إلى المستقبل والموصول بالماضي. إن هذا الوعي الثلاثي بجنس السيرة يجد صده في محتويات التلاحق السردى الذي تؤسسه الفصول التي يحكيها المؤلف عن حياته، والتي تمثل في الأصل منطلقات لما يحدد مساره الحياتي ومشروعه الفكري اللذين زرعت بذورهما نشأته في بيت الأسرة وصقلتهما دراسته لتبلورهما تجاربه المهنية المختلفة خاصة الجامعية والتي شكلت ملامح شخصيته العامة.

2- النشأة وبداية تشكل المشروع الثقافي: تشكل الذات الثقافية

كان لانتماء الدكتور عباس الجراري لأسرة عريقة ونشأته بها كما جاء على لسانه " في بيت علم ودين ووطنية"² الأثر الكبير في تشكيل مساره الحياتي، خاصة وأن الوالد عبد الله بن عباس الجراري - رحمه الله - شكل قدوته ومثاله الأعلى، حيث أسهم بشكل واضح في بلورة وعي المؤلف بمجموعة من القضايا، فعلمه الواسع ورؤيته المتنوعة اللذان تعكسهما وفرة تأليفه في موضوعات شتى جمعت بين الفقه والتشريع والحضارة والتاريخ والاجتماعيات والشعر والمسرح والرحلة والكتابات الأدبية والموسيقى واللغة والتربية، سيظهر أثرهم في تربية وتعليم ابنه الدكتور عباس الجراري الذي سينهل من هذه العين ليُشكّل ذاته. لذلك نجد المؤلف يُخصّص في سيرته الذاتية فصلاً خاصاً بوالده " قدوتي والمثال: عبد الله بن عباس الجراري - رحمه الله - " عرض فيه لما تميز به من إحاطة موسوعية ومعرفة باللغة العربية والشؤون الدينية كما رصد تكوينه العلمي وتوجهاته الوطنية واهتماماته

1- عباس الجراري، حقيق العمر؛ ج1 النشأة والمشروع، مصدر سابق، ص:10.

2- نفسه، ص:8.

بالتربية والتعليم، لقد كان عبد الله بن عباس الجرامي بمثابة المدرسة الحقيقية لعباس الجرامي والتي حددت ملامح هويته وفكره وشكلت جزءاً من دعائم مشروعه الثقافي فيما بعد.

أ- التشكل الديني والأخلاقي:

شكل البعد الديني والأخلاقي جانباً مهماً بل أساسياً في تنشئة عباس الجرامي، فقد كان حرص المغاربة عموماً للحفاظ على هويتهم الدينية أمام المستعمر دافعاً لتلقي التعليم الأولي في الكتاتيب القرآنية، وبحكم الحس الوطني والديني للأسرة الجرامية فقد حرص والده على قضاائه "نحو أربعة أعوام في الكتاب القرآني"¹، كما أنه لم يغادره طوال المرحلة الابتدائية التي قضاها في مدرسة لعلو²، حيث كان يتردد عليه ثلاث مرات في اليوم، ما يظهر أهمية التربية الدينية في حياة عباس الجرامي. إضافة إلى ذلك، كان للحصص المنزلية التي يشرف عليها والده دور مهم في التمكن من الثقافة العربية الإسلامية، هذه المجالس التي استؤنفت بعد عودته إلى المغرب واستقراره بمدينة الرباط، يقول في ذلك: "فكان لا يمر يوم أو يومان على الأكثر دون أن أجلس أمامه للمذاكرة، ودون أن أسجل أثناء هذه المذاكرة أو عقبها مجموعة من الشوارد والفوائد النادرة"³. لقد كان الجانب التربوي ساطعاً في تنشئته وكان التركيز على الأخلاق والقيم معطى أساسياً في توجيهات الأب لابنه، وفي ذلك يؤكد المؤلف بقوله: "على هذا النسق عني رحمة الله عليه بتكوين أبنائه وتنقيفهم، في توجيه سلوكي كان يلح فيه على القيم الخلقية، وعلى ربط مكارم الأخلاق بالكرامة، باعتبارها أساس كل مكرمة ومنطلق الإحساس بكل حق أو

1- عباس الجرامي، رحيق العمر؛ ج1 النشأة والمشروع، مصدر سابق، ص: 85.

2- كانت مدرسة لأبناء الأعيان والدراسة فيها بالفرنسية، وقد اضطر والده أن يسجله فيها لكي لا يضيع له عام من الدراسة بعد تعذر فتح مدرسة محمد جسوس أبوابها التي أغلقت عقب حوادث المطالبة بالاستقلال بسبب تقديم وثيقة الاستقلال.

3- عباس الجرامي، رحيق العمر؛ ج1 النشأة والمشروع، مصدر سابق، ص: 80.

واجب، سواء على مستوى الفرد أو المجتمع، ومن حيث هي المقياس الذي تنظم به العلاقة مع الله والناس، بدءاً من الحاكم إلى المواطن الصغير¹.

إن حضور هذا الجانب في تنشئة المؤلف سيظهر أثره في اهتمامات الدكتور عباس الجراري وفي مؤلفاته، حيث أصدر في فترة مبكرة كتاب "من أدب الدعوة الإسلامية" ليولي القضايا الإسلامية جانباً مهماً من مشروعه الثقافي، وسيعنى فكرياً بدراسة مجموعة من مواضيع الفكر الإسلامي وقد أورد في "رحيق العمر" ما يناهز سبعة وعشرين عملاً صدرت في المجال في تأكيد عملي على انخراطه في واقع الأمة الإسلامية من خلال تشريح فكرها ومن أجل خلق وعي إسلامي يتساق مع ما تعيشه من أزمت. إن هذا الكم الكبير من الإصدارات في هذا الحقل يضعنا أمام حقيقة تفيد وجود مشروع متكامل عند المؤلف برزت ملامحه سنة 1974م مع كتاب "من أدب الدعوة الإسلامية"، وكتاب "الفكر الإسلامي والاختيار الصعب"² سنة 1979م والذي يتصدر اللائحة التي قدمها المؤلف لأعماله في الفكر الإسلامي، ليمتد هذا المشروع لما يناهز نصف قرن كان آخر إصداراته "حاجة الفكر العربي الإسلامي إلى حادثة أصلية". لقد عمل الدكتور عباس الجراري من خلال رؤيته على ربط الماضي بالحاضر، وذلك من خلال قراءة واقع الأمة الإسلامية في ضوء بعض التصورات الفكرية التقليدية، والوقوف على الإمكانيات التي يمكن منحها لتجاوز حالة الركود الفكري والحضاري الذي تعيشه في ظل الهيمنة والتبعية. فواقع الحرب الفكرية التي يعيشها الفكر الإسلامي تجعله "يقف في الصراع الدائر أمام اختيارات ثلاثة، وهي: 1- الاستسلام 2- الحوار 3- المواجهة"³. إن مسعى الدكتور عباس الجراري من وراء نقاش هذه الاحتمالات الثلاثة هو الخلوص إلى ضرورة تشكل وعي جديد لدى الأمة يتجاوز النظرة الماضوية المتسمة بالأفضلية والخيرية

1- رحيق العمر، ص: 80..

2- عباس الجراري، الفكر الإسلامي والاختيار الصعب، منشورات الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1979.

3- نفسه، ص: 18.

ويعي تخلف الأمة ويربطها بالتبعية. والملاحظ في تصورات الدكتور عباس الجارري أنها تبتعد عن النظرة السوداوية القاتمة وعن جلد الذات، فالهدف فتح آفاق للمستقبل وتجاوز أزمة الحاضر وخلق وحدة فكرية. لذلك فإنه يرى أن التحديات التي تترشح فيها الأمة " لا تستطيع أن تواجهها إلا إذا كانت مسلحة بفكر شمولي متكامل له منهج تعباً داخله قوى المسلمين، في وحدة متراسة تزيل من طريقها كل الطفيليات وعوامل التسميم والتخريب، وتذيب الفوارق الفكرية التي من شأنها أن تخلق اتجاهات متضاربة وتيارات متصادمة"¹. إن بلورة هذا الفكر الإسلامي المتسم بوعي جديد ورؤية مغايرة هو الذي سيدفعه إلى ملازمة قضايا متنوعة من الفكر الإسلامي خصص لها دراسات متفردة، ومن ذلك: مفهوم التعايش في الإسلام (1996)، والمسؤولية في الإسلام (1996)، والإنسان في الإسلام (1997)، والحوار من منظور إسلامي (2000)، والإسلام واللائكية (2003)، والدولة في الإسلام: رؤية عصرية (2004)، ولا تطرف ولا إرهاب في الإسلام (2004) وغيرها مما أورده المؤلف ضمن الفصل الثامن المعنون بـ " مؤلفاتي " المحور المتعلق بالفكر الإسلامي. إن دعوة عباس الجارري إلى إعادة النظر في منهج الفكر الإسلامي يوازيه سعي واضح لعدم الوقوع في حبال الفكر الغربي والسير في ركاب الحداثة الغربية، وفي هذا الإطار يمكن الحديث عن كتابه الأخير في باب الفكر الإسلامي "حاجة الفكر العربي الإسلامي إلى حادثة أصيلة"² الذي دعا فيه إلى حادثة أصيلة مغايرة للحداثة الغربية، يبررها في ذلك اختلاف الظروف والمقومات والثوابت الخاصة بكل واقع، إضافة إلى ما تحمله هذه الحداثة من سلبيات يشهد عليها واقع الحال. إن كل حادثة تستهدف إقصاء الدين وإلغاءه من حياة المسلمين مرفوضة، فمصدر العلة والخلل ليس في "الدين أو التراث أو الثقافة، ولكنه في الدرجة الأولى، كامن في الاختلالات السياسية والاقتصادية التي أنتجت أنظمة متحكمة في غالبيتها، وكذا

1- الفكر الإسلامي والاختيار الصعب، ص: 87.

2- عباس الجارري، حاجة الفكر العربي الإسلامي إلى حادثة أصيلة، مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، ط1، 2017.

في فشل هذه الأنظمة وعدم توفيقها في تطبيق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان على النمط الغربي، وما إليها، مما حاولت اقتباسه دون فهم لحقيقة مراميها، بل دون إرادة أو رغبة في هذا الفهم، فضلاً عن التطبيق"¹. لقد ظل عباس الجارري وفيماً لمشروعه التحديثي للفكر الإسلامي بما يتماشى مع واقع الأمة، فما أشبه ما دعا إليه وآمن به في بدايات مشروعه مع ما يخلص إليه الآن بعد نصف قرن من التنظير والتأليف والعمل الجاد. وتجدر بنا الإشارة في هذا المقام إلى " إستراتيجية التقريب بين المذاهب الإسلامية "² التي أعدها بمشاركة الدكتور محمد المختار ولد اباه من موريتانيا وأحمد محمد هاشم من اليمن، والتي اعتمد مشروعهما مؤتمر القمة الإسلامي في ماليزيا (2003)، حيث تعد تطبيقاً عملياً لمشروعه الشمولي الوحدوي التجديدي للفكر الإسلامي.

إن بروز مكونات عنصري الدين والأخلاق في مشروع عباس الجارري الهوياتي يظهر بوضوح في اعتقاده الراسخ بالروابط الدينية التي تربط المغاربة وتحقق وحدتهم، حيث يؤكد على مركزيتها في تحديد هوية وطنية موحدة لجميع المغاربة باختلاف روافدهم، ويتضح ذلك جلياً من خلال مشاركاته المتعددة في الدروس الحسينية³ التي تلقى بحضرة جلالة الملك في رمضان والتي تدور معظمها حول ما يشكل الوحدة الدينية والمذهبية في المغرب. كما أن الأخلاق تعد بالنسبة له عمود أي إصلاح يُرجى، وركيزة أي بناء هوياتي يُنشَد، وقد أَلَف في هذا الاتجاه كراسة عنونها بـ " الأخلاق أساس كل إصلاح " (2015) حيث يرى أن الإصلاح يبدأ من التوافق على " ميثاق شرف مؤسس على منظور أخلاقي نتمسك به ونطبقه ونلتزم به أفراداً وجماعات، ونربي الأجيال عليه "⁴ فالأخلاق تمثل نقطة البداية

1- حاجة الفكر العربي الإسلامي إلى حادثة أصيلة، ص: 21.

2- عباس الجارري، رحيق العمر؛ ج1 النشأة والمشروع، مصدر سابق، ص: 158.

3- نفسه، ص: 167.

4- عباس الجارري، الأخلاق أساس كل إصلاح، منشورات النادي الجارري، عدد 65، مكتبة دار السلام للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 2015، ص: 11.

والركيزة الأساس لكل من أراد أن يتصدى لهذه المهمة وأن يتحمل مسؤوليتها، كما أنها تشكل المسعى الذي يرجو تحقيقه في المجتمع باعتبارها القاطرة التي تجر كل العناصر الأخرى البانية لكرامة الإنسان. لقد شكلت القيم باختلاف أنواعها بعداً ثقافياً يوطر رؤية الدكتور عباس الجراري وتحكم مشروعه، فهو لا يحصرها في جانب واحد وإنما تمتد إلى أبعاد متنوعة تضم ما هو حضاري وديني وإنساني ووطني.

ب- التشكل الثقافي للهوية الوطنية:

1- اللغة العربية:

شكلت اللغة العربية وآدابها نبعاً أساسياً لتشكيل الذات الجرارية وركيزة في بلورة مشروعه الثقافي. فبالإضافة إلى تلقيه اللغة العربية بموازاة مع اللغة الفرنسية في مدرسة أبناء الأعيان " لعلو " كان يتلقى " على الوالد في البيت جملة وافرة من العلوم العربية والإسلامية"¹ وهو ما أبرزه وأفاض فيه القول في مؤلفه " طفولة قلم "²، ويظهر هذا التفوق المبكر في تحصيلها وضبط قواعدها والتمكن من أساليب كتابتها من خلال حصوله على شهادتين من معهد الدروس العليا لتعليم اللغة العربية والدارجة والأمازيغية³. إن شغفه باللغة العربية وحبها لها يرقى عنده إلى اعتبارها رمزاً للاستقلال عن المستعمر وللتخلص من هيمنته، ويفسر إصراره على استكمال دراسته في مصر، فقد عبر صراحة عن ذلك لوالده عند بزوغ الاستقلال بقوله: " الآن جاء الاستقلال ومعه ستعود للغة العربية مكانتها ولن يبقى للفرنسية ما كان لها من وجود ونفوذ "⁴.

1- رحيق العمر، ص: 94.

2- عباس الجراري، طفولة قلم، منشورات النادي الجراري، دار أبي رقرق، الرباط، ط 1، 2020.

3- عباس الجراري، رحيق العمر؛ ج 1 النشأة والمشروع، مصدر سابق، ص: 94.

4- نفسه، ص: 95.

لقد شكلت اللغة العربية جزءاً مهماً من مشروع عباس الجراري باعتبارها أولاً رمزاً للهوية الوطنية، " فاللغة مقوم أساسي في تشكيل هوية أي مجتمع "¹ والمغاربة باختلاف مشاربهم يرتبطون باللغة العربية إما من خلال اللهجات المحلية للمناطق أو من خلال مكون الدين (الإسلام) الذي احتضنه الأمازيغي كما احتضن لغته التي يتلو بها كتابه، وثانياً لكونها الحامل الأساسي للموروث الفكري المغربي جنباً إلى جنب مع الدارجات العربية والأمازيغية بمختلف تقسيماتها والحسانية، فليس هناك " أي تعارض بين الفصحى كحلقة واسعة، وبين باقي اللهجات أو اللغات - والتسمية لا تهم - كحلقات فرعية "². لقد شدد الدكتور عباس الجراري على أهمية اللغة في تحديد كينونة وماهية الشخص، فإلى جانب مقومي الوطن والدين تتمترس اللغة كمقوم رئيسي لا مناص منه ولا مجال لفصلها عنهما، هذه الحقيقة التي يؤكدّها التاريخ المغربي. إن إيمان عباس الجراري باللغة العربية ليس إيماناً أعمى ينكر باقي اللغات واللهجات بل على العكس من ذلك يدعو إلى ضرورة الانفتاح عليها وتعلمها فهو نفسه متقن للغة الفرنسية وعارف باللغتين الإسبانية والإنجليزية، لكن أي حوار للذات أو للآخر يجب أن يكون أساسه اللغة العربية، كما يقتضي أن يقبل الآخر هويتنا المؤسسة على اللغة العربية³. إن إيمانه ليس أعمى لأنه ينأى عن أنانية الاكتمال والمثالية، فيرى أن اللغة العربية في حاجة إلى تطوير، " في حاجة إلى متن جديد، وفي حاجة إلى مصطلح، وفي حاجة إلى مناهج لتعليمها بطريقة جيدة، سواء للأطفال أو للطلاب وفيما هو أعلى من ذلك، أو تعليمها للأجانب "⁴.

1- عباس الجراري، من قضايا الهوية الوطنية، منشورات النادي الجراري، رقم: 58، مكتبة دار السلام، ط 1، 2013، ص: 45.

2- نفسه، ص: 39.

3- حوار عبد السلام الطويل مع الدكتور عباس الجراري حول: قضايا الإصلاح والتجديد والحوار الحضاري موقع الرابطة المحمدية، عنوان الصفحة: / قضايا - الإصلاح - والتجديد - والحوار - الحضاري www.arrabita.ma/blog/، تاريخ الإطلاع: 2021/04/07.

4- عباس الجراري، من قضايا الهوية الوطنية، مرجع سابق، ص: 61.

لقد شكلت اللغة العربية قطباً أساسياً في تصورات الدكتور عباس الجراري إن لم ندع بكثير من الجرأة أنها شكلت قطب الرحى في رؤيته الفكرية ومشروعه الثقافي. إن رؤيته الوحودية المؤسسة على عقيدة راسخة بالفكر الإسلامي تتقوى بتمسكه الثابت باللغة العربية باعتبارها الحاضن الرئيس لمختلف المقومات الأخرى، بل والضامن لاستمراريتها فلا مجال للحديث عن الدين الإسلامي أو التراث المحلي أو الثقافة الوطنية أو الهوية في ظل دعوات التخلص من اللغة العربية، فكما كانت رمزاً للمقاومة ورمزاً للاستقلال فهي مستمرة بكونها رمزاً لحضور الذات أمام الآخر في ظل ما نعيشه من عولمة.

2- إبراز الأدب المغربي:

لا يستوي الحديث عن الأدب المغربي دون ذكر للدكتور عباس الجراري وتعريجه على مؤلفاته الوارفة، فعمادته لهذا الأدب ليست تقريظاً في حقه أو مجاملة لشخصه بل هي توصيف لما يمثله ومنقبة لما هو عليه. فمؤهلاته الأكاديمية ومؤلفاته الريادية في المجال وجرأته في اقتحام هذا التراث الغزير مما شردت عنه أذهان الأولين وعجزت عنه همم المتأخرين من الباحثين دليل استحقاقه. ويكفي أن نعود إلى ما بين دفتي هذه السيرة في فصلها الأخير "كتابات عني وأشعار ومصادر ترجمتي"¹ لنقف على غزارة ما كتب عنه وعن كتاباته.

لقد انطلق الدكتور عباس الجراري في النبش في خبايا هذا التراث الزاخر ونفض التراب عنه بدءاً بأول أعماله "القصيد" سنة 1970م التي كانت في الأصل أطروحة للدكتوراه ناقشها بمصر تحت إشراف الدكتور عبد العزيز الأهواني، ثم بإنشائه للدراسات المغربية العليا في فرع كلية الرباط بفاس سنة 1971م، وإرجاع شعبة اللغة العربية وآدابها إلى الكلية الأصلية بالرباط سنة 1973م. حيث استطاع أن يؤسس لمسارين مهمين يخدمان مشروعه المتمثل في إبراز الأدب المغربي تماشياً مع منهجه واتجاهه الثقافي القاضي بضرورة الانطلاق في بحث أدبنا "من الدراسة

1- عباس الجراري، رحيق العمر؛ ج1 النشأة والمشروع، مصدر سابق، ص: 243.

الإقليمية، كمرحلة أولى لجمع شتات ما أنتجه العرب في مختلف الأقطار، متصلاً بذلك الأدب والفكر وما خلفا من تراث¹، أول هذين المسارين مسار البحث العلمي والتأليف، أما المسار الثاني فهو التكوين من خلال تأطير عدد من الطلبة الباحثين (أساتذة المستقبل) والإشراف على مجموعة من البحوث الجامعية.

لقد آمن الدكتور عباس الجراري منذ بداية مشروعه الثقافي بالدراسات الشعبية وأيقن أنه لا مجال للحديث عن ثقافة وطنية تتوسل بدراسة تلغي الجانب التراثي من حساباتها، كون "دراسة أدبنا وفكرنا - في جانبها التراثي أو الحديث - ستظل مبتورة ومشوهة إذا هي لم تهتم بالجانبين"². إن العناية التي أولاهما للتراث بوصفه لبنة أساسية لبناء هوية وطنية، وباعتباره وسيلة لبروز الخصوصية المغربية يظهر جلياً من خلال الامتداد الزمني الذي يغطيه البحث عند المؤلف بين أول مؤلفاته "القصيدة" 1970م وآخر مؤلف له في المجال "دليل قصائد الزجل في المغرب - الملحون -" 2017م، فقد حمل همّ التأسيس لرؤية مغايرة ترفع من شأن الموروث الشعبي بمختلف أشكاله تنظيراً وتطبيقاً، سواء بصفة شخصية من خلال أعماله ومؤلفاته ومداخلاته في المؤتمرات والندوات، أو عبر البحوث التي وجه إليها طلبته وشجعهم على خوض غمارها والتي سنفصل القول فيها لاحقاً. وفي إطار البحث والتأليف نسجل توفر مكتبته على ستة أعمال مرتبطة بالتراث الشعبي خاصة الملحون الذي يرجع إليه فضل إدخاله إلى الجامعة المغربية وإدراجه ضمن الدرس الأكاديمي، ويعد مؤلفه "القصيدة" مرجعاً رئيسياً لكل دارس للملحون في المغرب، فهذا المؤلف يُبرز من جهة، سمات الباحث الأكاديمي الرصين صاحب الرؤية المنهجية والعمل الجاد، كما يكشف من جهة أخرى عن إرث حضاري وثقافي يعكس قدرات أصحابه الإبداعية والفنية ويجسد لجانب من الجوانب الحضارية والثقافية والمعرفية للشخصية المغربية. إن هذا الاهتمام بالشعر الملحون عند الدكتور عباس الجراري سيشكل حجراً أساساً في مشروع أكبر، خرج من بوتقة الاشتغال

1- عباس الجراري، حقيق العمر؛ ج1، النشأة والمشروع، مصدر سابق، ص: 163.

2- نفسه.

الفردى إلى رحابة المشروع الجماعى، حيث استطاع أن يتحول هذا الهم والشغف والتضييق والأمل وهذا الكشف، إلى مشروع وطنى تبنته أكاديمية المملكة المغربية التى يعد الدكتور عباس الجرارى أحد أعضائها، لنجنى ثمره دواوين لشيخ الملحون المغربى بدءاً بديوان الشيخ عبد العزيز المغراوى وانتهاء بديوان الشيخ أحمد السهوم. وقد كان لعميد أدبنا البصمة البارزة فى الإشراف عليها ووضع تقديم لكل ديوان من الدواوين العشرة، هذه المقدمات التى تعد مرجعاً للتعريف بهؤلاء الشيخ وبشعرهم، الشيء الذى حدا به لجمعها مع غيرها من المقدمات التى وضعها لأعمال أخرى ناهزت ثمانية وأربعين ومائة عمل فى ستة أسفار معنونة بـ " كلمات تقديم " عنيت بها زوجته الأستاذة حميدة الصائغ الجرارى.

إن مسار البحث والتنقيب الذى أرساه المؤلف فى مشروعه لم يكن يسيراً خاصة وأنه يَمَن نفسه نحو أرض مجهولة المعالم عند دارسى الأدب، فلا وجود لدراسات مرجعية وافية تساعد فى تدليل هذا الصعب الذى امتطاه، وتضيء عتمة هذا الأدب. لقد أخذ الدكتور عباس الجرارى على عاتقه مهمة إظهار واكتشاف ملامح الأدب المغربى وفق الضوابط والشروط الأكاديمية التى تسمح ببروز ملامح الهوية الوطنية. وقد ألف فى مجال الدراسات المغربية ما يقارب ثلاثين كتاباً تنضاف إلى دراساته الرائدة فى الملحون وكذا مؤلفاته التى عنيت بالدراسات الأندلسية. إن المتأمل لهذه الصنوف المتنوعة من مؤلفاته يكتشف جلياً مدى ارتباطها بروافد الثقافة المغربية ومعالم الحياة الفكرية المتنوعة للمغاربة عبر التاريخ. فما ينسج هذه الأعمال مع بعضها البعض هو الرغبة الجامحة لإحياء هذا التراث الحضارى وحفظه من الضياع والالتكاء عليه فى رسم ملامح الشخصية المغربية.

أما المسار الثانى الذى ساهم فى بلورة مشروع الدكتور عباس الجرارى فى الدفاع عن الثقافة الوطنية وإبراز مكنوناتها فتتمثل فى توجيه مجموعة من طلبته للبحث فى المكونات المختلفة لهذه الثقافة، وهو بذلك يضمن استمرارية ما بدأه، ويؤسس لجيل لاحق يحمل نفس الهموم والاهتمامات، جيل سيكون مطالباً بإبراز

الذات والسعي وراء امتداداتها الهوياتية من خلال مكونات الأدب المغربي قديمه وحديثه ومن خلال أنماطه التعبيرية المختلفة، الأصيلة والمُحدثة، ولعلنا لا نجانِب الصواب إن ادعينا أن الدكتور عباس الجراري أكثر الأساتذة إشرافاً على البحوث الجامعية التي تنكب على دراسة الأدب المغربي، إذ يورد في موجز سيرته الذاتية إشرافه على اثنين وأربعين أطروحة مما نوقش وتسعين رسالة لدبلوم الدراسات العليا. وما يميز هذه البحوث هو التنوع الذي يَسْمُها، إذ تلامس مختلف روافد الثقافة المغربية وتصب في مكونات الأدب المغربي المتنوعة. وبالوقوف عند أطروحات الدكتوراه الواردة في "رحيق العمر" نجدها تتوزع بين الشعر والنثر، كما ترصد قضايا التصوف المغربي، وتغطي مختلف عصور الدولة المغربية (السعدية - المرينية - المرابطية - الموحدية - العلوية) وفترة الاستعمار. إضافة إلى ذلك فقد تعرضت للمكون الأندلسي والأمازيغي¹ والصحراوي²، وبذلك يفتح الدكتور عباس الجراري الآفاق لمختلف مكونات الأدب والثقافة المغربيين دون إقصاء أو إلغاء، ولعل هذا التوجه هو الذي سيتيح ظهور ونماء البنيات الثقافية الجزئية مثل الأمازيغية والحسانية والأندلسية والتي ستؤكد على البعد التعددي للشخصية المغربية وعلى أواصر الوحدة بينها وبين المكون العربي في الثقافة الوطنية.

1- من أبرز الأعمال التي شكلت مرجعاً مهماً في هذا المجال الأطروحة التي تقدم بها الأستاذ عمر أميرير والتي قام بنشرها فيما بعد، وقد سميت بـ"رموز الشعر الأمازيغي وتأثرها بالإسلام" وكانت تحت إشراف الدكتور عباس الجراري، وكانت عملاً ريادياً بالنسبة للدراسات الأمازيغية خاصة وأن هذا التخصص تأخر في الدخول إلى الجامعة المغربية، وتعتبر هذه الأطروحة تكسيراً للحواجز الذاتية والموضوعية التي ساهمت في ذلك. كما نشير قي هذا الصدد إلى بعض رسائل دبلوم الدراسات العليا التي أشرف عليها مثل: الشعر الغنائي السوسي (العاوي عبد الله) - فنون الشعر الأمازيغي في الأطلس (شوكي أحمد) - الشعر الأمازيغي المنسوب إلى سيدي حمو الطالب (أمير عمر).

2- نسجل في هذا الباب إشرافه على أطروحتين. الأولى: الشعر العربي في الصحراء المغربية؛ اتجاهاته وقضاياها وجذوره التاريخية (أحمد مفدي). أما الثانية فمعنونة بـ"الحركة الصوفية وأثرها في أدب الصحراء المغربية من بداية القرن 19 إلى منتصف القرن 20 (محمد الظريف).

إن ما يطبع التوجه العام لإشراف الدكتور عباس الجراري هو الانفتاح على كل ما يمكنه إبراز الموروث الثقافي الوطني وما يضمن الوقوف على قيمته ويحقق الحفاظ عليه وصيانتته، لذلك ستكتب العديد من رسائل دبلوم الدراسات العليا على الجانب التوثيقي من خلال جمع وتحقيق مجموعة من الدواوين والأشعار والكتب ذات الصلة، كما ستهتم بأعلام الشعر والنثر من خلال رصد حيواتهم وآثارهم، وهي بذلك تحفظ ذاكرة التراث المغربي وتنقله من الشفهي إلى المكتوب. إن المتصفح لعناوين هذه الأبحاث يلحظ بجلاء أن الدكتور عباس الجراري حَكَمَته رؤية واضحة تهدف إلى التأسيس لمكونات الأدب المغربي وتوسيع دائرته ليشمل الأدب المدرسي والشعبي، ويضم الأدب المكتوب والشفوي، ويحيط بالمقدم بلغة عربية وبلهجة من لهجات المغرب. لقد أرسى توجهه البحثي والأكاديمي لثقافة التنوع المؤسسة للوحدة.

خاتمة:

لقد حاولت خلال هذه القراءة أن أختل هذا العمل السير ذاتي من منطلق ثقافي، فما تتبعنا حروفه حياة رجل حمل مشروعا ثقافيا، نشأ وترعرع في وسط يُعلي من قيمة الفكر والثقافة فكان ينضج بما نشأ عليه في مختلف مسارات حياته. ارتحل من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى آخر، حاملا مشروعه في وعائه، زاده فكره وراحلته ثقافته، فكان كمن يعيش بالأمل على الأمل، فعاش به زمانا وحقق بفضل من الله ما كان مأمولا، فنفع به الله تعالى قوماً أقام لهم صرح أدبهم فشرّبوا وسقوا به أرضاً اهتزت وأينعت، فساروا على دربه. فاستحق هذا الرجل أن ينال لقب عميد الأدب المغربي.

إن سيرة عميد الأدب المغربي هي جزء لا يتجزأ من سيرة الأدب المغربي الحديث وما يشكل ثقافة المغاربة عامة، لذلك فالإحاطة بمناحي هذه السيرة يحتاج إلى تضافر الجهود والمقاربات، فما أثرناه في هذه الدراسة لا يعدو التأشير على بعض

ملاح سيرة رجل نكن له كثيراً من التقدير والاحترام، ونسعى لأن نوفيه قدره بعيداً عن أي مبالغة أو تقريظ، شاكرين له عمله، مقتفين أثره، عاملين في ذلك بسنة نبينا صلى الله عليه وسلم الذي يقول: "من لا يشكر الناس لا يشكر الله"¹.

لقد فتحت سيرة الدكتور عباس الجراري نوافذها على مشروع ثقافي أصيل جعل من الموروث الوطني باختلاف مشاربه وروافده وبتنوع مرجعياته وامتداداته حقلاً للدراسة والبحث، ومجالاً للرصد والتطوير، مشروع أسس له مجموعة من الرواد على رأسهم عميد الأدب المغربي وامتد ليغدو محط اهتمام أجيال متعاقبة من الباحثين والدارسين والمثقفين والإعلاميين، فكان مشروعاً لإرساء هوية وطنية تحتفي بتراثها وثقافتها الشعبية ولغاتها، هوية لا تؤمن بالانفراد والإقصاء والإلغاء، بل تؤمن بالتعدد والتنوع في إطار الوحدة والانسجام، تنوع في المكونات الجغرافية والبشرية واللهجية، ووحدة في المقومات الدينية واللغوية والقيمية والوطنية. إن قراءة سيرة عميد الأدب المغربي هي قراءة لمسار علمي ولتراكم معرفي رسماً معالم الدرس الأكاديمي للأدب المغربي، إنها قراءة لأفكار وقيم وثقافة وتاريخ وأدب شكلت جميعها ملاح الهوية الوطنية.

* * *

1- محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، حديث رقم 6601.

ببليوغرافيا:

- توماس كلارك، الكتابة الذاتية؛ إشكالية المفهوم والتاريخ، ترجمة: محمود عبد الغني، دفاتر الأدب الذاتي، منشورات الموجة، 2003.
- عباس الجراري، الأخلاق أساس كل إصلاح، منشورات النادي الجراري، عدد 65، مكتبة دار السلام للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 2015.
- عباس الجراري، الفكر الإسلامي والاختيار الصعب، منشورات الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1979.
- عباس الجراري، حاجة الفكر العربي الإسلامي إلى حداثة أصيلة، مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، ط1، 2017.
- عباس الجراري، رحيق العمر؛ ج1. النشأة والمشروع، منشورات النادي الجراري رقم 101، دار أبي رقراق، ط1، 2020.
- عباس الجراري، طفولة قلم، منشورات النادي الجراري، دار أبي رقراق، الرباط، ط1، 2020.
- عباس الجراري، من قضايا الهوية الوطنية، منشورات النادي الجراري، رقم: 58، مكتبة دار السلام، ط1، 2013.

* * *

خلود بناصر

خلود بناصر، باحثة بسلك الدكتوراه. مختبر اللسانيات. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك. جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء.
موضوع الأطروحة: "الاستعارة في القرآن -مقاربة لسانية معرفية-".
إشراف الأستاذ: د. عبد المجيد جحفة.

المقالات المنشورة

- 2021. "استعارة الحياة الدينية مقالة في القرآن -على ضوء نظرية الاستعارة التصويرية-". في مجلة دفاثر الدكتوراه. العدد 9. مختبر اللسانيات. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك. جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء.
- 2020. "استعارة النور في ديوان الشيخ أحمد سهوم: نماذج من الشعر الصوفي -مقاربة لسانية معرفية-". في الفن المكمل: نحو مقاربة جديدة للشعر الملحون. رقم 92. منشورات النادي الجراي. الرباط.

المساهمة في الندوات

- المشاركة في الندوة التاسعة لطلبة الدكتوراه في اللسانيات بتاريخ 08 - 09 يوليوز 2021. مختبر اللسانيات. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك. جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء. بمداخلة تحت عنوان: "استعارات الاتجاه العمودي في القرآن -في ضوء نظرية الاستعارة التصويرية-".
- المشاركة في الندوة الثامنة لطلبة الدكتوراه في اللسانيات بتاريخ 26 - 27 مارس 2020. مختبر اللسانيات. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك. جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء. بمداخلة تحت عنوان: "استعارة الحياة الدينية مقالة في القرآن -على ضوء نظرية الاستعارة التصويرية-".

الجوائز والاستحقاقات الجامعية

- منحة التميز، المركز الوطني للبحث العلمي والتقني (2019).
- جائزة التميز، جامعة محمد الخامس (2019).
- جائزة التميز، جامعة محمد الخامس (2017).
- منحة الاستحقاق للتفوق الدراسي لمؤسسة محمد السادس (2013).

الاستعارة في السيرة الذاتية للأستاذ عباس الجراري من منظور معرفي

خلود بناصر

مقدمة

تشمل دراسة الاستعارة اليوم مختلف تجليات الاستعمال اللغوي بما فيها الاستعمال اليومي، حيث لم تعد تقتصر دراسة الاستعارة على الشعر والاستعمالات غير العادية للغة. ويرجع هذا إلى جهود الباحثين الذين أثبتوا أن الاستعارة ليست مجرد زخرف بلاغي يمكن الاستغناء عنه، كما أنها ليست مسألة لفظية محضة لا علاقة لها بالفكر، وهو التصور الذي هيمن على البلاغة القديمة والحديثة في شقيها العربي والغربي.

تتأطر دراسة الاستعارة، من هذا المنظور، داخل حقل اللسانيات المعرفية، وعلى الخصوص نظرية الاستعارة التصويرية عند لايكوف وجونسون التي اعتبرت أن جوهر الاستعارة يكمن في كونها تتيح فهم شيء ما انطلاقاً من شيء آخر؛ فالاستعارة لا ترتبط باللغة أو بالألفاظ ولكن بسيرورات الفكر البشري التي تُعدّ استعارية في جزء كبير منها (لايكوف وجونسون 1980: 23)¹.

يهدف هذا المقال إلى دراسة الاستعارة ضمن السيرة الذاتية، انطلاقاً من الجزء الأول من سيرة الأستاذ عباس الجراري تحت عنوان "رحيق العمر، موجز سيرتي الذاتية ج. 1 النشأة والمشروع"، علماً بأن التاريخ يشغل حيزاً هاماً داخل هذه السيرة سواء تعلق الأمر بالتاريخ الشخصي للمؤلف أو التاريخ الوطني ومن خلاله إشارات إلى أحداث تاريخية عربية.

¹ للاطلاع على نظرية الاستعارة التصويرية ينظر: زولتان 2017، 2020.

ويركز المقال خصوصا على نموذج استعارة الحياة رحلة حيث نفترض أن هذه الاستعارة أساسية في السيرة الذاتية بشكل عام، وينبني هذا الافتراض على اعتبار الحياة أهم مفهوم تنطوي عليه السيرة الذاتية، والمقصود حياة المؤلف صاحب السيرة الذاتية؛ فهي الموضوع الأساسي للكتابة ومن خلالها تتفرع المواضيع الأخرى التي يمكن أن يُسلط الضوء عليها دائما من خلال هذه الزاوية الخاصة: حياة المؤلف. وما دام الأمر كذلك فإن من أكثر التصورات ارتباطا بفهمنا للحياة هو تصور الرحلة¹.

وبالإضافة إلى هذه الاستعارة، يدرس المقال استعارة ثانية هي استعارة البحث العلمي مشروع بناء نظرا لأهميتها بالنسبة للسيرة الذاتية للجراري وشخصيته الثقافية.

استعارة العنوان

ينقسم عنوان السيرة إلى عنوان رئيسي: "رحيق العمر" وعنوان فرعي: "موجز سيرتي الذاتية". ولابد من الوقوف عند كل منهما على حدة. تركيبيا يتألف العنوان الرئيسي من جملة اسمية مبتدؤها محذوف، والخبر عبارة عن مركب إضافي. أما دلاليا فيقترن الرحيق بالأزهار كما نجد في نهاية التعريف المعجمي للمعجم الوسيط:

"الرُّحَاقُ الخمرُ. و- الخالصُ الصافي منها.

الرَّحِيقُ: الرُّحَاقُ. وفي التنزيل العزيز: (يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ). و- ضربٌ من الطَّيِّبِ. ومسكٌ رحيقٌ: لا غش فيه. وحَسَبَ رحيقٌ: خالصٌ لا شوب فيه. ورحيقُ الأزهار: ما تفرزه لاجتذاب الحشرات. (محدثة)².

¹ يمكن الإشارة هنا إلى استعارات أخرى حيث الحياة هي المجال الهدف مثل استعارة الحياة مقالة (لايكوف 1993: 227) واستعارة الحياة مسرحية التي يوردها لايكوف وتورنر إلى جانب استعارات أخرى للحياة (1989).

² المعجم الوسيط. 1972. مجمع اللغة العربية. ص 379.

وهي دلالة يصفها المعجم بـ"المحدثة"، ويبدو أن دلالة الرحيق على الخمر هي الأقدم من حيث الاستعمال، حيث يرد في لسان العرب: "الرَّحِيقُ صَفْوَةُ الخمر"¹.

وترتبط كلمة "الرحيق" بكلمة "العمر" وهو ما ينتج عنه استعمال استعاري يتدخل فيه تصور المجال المصدر: "الرحيق" في بناء تصور المجال الهدف: "صفوة العمر" أو أهم الأحداث التي عاشها صاحب السيرة. ويؤكد هذه الدلالة العنوان الفرعي للسيرة: "موجز سيرتي الذاتية"، حيث كلمة "موجز" دالة على اقتصار الجراي على الأحداث الأهم في سيرته الذاتية. غير أن العنوان الفرعي يتضمن بدوره استعارة أخرى هي استعارة الحياة رحلة وستوقف عندها ضمن المحور الأول من المقال.

بالإضافة إلى العنوان الرئيسي والفرعي، يوجد عنوان آخر جانبي يشير إلى كون الكتاب عبارة عن الجزء الأول من السيرة: "ج. 1 النشأة والمشروع"، ويظهر هذا العنوان ما ستتضمنه السيرة من حديث عن نشأة الجراي ومشروعه العلمي. وتتضمن كلمة "مشروع" استعارة أساسية هي استعارة البحث العلمي مشروع بناء التي ستوقف عندها في المحور الثاني من المقال. ويشير صاحب السيرة إلى جزء ثان لاحق لسيرته الذاتية يمكن أن يحمل عنوان "الشهود الفاعل" (ص 136).

وستتناول في ما يلي تحليل الاستعارتين: الحياة رحلة والبحث العلمي مشروع بناء باعتبارهما نموذجين أساسيين لاستعارات السيرة. مع الإشارة إلى أنهما لا تردان دائماً بشكل مستقل حيث يمكن أن تتداخل الاستعارتان معاً، كما يمكن أن تدخل كل منهما في علاقات مع استعارات أخرى.

1. استعارة الحياة رحلة

تناولت الأدبيات اللسانية المعرفية مجموعة من استعارات اللغة اليومية كاستعارة الجدل حرب والزمن مال وغيرها من الاستعارات مثل استعارة الحياة رحلة التي حظيت باهتمام واسع من الباحثين.

¹ ابن منظور. 1990. م 10. ص 114.

تقوم استعارة الحياة رحلة LIFE IS A JOURNEY على نسخ (Mapping) المجال التصوري للحياة في المجال التصوري للرحلة¹، وهي استعارة معقدة تنبني على مجموعة من الاستعارات الأولية. يمكن تحديدها، وفق لايفوف وتورنر، في ما يلي:

- "الشخص الذي يعيش الحياة مسافر.
 - أهدافه وجهات.
 - الوسائل المعتمدة في الوصول إلى الأهداف طرق.
 - صعوبات الحياة عراقيل للسفر.
 - مقدمو النصح مرشدون.
 - التقدم هو المسافة المقطوعة.
 - الأشياء التي تقيس بها تقدمك علامات.
 - الاختيارات في الحياة منعطفات.
 - الموارد المادية والقدرات مؤن"².
- وهي الاستعارات التي سنحاول تتبعها في هذه السيرة الذاتية.

الأبعاد التجريبية لاستعارة الحياة رحلة

لأبد من الإشارة إلى أن حياة الجراي كانت مليئة بالرحلات، وهو ما عبر عنه منذ مقدمة سيرته بالقول:

- "وكننت أرى أن الزهد فيما سوى ما يدرك به هذا الهدف هو أحد مفاتيح إدراكه؛ ومعه الصبر على تحمل المشاق كالتي عانيتُها صحياً وفي حياتي الدراسية والوظيفية -على ما كان فيها من تنقل- (ص 9).

فهو يشير إلى أن حياته كانت مليئة بالتنقل. ويدفعنا هذا المعطى إلى التساؤل عما إذا كانت طبيعة الحياة المليئة بالأسفار التي عاشها، قد أثرت على تصوره للحياة وقرباً، بالتالي، بين تصوره للحياة وتصوره للرحلة.

¹ يقوم النسخ على بُنيّة المجال المصدر في المجال الهدف.

² Lakoff, George and Mark Turner. 1989. P. 3, 4.

إن محور هذه السيرة هي حياة الجراري وفي نفس الوقت رحلاته التي تضمنت (ص 79):

— رحلة أولى إلى مصر: خمس سنوات (1956 - 1961).

— رحلة إلى باريس: سنة (1961 - 1962).

— رحلة ثانية إلى مصر: ثلاث سنوات (1963 - 1965).

— رحلة ثالثة إلى مصر: سنة (1968 - 1969).

بالإضافة إلى رحلات أخرى منها رحلته إلى تركيا مدة شهر، كما يقول:

— "وإذا كنت سأبدأ في رحلتي هذه بزيارة تركيا فلأنني كنت أرغب في زيارة مكنتاتها بإسطنبول وبورصة" (ص 123).

ورحلته إلى الأردن وفلسطين، حيث يقول:

— "وفي نطاق هذه اللجنة عُيِّنْتُ -رفقة عضو من وزارة التعليم- للسفر إلى عمان عبر القاهرة، ومنها إلى الضفة وقطاع غزة" (ص 134).

بالإضافة إلى رحلات كثيرة يشير إليها حين يقول:

— "وعلى امتداد هذه المرحلة الجامعية كنت أدعى إلى عدة جامعات ومؤسسات ثقافية في مناسبات معينة محدودة عربية وأجنبية لإلقاء محاضرات، على نحو ما قمت به في تونس والعراق والمملكة العربية السعودية والكويت والجمهورية الليبية ويوغوسلافيا والمكسيك والسنغال والولايات المتحدة" (ص 128).

وصحيح أن استعمال استعارة الحياة رحلة لا يشترط أن يكون صاحبها قد مر بالضرورة من حياة الترحال؛ فهذه الاستعارة أصبحت متجذرة في الاستعمال اللغوي اليومي، غير أن استعمال صاحب السيرة لتصور الرحلة بدلا من تصورات أخرى كثيرة، وإلحاحه على استعمال استعارة الحياة رحلة بشكل متكرر على امتداد سيرته الذاتية، هو أمر دال.

استعمالات استعارة الحياة رحلة

تظهر استعارة الحياة رحلة في السيرة الذاتية للجراري بدءا من العنوان، وتتمثل في المركب الاسمي "سيرتي الذاتية"؛ فكلمة "سيرة" تندرج في المعجم ضمن الجذر المعجمي "سير"، ونجد في لسان العرب:

"السَّيْرُ: الذهاب؛ سَارَ يَسِيرُ سَيْراً وَمَسِيراً وَتَسَياراً وَمَسِيرَةً وَسَيْرورةً [...] والاسم من كل ذلك السَّيْرَةُ"¹.

وتتكرر هذه الاستعارة على امتداد السيرة.

ويتناول الجراري مصطلح السيرة الذاتية أو التعريف الشخصي ومقابله اللاتيني والفرنسي والإنجليزي في مقدمة سيرته، حيث يقول:

– "وهو ما شاع استعماله من خلال حرفي: (C.V)، اختصاراً لعبارة Curriculum Vitae، وتعني في اللاتينية مسيرة الحياة ومراحلها؛ وتسمى بالفرنسية (Biographie)، ويعبر عنها في الولايات المتحدة الأمريكية وبعض البلدان الأنكلوساكسونية بكلمة (RESUME)" (ص 7).

وقد تُستبدل كلمة "السيرة" بـ "المسيرة"، وفي لسان العرب:

"وقوله في الحديث: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةً شَهْرًا؛ أي المسافة التي يسار فيها من الأرض كالمَنْزِلَةِ والمَثَلَمَةِ، أو هو مصدر بمعنى السَّيْرِ كالمَعِيشَةِ والمَعَجَزَةِ من العَيْش والعَجَز"².

ونجد استعمال هذه الكلمة في قول الجراري:

– "أشير إلى أن نشأتي في بيت علم ودين ووطنية كان لها أكبر تأثير على مسيرة حياتي" (ص 8).

وقوله في موضع آخر أيضاً:

– "وهو ما كان يتضح لي أثناء مسيرتي في الحياة عبر الأيدي الملكية البيضاء التي كانت تتوالى عليّ وتزيدني تشجيعاً للمواصلة" (ص 12).

وتتضمن هذه المسيرة كاية رحلة نقطة انطلاق، حيث يقول:

– "وقد بينت في مبحث مسيرتي الوظيفية كيف كانت هذه نقطة أولى في هذه المسيرة" (ص 11).

¹ ابن منظور. 1990. م 4. ص. 389.

² نفس المرجع والصفحة.

وتتطلب طريقا، كما في قوله يصف حياة والده وعمه:
- "إلى أن نبغا واكتملت شخصيتهما وشقا طريقهما على نحو ما أسلفنا
الحديث عنه" (ص 67).

وهي هنا طريق غير مجهزة وتتطلب جهدا، وهو ما يدل عليه الفعل "شَقًّا".
وكما يقول متحدثا هذه المرة عن طريقه:
- "مهما يكن فإن هذا التوجه أو بالأحرى "حب ذلك الحب" كان عندي نبراساً
يضيء لي الطريق، ويفتح لي آفاق المستقبل، ويساعدني على بلورة الرؤية" (ص 10).
ومعلوم أن الطريقَ تتضمن اتجاهات، وهو ما يمكن الوقوف عليه في هذا
النص:

- "ولست أشك في أن هذه الدراسة المنزلية المتينة هي التي شجعتني في
سنة 1956م فور إعلان استقلال المغرب، على أن أغير اتجاه تعليمي من الفرنسية
إلى العربية، وأنا يومئذ في قسم البكالوريا بالثانوية اليوسفية، وعلى أن
أستسمح الوالد في أن أرحل إلى القاهرة لإتمام دراستي العليا. وقد قبل على
مضض ليس بسبب تحويل الاتجاه، ولكن بسبب ظروف الصحة التي كانت
تقلقه باستمرار" (ص 79).

حيث يتحدث الجراي عن الاتجاه التعليمي وعن تغيير الاتجاه وتحويله،
وهو ما تعبر عنه استعارة الاختيارات في الحياة منعطفات.

كما يشير إلى رفقة طريقه، حيث يذكر زوجته قائلاً:
- "حاولت أن أعرض أهم مكونات هذه السيرة ومقوماتها وما واكبها من
انعكاسات وإكراهات، على امتداد فترات كانت فيها إلى جانبي زوجتي التي
رافقتني فيها بحلوها ومرها، وباليسير والعسير" (ص 137).

فالزوجة هي رفيقة طريقه ورحلته، وقد اختار نوعا معيناً من السير؛ هو
السير بجانب وليس السير أمام ولا خلف، وهو تعبير دال، بالنظر إلى مشاق الطريق
التي تجعل المسافرين عادة يتقدمون أو يتخلفون عن بعضهم البعض.

ويمكن الإشارة هنا إلى استعارة وثيقة الصلة باستعارة الحياة رحلة هي استعارة الحب رحلة والزواج رحلة، وقد سبق أن أشار إلى هذا الترابط لايكوف وجونسون (1999: 111)، وتتميز الرحلة في الاستعارة الثانية بأنها تتضمن شخصين وليس شخصا واحدا فقط، حيث يصبح الهدف من الرحلة هدفا مشتركا بين الطرفين. وبعبارة أخرى "ليست الحياة الفردية وحدها رحلة، فحياة الأزواج معاً يُفترض فيها أيضاً أن تكون رحلة ولها غايات وأهداف مُشتركة" (لايكوف وجونسون 1999: 111).

وتفترض هذه الرحلة الثنائية التشارك أيضا في عقبات الطريق، وهو ما يعبر عنه النص التالي:

– "أود أن أحمد عِز وجل على أن رزقنا من الصبر والثبات ما جعلنا -أنا وحميدة- نتحمل ما كنت أصادفه من تحديات سواء فيما يتعلق بمسيرتي الدراسية أو الوظيفية، مما جعلنا نجتاز أزمات وظروفاً صعبة، لولا ما ذكرت من صبر وثبات، ما كان يكتب لنا أن نستحضر اليوم مرور ستين عاماً لم تكن خالية من مشاكل كان يمكن أن تعصف بهذه الأسرة وما رزقنا الله فيها من نعم واستمرار لهذه النعم. ولا أخفي أن جل تلك المشاكل لم تكن نابعة من طبيعة حياتنا الزوجية وما يحكمها من علاقات، ولكنها كانت خارجية أو شبه خارجية كانت العناية الإلهية ترزقنا من الصبر والحكمة ما يجعلنا نتجاوزها، على الرغم من الأثر الأليم الذي قد يبقى منها في النفس" (ص 149، 150).

حيث يستعمل ضمير المتكلم للجمع: "رزقنا"، "جعلنا"، "نتحمل"، "نجتاز"، "لنا"، "نستحضر"، "رزقنا"، "حياتنا الزوجية"، "ترزقنا"، "يجعلنا"، "نتجاوزها"، مَبِيناً مَرَجَعَهُ حين يعترض بالقول: "-أنا وحميدة-" وهو يَذْكُر التحديات والأزمات والظروف الصعبة والمشاكل الخارجية.

كما يتحدث عن خطى الطريق، حيث يقول في سياق حديثه عن حياة زوجته:

- "قد أمكنها تحقيق ما رغبت أو كانت ترغب في إنجازه منذ خطواتها الأولى في الحياة، لإدراك ما كانت تسعى به إلى النجاح والسعادة" (ص 143).

ويستعمل صاحب السيرة استعارة الأهداف وجهات، بالإضافة إلى استعارة صعوبات الحياة عراقيل للسفر حين يتحدث عن مشاق السير في قوله:

- "وكننت أرى أن الزهد فيما سوى ما يدرك به هذا الهدف هو أحد مفاتيح إدراكه؛ ومعه الصبر على تحمل المشاق كالتي عانيت بها صحيحاً وفي حياتي الدراسية والوظيفية على ما كان فيها من تنقل - والتي كان الوالد يهونها عليّ وعلى نفسه" (ص 9).
أكثر من حياة وأكثر من رحلة

يتحدث الجراي عن رحلات مختلفة في حياته وليس فقط عن رحلة واحدة، صحيح أن هناك رحلة واحدة أساسية لكن يبدو أن داخل هذه الرحلة الإطار رحلات أخرى؛ حيث هناك بالأساس رحلتان يعبر عنهما بالمسيرة الدراسية والمسيرة الوظيفية.

يميز صاحب السيرة بين حياته الدراسية وحياته الوظيفية وهو ما يتضح من خلال وضعهما ضمن فصلين مستقلين هما: الفصل الخامس: "مراحل تكويني وتحولاتي الدراسية"، والفصل السادس: "مسيرتي الوظيفية"، حيث يقول:

- "راودتني فكرة العودة إلى القاهرة لمواصلة مسيرتي الدراسية" (ص 100).

ويقول أيضاً في موضع آخر:

- "وبذلك بدأت مرحلة حافلة وحاسمة في حياتي العلمية والوظيفية، والخاصة كذلك ليس هذا الفصل - كما سأبين بعد - مجالاً للحديث عنها وعمّا عانيت فيها من تحديات" (ص 110).

حيث يضيف إلى حياته الدراسية والوظيفية حياته الخاصة.

ومن الاستعارات الأولية التي تدخل في إطار استعارة الحياة رحلة استعارة مقدمو النصح مرشدون، حيث يشير الجراي إلى مرشد رئيسي في حياته هو والده، حيث يقول في مقدمة سيرته:

– "وإني لأود منذ البدء في هذا التقديم، أن أشير إلى أن نشأتي في بيت علم ودين ووطنية، كان لها أكبر تأثير على مسيرة حياتي، وكان لي فيها الوالد رحمه الله هو القدوة والمثال. تضاف إليها حالتي الصحية التي جعلتني تلقائياً ومنذ طفولتي الأولى أصرف النظر عن كل ما يتعارض مع سلامتها، أو ما يبعدني عن اتباع القدوة وتحقيق المثال" (ص 8، 9).

ويقول في الفصل الرابع:

– "على أنني طوال هذه السنوات التي قضيتها بالخارج، لم أتوقف عن مراسلته رحمه الله؛ وقد كانت رسائله لي مليئة بالفوائد العلمية والأدبية والإرشادات التوجيهية" (ص 80).

ويقول في نفس الفصل أيضاً:

– "على هذا النسق عني رحمة الله عليه بتكوين أبنائه وتثقيفهم، في توجيه سلوكي مستمر [...] وكان في توجيهاته يركز على هذا الجانب ويطرحه في إطار تحد مستمر" (ص 80، 81).

وبالإضافة إلى هذه الرحلة الفردية أو الرحلة الشنائية (مع زوجته) هناك رحلة جماعية يعبر عنها الجراري حين يقول:

– "ثم إن هذا التراث الذي نفخر به ونعتز، لما يمثله لنا من ماض مجيد وتاريخ حافل في الحضارة والثقافة، نشعر به اليوم يثقل كاهلنا ويعوق مسيرتنا [...] فنأخذ منهما ما يلزم مسيرتنا المعاصرة" (ص 164).

وهو ما ينسجم مع هدفه من كتابة هذه السيرة التي لا يريد منها فقط أن تكتب تاريخه الشخصي ولكن أيضاً وبالأساس حقائق تاريخية وطنية. هكذا، نجد أن صاحب السيرة يتخذ من الرحلة تصوراً أساسياً لفهم الحياة والتعبير عنها، وهو ما تدل عليه مختلف الاستعمالات الاستعارية السابقة.

2. استعارة البحث العلمي مشروع بناء

يستدعي الحديث عن استعارة البحث العلمي مشروع بناء استعارة أخرى تناولتها الأدبيات اللسانية المعرفية بشكل واسع هي النظريات والاستدلالات

بنايات التي أورد أمثلتها لايكوف وجونسون في الاستعارات التي نجيا بها (1980)، كما تناولها مجموعة من الباحثين منهم غرايدي الذي تحدث عن استعارة أعم هي استعارة التنظيم بنية فيزيائية (غرايدي 1997، لايكوف وجونسون 1999).

ويمكننا صياغة الترابطات بين البحث العلمي ومشروع البناء كما يلي:
- الأفكار التي ينبني عليها البحث العلمي هي الأسس التي يقوم عليها البناء.

- صاحب البحث العلمي مهندس معماري.
 - التخطيط الذي يضعه الباحث لبحثه العلمي هو تصميم البناء للمهندس.
 - الزمن الذي يتطلبه إنجاز البحث العلمي هو زمن إقامة البناء.
 - البحث العلمي الهام هو بناء ضخ.
 - التراكم المنظم للبحث العلمي هو البنية الفيزيائية للبناء.
 - ما يحتاج إليه الباحث لإنجاز مشروعه هو أدوات ومواد البناء.
- يتحدث صاحب السيرة عن حياته العلمية باعتبارها مشروعاً وذلك انطلاقاً من عنوان الجزء الأول من سيرته الذاتية: "النشأة والمشروع".
- ويتكرر هذا خلال السيرة، كما في قوله:

- "وقد بينت في مبحث مسيرتي الوظيفية كيف كانت هذه نقطة أولى في هذه المسيرة، أتاحت لي التفرغ لإقامة مشروع وبنائه" (ص 11).

حيث تتضمن الجملة فعل "الإقامة" و"البناء".

ويميز بين مشروعه الفكري والعلمي الجامعي قائلاً:

- "وكننت قضيت تلك السنوات في بلورة مشروع فكري عامة، والعلمي الجامعي خاصة" (ص 15).

ويقوم هذا البناء على أسس، حيث نجد قوله:

- "وعلى الأسس نفسها بنيت اتجاهي الثقافي" (ص 164).

- "ولكن لأنني وجدتها -كذلك- نابعة من الرؤية نفسها التي بنيت عليها مشروع عي العلي، وما ارتأيت له من منهج يرتكز على العناية بالبحث الإقليمي في مختلف المجالات" (ص 206).

كما يحتاج هذا المشروع العلي إلى أدوات ومتطلبات، حيث يقول:
- "فقد كنت في سياق مشروع عي العلي والثقافي أستكمل مختلف أدواته" (ص 11).
- "ولا أخفي أنني كنت مقتنعا بمقتضيات المشروع ومتطلباته [...] وأنا أوصل بناء هذا المشروع" (ص 12).

ويحتاج إلى مواد، حيث يشير إلى "اللبنات" قائلا:
- "وفي إطار هذه الرؤية كنت خططت لمشروع عي، بدأت وضع لبناته التنفيذية الأولى منذ قدمت استقالتني من العمل الدبلوماسي" (ص 10).
ويتضمن هذا النص أيضا استعارة التخطيط للبحث تصميم بناء.

ومن شأن هذا المشروع العلي أن ينمو ويتسع:
- "كنت أشعر بمشروع عي ينمو ويتسع" (ص 11).
بناء على هذا، نستنتج أن استعارة البحث العلي مشروع بناء تشغل حيزا هاما داخل السيرة؛ إذ تعرف تكرارا وتنويعات دالة على أهمية البحث العلي ومركزيته بالنسبة لصاحب السيرة، وهو ما ينسجم مع الهوية العلمية للجراي ولقب عميد الأدب المغربي.

خاتمة

عرفت نظرية الاستعارة التصورية تطبيقا واسعا في مجالات مختلفة شملت خطاب اللغة اليومية، والخطاب الديني، والشعري، والسياسي، والسردى وغيرها، وقد حاولنا في هذا المقال تسليط الضوء على الاستعارة في السيرة الذاتية.
بناء على ما سبق، تمثل استعارة الحياة رحلة استعارة أساسية في السيرة الذاتية للأستاذ عباس الجراي، حيث تتكرر نماذجها وتخضع لتنويعات عدة

تستجيب للتحليلات المعرفية التي وضعها مجموعة من الباحثين بخصوص هذه الاستعارة كأعمال لايكوف وجونسون على وجه الخصوص، وهو ما تناولناه في المحور الأول من المقال. ويعزز هذا التحليل فرضية هيمنة استعارة الحياة رحلة على خطاب السيرة الذاتية بشكل عام.

وبالإضافة إلى هذه الاستعارة، تمثل استعارة البحث العلمي مشروع بناء استعارة هامة أيضا في هذه السيرة كما يظهر ذلك من خلال المعطيات الخاصة بالمحور الثاني من المقال، وهي استعارة وثيقة الصلة بالهوية الثقافية للجراري. لقد اقتصرنا في هذا المقال على الوقوف عند هذين النموذجين للاستعارة نظرا لمركزيتهما بالنسبة لهذا الجزء من السيرة، وهو الأمر الذي يدل عليه حضورهما انطلاقا من العنوان كما مر بنا. ولعل الجزء الثاني القادم من السيرة يمنح بدوره حيزا لهاتين الاستعارتين أو على العكس من ذلك يفسح المجال لتوظيف استعارات أخرى.

* * *

المراجع المعتمدة

بالعربية

- ابن منظور. 1990. *لسان العرب*. بيروت: دار صادر.
- الجراري، عباس. 2020. *رحيق العمر موجز سيرتي الذاتية ج. 1* النشأة والمشروع. منشورات النادي الجراي رقم 101. الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر.
- لايكوف، جورج وجونسون. 2016. *الفلسفة في الجسد: الذهن الممتجسد وتحديه للفكر الغربي*. ترجمة عبد المجيد جحفة. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة.
- لايكوف، جورج ومارك جونسون. 2009. *الاستعارات التي نحيا بها*. ترجمة عبد المجيد جحفة. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.
- المعجم الوسيط. 1972. مجمع اللغة العربية.

بالإنجليزية

- Grady, Joseph E. 1997. THEORIES ARE BUILDINGS revisited. *Cognitive Linguistics* 8(4), 267–290.
- Kövecses, Zoltán. 2017. Conceptual Metaphor Theory. In Elena Semino & Zsófia Demjén (eds.), *The Routledge Handbook of Metaphor and Language*. Abingdon, Oxon: Routledge.
- Kövecses, Zoltán. 2020. *Extended Conceptual Metaphor Theory*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Lakoff, George and Mark Johnson. 1980. *Metaphors we live by*. London: the university of Chicago press.

Lakoff, George and Mark Johnson. 1999. *Philosophy in the flesh: the embodied mind and its challenge to western thought*. New York: Basic Books.

Lakoff, George and Mark Turner. 1989. *More than cool reason: a field Guide to Poetic Metaphor*. Chicago and London: University of Chicago Press.

Lakoff, George. 1993. The Contemporary Theory of Metaphor. In Andrew Ortony (ed.), *Metaphor and Thought*. Cambridge: Cambridge University Press.

* * *

الفهرس

9	د. محمد احميدة	تقديم
17	د. محمد اليملاحي	السلطة العلمية والسلطة السياسية
43	د. مصطفى الجوهري	تأملات في سيرة الأستاذ عباس الجراري
57	د. ابراهيم المزدلي	مقاربة في سيرة إنسان بعقب الرحيق
111	د. نورة لغزاري	رحيق العمر موجز سيرتي الذاتية للدكتور عباس الجراري
159	د. عبد العالي بوطيب	اللسع المر... في رحيق العمر: الكشف عن الجراح
173	د. فاطمة كدو	الحكي عن الذات بين التوثيق والسرد الانتقائي
193	د. محمد بلبول	في "رحيق العمر"
211	د. محمد احميدة	حضور الكاتب في الكتابة: قراءة في
247	د. محمد الوهابي	(رحيق العمر) للدكتور عباس الجراري
271	د. أحمد زنيبر	رحيق العمر: من سرد الذات إلى سرد الآخر
289	د. هشام موساوي	"النشأة وبناء الذات الجماعية" في سيرة
313	خلود بناصر	"السي" عباس الجراري
		هوامش على سيرة "رحيق العمر: النشأة والمشروع"
		قراءة للمكان في «رحيق العمر»
		البوح المعقلن قراءة في كتاب: «رحيق العمر:
		موجز سيرتي الذاتية» للدكتور عباس الجراري
		سيرة الذات والكتابة في "رحيق العمر" لعباس الجراري
		عقب الثقافة في "رحيق العمر" بين النشأة والمشروع
		الاستعارة في السيرة الذاتية
		للأستاذ عباس الجراري من منظور معرفي